محمد قطب

ركائز الإيمان

دار الشروق

ركائز الإيمان

طبعة الشروق الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله.

وبعد، فقد جاء فى الحديث الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرنى عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: أخبرنى عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. .» الحديث. أخرجه مسلم.

تلك من حقائق الدين التى يتعين على كل مسلم أن يعلمها ليقوم بها على وجهها الصحيح. وما تزال أجيال من المسلمين بعد أجيال تتعلم هذه الحقائق لتتعرف على الطريقة الصحيحة لعبادة الله جل وعلا، وهو القائل سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

وحقائق الإسلام ثابتة لا تتغير منذ أنزلت على رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، المرجع فيها هو كتاب الله المنزل، وسنة رسوله ﷺ ، ولكن علماء الأمة

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

في كل جيل يتناولونها بالشرح والتفسير من خلال الواقع الذى يعيشه كل جيل، وما جدّ فيه من نوازل، وما حدث فـيه من انحراف فى الفهم أو السلوك، لكى تظل فى حس الأجيال كلها على وضوحها واستقامتها لا يعتريها غبش ولا انحراف.

وإن جيلنا الذى نعيش فيه لهو من أحـوج الأجيال إلى التعرف على حقائق دينه، بسبب الغربة التى ألمت بالإسلام فى قلوب أهله، تلك الغـربة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ ـ بما أوحى إليه ربه ـ فـقال عليه الصلاة والسلام: «بدأ الإسـلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»(١).

وهذا الكتـاب الذى بين يدى القـارئ يتناول ركائـز الإيمان المذكورة فى الحـديث المشار إليه آنفًا، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتـبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وقد راعيت فى هذا الكتاب أن تكون عبارته مـبسطة قدر الطاقة، وأن أعقد صلة وثيقـة بين القارئ وبين كـتاب الله، المرجع الأول الذى نسـتقى منه حـقائق الدين. فأذكـر فى كل مسألة دلـيلاً أو دليلين من كتـاب الله، مشروحـين مفسـرين بما يبرز الدلالة المستـخرجة منهما، ثم أورد نـصوصا أخرى من كتـاب الله أترك للقارئ أن يتمـلاها ويتدبرها بنفسه، ليـستخرج دلالتـها على ضوء ما قـدمت له من النصوص المشروحـة، ليتـعود القارئ أن يتـدبر آيات الله عند تلاوتها، فـقد أمرنًا بـالتدبر مع التلاوة. قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(٣).

وبعـد، فأرجـو أن أكون قـد وُفـقت إلى شىء مما قصـدت إليـه من تأليف هذا الكتاب.. ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(٤).

محمد قطب

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) سورة النساء: ٨٢.
(٣) سورة ص: ٢٩.
(٤) سورة هود: ٨٨.

الباب الأول

الإيمان بالله تعالى

- أصول العقيدة الإسلامية.
- الدين والفطرة.
- طريقة القرآن فى هداية النفس البشرية.
- تيقظ الإيمان المركوز بالفطرة وقت الشدة.
- القرآن يتولى الرد على دعاوى المبطلين.
- تثبيت الإيمان.
- تحكيم شريعة الله.
- الإيمان بأسماء الله وصفاته.
- الانحراف عن الإيمان والتوحيد.
- الشرك أسبابه ودوافعه وآثاره.
- الإلحاد وآثاره فى واقع البشرية المعاصر.

الباب الأول
الإيمـان باللــه

الإسلام بمعناه العام هو إسلام الوجه لله والخلوص من الشرك وأهله، أى التوجُّه الكامل إلى الله، والخضوع الكامل لأوامر الله.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

ويقول: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٥].

وإسلام الوجه لله، بمعنى إسلام النفس كلها لله، هو الأمر الذى يطلبه الله من البشر كافَّة بما أنه هو خالقهم سبحانه وخالق هذا الكون كله والمتصرف فيه وحده. فهو حق الإله على الخلق، وهو كذلك مقتضى عبودية الخلق لربهم وخالقهم.

وهذا الإسلام هو الذى كان عليه آدم ونوح والنبيون من بعده إلى محمد ﷺ، حيث كان الاعتقاد واحدًا وإن اختلفت الشرائع فى الأحكام الفرعية؛ وكان عليه كذلك كل من اتبع الأنبياء منذ مولد البشرية.

جاء فى القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

وجاء على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

ويقول الله عن التوارة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

ويقول عن يعقوب وبنيه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وجاء على لسان يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فالإسلام بهذا المعنى العام هو دين الأنبياء جميعًا ودين المؤمنين بالله ورسله من لدن آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكنَّ الله تفضَّل على أمَّة محمد ﷺ فخصَّها باسم «الأمَّة المسلمة» وباسم «المسلمين»، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد تحقق معنى الإسلام فى هذه الأمة بأكثر مما تحقق فى أىّ أمة من قبل حتى استحقت أن يصفها الله بقوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والآن فلننظر فى عقيدة هذه الأمة التى رفعتها إلى هذه المنزلة السامية والتى استحقّت عليها هذا التكريم الربانى، بأن يكون اسمها الأمَّة المسلمة، وأن تكون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

* * *

أصول العقيدة الإسلامية

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرنى عن الإسلام، قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً». قال: صدقت. فعجبنا له: يسأله ويصدقه! قال: فأخبرنى عن الإيمان. قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: أخبرنى عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرنى عن الساعة. قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرنى عن أمارتها. قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان».

قال: ثم انطلق فلبثت مليّا، ثم قال لى: «ياعمر! أتدرى مَنِ السّائل؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم»[1].

فيتبين من هذا الحديث أن هُناك أصولاً ستة للعقيدة الإسلامية.

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ الإيمان بالملائكة.

٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية.

٤ ـ الإيمان بالرُّسُل.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر.

٦ ـ الإيمان بالقضاء والقَدر.

والإيمان بالله هو موضوع حديثنا فى هذا الباب. ولكنا نعرض عرضًا موجزًا لهذه الأصول الستة لكى نتبين المقصود من كل منها:

---

(١) رواه مسلم.

(١) فالإيمان بالله يعنى الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى وبوحدانيته فى الألوهية والربوبية والأسماء والصفات التى وصف بها نفسه فى القرآن الكريم، أو وصفه بها رسوله ﷺ .

(٢) والإيمان بالملائكة يتضمَّن الإيمان بوجودهم، وبأنهم خَلْقٌ من خلقِ الله، يعبدونه سبحانه وتعالى، ولا يفترون عن عبادته ليلاً ونهاراً، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وأن لهم أعمالاً كلفهم الله بها وهم يؤدّونها فى طاعة كاملة لله، ومن بينها التنزل بالوحى على رُسُل الله وأنبيائه، ومن بينها كتابة أعمال البشر وتسجيلها، ومن بينها التنزل على قلوب المؤمنين بالطمأنينة والبُشرى.. إلخ.

(٣) والإيمان بالكتب السماوية يتضمّن الإيمان بكل ما أنزل الله على رُسُله من الكتب بما فيها القرآن الكريم، وإن كانت الكتب السماوية السابقة كلها قد حُرِّفتْ إلا القرآن الكريم وحده حفظه الله وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(٤) والإيمان بالرُّسُل يقتضى الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى البشرية رُسُلاً متعددين، منهم من قصه الله على نبيّه محمد ﷺ فى القرآن، ومنهم من لم يقصصه عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

وأن هؤلاء الرُّسُل جميعًا قد أوحى الله إليهم أن يبشروا الناس وينذروهم. يبشروهم بالجنة لمن أطاع الله ورسله، وينذروهم بالنار لمن عصى الله ورسله، كما قال تعالى بعد الآيتين السابقتين: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وأنهم جميعًا جاءوا بكلمة واحدة تلقوها من عند الله وأمروا بتبليغها للناس، وهى كلمة (لا إله إلا الله)، والأمر بعبادته وحده دون شريك ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

(٥) **والإيمان باليـوم الآخر** معناه الإيمان بـالبعث بعد الموت، وأن الله يـبعث الناس جميعًا يوم القيامة ويحشرهم إليه، ويحاسبهم على كل شيء فعلوه فى الدنيا ثم يجزيهم به: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

كمـا يشمل الإيمان بالجنـة والنار وكل ما جاء فـى القرآن والحديث عن الـبعث والحشر والحساب والجزاء.

(٦) **والإيمان بالقضاء والقدر** يقتضى الإيمان بأن كل ما يحـدث للإنسان من خير أو شر هو مـقدر له: (وأن ما أصـابك لم يكن ليخطئك وأن مـا أخطأك لم يكن ليصيبك)، كما يقتضى الإيمان بالعدل الإلهى فيما يجرى به القضاء والقدر.

تلك هى الأصول الستة للعقيدة الإسلامية، وأولها وأعظمها الإيمان بالله، الذى سنفرد له الحديث فى هذا الباب.

* * *

الدين والفطرة

كل مولود يولد على الفطرة.

والفطرة بذاتها تتجه إلى الله، عالمة بوجوده سبحانه، ومؤمنة بأنه إله واحد لا يوجد فى الكون كله سواه.

كيف تهتدى الفطرة إلى خالقها؟

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا فى كتابه الكريم أنه حين خلق الخلق عرّفهم بنفسه، وبأنه جلّت قدرته هو ربهم الذى خلقهم، والذى ينبغى أن يدينوا له بالعبودية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والرسول الكريم ﷺ يخبرنا كذلك: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء [1]؟»، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] والحديث متفق عليه.

والحقيقة أن الفطرة البشرية تتيقظ لوجود الخالق فى سن مبكرة جدًا، أصغر بكثير مما نظن!

فنحن نظن عادة أن الشخص الكبير وحده هو الذى يتفكّر فى وجود الله سبحانه وتعالى وفى وحدانيته. ولكنا إذا لاحظنا حياة الطفل الصغير نجد أنه فى مرحلة معيَّنة من عمره يبدأ يسأل والديه أسئلة لا تنتهى:

من الذى عمل السماء؟ لماذا كانت السماء زرقاء؟ أين تذهب الشمس فى الليل؟ لماذا لا تظهر الشمس لنا فى الليل؟ أين يذهب النُّور حين يأتى الظلام؟ لماذا تلمع النجوم؟ أين تنتهى الأرض؟ لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة والزهرة الأخرى ليس لها رائحة؟ من أين جئت؟ أين كنت قبل أن أجىء؟ . . . إلخ.

فما معنى هذه الأسئلة فى الحقيقة وما دلالتها؟

---

(١) الجمعاء هى السليمة المكتملة الأعضاء. والجدعاء هى المقطوعة الأذن.

إن دلالتهـا الحقيقـية أن فطرة هذا الطفل قد بدأت تسـتيقظ، بدأت تتـعرف على خالق السـماوات والأرض من خلال مـخلوقاته المشـهودة المحسـوسة، بدأت رويدًا رويدًا تتعرَّف على حقيقة الألوهية التى أشـهدها الله عليها منذ خلقها، وبدأ إدراكها لها ينمو كما تنمو البذرة الكامنة فى باطن الأرض، حتى تترعرع وتخضر.

وأن هناك تأثيرات عـدة تقع على حس الإنسان فـتوقظه إلى حـقيقـة وجود الله ووحدانيته وتفرده.

• عوامل إيقاظ الحس على حقيقة وجود الله:

١ ـ الكون بضخامته الهائلة ودقته المعجزة لابُدَّ أن يوقظ الإنسان إلى هذه الحقيقة:

فهذه الأبعـاد الهائلة فى السمـاوات والأرض، وهذه الأجرام السماوية الضـخمة التى لا يحصيها العد. . . من أوجدها؟

إن الأرض ـ وهى جرم صغير جدًا بالنسبة لـلأجرام السماوية ـ تحتوى من الجبال والسهـول والمحيطات والبحار والأنهـار ما نستغـرق سنوات العمر كلها فى مـحاولة التعـرف عليه، ثم لا نستطيـع أن نتعرَّف إلا على جـزء يسير منه، فكيف ـ مـثلاً ـ بالمجموعة الشمسية التى تكون أرضنا جزءًا مـنها؟ وكيف بالمجرة التى تُعد مجموعتنا الشمـسية جـزءًا ضئيلاً منـها، وكيف بالكتل السـماوية الأخرى التى تشـمل ملايين وملايين من مثل مجرتنا؟ وملايين وملايين النجوم التى تُعـد شمسنا صغيرة بالقياس إليها؟!

والكون مع ضخـامته هذه دقيق دقَّـة معجزة. . فالليـل والنهار يتعاقـبان فى دقة متناهية إلى حد أننا نضبط ساعاتنا عليهـا! والحقيقة أن الكون كله مضبوط فى دورته الفلكية لدرجـة أن ساعات المراصد ـ التى هى أدق السـاعات التى بين أيدينا، والتى نضبط عـليهـا ساعـات الإذاعة وغيـرها، والتى تقيس الوقت بجـزء على ألف من الثـانية ـ هى ذاتهـا تُضبط على دورة الفلك المـتناهية فى الدقـة، والتى لا تضطرب دورتها على مر العصور والأجيال، إلى أن يشاء الله. . .

ثم إن كل كائن من الكائنات التى خلقها الله يتسم بهذه الدقة المعجزة سواء أكان من الكائنات الحية أم الكائنات الجامدة.

هل رأيت إلى الخلية الحية الدقيقة المتناهية فى الصغر حتى إنها لا تُرى إلا بالمجهر؟ ومع ذلك فهى تنمو وتنقسم وتقوم بمهام عجيبة غاية فى العجب، يقف الإنسان إزاءها حائراً، خاشعًا أمام قدرة الله. فمن الذى أودعها سرّ الحياة؟ ومن الذى هداها لهذا النشاط العجيب الذى تقوم به إلا الله سبحانه وتعالى؟!

إن الجرثومة لا يمكن أن تُرى بالعين، ومنها نوع دقيق يسمى «الفيروس» لا يرى حتى بالمجهر العادى، ومع ذلك فأنت تعرف مما درست فى العلوم أنها يمكن أن تصيب الإنسان بأفتك الأمراض ما لم يتحصّن ضدّها بالأدوية أو الأمصال.

والكائن المتعدد الخلايا ـ وفى قمته الإنسان ـ يكون فى منشئه خلية واحدة ملقّحة، ثم تظل تنقسم وتنمو حتى تصبح كائنًا مُتكاملاً. فأى قدرة تمنحه الحياة والحركة والنشاط غير قدرة الله؟

وإنّ أعجب ما فى عملية الانقسام هذه أن الخلايا تكون كلها متماثلة ـ لظاهر العين ـ فى نشأتها الأولى، ثم يصدر إليها الأمر فتتخصص وتتشكل بشكل معين؛ فخلية تتجه إلى مكان معين وتصبح أذنًا أو جزءًا من أذن. وخلية تتجه إلى مكان آخر فتصبح عينًا أو جزءًا من عين. وثالثة تصبح خلية من خلايا المخ. ورابعة تتحول إلى عظام. . وهكذا. فأى أمر هذا الذى صدر إليها فأطاعته ونفذته بهذه الدقة العجيبة وهى شىء لا يكاد يُرى بالعين؟ إنه أمر الله الخالق المبدع. يأمرها فتطيع، وتتحرك بمقتضى مشيئته سبحانه فتتكون كما أرادها الله، وتقوم بالدور الذى أراده لها الله.

وهل رأيت إلى تلك الزهرة الجميلة ذات الرائحة العطرة والألوان المتعددة المتداخلة؟

من الذى أودع فيها هذا العطر؟ وكيف تجمعت فيها تلك الألوان؟

ترى لو حاولت أنت أن تُعطر زهرة واحدة عطرًا يفوح من الصباح إلى المساء دون أن يتبدد ويضيع، ولو حاولت أن تلون بكل ما لديك من ألوان زهرة واحدة بحيث تبقى ألوانها ما بقيت الزهرة، فكم يكلفك ذلك من الجهد؟ وإلى أى مدى تنجح محاولتك؟

ولو أن كل البشر على ظهر الأرض شغلوا أنفسهم بهذه المهمة بالنسبة لكل

الزهور النابتة على سطح الأرض أو فى جوف البحر. فهل يستطيعون؟ وإن استطاعوا فكم يبقى من وقتهم وجهدهم ليقوموا بغير ذلك من الأعمال؟

ولكن الزهرة - وملايين الزهور فى الأرض - تخرج هكذا معطرة ملونة بهيجة المنظر من عند الله، بغير جهد على الإطلاق! ودون أن يشغله هذا الأمر سبحانه عن تدبير الكون الهائل العريض كله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ[1] حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

لأنه سبحانه يقول للشىء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٢ - ظاهرة الموت والحياة كذلك تلفت حسّ الإنسان إلى قدرة الله المعجزة التى تحيى وتميت.

فما الحياة فى حقيقتها؟ إنها سر معجز لا يعلم أحد كنهه ولا يستطيع تفسيره. وكل ما حاوله البشر حتى اليوم هو تفسير بعض ظواهر الحياة من حركة ونمو ووظائف مختلفة تقوم بها الأعضاء. أما الحياة ذاتها: فما هى؟ وكيف توجد فى الكائن الحى؟ ثم كيف توجهه إلى أداء وظائفه التى يقوم بها؟ هذا كله سر مبهم لا يقدر البشر على إداركه. وعبثًا حاول البشر - بكل علمائهم، وبكل ما لديهم من علم - أن يخلقوا خلية واحدة، واحدة فقط، من بلايين البلايين من الخلايا الحية التى يزخر بها الخلق الربانى، والتى أوجدها الله بعلمه وقدرته دون شريك.

٣ - الرزق الجارى على الإنسان، سواء فى صورة مطر هاطل من السماء، أو زرع نابت من الأرض، أو أسماك وطيور وحيوان، أو كنوز ومعادن فى باطن الأرض، أو هواء يتنفسه، أو ريح تُجرى سفنه فى البحر، أو طاقات تدير آلاته كطاقة البخار أو طاقة الكهرباء أو طاقة الذرة أو طاقة الوقود أو طاقة الماء المنحدر من المرتفعات.. كل ذلك من يجريه إلا الله؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

٤ - الأحداث التى تجرى فى الكون وفى حياة الإنسان، من فرح وحزن، وضحك وبكاء، وفقر وغنى، وصحة ومرض، وموتى يموتون، ومواليد يولدون فى كل

---

(١) أى لا يتعب سبحانه من حفظهما.

لحظة من لحظات الليل والنهار. . . من ذا الذى يحدثها ويرتبها ويدبرها إلا الله مدبر كل شىء فى هذا الكون؟!

٥ ـ **الغيب المجهول الذى لا يعلمه إلا الله** يتشوف[١] الإنسان لمعرفته فلا يستطيع مهما حاول، ويريد أن يعرف كيف ستكون حياته فى المستقبل. بل يريد أن يعرف ماذا يكون نصيبه فى العام المقبل. بل يريد أن يعرف ما يحدث بعد شهر أو أسبوع أو يوم. . . بل يريد أن يعرف ماذا يحدث بعد ساعة من الزمان بل بعد لحظة واحدة من الزمن المقبل، لا يستطيع أن يعرف ما وراءها، وما تجلبه إليه من خير أو شر. . . فمن ذا الذى يعلم ذلك الغيب المجهول كله علم شمول وإحاطة واطلاع إلا الله وحده الذى يخلق كل شىء ويعلمه، ولا يند عن علمه شىء فى السماوات ولا فى الأرض؟!

وكثير من الأمور وكثير، يلقى تأثيره على القلب البشرى فيستيقظ لحقيقة الألوهية. يعرف أن الله موجود، وأنه واحد لا شريك له، وأنه سبحانه متفرد بالكمال والقدرة، وبالجلال والعظمة، وبالسلطان الذى لا تحده حدود. فيكون على الفطرة السوية، ويكون كما خلقه الله فى أحسن تقويم: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين: ٤].

ويكون مهتديًا مؤمنًا، مَرْضيًا عنه فى السماوات والأرض، عمره فى الأرض مبارك بالأعمال الصالحة، وله فى الدار الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض، ورضوان من الله أكبر.

ولكن الفطرة تمرض أحيانًا وتنتكس فيصبح الإنسان أسفل سافلين: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥**[٢] **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [التين: ٤ ـ ٦].

يتبلد الحس أحيانًا فينسى آيات الإعجاز فى الكون والحياة. ينسى القدرة المعجزة التى تجرى الرزق وتجرى الأحداث وتشمل بعلمها الغيب.

---

(١) أى يتطلع بشدة وبتشوق.
(٢) أى حين يكفر بالله ويحيد عن الطريق المستقيم.

- **أسباب تبلد الحس عند الإنسان:**

١ ـ تكرار المشهد: إن الإنسان حين يمر بتجربة جديدة يكون متفتحًا لها بكل حواسه. فإذا رأى مشهدًا لأول مرة، أو سمع شيئًا جديدًا لأول مرة، أو ذهب إلى مدينة جديدة أو شارع أو مسكن جديد، فإنه يكون منتبهًا بكل حواسه، يريد أن يتعرف على تفصيلات الشيء الجديد، ويكون له فى نفسه وقع بالغ لأنه جديد عليه. ولكنه حين يألف المشهد أو المكان، وتتكرر رؤيته له، فإن حواسه تمر عليه بغير انتباه كبير، بل قد تمر عليه بغير انتباه على الإطلاق!

وكذلك يفعل الإنسان أحيانًا مع الله! ينسى أنه الخالق وأنه المدبر وأنه الرازق وأنه المحيى والمميت!

ويمر بهذا الكون فلا يلتفت إلى شيء من الآيات فيه!

لا يلتفت إلى الشمس البازغة، ولا إلى النور حين يدبر ويبتلعه الظلام!

لا يلتفت إلى الزهرة الجميلة المعطرة البهيجة الألوان!

لا يلتفت إلى صوت الطائر الرقيق الذى يغنى مرفرفًا بجناحيه فوق الغصن!

لا يلتفت إلى الماء الهاطل من السحاب، ولا إلى الرعد والبرق فى السماء!

لا يلتفت إلى الطفل الذى ولد ولا الإنسان الذى مات!

لا يلتفت إلى عجزه المطلق إزاء قدرة الله!

٢ ـ **أو يتبلَّد حسّه أحيانًا لسبب آخر؛ لأنه مشغول بطعامه وشرابه وشهواته،** مشغول بمتاع الدنيا القريب، فيلهيه ذلك المتاع عن التدبر فى آيات الكون والتقرب إلى خالق الكون والحياة، ويلهيه عن ذكر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب.

٣ ـ **أو يتبلَّد حسّه لأنه لا يريد أن يلتزم بأوامر الله،** يريد أن يطغى فى الأرض ويتبع هواه، يريد أن يتجاوز الحلال الذى أحله الله لأن فى نفسه شراهة لا تقنع بما أحله الله. أو يريد أن يسيطر على الآخرين ويستعبدهم لأهوائه فيعتدى على أموالهم، أو أعراضهم أو دمائهم بغير حق، ويريد أن يكون إلهًا فى الأرض يُطاع من دون الله.

٤ ـ أو يتبلّد حسّه لأن فى نفسه كبرًا يستكبر به على عبادة الله.

٥ ـ أو يتبلّد حسّه لأنه مفتون بما بين يديه، مفتون بعقله أو بجسمه أو بماله أو بأى شيء مما حباه الله إياه، فيعتقد أنه من عند نفسه، وينسى أنه من عند الله!

يتبلّد الحسّ وتمرض النفس لسبب من هذه الأسباب، أو لغيرها مما يلم بالنفس من انتكاسات وانحرافات، فتنسى الله النسيان كله، أو تشرك به سواه، وتتوهم أن أحدًا أو شيئًا ما فى هذا الكون كله له شأن مع الله!

عندئذ لا يعود الإنسان كما خلقه الله على الفطرة السوية فى أحسن تقويم، وإنما يصبح أسفل سافلين، فيتملكه الشيطان يصرّف شئونه بعيدًا عن الهداية الربانية، وبعيدًا عن رضوان الله (١).

ولكن الله ـ من رحمته بعباده ـ لا يتركهم هكذا بغير هداية، بل يرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى الهدى ويعيدونهم إلى الحق.

ولقد أرسل الله محمدًا ﷺ ليكون خاتم النبيين، ويكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة إلى يوم القيامة. وأنزل عليه القرآن الكريم يهدى للتى هى أقوم، وتكفل سبحانه بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وجعله شاملاً لكل ما يردّ الفطرة إلى سلامتها، وينفى عنها خبثها وأمراضها، ويدلها على حقيقة الألوهية، ويعرفها بالله الحق، خالق الكون ومدبره، ومالك الأمر كله بغير شريك.

والآن، فلنعرض طريقة القرآن فى هداية النفس البشرية، وردها عما تنحرف إليه من شتى الضلالات.

* * *

---

(١) روى مسلم: حدثنى أبو غسان المسمعى ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار بن عثمان (واللفظ لأبى غسان وابن المثنى) قالا: حدثنا معاذ بن هشام: حدثنى أبى عن قتادة عن مطرف بن عبدالله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعى، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته: «ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا: كل مال نحلته عبدًا، حلال. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا...».

طريقة القرآن فى هداية النفس البشرية
وردها عن شتى الضلالات

إذا تدبرنا القرآن الكريم - وبصفة خاصة ما يتناول موضوع العقيدة - نجد أن القرآن يستخدم وسائل شتى وأساليب متنوعة لتوضيح العقيدة السليمة وتصحيح الانحرافات التى يقع فيها الناس حين تستولى عليهم الجاهلية وتبعدهم عن الهدى الربانى، ثم لتثبيت هذه العقيدة وتعميق أثرها فى النفس.

ومن هذه الوسائل:

١ - إثارة الوجدان لتدبر آيات الله فى الكون، وإزالة التبلد الذى يقع فى حس الإنسان من المشاهد المكرورة. وذلك يشمل الحديث عن الكون بضخامته الهائلة ودقته المعجزة، وظاهرة الموت والحياة، وإجراء الرزق، وإجراء الأحداث، وقدرة الله التى لا تحد، وعلم الله الشامل للغيب، كل ذلك بطريقة فذة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلها كأنه يراها ويلاحظها لأول مرة، فينفعل بها وجدانه، ويستيقظ لحقيقة الألوهية.

٢ - إثارة العقل ليتفكر فى خلق الله، ليدرك أن لهذا الكون خالقًا، وأنه لا يمكن أن يكون له شريك فى الخلق ولا فى الرزق ولا فى تدبير الأمر. وهذا يشمل كل الإشارت السابقة ولكن بطريق آخر غير إثارة الوجدان والانفعال. هو طريق التفكير والتدبر المنطقى. وإن كان يلاحظ أن الطريقتين كثيرًا ما تقترنان معًا فى آيات كثيرة من آيات القرآن، فيخاطب الوجدان ويخاطب العقل فى آن واحد.

٣ - مواجهة الإنسان بحقيقة ما يدور فى داخل نفسه وقت الشدة من اللجوء إلى الله ونسيان الشركاء، ومن الغفلة والنسيان والبغى فى الأرض بغير الحق بمجرد زوال الأزمة ونجاته من الخطر. وهى حقيقة كثيرًا ما ينساها الإنسان فيذكره القرآن بها ليصحح سلوكه تجاه الله، ويستقيم على العقيدة السليمة.

٤ - مناقشة الانحرافات كلها التى يقع فيها الجاهليون تارة بالدليل العقلى وتارة بالدليل الوجدانى، ودحضها وبيان تفاهتها وعدم قيامها على أى أساس صحيح. ونلاحظ هنا كذلك أنه كثيرًا ما يقترن الدليل العقلى بالدليل الوجدانى فى مناقشة الانحرافات.

٥ ـ التذكير الدائم بقدرة الله التى لا تُحد، وعظمته وجلاله حتى يخشع القلب ويستسلم لله.

٦ ـ التذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ثم يحاسبه يوم القيامة على ما عمل من خير أو شر، وإشعار الإنسان بعلم الله الشامل الذى لا يغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، ولا يخفى عليه من عمل الإنسان شىء حتى السر وما هو أخفى من السر.

٧ ـ التذكير الدائم بالله سبحانه وتعالى فى حالتى السراء والضراء، ففى السراء ينبغى على الإنسان أن يذكر الوهاب المنعم فيشكره. وفى الضراء يصبر الإنسان لقضاء الله ويتوجه إليه ليكشف عنه الضر.

٨ ـ إيراد القصص التى تثبِّت الإيمان، بذكر الأنبياء وصبرهم على الأذى ونصر الله لهم فى النهاية، والكفار وعنادهم وتدمير الله عليهم فى النهاية.

٩ ـ رسم الصور المحببة للمؤمنين وصفاتهم وما ينالهم من جزاء، والصور الكريهة المنفرة للكافرين وما ينالهم من جزاء.

وفى الفصول القادمة نتحدث عن هذه الوسائل بشىء من الشرح والبيان.

* * *

القرآن والوجدان

قلنا إن الإنسان يتبلد حسه على المشهد المكرور فينسى دلالته الحقيقية. ينسى إعجاز القدرة الربانية لأنه ألف مشهد الليل والنهار، ومشهد الشمس والقمر، والسحاب والمطر، والنبات المخضر... ولم تعد هذه المشاهد تهز وجدانه أو تلفت حسه إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى، وإلى أنه خالق عظيم مدبر حكيم متصف بالكمال متفرد بالخلق والإبداع.

والقرآن ـ بطريقته الجميلة المعجزة ـ يزيل تلك الغشاوة التى ترين على القلب وتجعل الحس يتبلد. ويعرض آيات الله فى الكون فى صورة حية ينفعل بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة! وحين ينفعل بها الوجدان ويتأثر، ويتحرك الخيال لتتبع المشهد المعروض، وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات، عندئذ يوجهه إلى أن وراء هذه المشاهد كلها قدرة الله المعجزة، وأن صانعها وبارئها هو الله.. فينبغى إذن عبادة ذلك الإله القادر، والتوجه إليه وحده بالعبادة دون سواه.

بهذه الطريقة الحية الجميلة يتحدث القرآن عن:

١ ـ مشاهد الكون التى تصور ضخامة الكون ودقته المعجزة فى ذات الوقت.

٢ ـ ظاهرة الموت والحياة مع عرض تفصيلى أحيانًا لمراحل الحياة النباتية والإنسانية.

٣ ـ ظاهرة جريان الرزق على الناس والدواب كذلك.

٤ ـ ظاهرة جريان الأحداث، سواء الأحداث الكونية أم الأحداث الواقعة فى محيط الإنسان القريب.

٥ ـ علم الله الشامل للغيب.

وفى كل مرة يعقب بأن الله هو الصانع لهذا كله، فهو الجدير وحده بالعبادة وبالتوجه وبالدعاء وبالخشية وبالرجاء.

والآن فلنعرض أمثلة لكل واحد من الموضوعات السابقة، وإن كان كثير منها يأتى مقترنًا بعضه ببعض فى آيات القرآن.

١ ـ آيات الله فى الكون:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑪ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑫ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ⑬ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑭ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑮ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ⑯ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ⑰ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠ ـ ١٨].

ففى هذه الآيات عرض لبعض آيات الله فى الكون بطريقة تزيل عن الحس تبلده إزاء المشهد المكرور، بأن تلفت هذا الإنسان صاحب الحس المتبلد إلى جوانب إما أنه نسيها، وإما أنه لم يلتفت إليها أصلاً. فحين يدركها أو يتذكرها تصبح المشاهد جديدة فى حسه، وينظر إليها برؤية جديدة غير التى كان يراها بها من قبل، فينفعل بها وجدانه وتتحرك عواطفه.

فالإنسان ذو الحس المتبلد قد يرى الماء النازل من السماء فلا يتذكر أن هذا المطر هو الذى يتحول إلى عيون وينابيع وآبار وأنهار يشرب منها. أو هو من الجانب الآخر قد يشرب الماء الذى يجده أمامه ميسراً، وينسى أن هذا الماء لم يوجد فى الأرض من تلقاء نفسه، بل أنزله الله له فى صورة مطر، لا ينزل إلا بقدرة الله، وبحسب القوانين والسنن التى أودعها الله فى الكون، فأجرى بها السحاب وأنزل منه الماء. فالنص القرآنى يوقظه إلى هاتين الحقيقتين فى آن واحد: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾، كما يلفته أيضًا إلى الشجر النابت من هذا الماء، فلا يعود المطر النازل من السماء ظاهرة مكرورة مألوفة منقطعة فى حسه عن الله الذى أنزله من السماء، إنما تصبح موصولة بقدرة الله، فتحيا فى النفس وتؤثر فيها، بربطها بالله المنعم الوهاب.

ويستمر السياق يعرض أنواعًا من النبات الذى أشارت إليه الآية السابقة، فيذكر الزرع بعمومه، والزيتون والنخيل والأعناب، ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾.

وهذه الطريقة فى ذكر بعض الأنواع بالتفصيل والإشارة العامة إلى بقيتها تجعل الخيال يتحرك لتقصى ما لم يذكر بتفصيله بعد أن تتبع المذكور منه بالفعل! وهكذا يشترك الخيال مع الوجدان فى تصور المشهد، ويعطى له حيوية جديدة فلا يعود هو المشهد المكرور المألوف الذى تبلد عليه الحس!

ثم يشير السياق إلى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. وكلها مشاهد مألوفة مما يتبلد عليه الحس بالتكرار، ولكن السياق يذكر أمرًا جديدًا يغير وضعها فى النفس، ويجعلها كأنها تعرض لأول مرة، ذلك هو قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾.

فالليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لم تعد تلك الظواهر الكونية المعتادة التى ألفها الحس ففقدت دلالتها فى النفس، إنما هى كائنات مسخرة بأمر الله. ولا شك أن هذا المعنى قد غيّر صورتها تمامًا عن الصورة المعهودة التى تبدو فيها هذه الظواهر وهذه الأجرام السماوية كأنها قائمة بذاتها، مستقلة عن أى شىء بحركتها! كلا! إنها تقوم بعمل معين. تقوم بتكليف ربانى كلفها الله إياه، وإذن فحركتها الدائبة ليست حركة آلية كما يتصورها الحس المتبلد، إنما هى حركة حية ذات غاية وهدف، وكل جزء من هذه الحركة فى ليل أو نهار هو قيام بجزء من التكليف الذى يبلغ غايته يوم يغير الله نظام هذا الكون كله فى اليوم الموعود. وذلك فضلاً عن التذكير بنعمة الله فى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...﴾. والملحوظ أن جو السورة كلها هو جو تذكير الإنسان بنعمة الله عليه، لكى يتحرك وجدانه لشكر أنعم الله، بالتوجه إليه وحده دون سواه.

ثم يخطو السياق خطوة أخرى بلفت الحسّ إلى اختلاف الألوان فيما خلقه الله على ظهر الأرض من كائنات: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾.

ونلحظ هنا كذلك نوعًا آخر من إثارة الخيال لتتبع المشهد؛ فالآية تقول: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾. «ما» بدون تخصيص شىء بعينه، نباتًا كان أو حيوانًا أو غيره.. فهنا ينطلق الخيال يتتبع كل ما ذرأ الله فى الأرض من الأشياء المختلفة الألوان، فتصبح هذه الأشياء حية فى الوجدان، وتتخذ صورة أخرى غير ما كانت عليه فى عهد التبلد والنسيان.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هل يمكن أن يمر الإنسان بالبحر بعد قراءة هذه الآية دون أن يتحرك وجدانه؟

إن البحر هنا كله حركة وحياة، مرتبط بحسّ الإنسان بصلات قوية، فمنه يستخرج اللحم الطرىّ ليأكل، والحلية ليتزين، وفيه تمخر الفلك لتنقل البضائع والأرزاق.. إنه ليس ماء وأمواجًا فحسب، إنه عالم كامل ملىء بالحركة والنشاط، وكله من فضل الله. أفلا نشكر الله على فضله؟

ثم يذكر السياق من المشاهد الكونية الجبال والأنهار والطرق والعلامات والنجوم بذات الأسلوب الذى يلفت إليها الحسّ ويحرك الخيال، ويذكر فى كل مرة بأنها نعمة من نعم الله على الإنسان.

وبعد هذا العرض الحى لتلك المشاهد، الذى يخرج الحسّ من تبلّده، فيعود يستعرض الأشياء كأنها جديدة عليه، وينفعل بها ويتحرك معها.. بعد هذا العرض كله يعقّب بالحقيقة الكبرى التى يريد أن ينبه الإنسان إليها: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾؟

ويجىء السؤال بعد إثارة الوجدان بآيات الله فى الكون على هذا النحو، فيتلقى إجابته من داخل النفس مؤكدة لا لبس فيها:

لا يارب! ليس الذى يخلق كالذى لا يخلق! سبحانك أنت الخلاق العظيم.

ويُختَم السياق بما يزيد الوجدان إثارة ويزيد النفس ارتباطًا بالله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والآن، وقد استعرضنا هذا النموذج مفصلاً، تستطيع على ضوئه أن تقرأ النماذج الأخرى المشابهة فى القرآن الكريم، ونكتفى بإثبات نموذجين اثنين منها:

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ

فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ③ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [الرعد: ١ ـ ٤].

﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ⑰ وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ⑱ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ⑲ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ⑳ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ㉑ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ㉒ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ㉓ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ㉔ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ [الروم: ١٧ ـ ٢٥].

٢ ـ ظاهرة الموت والحياة:

يتحدث القرآن كثيرًا عن ظاهرة الموت والحياة ليهز الوجدان بهذه الظاهرة المعجزة التى كثيرًا ما يمر الإنسان بها دون أن يلتفت إليها، أو دون أن يعطيها حقها من الاهتمام، مع أنها جديرة ـ حين يلتفت إليها ـ أن تبعث فى نفسه هذا التساؤل: من الذى خلق الحياة فى الخلية الحية سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم إنسانية؟ أى قدرة معجزة هى التى جعلت تلك الخلية تتحرك وتنمو وتكبر وتتشكل فى أشكال شتى؟ أمن ذات نفسها؟ فلماذا إذن لا تتصرف الخلية الميتة على نفس الصورة؟! أليس هناك سر معجز فى هذه الخلية الحية؟ أليس الخالق سبحانه هو الذى أودع فيها ذلك السر المعجز: سر الحياة؟!

ثم حين تموت تلك الخلية الحية، ويموت الكائن الحى: أين تذهب الحياة التى كانت سارية فيه؟ إننا نقول فى بساطة إن ذلك الكائن قد مات، سواء أكان نباتًا أم حيوانًا أم إنسانًا. ولكن هل الأمر بهذه البساطة فى الحقيقة؟ أليست ذات القدرة

المعجزة التى وهبت الحياة للكائن الحى هى التى استردتها منه وتركته ميتًا بلا حياة؟!

إن العلم يحدثنا عن بعض مظاهر الحياة والموت، يقول لنا إن مظاهر الحياة فى الكائن الحى أنه يتغذى، وأنه ينمو، وأنه يتحرك، وأنه يتكاثر. . ويقول لنا إن موت الكائن الحى هو وقف تلك الأعمال كلها، فلا يعود يتغذى أو ينمو أو يتحرك أو يتكاثر. .

نعم! ولكن العلم لم يقل لنا، ولا يستطيع حتى اللحظة أن يقول لنا ما سر الحياة ذاتها، وما الذى يجعل الخلية الحية تتصرف على هذا النحو، وعلى هذا النحو بالذات؟

ثم إذا سألنا العلم: لماذا تموت الخلية ولا تظل حية أبدًا؟! لم يستطع أن يجيبنا إلا بأن الخلية تهرم وتضعف ثم تموت! نعم! ولكن لماذا يحدث ذلك؟! لماذا لا تستمر فى الحياة؟ إن كل كائن حى يتشبث بالحياة ولا يحب أن يموت أبدًا. حتى الذبابة إذا أردت أن تقتلها تفر منك لتبعد عن الموت. . ولكن لماذا تموت كل الكائنات؟ ترى لو كان أمر حياتها بيدها هل كانت تتخلى عن الحياة أبدًا؟ كلا! ولكنها تموت لأن الله قضى عليها الموت! وهذا هو السر الحقيقى وراء كل الأسباب الظاهرة للعين!

الموت والحياة إذن كلاهما من عند الله. كلاهما مشيئة ربانية وقدر ربانى.

وهذا هو الذى يغيب عن الوجدان حين يتبلد حسّ الإنسان على المشاهد المكرورة. ويغيب عن العقل حين تنطمس بصيرة الإنسان لسبب من الأسباب الكثيرة التى ذكرناها من قبل، فيقول كما يحكى القرآن عن الدهريين[1]: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

أو يقول إن «الطبيعة» هى التى تخلق الحياة وتسلبها من الكائن الحى كما يقول دارون!

ويجىء القرآن فيزيل تلك الغشاوة عن النفوس، ويتحدث عن ظاهرة الموت والحياة حديثًا يهز الوجدان فيصحو من تبلده، ويتيقظ لحقيقة الألوهية التى يرجع إليها الموت والحياة.

---

(١) أطلق عليهم اسم الدهريين لأنهم قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فنسبوا الموت للدهر بدلاً من الله. كما أنهم أنكروا أن الله يبعث الموتى.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ١ ـ ٤].

فالله الذى بيده الملك، والذى هو على كل شىء قدير، هو الذى خلق الموت والحياة، وما يستطيع غيره سبحانه أن يخلق الموت والحياة، فهما ـ بأسرارهما المعجزة ـ لا يقدر عليهما إلا من كان بيده ملك كل شىء، وكانت له القدرة التى لا يحدها شىء، ولا يعجزها شىء!

وهذا الإله القادر ـ سبحانه ـ الذى خلق الموت والحياة بقدرته، قد خلقهما لحكمة ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾، فاقتضت مشيئته أن يعيش الإنسان فترة معينة من الزمن على هذه الأرض، يعمل فيها وينشط ويتحرك ثم يموت، ليُبعَث مرة أخرى ويُحَاسَب على أعماله. وكذلك قضى ـ لحكمة يريدها ـ أن تموت الكائنات الحية كلها بعد فترة معينة من الحياة، هو الذى يقدرها سبحانه لكل واحد من الأحياء، التى تبلغ ملايين الملايين من المخلوقات منذ أنشأ الله الحياة على الأرض، إلى أن تقوم الساعة فى اليوم الموعود.

والسياق القرآنى يلفت النظر إلى ظاهرة الحياة والموت فى وسط الحديث عن آيات القدرة فى الكون، ليوقظ الحسَّ المتبلد إلى أن هذه الظاهرة من الضخامة والإعجاز بحيث تقترن بآيات الخلق المعجزة التى لا يقدر عليها إلا الله، فمن قبلها أشار إلى أن الله بيده الملك وأنه على كل شىء قدير، ومن بعدها يعود إلى ذكر الخلق: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ثم حين يقول: ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾، فهو يدعو الإنسان إلى النظر فى الكون الواسع، يتملاه بخياله، ويتأمل فيه بفكره، ليرى: هل هناك اضطراب أو خلل أو نقص فى هذا الخلق الذى خلقه الله؟: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾؟

وحين يتملى الإنسان ببصره وخياله وفكره هذا الكون الواسع وآيات القدرة فيه، ينفعل وجدانه بعظمة الله، وقدرته المعجزة، فإذا السياق القرآنى يُطالبه بأن يرجع البصر كرة أخرى، ليبحث عن النقص أو الخلل فى خلق الله ! فهل يستطيع شيئًا من ذلك؟ أم يعود البصر عاجزًا حسيراً لا يقدر على هذه المهمة: ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ

﴿الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾! وعندئذ يكون الوجدان قد بلغ أقصى انفعاله، ووصل إلى غاية تأثره، فيقر إقرارًا لا مهرب له منه بعظمة الله وجلاله، وقدرته التى لا تحدها حدود.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٩].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

* * *

٣ ـ الرزق:

من أشد الأمور التى تربط القلب المؤمن بالله، بينما يغفل عنها الحس المتبلد، أمر الرزق الذى يجريه الله على الإنسان من السماء والأرض.

فالمؤمن يشعر شعورًا دائمًا بفضل الله عليه ورحمته؛ لأن الرزق الذى يفيضه الله على الإنسان دائم لا ينقطع، ولو انقطع لحظة واحدة لما أمكن للإنسان أن يعيش.

وقد نتصور أحيانًا أن الرزق محصور فى الطعام والشراب، أو الملبس والمسكن، أو المال الذى نشترى به الأشياء، ولكن الرزق فى الحقيقة أوسع من هذا بكثير، لا يمكن للإنسان أن يحصيه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

فهل خطر ببالك أن الهواء الذى تتنفسه مكون من عناصر رتبت ترتيبًا ربانيًا بنسب معينة لتجعل الحياة صالحة على ظهر الأرض، وأنه لو قلت نسبة الأكسجين فى الهواء لتعذرت الحياة، ولو زادت لاشتعل كل ما على الأرض؟!

وهل خطر ببالك أن الجاذبية القائمة بين الأرض والشمس من جهة، وبين الأرض والقمر من جهة أخرى قد قدرها الله سبحانه بحسبان دقيق: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]. بحيث إنه لو كان جذب الشمس للأرض أكبر من قدره الحالى لاقتربت من الشمس أكثر، وصارت الحرارة عليها لا تُطاق، فماتت كل الأحياء، ولو كان جذبها للأرض أقل لابتعدت عن الشمس أكثر، فصارت البرودة عليها لا تُطاق، ولماتت كل الأحياء؟! وأنه لو اقترب القمر إلى الأرض فزادت الجاذبية بينه وبينها لطغى الماء ـ وقت المد ـ فأغرق كل سطح الأرض وأهلك كل الأحياء؟!

وهل عرفت أن دورة الليل والنهار لازمة لحياة الأحياء، ولولاها ما استقامت الحياة ولا ترعرعت الأرض، لأن الكائنات الحية كلها تحتاج إلى وقت تسكن فيه، ووقت من نوع آخر تنشط فيه؟

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

ذلك ـ وغيره ـ من ألوان الرزق التى ننساها أحيانًا ونحن نعدد الأرزاق التى أفاضها الله على الإنسان، هى ـ إلى جانب أنواع الرزق الأخرى ـ نعم ربانية يذكرها القلب المؤمن بالحمد والشكر. ولكن الحس المتبلد يمر عليها بغير التفات، أو يجنح به الغرور أحيانًا أن يقول كما يروى القرآن عن قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨].

أى حصلته بقدرتى وجهدى لا من عند الله!

لذلك يعرض القرآن موضوع الرزق بطريقة تهز الوجدان المتبلد ليتيقَّظ إلى الحقيقة، وهى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن الأرزاق كلها من عند الله، وأن الإنسان مهما بذل من جهد فهو لا ينشئها فى الحقيقة، إنما يعمل فيها بسُنَّة الله ومشيئته، ولكن المنشئ هو الله:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ[1] تَفَكَّهُونَ[2] ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾[3] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[4] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ[5] ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٤].

إن الإنسان يحرث الأرض ويلقى البذور فيها فيخيل إليه أنه هو الذى زرع! أى أنه هو الذى أنبت الزرع! فهل حقيقة هو الذى يصنع ذلك؟ وهل هناك قوة فى الوجود كله ـ إلا القدرة الربانية المعجزة ـ تستطيع أن تحرك البذرة للنمو، وتخرج منها ذلك الزرع المختلف الألوان والأشكال والطعوم؟ ترى لو أن الله لم يودع هذه البذرة سر الحياة، هل كان أهل الأرض جميعًا يستطيعون أن يحركوها من مكمنها لتنمو وتثمر؟! من أجل ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾؟ ثم يلفت الحسّ إلى جانب آخر من المسألة يغفل عنه الإنسان حين يتبلد حسه على المشهد المكرور، فينسى ما فيه من إعجاز الله القدير، إن الإنسان تعود أن يرى الزرع ناميًا ينتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى تطلع الثمرة، فيظن ـ فى غفلته ـ أن الأمور تسير هكذا من تلقاء ذاتها. وأنه لابد حين يضع البذرة أن تنمو حتى تخرج له الثمرة، وينسى أن الله هو الذى يخرجها له، من أجل ذلك يقول الله له: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾! فلو شاء الله لم ينبته أصلاً، ولو شاء كذلك أنبته ثم جعله حطامًا دون أن يثمر! ولو حدث ذلك لظللتم تقلبون القول بينكم، تقولون: غرمنا جهدنا ومالنا ولم يثمر الزرع، أو تقولون: وقع علينا الحرمان!

والإنسان يرى الماء نازلاً من السماء ولكنه يغفل ـ حين يتبلّد حسُّه ـ عن أن الله هو الذى أنزله، فيتوهم أنه ينزل هكذا من تلقاء نفسه، أو قد يصيبه الغرور كما وقع

---

(١) أى فظللتم. (٢) أى تقلبون القول من حيرتكم وحسرتكم.
(٣) أى غارمون. (٤) أى شديد الملوحة.
(٥) أى المسافرين.

من الإنسان المعاصر الذى يعيش فى الجاهلية الحديثة المسيطرة على الناس فى أوربا مع كل ما عندهم من التقدم المادى، فيظن أنه هو الذى ينزل المطر من السماء؛ لأنه استطاع أحيانًا أن يلقى مواد معينة بالطائرات فوق السحب فيسقط المطر!

يغفل هؤلاء وهؤلاء عن الحقيقة، وهى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى ينزل المطر فى الحقيقة، بمشيئته وقدره، وبالسنَّة التى أودعها فى الكون لتؤدى إلى تحقيق مشيئة الله وقدره. فإذا كان بخار الماء يتثاقل حين يبرد السحاب فى طبقات الجو العليا، أو حين يصطدم السحاب بجبل مرتفع، فلا يعود الهواء قادرًا على حمله، فينزل فى صورة مطر. . فمن الذى صنع ذلك كله؟ من الذى جعل هذا من طبيعة بخار الماء؟ ترى لو أن الله لم يودع بخار الماء هذه الخصائص أكان المطر ينزل من تلقاء نفسه حين يتكاثف؟! وإذا كان إلقاء بعض المواد على السحاب بالطائرات يؤدى ذات الهدف فيجعل بخار الماء يبرد فيتكاثف فيثقل فينزل فى الصورة التى يسمونها «المطر الصناعى»! فهل كانت طائرات الأرض كلها، والبشر جميعًا يقدرون على شىء من ذلك لو لم يسخر الله الماء لينزل من السماء إلى الأرض بحسب سنن معينة أودعها فيه [1]؟!

ومرة أخرى يلفت القرآن الحسّ إلى جانب آخر من المسألة، فإن المطر ينزل فى صورة ماء عذب سائغ للشراب، فيظن الحسّ الغافل أنه ينزل على هذه الصورة من تلقاء نفسه! فيذكِّره القرآن بالحقيقة، إن الله هو الذى أنزله فى صورته العذبة تلك رحمة منه بخلقه، وإنه لو شاء لجعله ماحًا شديد الملوحة لا يصلح للشرب ولا لتنمية النبات. أفلا يستحق الله الشكر على نعمته تلك؟

والإنسان يوقد النار وينسى قدرة الخالق من ورائها، حين يراها ميسَّرة بين يديه يشعلها حين يشاء. فمن أنشأ الشجرة التى تتوهج منها النار؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى الخالق المنعم الوهاب؟ وما يصدق على الشجرة يصدق على غيرها من ألوان الوقود الموجود اليوم. . كله من عند الله.

---

(١) عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل. فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادى مؤمن وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب». رواه البخارى.

ثم يذكّر القرآن الإنسان بجانب آخر من المسألة: إن الله قد جعل هذه النار التى يوقدها الإنسان فى الأرض تذكرةً تذكّره بالنار الكبرى التى تنتظره فى الآخرة لو عصى الله، فى ذات الوقت الذى جعلها متاعًا للمسافرين المحتاجين للدفء ولما ينضجون عليه الطعام.

وينتهى السياق حين يهز الوجدان بذلك العرض كله بدعوة الإنسان ـ وهو فى حالة تأثره وانفعاله الوجدانى ـ أن يسبح باسم ربه العظيم، الذى أفاض عليه كل تلك الأرزاق!

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ[1] (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١ ـ ٣٤].

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٦ ـ ٦٩].

٤ ـ الأحداث الجارية:

تجرى الأحداث حول الإنسان وفى خاصة نفسه من مولده إلى مماته. بعضها أحداث كونية كالليل والنهار وتعاقبهما المستمر، وطلوع الشمس وغروبها، وطلوع القمر وتدرج أوجهه من أول الشهر حتى يكون بدرًا ثم يتضاءل حتى يختفى، والسحاب والمطر والبرق والرعد وتعاقب الفصول.. إلخ. وبعضها أحداث فى

---

(١) أى صداقات وروابط تربط بين الناس.

مـحيط البـشر من مـيـلاد وموت، وصـحة وضـعف، وطفـولة وشبـاب وكهـولة وشيخوخة، وغنى وفقر، وعز وذل.. إلخ.

• أثر الأحداث التى تجرى فى الحياة على المؤمن:

تمر هذه الأحداث على المؤمن فيجد لنفسه فـيها عبرة، يعلم أن من ورائها تدبيراً حكيمًا لإله حكـيم، هو الذى يجرى الأحداث بعلمه وحكمـته وقدرته، وهو الذى يدبر أمر الكون كله، فـلا يحدث فى هذا الكون الهائل العـريض إلا ما يريده الله، ولا يتم أمر من أمور الكون إلا على الصورة التى يريدها الله.

• أثر الأحداث التى تجرى فى الحياة على الغافل:

أمَّا الغـافل المتبلّد الحسّ فيـمر بهذه الأحـداث، سواء منها الأحـداث الكونية أو الأحداث التى تقع فى مـحيط البشر، دون أن يتـنبَّه من غفلته، ودون أن يتـيقَّظ لما فيهـا من دلالة على وجود الله، وتفرّده بالملك فى هذا الكون، وتفرّده بتـدبير الأمر كله، ومن ثم تمر به الأحداث وهو سادر فى غفلته لا يفيق!

ويجىء القرآن فـيهزه من غفلتـه هزاً ليطلع على الحقيقـة الكامنة وراء الأحداث! وكمـا يُعالج القـرآن آيات الله فى الكون، وظاهرة الموت والحيـاة، وجريان الرزق، فيحـيلها جديدة حـية كأنما يتلقاها الإنسـان لأول مرة، كذلك يعالـج أمر الأحداث الجارية بما يزيل عن النفس غـشاوتها، ويزيل عن المشـاعر تبلدها، فينفـعل الوجدان ويتأثر، ويتيقظ القلب ويستشعر.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فى هذه الآية الواحـدة يلفت القـرآن الحسّ البشـرى إلى مجـمـوعة كـبيـرة من الأحداث الكونيـة التى يمر بها الإنسان الغـافل دون تنبّه إلى دلالتـها، بحكم الإلف والعادة. ولكن القـرآن يوقظ هذا الحسّ المتبلّد ليرى هذه الآيات الكونيـة ويدرك أنها لا يمكن أن تحدث من تلقاء نفسها، ولكنّ وراءها تدبيراً وحكمة.

وإذا تدبرنا الآية نجد أن القرآن يصل إلى الغاية المقصودة ـ وهى إيقاظ الحس المتبلد ـ بطريقتين فى آن واحد:

الأولى: هى حشد عدد كبير من الأحداث الجارية فى معرض واحد، فهناك السماوات والأرض، وهناك اختلاف الليل والنهار (بمعنى تعاقبهما المستمر، وبمعنى اختلاف طولهما على مدار الفصول)، وهناك جريان السفن فى البحر، وهناك المطر النازل من السماء، والحياة النابتة فى الأرض، والدواب المنبثة فى أرجائها، وهناك تصريف الرياح، وهناك جريان السحاب المعلق بين السماء والأرض... وهذا الحشد ذاته يوقظ الحسّ. فقد يتبلد هذا الحسّ فلا يلتفت لتلك الأحداث الجارية وهى فرادى، كل منها يقع على حدة فى وقت منفصل عن الآخر، ولكنها حين تُحشَد هكذا وتُعْرَض بهذا التوالى وبذلك التجمع فإن الحس لابد أن يستيقظ، وهو يتتبّعها بخياله واحدة إثر الأخرى، فلا يجد فرصة يغفل فيها أو يستنيم، وهى تلاحقه بهذه السرعة، لا يكاد ينتهى من تتبع واحدة حتى تكون الأخرى قد لحقته!

والثانية: هى ربط الوجدان بهذه الأحداث عن طريق لفت الحسّ إلى الحركة الدائبة فى هذا الكون. فالمشهد الثابت الذى لا يتحرك قد يسهل على الحس أن يتعود عليه فيتبلّد ولا يعود المشهد يثيره. أما الحركة المستمرة فلا يمكن للحس أن يتبلد إزاءها، ولابد أن يلتفت ويتيقّظ.

فالآية تبدأ بخلق السماوات والأرض، وهو حدث قديم لم يشهده الإنسان ولكنه يرى آثاره ماثلة أمامه. ولكن السياق القرآنى لا يدع صورة الخلق ساكنة أمام الحس بل يحرك الصورة بتحريك مفرداتها. فالليل والنهار يدوران ويختلف طولهما فى أثناء تعاقبهما المستمر، والفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس، والماء النازل من السماء يتسم بالحركة كذلك، وهى حركة النزول نحو الأرض. ولكن الحركة لا تنتهى هنا، فمن هذا المطر النازل يخرج النبات الحى من الأرض التى كانت مجدبة من قبل، والتعبير القرآنى يقول: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيصور الأرض كانت ميتة فتحركت بالحياة بعد نزول المطر، كما يقول فى سورة الحج: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ولكن الحركة لا تنتهى هنا كذلك؛ بل تستمر لتصور الدواب جاءت تسعى تأكل النبات الذى أخرجته الأرض بالمطر، والتعبير القرآنى يقول: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ والبث حركة فى جميع الاتجاهات فى وقت واحد. ثم يجىء ذكر

الرياح وهى متحركة بطبيعة الحال، فإنها لا تسمى رياحًا إلا إذا تحركت حركة شديدة ملموسة. وأخيرًا يذكر السحاب متحركًا كذلك مسخرًا بين السماء والأرض، وهكذا تشمل الحركة كل الكائنات، ويتملاها الحسّ فى حركتها الدائبة فينفعل بها ويتحرك معها.

ولا تنسَ كذلك أن التعبير القرآنى يلفت الحسّ البشرى فى أثناء عرض هذه الحركة المستمرة إلى الله سبحانه وتعالى، الذى تحرك قدرته كل هذه الأحداث: ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾، وهكذا يذكر لفظ الجلالة الصريح مرة ويعود الضمير عليه مرتين متواليتين بعد قوله ﴿ فَأَحْيَا ﴾ وقوله ﴿ وَبَثَّ ﴾، ثم يلفت إليه الحس مرتين أخريين فى قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ وقوله: ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ ﴾، إذ الإشارة واضحة إلى أن الذى يصرّف الرياح هو الله، والذى يسخّر السحاب هو الله.

وبهذه الوسائل كلها يوقظ القرآن وجدان البشر إلى الأحداث الجارية فى بنية الكون وفى حياة الناس.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٤].

٥ ـ علم الله الشامل للغيب:

يتشوق الإنسان دائمًا إلى معرفة الغيب، يحب أن يعرف ماذا سيحدث له فى الغد القريب والغد البعيد.

وسواء كان هذا الغيب أملاً منشودًا يسعى الإنسان لتحقيقه، أو كان شيئًا مؤلمًا يحب الإنسان أن ينجو منه، أو خيرًا يحب أن يستزيد منه، أو شرًا يحب أن يتخلص منه... فهو دائم التطلع إلى معرفة هذا الغيب بأى شكل من الأشكال.

ومع ذلك فإنه لا يستطيع .. يلجأ أحيانًا إلى تفسير ما يرى من رؤى وأحلام، لعلها تكشف له جانبًا من الغيب المجهول.. ويلجأ أحيانًا إلى أحاسيسه الباطنية يحاول أن يستشف المجهول..

وقد يلجأ ـ إذا لم يعصمه دينه وإيمانه ـ إلى العرّافين والعرّافات يحاول أن يستخلص من أفواههم شيئًا عن هذا الغيب.. ولكنه مهما فعل يعلم أنه عاجز عن معرفة الغيب، وأن كل محاولاته فى هذا السبيل ظنون وحَدْسٌ لا تعتمد على علم، بل بعضها خداع محرم جاء الشارع الكريم يتوعد متعاطيه والمصدّق به.

وعلى هذا يجب أن يؤمن الإنسان بقدرة الله الذى يعرف الغيب كله لأنه سبحانه هو العليم بكل ما فى السماوات وما فى الأرض، وكل ما حدث فى الماضى، ويحدث فى الحاضر والمستقبل؛ لأنه سبحانه هو منشئ الأحداث ومجريها فى الماضى والحاضر والمستقبل، فهى معلومة له بكل تفصيلاتها، حاضرة عنده سبحانه لا تغيب.

ولكن الإنسان قد يتبلّد وينسى... عندئذ يحركه القرآن من تبلّده، ويذكره من غفلته، بطريقة تهز الوجدان هزًا وتجعله لا يستطيع أن يفلت من التأثّر:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ⑧ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ⑨ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ⑩ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١١].

تدبر هذه الآية الأولى فى السياق: هل تصورت أبعادها؟! راجع نفسك جيدًا وتأكد من الأمر..

كلا! إنك لم تتصور كل أبعادها، وأغلب الظن أنك لن تستطيع!

هل تصورت ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾؟

إن السياق لم يحدد أى الإناث بالذات، فالتعبير يشمل إناث الإنسان، وإناث الحيوان، وإناث الطير، وإناث الأسماك فى البحر، وإناث الحشرات والهوام. . . ومع ذلك فلنفترض أن السياق اقتصر على إناث الإنسان فحسب. . . فهل تصورت الأمر؟

هل تصورت «كم» أنثى من إناث الإنسان على ظهر الأرض؟! هل تستطيع أن تحصيهن عدّا؟!

وهب أنك استطعت باستخدام كل الوسائل المتاحة لك أن تحصى كم أنثى هناك فى كل قارات الأرض، وسهولها وجبالها ووديانها وغاباتها وكهوفها ومغاراتها وقصورها وبيوتها وأكواخها وخيامها وجزرها النائية ومدنها المعمورة. . فما الذى أحصيته؟ إنه عدد الإناث الأحياء اليوم فى جيلك هذا الذى تعيش فيه! فكيف بكل الإناث اللواتى عشن منذ بدء الخليقة حتى ذلك الجيل؟ وكيف بكل الإناث اللواتى سيعشن من بعد إلى زمن لا يعلمه إلا الله؟!

هل يقدر على إحصائهن إلا الله؟!

وهذه مرحلة واحدة من هذا الأمر الهائل الذى تصورت لأول وهلة أنك أحطت بأبعاده!

فلننتقل ـ بخيالنا ـ إلى مرحلة تالية: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

هذه «كل أنثى» تحمل فى بطنها جنينًا. . . فهل تتبّعت الأمر بخيالك لتعلم أى شىء هو الذى أحاط به علم الله؟!

هل تتبعت بخيالك «أنواع المعلومات» التى يعلمها الله عن كل جنين من هذه الأجنة؟!

ذكر أم أنثى؟! ما لونه؟ أبيض أم أسود أم أحمر أم أصفر. . .؟ ما شكله؟ ما قسماته؟ كيف أنفه؟ كيف فمه؟ كيف عيناه؟ ما لون عينيه؟ ما لون شعره؟ جميل الطلعة أم غير جميل؟ ما طوله؟ ما حجمه؟ فى أى مرحلة هو من مراحل نموه: نطفة؟ أم علقة؟ أم مضغة؟ أم. .؟ أم. .؟

هل انتهت «أنواع المعلومات» عند هذا الحد؟ كلا! لم تنته بعد..

قد يقف خيالك هنا عاجزًا عن تتبع هذه المعلومات وإحصائها بالنسبة لكل جنين تحمله كل أنثى. ومع ذلك فإن علم الله الشامل، الذى يشملها جميعًا، لا يتوقف عند هذا الحد.. بل يشمل «معلومات» أخرى قد لا تلتفت أنت إليها لأول وهلة.

ما اسم هذا الجنين حين يولد؟ أى ما اسم كل جنين تحمله كل أنثى منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة؟

ما عمره الذى سيقضيه في الأرض؟ هل سيولد حيًا أم ميتًا؟ وإن كان حيًا فكم يعيش؟ ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

ما درجة ذكائه؟ ما خصاله التى يحملها؟ طيب أم شرير؟ شجاع أم جبان؟ كريم أم بخيل؟ ما قدَره المقدور له فى الأرض؟ ما الأحداث التى تجرى فى حياته؟

ثم.. أخيرًا.. أشقى هو أم سعيد.. أى من أصحاب النار أم من أصحاب النعيم(١)؟

إن هذه «بعض» المعلومات التى يشملها علم الله الشامل بالنسبة لكل جنين تحمله كل أنثى من بدء الخليقة إلى قيام الساعة، وغيرها وغيرها كثير لا يحصيه إلا الله..

فهل تصورت الآن الأمر على حقيقته؟! هل تصورت أبعاد هذه الحقيقة التى تذكرها الآية: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾..؟

﴿ وَمَا تَغِيضُ(٢) الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾. يعلم ازديادها بالحمل وغيضها بتفريغ ما تحمل.

---

(١) عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد...». رواه مسلم.

(٢) أى تنقص وتنكمش.

وعد بخيالك مرة أخرى فتتبع كل أنثى. . وحاول أن تتصور ـ مجرد تصور ـ ما يحيط به علم الله الشامل من حملها وولادتها، وكل مرحلة من مراحل الحمل شهراً بعد شهر حتى تضع حملها، وتكرار ذلك مع كل أنثى على حِدَة، وتكراره على نطاق الأرض كلها وما تحتويه من إناث!

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. مرة أخرى هل تصورت أبعاد الأمر؟! ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ عنده بمقدار. .

لقد تعب خيالك وكدّ ليتتبع شيئًا واحدًا من كل شيء. . هو ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾. . فكيف إذا أراد خيالك أن يتتبع «كل شيء»؟!

هل تظن أنك تستطيع؟ أنت والبشر جميعًا في كل الأرض؟ ومع ذلك فعلم الله الشامل يعلم «كل شيء». . وليس هذا فحسب، بل إنه يخلق «كل شيء» كذلك بمقدار.

وسواء كان معنى «المقدار» هنا هو القَدَر الذى يخلق الله به كل شىء، أو هو «القدْر» المحدد لكل شىء، فإن الخيال البشرى يعجز عن مجرد التصور فضلاً عن الإحاطة فضلاً عن الإحصاء!

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[1] الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾. وقد رأيت طرفًا واحدًا من علم الله للغيب، لم يستطع خيالك تتبعه ولا إحصاءه، فكيف بالغيب كله والشهادة؟

والناس حين يسرون القول يتصورون فى غفلتهم أحيانًا أنهم يسرونه على الله! وحين يستَخْفُون عن أعين الناس بأعمالهم أو سرائرهم يظنون أنهم يستخفون كذلك على الله!

ولكن الله يشمل علمه كل الغيب، يستوى عنده المُسِرّ بالقول والجاهر به، والمستخفى والمستعلن على السواء.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾. أى أن هناك ملائكة تتعقب كل أعماله وتسجلها عليه.

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى بأمر الله.

---

(١) أى الشىء المشهود.

فأين يغيب شيء واحد من أعمال الإنسان عن علم الله؟!

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

* * *

الدليل العقلى

كما يخاطب القرآن الوجدان البشرى ليوقظه إلى حقيقة الألوهية، فإنه كذلك يخاطب العقل البشرى ليفكر ويتدبر، وينظر فى آيات الله فى الكون، ليعرف دلالتها. وإليك نماذج من الأسئلة التى ترد على العقل ليتفكر ويتدبر.

١ ـ هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير خالق؟

٢ ـ هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليم حكيم؟

٣ ـ هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك فى الملك أو شريك فى التدبير؟

٤ ـ هل آيات القدرة المبثوثة فى تضاعيف الكون تشير بأن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمر من أمور الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء؟

وتلك كلها أمور سبق للقرآن أن خاطب فيها الوجدان، ولكن القرآن يخاطب الإنسان كله: وجدانه وعقله. فكما عرض هذه الأمور كلها على الوجدان عرضًا مؤثرًا ينتهى باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الألوهية، فكذلك يعرضها على العقل، يناقشه، ويوقظه للتفكير المنطقى السليم، الذى يؤدى فى النهاية إلى الغاية ذاتها، وهى إدراك حقيقة الألوهية، ومن ثم وجوب الإيمان بالله الواحد دون شريك.

والآيات التى تخاطب العقل وتدعوه إلى التأمل والتدبر كثيرة فى القرآن لجتزئ بذكر نماذج منها:

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولو تأمل الإنسان بعقله الآيات المبثوثة فى الأرض، والآيات المبثوثة فى النفس لأصابه العجب والذهول لكل آية من هذه الآيات المعجزة، التى تنم كل منها على وجود الخالق سبحانه، وعلى قدرته المعجزة التى لا تقف عند حد.

فالأرض جرم صغير بالنسبة للأجرام السماوية الضخمة التى يزخر بها هذا الكون، لا تعدو أن تكون كحبة الرمل بالنسبة للصحراء الواسعة التى لا يأتى البصر على آخرها. ومع ذلك ففيها ـ على ضآلتها ـ من آيات الله المعجزة ما يعجز الخيال

عن تتبعه فضلاً عن إحصائه، وفيـها من الخصائص التى أودعها الله بها ما تذهل له العقول.

فقـد هيأها الله ـ وحدها فيـما نعلم حتى اليـوم من الأجرام الأخرى ـ بخاصـية الحيـاة، وجعل لها من الظروف ما يجـعل الحياة عليـها ممكنة الوجود والاستـمرار. فكتلتها محسـوبة بحساب ربانى دقيق يجعل جاذبيتها تحتـفظ حولها بغلاف جوى لا يتبدد، وفى هذا الغـلاف يوجد الأكسجين المطلوب لتنفس الكائنات الحـية، وبالقدر المطلوب لتنفـس هذه الكائنات بلا زيادة فيـه ولا نقصـان؛ لأن الزيادة والنقـصـان كلتاهمـا ضارة بهذه الأحـياء! وحرارتهـا محسـوبة بذلك الحسـاب الربانى الدقيق، بالصورة التى تحتملها الكائنات الحية فلا تموت من شدتها ولا من ضعفها! والأقوات فيها مـحسوبة بحيث تفى بحاجة تـلك الكائنات من الغذاء مع توازن دقيق بين هذه الكائنات وبين أقواتها: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر: ١٩]. ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠].

وعلى ذكـر التوازن فى الأرض بين الكائنات الحـية والتـوازن فى الأقوات، فـقد ذكرت الأنباء أن الشيـوعيين فى الصين سولت لهم أنفسهم الشريـرة أن يقتلوا جميع العصافير الموجودة فى الصين بحجة أنها تأكل عشرة فى المائة من مجموع الغلال التى يزرعونهـا! فجندوا فى كل القرى والمدن فـرقًا تتناوب الضـرب على الدفوف وقطع الصفيح ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، فكلما أرادت العصـافير أن تأوى إلى عشوشها لتنام أو تستريح أزعجهـا الصوت فعادت إلى الطيران، حتى هلكت جمـيع العصافير من الجـوع والعطش والتـعب وعـدم النوم. وفـرح الشـريرون بأنهم قـضـوا على تلك المخلوقات الصـغيرة اللطيفـة، واطمأنوا إلى أن المحصول سيصل إليهم كامـلاً غير منقـوص! ولكن الله كـان لهم بالمرصاد! فـإن الحـشرات الضـارة التى كـانت تلك العصافير تأكلها فتمنع أذاها عن الزرع بحكمة الله وتدبيره، انتشرت فى الأرض بعد موت العـصافـير فأكلت خـمسين فى المائة من المحـصول! وهكذا حين أراد البـشر الضالـون أن يعبثـوا بالتوازن الذى أوجـده الله فى الأرض بحكمـته أصابـهم الجزاء الرادع من عند الله، وكانت هذه آية لهم لو كانوا يعتبرون!

وهكذا لو مضـينا نتتبـع آيات الله فِي الأرضِ: فِي الكبيـرةِ والصغيـرةِ، لوجدنا عجائب لا تنتهى. ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

فالأرض فيهـا قطع متجاورات تختلف بنية كل منـها عن الأخرى رغم تجاورها. بعضهـا ينبت الزرع وبعضها لا ينبـته، وبعضها يصلح لأنـواع معينة من الزرع دون غيرها.. وتلك وحدها عجيبة.

ثم إن الأرض الواحدة تنبت أنواعًـا شتى من الزروع والنخـيل والأعناب.. كلها يُسقَى بماء واحـد، ولكن بعضـها يختلف عن بعض. حـتى النوع الواحد كـالنخيل تخرج منه النخلة المفردة والنخلة المزدوجة.. وتلك عجيبة أخرى.

ثم إن هذه الزروع مخـتلفة الطعوم والمذاقات، يـفضلِ الناس فى طعامهم بعـضًا منها على بعض.. وتلك عجيبة ثالثة.

ثم إن الطعم الواحد قد يفضله إنسان ولا يفـضله إنسان آخر حسب ذوقه الخاص المركب فى طبعه.. وتلك عجيبة رابعة.. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أما الآيات فى الأنفس فـإنها أعجب! فالخليـة الواحدة الملقحـة التى يتكون منها الجنين تشتـمل على كل خصـائص الجنس البشـرى وهى لا تكاد تُرى! فينمـو منها إنسان كامل فيه كل خصائص الإنسان!

ثم إنها تنقـسم وتتخصص فى أثناء نمو الجنين، فيـصبح جزء منهـا رأسًا، وجزء آخر يدًا، وجزء ثالث قدمًا.. وهكذا.

ثم إنها تحتـوى كذلك على جزئيات تحمل الخصـائص الوراثية التى يرثها الجنين من الأب والأم أو الأجداد. فقد يحمل الجنين صفة من الأب كلون الشعر مثلاً، وصفة من الأم كلون العينين، وصفة من أحد الجدود كالطول أو القصر أو شكل الأنف أو شكل الأذن.. بل الأعجب من ذلك وراثـة الصفات النفـسية والعـقلية كـالكرم أو البخل، والشجاعة أو الجبن، والذكاء أو الغباء، والميل إلى العلوم أو الميل إلى الآداب!

وهذه الصفـات العقلية ذاتها.. مـا هى؟ كيف توجد؟ وأين توجـد؟ كيف يفكر العقل؟ كيف يتذكر الإنسان ما يتذكر؟

إن كل أبحاث العلـم حتى هذه اللحظة قد عـجزت عن أن تقول لنـا كيف يفكر العقل وكيف يتـذكر! وأين تكون الأفكار وأين تختزن المعلـومات وكيف يستدعـيها الإنسان حين يريد استدعاءها، وكيف تخطر على باله أحيانًا بغير استدعاء!

والصفات النفسية كذلك.. ماهى؟ كيف توجد؟ وأين توجد؟ كيف تتكون فى النفس صفة الكرم أو البخل أو الشجاعة أو الجبن؟ وفى أى مكان تكمن هذه الصفة فى الإنسان؟ فى جسمه؟ أين؟ فى مخه؟ أين؟ هل هى شىء معنوى أم مادى؟ وفى كلا الحالين كيف تؤثر فى تصرفات الإنسان وسلوكه؟

وأعجب من ذلك: كيف تورث؟!

ولو مضينا نتتبَّع خصائص الإنسان، وآيات الله فى الأنفس، لما انتهينا من العجب لكل خصيصة وكل آية، ولأدركنا أن هذا كله لا يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه بهذه الدقة المذهلة. لابد له من موجد، ولابد أن يكون هذا الموجد حكيمًا غاية الحكمة وقادرًا إلى حد الإعجاز، وإلا ما استطاع أن ينشئ هذا الخلق الدقيق المعجز، الذى تحتوى كل جزئية منه على عجائب لا يحصرها العقل.

ومن أجل ذلك يقول الله بحق: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟!

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا[1] آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ ، ٢٤].

فى هذه الآيات يخاطب القرآن العقل لكى يتدبر الأمر ويستخلص نتيجة منطقية لما يرى حوله من الآيات، ويطالبه أن يأتى بالبرهان على ما يدعى مخالفًا للحق الظاهر.

فالحق الظاهر أن هذا الكون متناسق إلى أبعد ما يتصور العقل من التناسق: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

فدورة الفلك المضبوطة التى لا تختل قيد شعرة فى هذا الكون العريض كله، ودورة الليل والنهار الناشئة من حركة الأفلاك، والتى تأتى فى موعدها المضبوط بالدقيقة والثانية وأجزاء الثانية على مدار الفصول وعلى مدار القرون والأجيال..

---

(١) فيهما: أى فى السماوات والأرض.

وخواص المادة التي أودعها الله فيها لا تخطئ مرة واحدة على مر الزمن ولا تختلف مرة عن مرة. فالحديد هو الحديد، والنحاس هو النحاس، والأكسجين هو الأكسجين، لا يتغير تركيبها ولا خواصها، ولا يتغير سلوكها إزاء الحرارة والبرودة أو إزاء الضغط أو في تفاعلاتها الكيماوية مع غيرها من العناصر. لا يحدث مرة واحدة أن يتكون الماء إلا من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين. ولا يحدث مرة أن يسخن الحديد فلا يتمدد. ولا يحدث مرة أن يطرق النحاس فلا ينطرق.

والذرة التي هي أبسط التكوينات التي أمكن للعلم حتى اليوم أن يكشف عنها في نظامها الدقيق العجيب المكون من نواة (هي البروتون)، وأجسام صغيرة غاية في الدقة (هي الإلكترونات)، تدور حولها في نظام دقيق، متجاذبة معها ومتعادلة في الشحنة الكهربائية في وضع يشبه الشمس ومن حولها الكواكب.

والخلية الحية وسلوكها العجيب في غذائها وإفرازها ونموها وتكاثرها.. والكائنات الحية وخصائصها التي تميز كل جنس منها عن الآخر، وتميز كل نوع من أنواع الجنس عن الآخر.. فللنبات عامة خصائصه، ولكل نوع من النبات خصائصه. وللحيوان خصائصه، ثم لكل نوع من أنواعه خصائصه.

ثم الإنسان أعقد الكائنات الحية وأرفعها.. وكل جزء في تكوينه عجيبة في تناسقه وأداء وظيفته.

هل يمكن مع ذلك كله أن يكون في السماوات والأرض إلا إله واحد مسيطر مدبر حكيم هو الله سبحانه وتعالى؟ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

أليس كل إله يخلق بمفرده كيف يشاء؟ فكيف يتطابق الخلق الصادر عن واحد من الآلهة مع الخلق الصادر عن إله غيره؟ كيف تكون الشجرة التي يخلقها واحد من الآلهة متطابقة تمامًا في كل أحوالها مع الشجرة التي يخلقها إله آخر؟ كيف يكون الماء الذي يخلقه أحد الآلهة هو الماء نفسه الذي يخلقه الإله الآخر من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين؟

كيف تنتظم دورة الفلك التي ينشئها إلاهان مختلفان، ويشرف على شئونها أكثر من إله؟

هل يمكن أن تنتظم إذا تعددت الإرادة التي تهيمن عليها والسلطان الذي يسيرها؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد الشمس أن تشرق من المشرق وآخر يريدها أن تشرق من المغرب! فكيف يصير الأمر؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للإنسان أن يستوى على قدميه ويسعى فى الأرض يبتغى الرزق ويعمر الأرض، وآخر يريد له أن يمشى على أربع كالحيوان، أو يبقى لاصقاً بالطين على ساق واحدة كالنبات؟ فكيف يصير الأمر؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للحديد أن يكون صلباً تصنع منه الأدوات الصلبة التى تعين الإنسان على عمارة الأرض وتعينه على صنع السلاح الذى يقاتل به لإعلاء كلمة الله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

بينما إله آخر يريد أن يكون الحديد طرياً ليناً عديم الشكل؟ فكيف يصير الأمر؟

هل ينضبط شىء حينئذ فى الكون كله؟ وهل يستقيم الأمر؟ أم يصبح الكون فوضى، تتصادم فيه الأفلاك وتتعارض، وتتصادم فيه الإرادات المشرفة عليه وتتعارض، ويصبح كالعقد المنفرط لا يجمعه نظام؟

من أجل ذلك يخاطب القرآن العقل فيقول له: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾!

ثم يخاطبه مرة أخرى متحدياً بعد هذا البيان: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾!

نعم! فليبحث العقل عن برهان! إن الأمر ليس فوضى، يقول فيه القائل بهواه! بل لابد لكل قول من برهان. فهاتوا برهانكم! هل تستطيعون أن تبرهنوا ـ والكون بهذا الاتساق المعجز ـ أن هناك إرادة أخرى تسيطر على الكون غير إرادة الله؟

فإن عجز العقل عن البرهان ـ وهو لا محالة عاجز ـ فليتدبر أمره وليؤمن بالله الواحد الذى لا شريك له فى الملك ولا فى السلطان. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

في مثل المناقشة العقلية التي ذكرناها في الفقرة السابقة، يجرى السياق هنا مناقشة مع العقل البشرى، يقدم لها بمجموعة من الآيات يلفت فيها العقل إلى بعض الحقائق المسلمة التي لا يجادل فيها أحد، أو ينبغي ألا يجادل فيها:

﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٩١].

فإذا سلَّم الإنسان ابتداء بأن الأرض ومن فيها من صنع الله وإنشائه وهو مالكها، وإذا سلَّم بأن السماوات السبع هي لله، هو منشئها وهو ربها ورب العرش العظيم، وإذا سلَّم بأن ملكوت كل شيء لله، هو المدبر فيه وحده، وهو الذي يجير بقوته ولا يجار عليه؛ لأنه صاحب العظمة والسلطان.. بدهيات لا يملك عقل أن ينكرها، وإلا جابه هذا السؤال الوارد في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. وهو سؤال مُسكت ملجم يتحدى كل منكر(١).

إذا سلَّم الإنسان بكل هذا فقد لزمه ـ منطقيًّا ـ أن يسلم بالنتيجة التي تؤدى إليها هذه المقدمات، وهي أنه إله واحد لا شريك له ولا يمكن أن يكون له شريك. لذلك يكرر السياق التذكير بعد كل مقدمة من المقدمات: «أفلا تذكرون»؟ «أفلا تتقون»؟ «فأنَّى تُسحرون»؟!

ولكن السياق لا يكتفي بالتذكير المصحوب بالتقريع؛ بل يمضي مع العقل البشرى خطوة أخرى في المناقشة فيعرض أمامه هذه الحقيقة ليتدبرها:

لنفرض جدلاً أنه كان مع الله آلهة أخرى فكيف يكون الموقف؟

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

في الفقرة السابقة (رقم ٢) في آية سورة «الأنبياء» كان يعرض أمر الفساد الذي كان لابد أن يحدث في السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

---

(١) سنتحدث عن الآية في فقرة مستقبلة بإذن الله.

وما دام هذا الفساد غير حادث، والكون منضبط فى حركته كما نرى، فقد انتفى إذًا وجود آلهة غير الله.

وفى هذه الآية من سورة «المؤمنون» يعرض الأمر من الوجهة الأخرى، وجهة الآلهة ذاتهم ـ لو أنهم أكثر من إله واحد ـ وما كان لابد أن يحدث بينهم من صراع ونزاع: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

فإذا كان كل إله خلق جزءًا من الخلق فهل يعقل أن يتنازل عن خلقه لإله آخر؟ أم المعقول والبدهى أن يتشبث بخلقه ويستحوذ عليهم ويحاول أن تكون له السيطرة عليهم وحده؟ وعندئذ ماذا يحدث؟! يحدث نزاع بين الآلهة المزعومة على السيطرة! هذا يريد أن يسيطر وهذا يريد أن يسيطر! كل منهم يريد أن تكون له وحده الكلمة النافذة فى الكون ويكون أمره هو المطاع! هذا يصدر أمرًا ويطلب تنفيذه، وذاك يصدر أمرًا مضادًا ويطلب تنفيذه. وكل يتشبث بكلمته زاعمًا أنه هو الأعلى وهو الأحق بأن تسمع كلمته ويُطاع!

فهل هذه الآلهة ـ المتوهمة ـ تستحق الاحترام وهى هكذا تتعامل مع بعضها البعض؟!

وهل يستقر حال الكون وهى ـ فى صراعها على السلطة ـ تصدر الأوامر المتباينة للكون، فيحار الكون لأى أمر يذعن وأى أمر يطيع؟!

كلا! ما كان حال الكون ليستقر لو أنها آلهة متعددة تتصارع فيما بينها وتتنازع. وما كان الكون ليبدو متناسق الحركة متناسق الصنعة متناسق التدبير.

والعقل البشرى مكلف أن يفكر ويتدبر.. فما دام الإنسان قد سلم ـ أو ينبغى أن يسلم ـ بأن الأرض لله، والسماوات السبع لله، والملكوت لله، والتدبير لله.. فماذا بقى إذن من عمل تقوم به تلك الآلهة الأخرى المزعومة؟

وما دام الكون فى سيره لايبدو عليه الخلل والاضطراب، بل يظهر فيه الاتساق الكامل والانضباط، أفلا يدل ذلك على وحدة السيطرة التى تدبر شئونه وترعاه؟!

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا

وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

هنا فى الحقيقة خطاب للوجدان والعقل فى آن واحد. وقد أسلفنا القول إن القرآن كثيراً ما يقرن خطاب الوجدان مع خطاب العقل فى سياق واحد. ولكنا هنا سنركز تركيزاً أكبر على أدلة العقل وبراهينه، وفيما مضى من الحديث عن الوجدان فى الفصل السابق ما فيه الكفاية.

يبدأ السياق بسؤال فى الآية الأولى بعد حمد الله والسلام على عباده الذين اصطفاهم بالنبوة والرسالة، وهذا السؤال يواجه الإنسان كله، وعقله بصفة خاصة: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والإجابة عن السؤال تقتضى الموازنة ـ إن كان هناك مجال للموازنة ـ بين الله سبحانه وتعالى وبين الآلهة المزعومة التى يعبدها بعض الناس مع الله أو من دون الله، ليتبين أيهما خير: آلله أم تلك الآلهة المدعاة؟

والسياق القرآنى يبادر العقل بما يعينه على معرفة الإجابة الصحيحة، إن كان ـ لسبب من الأسباب ـ يجهلها! فيقدم له أول المُعينات فى صورة سؤال آخر لو اهتدى لإجابته ـ وهى بدهية فى الحقيقة ـ لاهتدى فى ذات الوقت لإجابة السؤال الأول الذى تصدَّر السياق، وهو قوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟

تسأل الآية الثانية فى السياق: من الذى خلق السماوات والأرض؟ ومن الذى أنزل عليكم من السماء ماء فأنبت به حدائق بهيجة المنظر ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لولا ما أنزل الله لكم من السماء من ماء، ولولا ما أودع فيها هى ذاتها من خاصية النمو حين ينزل عليها الماء؟

وقبل أن يجيب الإنسان الذى يُوجَّه له ذلك السؤال، يبادره السياق بسؤال ثالث يحمل فى طياته فى الحقيقة إجابة السؤال السابق: يقول: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟!

وهكذا يحاصره السياق حصارًا كاملاً بحيث لا يجد مفرًا من الإجابة الوحيدة التى يستقيم بها الأمر كله!

﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ كلا!

وإذًا فالسؤال السابق ليست له إلا إجابة واحدة كذلك: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾؟ هو الله!

وإذًا فالسؤال الذى صُدِّر به السياق قد تحددت إجابته على وجه التأكيد: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟ بل الله!

ولقد كان يكفى العقل والوجدان معًا هذه الجولة لتقر النفس بألوهية الله الواحد بلا شريك. ولكن الله العليم الخبير يعلم من أحوال النفس البشرية أنها تحتاج إلى التذكرة مرة ومرة ومرة. ومن ثم يبدأ السياق على النسق ذاته جولة ثانية وثالثة ورابعة.. وخامسة.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

فإذا كانت الجولة الأولى مع خلق السماوات والأرض ومع الماء النازل من السماء إلى الأرض، ومع الحدائق النابتة من نزول الماء، فهذه الجولة كلها فى الأرض، تذكر جعل الأرض مستقرًا للإنسان يجد فيها رزقه ومعاشه ومتاعه المقدر له إلى حين، وتذكر جعل الأنهار خلال هذه الأرض، وجعل الرواسى لها لتكون سببًا فى استقرارها، وجعل الماء العذب الذى أعده الله لشرب الكائنات الحية محجوزًا عن الماء المالح الذى تعج به البحار والمحيطات... وكلها من آيات رحمة الله بالإنسان كما أنها من آيات قدرته. فمن غير هذا الإله القادر يستطيع أن «يجعل» كل هذه الأشياء على صورتها التى هى عليها؟ وعندئذ يجىء التعقيب فى مكانه: أإله مع الله؟ وإجابته قد تقررت منذ الجولة السابقة، ولكنه المزيد من التوكيد.

أما الجولة الثالثة ففى محيط البشر، تذكرهم بما يقع لهم ولكنهم ينسونه فى غفلتهم: أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف ما به من سوء؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض جيلاً بعد جيل، ترثون الأرض بعد آبائكم وتتمكنون فيها وتسخرونها

لمعـايشكم؟ أيتمّ ذلك من تلقـاء نفسـه؟ وكـيف يتم إذا لم يخلقكم الله أصـلاً من أصـلاب آبائكـم؟ وكـيف يتم إذا لم يبق الـله الأرض لتـرثوها منـهم؟! ثم يجيء التعقـيب المكرر، ليزيد الأمر توكيداً فى النفس: أإلـه مع الله؟ والإجابة هى الإجابة بكل تأكيد.

والجولة الرابعـة مع البشـر كذلك، ولكنها تذكـر نعمًا أخـرى من نعم الله على الإنسان: من يهديكم فى ظلمات البر والبحر؟ فإذا كان ضوء الشمس يهديكم بالنهار ولكنكم تنسـون النعمـة وتغفلون عنهـا، فإنكم أولى أن تتـذكروا الهـداية فى الليل والظلمة محيطة فى البر وفى البحر. فهنا تتلمسون الهداية فلا تجدونها إلا بعون الله لكم سواء بالـنجوم تحدد لكم اتجـاهكم، أو بالقمـر يرسل نوره فيكشف جـانبًا من الظلمة، أو فيـما هداكم الله إلى عمله من المشاعل والمصـابيح التى تنير الظلام. ثم نعمة أخرى يذكّـر الله بها الإنسان: ومن يرسل الرياح تبشر برحمـة الله المتمثلة فى السحاب والمطر! «أإله مع الله»؟ كلا! «تعالى الله عما يشركون»!

وتجيء الجولة الأخيرة كالأولى تشمل السماوات والأرض وتربط ما بين السماوات والأرض، وتزيد عليها ذكـر البعث: من الذى يبدأ الخلق ثم يعيـده؟ أهناك غير الله من تبلغ قدرته أن يخلق من لا شيء؟ ومن يعـيد الخلق حين يشاء؟ ومن يرسل لكم الرزق من السماء والأرض؟ ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾!

وحين يصل السياق إلى غايته يكون الوجدان والعقل قد وصلا كذلك إلى غايتهما من التمثل لهذه الحقيقة الكبرى: حقـيقة وحدانية الله بلا شريك. فإذا جاء التحدى الأخير: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فليس له جواب إلا الاقتناع الكامل والتسليم.

* ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ

أَمَّن لاَّ يَهِدِّي(١) إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٦].

السياق هنا قريب من السياق السابق فى آيات سورة «النمل» ولكنه يختلف عنه فى أمرين:

الأمر الأول: أنه فى السياق السابق كان يذكر آيات الله فى السماوات والأرض والناس ثم يسأل: أإله مع الله؟ وتكون الإجابة الضمنية الطبعية هى: لا! ليس مع الله إله. ليس لله شريك فى الخلق ولا فى الملك ولا فى التدبير.

أما هنا فالسياق يشير إلى الشركاء بالذات، ويركز عليهم، يركز عليهم لينفى وجودهم، ولكنه لا ينفيه نفيًا مباشرًا، إنما من خلال سؤال مكرر: هل من شركائكم ـ المزعومين بطبيعة الحال ـ من يفعل كذا أو كذا مما يفعله الله؟ فإذا كان الجواب بالنفى ـ ولابد أن يكون بداهة كذلك ـ فماذا يفعل الشركاء إذن؟ وإن لم يكن لهم عمل فما معنى وجودهم؟ إنهم إذن لا وجود لهم ما داموا لا يعملون شيئًا على الإطلاق!

والأمر الثانى: أنه ينبه العقل الغافل إلى طريق التفكير الصحيح. إنه لا يجوز للعقل ـ الذى خلقه الله للتفكر والتدبر ـ أن يأخذ الأمور بالظن، دون تمحيص وبرهنة وإثبات. والظن لا يغنى شيئًا عن الحق. فعلى الذين يأخذون القضية بالظن أن يتخلوا عن هذا الطريق الخاطئ ويتبعوا الطريق الصحيح، طريق الدليل الصحيح والبرهان.

تبدأ الآية الأولى بسؤال حاشد: من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يملك السمع والأبصار؟ من يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى؟ من يدبر الأمر؟ وهى لمحات سريعة فى مجالات شتى فى آن واحد، تحاصر العقل وتحصره فى إجابة واحدة: ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾! وإذا كان الأمر كذلك أفلا تتقون، وقد عرفتم الإجابة الصحيحة على السؤال!

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾؟

الله الذى عرفتموه، وعرفتم أنه هو الذى يرزقكم من السماء والأرض ويملك سمعكم وأبصاركم ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر.. هو

---

(١) أى لا يهتدى.

ربكم الحق. لا ربوبية لغيره، فكيف تتجهون إلى غيره؟ كيف تحيدون عن الحق الواضح فتضلون؟ فإن من تجاوز الحق فليس أمامه سوى الضلال.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾. لأنهم يصرون على مجاوزة الحق فيقعون في الضلال.

ثم تجيء المناقشة التي أشرنا إليها: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ فإذا كان الجواب بالنفي ـ كما لابد أن يكون ـ ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. فإذا اتضح هذا الأمر: أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده، بينما الشركاء المزعومون لا يبدءون خلقًا ولا يعيدون ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ أنى تصرفون عن الحق وتتبعون الزور والإفك؟

ثم مناقشة أخرى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾؟ والجواب ـ كالمرة السابقة ـ بالنفي. فلم يؤثر عن أحد من أولئك الشركاء المزعومين أنه أنزل لهداية البشر كتابًا ولا أرسل رسولاً! فإذا كان الأمر كذلك ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فيرسل الرسل وينزل الكتب ويدعو الناس إلى ما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة. ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

ثم يمد السياق المناقشة خطوة أخرى: إذا كان الله يهدى للحق، والشركاء المزعومون لا يهدون إلى الحق.. فمن أحق أن يتبع ويُطاع: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ﴾؟ آلله أحق أن يتبع أم أولئك الذين لا يهتدون من ذات أنفسهم ويحتاجون هم أنفسهم إلى من يهديهم؟! والإشارة هنا إلى الأصنام التي كان العرب يعبدونها في الجاهلية، ولكنها في الحقيقة تنطبق على كل من يتوجه إليه الناس في كل جاهلية، ممن لا يملكون لأنفسهم الهدى، ويتصدون لهداية الناس! فإلى أي شيء يهدونهم إلا إلى الضلال؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟

أين عقولكم التي تفكرون بها؟ وكيف أدت بكم هذه العقول إلى هذا الحكم الفاسد الذي تحكمون به في القضية، فتقولون ـ بألسنتكم أو بأفعالكم ـ إن هؤلاء الشركاء أولى بالاتباع من الله، وهم لا يملكون الهدى لأنفسهم فضلاً عن هداية الناس؟

السبب هو أنهم لا يحكّمون عقولهم فى الحقيقة. ولو حكّموها لحكمت بالصواب، فالأدلة قائمة والبراهين موجودة، ولكنهم يتبعون الظن فيضلون عن الصواب: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾. والله أعلم بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

* ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

هذه الآية تحمل أكبر تحد للعقل البشرى الضال خلال التاريخ.. وكأنها نزلت للضالين اليوم الذين ينكرون وجود الله ويلجّون فى الغى والإلحاد.

إن الذين يلجّون فى الغواية إلى هذا الحد لا ينكرون وجود الله فى الحقيقة. فلا يمكن للفطرة - مهما ضلت - أن تنكر وجود الله الخالق. ولكنهم - لسبب من الأسباب - يكابرون، ويتظاهرون بالإنكار.

وحتى أولئك الذين يعيشون فى ظل الإلحاد، فى الدول الشيوعية، ويُدرس لهم الإلحاد فى المدارس، ويتربون عليه، ويلقّنونه فى كل حصة من حصص الدراسة.. حتى هؤلاء لا تقر نفوسهم بإنكار وجود الله إلا مجاراة للأوضاع، وخوفًا من سطوة الدولة الكافرة هناك. وإليك مثالاً يثبت لك هذه الحقيقة.

حين صعد «جاجارين» رائد الفضاء الأول إلى الجو [1]، أخذته روعة الكون وذهل لما رآه.

لقد رأى الكون على صورة أخرى غير التى نراها ونحن على سطح الأرض مغلفين بالغلاف الجوى. لم ير السماء زرقاء كما نراها نحن، إنما رآها سوداء تمامًا، ورأى الكواكب والنجوم فى داخلها لامعة شديدة اللمعان. لقد كان المنظر - كما يصفه رواد الفضاء - يشبه قطعة من المخمل الأسود، مرصعة بالجواهر اللامعة.

وفوجئ «جاجارين» بما رآه... فوجئ بالتجربة الجديدة والمشهد الجديد.. والمشهد الجديد كما ذكرنا آنفًا يوقظ الحس من غفلته، ويوقظ المشاعر من سباتها، ويجلى الكون جديدًا كأنما يواجهه الإنسان لأول مرة، فيدرك من دلائل إعجازه ما كان غافلاً عنه من قبل، ويحس بيد الله المبدعة وآثارها فى تضاعيف هذا الكون.

وهذا هو الذى حدث لجاجارين.. لقد نسى كل إلحاده الذى ربّته المدرسة عليه..

(١) هو أول رائد فضاء انطلق إلى طبقات الجو العليا فى داخل صاروخ، وهو روسى الجنسية.

نسى كل الدروس التى لُقِّن فيها أنه لا وجود لله.. وأخذ يحملق فى الكون مدهوشًا من صنعة الله، مبهورًا بما رآه من إعجاز..

وحين هبط إلى الأرض كان أول تصريح أدلى به للصحفيين الذين استقبلوه: «حين صعدت إلى الجو أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله»!

وهكذا تنطق الفطرة حين تواجه الحقيقة! وهذا على الرغم من كل الإلحاد الذى لقِّن لجاجارين[1]!

كلا! إن الفطرة لا يمكن أن تنكل أبدًا عن الشهادة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

إنما الذى يحدث أن الإنسان الضال يكابر فى هذه الحقيقة لأنه لا يريد أن يخضع لله. ولو أقر علانية بوجود الله للزمه أن يطيعه وأن يعبده، وهو ـ لأمر من الأمور ـ لا يريد. وبدلاً من أن يبدو مقصرًا وناكلاً ـ باعترافه ـ فإنه «يتفلسف» فيدعى أنه لا يؤمن بوجود الله.

وكيف يمكن للفطرة أن تنكل عن الشهادة، والكون حولها ـ بكل ما فيه ـ يحاصرها ويردها إلى الحقيقة؟ كيف تواجه الفطرة أمر الخلق؟ كيف تحل المشكلة إن لم تقر بوجود الله؟ كيف إذن تم هذا الخلق الذى تدركه الحواس ولا سبيل إلى إنكاره: السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب... وكل ما على الأرض من شىء بما فيه الإنسان نفسه؟

كيف تم..؟ بغير خالق؟ هكذا من العدم؟! ثم كيف انتظم بعد أن تم؟ ثم كيف حافظ على نظامه كل تلك الملايين من السنين، التى لا يحصيها العقل البشرى، دون أن يحدث فى نظامه خلل أو اضطراب؟!

هل يتم ذلك كله بغير خالق؟! هل يتقبل العقل هذا القول، حتى إن ضل هذا العقل وسار فى الظلمات؟

---

(١) من طريف ما يروى أن الدولة غضبت على جاجارين بسبب هذا التصريح، وأمرته أن يضيف إليه ما ينفيه فقال: «... فبحثت عن الله فلم أجده!!» ونشرت الصحف تصريحه الثانى بعد الأول بساعات!!

يقولون إن «الطبيعة» هى الخالق! كذبوا! . . وما الطبيعة؟!

يقولون إن الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها [1]! سبحان الله! أليس هذا هو الله؟ هو الذى يخلق كل شىء ولا حد لقدرته؟! فلماذا نسمى الله بالطبيعة؟ أى منطق فى هذه التسمية العجيبة؟ ألا إنه الهوى، وليس العقل، وليست «الفلسفة»! الهوى الذى يمنع الإنسان من الاعتراف بالحق مع أنه ـ فى داخله ـ يعلم أنه الحق! ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولكن القرآن يتحداهم. . يتحداهم منذ أربعة عشر قرنًا. . وسيظل يتحداهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟ أما أنهم هم الخالقون فأمر لم يزعمه أحد من المضلين! بقى السؤال الأول بغير جواب: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؟ وهو السؤال الملجم المُسكت، الذى لا يملك أحد من المكابرين أن يرد عليه بالإيجاب.

ولم يبق إلا أمر واحد، هو أن يكون هناك خالق، هو الذى خلق الخلق بقدرته، وهو الذى يدبر الأمر وحده بلا شريك. . وذلك هو الأمر الذى لا تملك الفطرة أن تنكره وإن ضلت وإن أمعنت فى الضلال. . إنما ينكره المكابرون باللسان، لكبر فى نفوسهم عن عبادة الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

ونستعيذ بالله كما أمرنا الله، ونؤمن فى الوقت ذاته بأن أولئك الجاحدين لا يجحدون الله فى الحقيقة إنما هم فقط يتظاهرون. . وحتى إن وصلت الغاشية بهم إلى أن تغشى قلوبهم وأرواحهم، وسمعهم وأبصارهم، فهم عرضة لأن يتيقظوا لحقيقة الألوهية كما تيقظ لها جاجارين!

* * *

---

(١) هكذا يقول دارون، فيقر بالقدرة الإلهية، ولكنه لا ينسبها إلى الله!

تيقظ الإيمان المركوز بالفطرة وقت الشدة

يعاند الإنســان ويُكابر فى وقت الرخاء، بل قد يزيده الرخاء والأمن غـفلة وبُعدًا عن الله إن كــان من ذوى القلوب المريضــة، ولكنه فى وقت الشــدة لا يسـتطيع أن يستمر فى عناده ومكابرته!

أثر الشدة على الإنسان:

١ ـ إنه من جهة ينكشف أمام نفسه، عاجـزًا قليل الحيلة محتاجًا إلى العون، وتزول عنه عنجهيته الفارغة التى يستكبر بها على الله والناس!

٢ ـ ومن جهة أخـرى يتيقظ الإيمان المركوز فى فطرته، والذى تشهـد به الفطرة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

٣ ـ إنه ينسى الشركــاء المزعومين إن كان يـعبد شركــاء من دون الله أو مع الله. أو ينسى إلحاده إن كان من الملحدين المنكرين لوجود الله أصلاً، ويتوجه من أعماق قلبه إلى الله الحق، يدعوه ليكشف ما به من سوء!

والقرآن يواجه الناس بحقيقتهم ليكشفها لهم، ويكشفهم هم أمام أنفسهم! بل إنه يواجههم بحقيقة أخرى، أشد دلالة على ما فى نفوسهم من انحراف.

فيــاليتـهم بعد أن عرفـوا الله فى وقت الشدة، وانكشف لهم الحـق من الباطل، وأدركوا أن الله وحــده هو الذى يملك كشف الضــر، وهو الذى تجب عبــادته وحده دون شريك، والتــوجه إليه وحده دون شريك.. لـيتهم بعد أن عرفـوا كل ذلك قد استقاموا عليه!

ولكنهم ـ لما فى أنفسهم من اعوجاج ومرض ـ ما يكاد ينكشف عنهم الضر الذى دعوا اللــه من أجله مخلصين له الدين، حـتى يعودوا إلى سـيرتهم الأولى كــأن لم يحدث شيء، وكأنهم لم يمروا بالشدة، ولم يؤمنوا بالله فى أثنائها!

وهذا الذى يواجههــم به القرآن لعلهم يراجعون أنفـسهم فيتخلون عـن انحرافهم ويستقيمون: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

هذه الآيات كلها من سورة يونس، تصور حالة عامة للإنسان يصيبه الضر فيلتجىء إلى الله، ويدعوه أن يكشف ما حل به من الشدة. والآية تصوره على جميع أوضاعه، فإذا كان الضر الذى أصابه قد ألجأه إلى النوم على جنبه من مرض أو نحوه فإنه يدعو الله على حاله تلك: ﴿ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾. وإن كان قاعدًا أو قائمًا دعا الله كذلك فى قعوده أو قيامه. أى أنه حيثما كان وضعه فى حالة وقوع الضر عليه فإنه يلتجئ إلى الله ضارعًا أن يصرف عنه ما به من سوء. وقد يكون الهم الذى حل به همًّا نفسيًّا لا جسميًا، وهو فى هذه الحالة يدعو الله كذلك. يدعوه فى كل وضع من أوضاعه: «لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا» لأن الهمّ الذى ركبه يُلازمه فى جميع أحواله، فيلجئه إلى الدعاء فى كل حال.

فهل حين يكشف الله عنه الضر يتذكر؟ هل يتذكر كيف كان فى وقت الشدة ضارعًا إلى الله، موقنًا فى دخيلة نفسه ألاّ منقذ له سواه؟ كلا! ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾!

والتعبير القرآنى بكلمة «مرّ» يصور تصويرًا دقيقًا حالة ذلك الإنسان وقد عوفى من البلاء الذى حل به، سواء أكان جسمانيًّا أو نفسيًا، فإذا هو منتفش مزهو «يمر» دون مبالاة ولا اعتبار كأن لم يكن بالأمس القريب يجأر بالشكوى ويجأر بالدعاء! لقد نسى! ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١].

أما الآيتان الثانيتان من سورة يونس فتصفان حالة خاصة. حالة قوم ركبوا فى سفينة والجو رخاء والريح ساكنة، وهى تجرى بهم جريًا مطمئنًا على صفحة الماء. فالقوم فرحون بركوبهم، مستبشرون برحلتهم مستمتعون بها. وفجأة تهب الريح عاصفة فيتغير كل شىء فى لمحة! تتغير الملامح والمشاعر والأفكار! فيحل القلق محل الطمأنينة والانزعاج محل الاستبشار. ويبدو الكرب على الملامح التى كانت وادعة

ناعمة من قبل! فلمن يلجئون عندئذ؟ إنه لا ملجأ إلا إلى الله! ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾.

لقد تقطعت بهم الأسباب، وتعلقت نفوسهم بقدر الله. علموا أنه لا منقذ لهم مما هم فيه من الكرب إلا رحمة الله. فالكرب أكبر من قوتهم، وهم عاجزون إزاءه.. والإنسان يطغى ويستكبر وهو يحس بالقوة، فيعتقد أنه لن ينهزم أمام شيء! فإذا رأى قوته تتضاءل وتتضاءل حتى يدركها العجز، ورأى الكرب يشتد حتى لم تعد له به قوة.. عندئذ يرى نفسه على حقيقتها، ويزول عنه الكبر المزيف والطغيان. ويلجأ إلى القوة الحقيقية: قوة الله، موقنًا أنها هي وحدها التى تنقذه، وأن كل ما عداها هباء..

والتعبير القرآنى يظهر هذه الحقيقة بوضوح: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾. ففى تلك اللحظة الحرجة، لحظة الانقطاع من كل أمل فى الخلاص أو العون، يكون إحساس الإنسان بالذات الإلهية واضحًا مستقرًا عميقًا فى النفس، كأنما كان هناك ستار يغشّى هذه الحقيقة فى النفس فانجاب الستار وانكشفت الحقيقة. ويكون التوجه إلى الله مخلصًا كذلك. فالخطر الداهم مفزع، والملجأ الوحيد هو الله. عندئذ يتشبث الإنسان بالملجأ، صادق الرغبة فى الالتجاء. وحين يدعون الله مخلصين له الدين يكونون فى لحظتها صادقين فى قولتهم: ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ذلك أنهم فى فزعهم يشعرون أن الله قد يرضى عنهم ويخلّصهم مما هم فيه من الكرب إذا تابوا إليه من انحرافهم واستقاموا على أمره، فيلجئهم الفزع إلى نية التوبة وإلى الوعد بالشكران. ولا يكون الشكران إلا بطاعة الله.

ولكن.. كم تبقى تلك المشاعر على إخلاصها؟! فقط لحين تنتهى الشدة ويزول الكرب! ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾!! ما أسوأ هذا الإنسان وما أخسره!

لقد عاد الستار الذى كان يحجب حقيقة الألوهية فى نفسه فانسدل كما كان، وران على قلبه ما كان يرين عليه من قبل. ولم تكن تلك الصحوة إلا صحوة عارضة أنشأتها الشدة، فلما زالت الشدة عاد إلى ما كان فيه من غفلة، واستنام إلى ما كان فيه من بهتان!

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾.

نعم! إنه متاع الحياة الدنيا، ذلك المتاع الزائل الزائف هو الذى يلهيهم فينسيهم ربهم، وينسيهم آخرتهم، فيغرقون فى هذا المتاع القريب غافلين عن كل ما عداه.

ولكن بغيهم هذا هو فى الحقيقة على أنفسهم. فماذا بعد ذلك المتاع القصير، المحدود بسنوات العمر المعدودة، ولو خلصت سنوات العمر كلها للمتاع؟!

﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وعندئذ يذهب ذلك المتاع، بل تذهب حتى ذكراه، ولا يتبقى له إلا مصيره البائس الذى يذكر به فينساه[1]!

* * *

تجد هذا المعنى مكرراً فى القرآن فى أكثر من موضع، وتستطيع أن تراجع هذه الآيات:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٣].

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

* * *

---

(١) حدثنا الخليل بن عمرو، حدثنا ابن سلمة الحرانى عن محمد بن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه فى النار غمسة فيغمس فيها ثم يقال له: أى فلان، هل أصابك نعيم قط؟ فيقول: لا، ما أصابنى نعيم قط! ويؤتى بأشد المؤمنين ضراً وبلاء فيقال: اغمسوه فى الجنة، فيغمس فيها غمسة فيقال له: أى فلان، هل أصابك ضرّ قط أو بلاء؟ فيقول: ما أصابنى قط ضرّ ولا بلاء». رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد.

القرآن يتولى الرد على دعاوى المبطلين

يبيِّن الله فى كتابه الكريم حقيقة الألوهية للناس كافة. فقد نزل القرآن للبشرية كلها منذ بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة. فلا نبيّ بعد محمد ﷺ، ولا كتاب يتنزل من عند الله بعد القرآن.

ولما كانت نقطة البداية بالنسبة للبشر جميعًا هى أن يتعرفوا على إلههم الحق لتستقيم أحوالهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فلا يعبدوا غيره، ولا يتلقوا منهج حياتهم من غيره، وإنما يعبدونه وحده سبحانه، ويلتزمون بما أمرهم به، فيكون لهم فى الحياة الدنيا نظام ربانى ينظم حياتهم، ويكون لهم فى الآخرة جزاء الحسنى: جنات تجرى من تحتها الأنهار..

لذلك فإن أهم ما يتولى القرآن بيانه للناس هو حقيقة الألوهية والربوبية.

وقد رأينا فى الفصول الثلاثة السابقة كيف يتولى القرآن تعريف الناس بإلههم.

١ ـ مرة بإيقاظ وجدانهم لآيات الله فى الكون والحياة.

٢ ـ ومرة بمناقشة عقولهم بالبراهين والأدلة التى تبيِّن الحق.

٣ ـ ومرة بتذكيرهم بما يكون منهم فى أحوال الشدة من اللجوء إلى الله وحده ونبذ كل شريك مع الله أو من دون الله.

ولكن القرآن لا يكتفى بهذا البيان المتعدد الوسائل، بل يتتبع دعاوى المبطلين واحدة واحدة يردّ عليها ويفندها، حتى لا يبقى عذر لأحد من البشر جميعًا يتعلل به فى الانحراف عن الإيمان بالله الحق.

ولقد كانت الدعوة الإسلامية تواجه وقت نزول القرآن ألوانًا عديدة من الانحرافات تتعلق بحقيقة الألوهية والربوبية.

نماذج من الانحرافات التى كانت موجودة وقت نزول القرآن:

١ ـ كانت الوثنية فى الجزيرة العربية تعبد الأصنام وتعتبرها آلهة تُشارك الله فى بعض صفاته، كما كان بعضهم يعبدون الجن.

٢ ـ وكان المنحرفون من أهل الكتاب يزعمون لله ولدًا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

كما كانت العرب فى الجاهلية تقول: الملائكة بنات الله!

٣ ـ وكانت الجاهلية العربية تنكر على الله قدرته على البعث وتعد الحديث عنه جنونًا لا يتقبله العقل!

٤ ـ والدهريون ينفون البعث أصلاً، أو ينفون أن يكون لله دخل بالأمر كله: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

كما كان هؤلاء جميعًا يقعون فى شرك واحد مشترك هو عدم اتباع ما أنزل الله، والحكم بغير ما أنزل الله.

وتولى القرآن الرد على ذلك كله منذ أربعة عشر قرنًا، ففند تلك الدعاوى الباطلة كلها، وأبطلها من أساسها، وبين وجه الحق فيها.

واليوم ينظر الإنسان إلى البشرية الضالة فى أرجاء كثيرة من الأرض، فيجد ضلالات اليوم كضلالات الأمس:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨].

ويجد أن القرآن قد تولى الرد عليها سلفًا منذ أربعة عشر قرنًا، وما جاءوا فى إفكهم بجديد! ويحس الإنسان وهو يتلو القرآن ويتدبره كأنما يتنزل اللحظة للرد على أولئك الشاردين وردهم إلى دعوة الحق! ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وفى هذا الفصل نستعرض ردود القرآن على دعاوى المنحرفين، وسنرى أن بعضها قد ورد من قبل فى أثناء شرح طريقة القرآن في بيان حقيقة الألوهية وبعضها لم يرد له ذكر من قبل، وسنجد فى النهاية أنه قد تجمع لدينا بعون الله بيان شامل بطريقة القرآن فى معالجة الموضوع بتمامه.

١ ـ الشرك:

كان المشركون يعبدون آلهة شتى فى صورة أصنام، أو يعبدون الملائكة أو يعبدون الجن، ويزعمون أنها تشفع عند الله فيستجيب الله لشفاعتها! أى أنهم يتوسلون بها

إلى الله كما حكى عنهم القرآن: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

فبيّن القرآن حقيقة الأمر فى هذا الشأن بطريقين:

الطريق الأول: بيان أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون، فلا هو فى حاجة إلى معونة من أحد على الإطلاق فى تدبير الأمر، ولا هناك من يقوم أصلاً بالتدخل فى أمر الله! فمادام لا يوجد أحد يُشارك الله فى الخلق - وهو أمر لا يجادل فيه أحد حتى المشركون - فكيف يوجد من يشاركه فى التدبير؟ ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والطريق الثانى: بيان عجز أولئك الشركاء عن أن يملكوا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا. فكيف ينفعون غيرهم أو يضرونهم؟! وأحيانًا يجتمع الطريقان معًا فى الآية الواحدة أو مجموعة الآيات، وأحيانًا يختص السياق بواحد من الطريقين.

(أ) فمن أمثلة الطريق الأول: (وإن كان يحوى إشارة إلى الطريق الآخر):

* ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٦٥ - ٧٣].

فهنا عرض مستفيض لآيات من آيات الله فى الخلق وفى الرزق معًا فى سياق

واحد. فآية فى الماء النازل من السماء بقدرة الله يحيى الأرض بعد موتها وينبت فيها الزرع. وآية فى الأنعام يخرج الله من بطونها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين. ومن أين يخرج هذا اللبن؟ من بين فرث ودم. والفرث هو بقايا الغذاء المهضوم فى الأمعاء. وتحول العصارات الهضمية إلى دم، ومرور هذا الدم على أعضاء الجسم المختلفة يعطى كل واحد منها غذاءه، ثم قيام كل عضو بوظيفته بعد أن يتلقى غذاءه من الدم، وقيام الغدد اللبنية فى الضرع بإفراز اللبن، أو بعبارة أخرى تحول الفرث إلى دم ثم تحوله إلى لبن: كل ذلك من آيات الله المعجزة فى الخلق[1]، وهو كذلك من آيات الله فى الرزق الذى منّ به على الإنسان.

وآية فى النحل التى تأكل من رحيق الزهور وتخرج منه هذا الغذاء العجيب الذى لا تنحصر فائدته فى خواصه الغذائية فحسب، بل هو شفاء لكثير من الأمراض. وهى كذلك آية فى الخلق وفى الرزق فى ذات الوقت. وآية فى خلق البشر واختلاف أعمارهم. ثم إشارة إلى وضع كان قائمًا يومئذ عند العرب وهو وجود أرقّاء بين أيديهم، يستخدمه القرآن لتقريب القضية إلى أذهان المخاطبين به يومئذ، فيقول إن الله فضّل بعضهم على بعض فى الرزق فجعل بعضهم سادة وبعضهم عبيدًا، فهل يقبل السادة المفضلون أن يشركوا معهم عبيدهم فى السيادة والسلطة فيصبحوا سواء هم وعبيدهم؟ فإذا كانوا لا يقبلون ذلك لأنفسهم فلماذا يقبلونه بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى فيشركون معه عبادًا من عباده فيجعلونهم آلهة مع الله؟

ثم يعود إلى آية أخرى فى الخلق والرزق فيشير إلى أن الله جعل لكم من أنفسكم - أى من جنسكم - أزواجًا وجعل لكم عن طريق الزواج بنين وحفدة، ورزقكم من كل الطيبات. . . أفتكون نتيجة ذلك كله الكفر بدلاً من الشكر؟ والكفر الذى يمارسونه هو الموضح فى الآية الأخيرة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وتبدو هذه العبادة شيئًا منكرًا بعد عرض هذه الآيات كلها على الوجدان والعقل. ويبدو الذين يمارسونها قومًا ناقصى الآدمية، لأنهم يؤمنون بالباطل على غير أساس، ويجحدون الحق بغير برهان.

---

(١) لم تكن الأسرار العلمية الخاصة بتحول الفرث إلى دم ثم تحوله فى الضرع إلى لبن معلومة للبشرية كلها وقت نزول القرآن، وإنما اكتشف ذلك كله من عهد قريب. وفى ذلك دليل لمن أراد الدليل على أن هذا القرآن من وحى الله، فما كان لبشر من علم يومئذ بهذه الأشياء.

* ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

(وقد سبق شرحه فى الفصل السابق).

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

(ب) ومن أمثلة الطريق الثانى:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٨].

بدأت الآية الأولى بسؤال يوضح مفرق الطريق؛ فالإله الذى ينبغى أن يؤمن به الإنسان ويعبده هو الإله الخالق. فما بال هؤلاء المشركين يشركون آلهة لا تخلق شيئًا وهى ذاتها مخلوقة، يصنعها الناس بأيديهم ثم يجعلونها آلهة؟ (والإشارات كلها هنا إلى الأصنام) هل فى ذلك منطق يقبله العقل أو تقبله فطرة سوية؟

ثم يستطرد السياق فيشرح حال هذه الأصنام التى يعبدها المشركون، فهى لا تستطيع نصر أنفسها إذا اعتدى عليها معتد فضلاً عن أن تنصر غيرها! وهى لا تسمع لو دعاها أحد، فسواء عليك أحدّثتها أم لم تحدّثها فالنتيجة واحدة!

ثم يقرر السياق حقيقة تشمل كل معبود من دون الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. ومع أن الإشارة مازالت خاصة بالأصنام السابق ذكرها إلا أن هذا الوصف يدخل فيه كل من يَعْبُد وكل ما يُعْبَد من دون الله، سواء أكانوا أشخاصًا من البشر أحياء أو أمواتًا، أو كانوا من الجن أو الملائكة، أو كانوا شجرًا أو حجرًا أو شمسًا أو نجمًا أو كوكبًا من الكواكب. كلهم مخلوقات من مخلوقات الله، ومن ثمّ فهم عباد لله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فلا ينبغى التوجه إليهم بالعبادة أو الدعاء.

ويستمر السياق فى وصف تلك الأصنام المشار إليها فى الآيات: هل لها أرجل أو أيد أو أعين أو آذان، لتمشى أو تبطش أو تبصر أو تسمع؟ فلأى شىء يا تُرى يعبدها أولئك العابدون، وهم يرونها أمام أعينهم بهذا العجز المزرى؟!

ثم يتوجّه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يتحدّاهم أن يضرّوه بأصنامهم تلك - وقد كانوا يهدّدون الرسول ﷺ بأن تلك الآلهة المزعومة ستصيبه بالضرر نتيجة مهاجمته إياها! - فيقول الله تعالى له: قل لهم: هلموا كيدكم الذى تهددون به، ولا تتأخروا (لا تنظرونى) وأرونى ماذا تستطيع آلهتكم أن تصنع! إن الله هو الذى يتولانى، وهو يتولى المؤمنين الصالحين ويحميهم ويرعاهم، أما آلهتكم فلا تستطيع أن تنصركم إن أراد الله بكم ضرًا ولا تستطيع حتى أن تنصر نفسها، وهى لا تسمع ولا تبصر. فهى لا تستحق العبادة ولا الدعاء.

* ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ١ - ٣].

* ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

٢ ـ ادعاء الولد لله:

يشترك فى هذه الضلالة اليهود والنصارى ومشركو العرب، وهى ضلالة واحدة وإن اختلفت صورها. فاليهود يقولون: عُزير ابن الله، والنصارى تقول: المسيح ابن الله، ومشركو العرب يقولون: الملائكة بنات الله.

والقرآن يتناول هذه الضلالة فيفنِّدها على نحو يُماثل ما يفنِّد به ضلالة الشرك، لأنها شرك فى الحقيقة وإن اتخذت صورة محددة، هى نسبة الولد لله سبحانه وتعالى:

* ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ١٠٣].

هذا النص الشامل يناقش قضية البنوَّة عامة، ويدخل فيه كل من يدعى لله ولدًا[١]: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وهو يبدأ بعرض رائع لآيات الله فى الكون، يشمل مجالات واسعة من السماوات والأرض والإنسان والنبات، تملأ الوجدان بحقيقة الألوهية، وتعرِّف الناس بربهم الحق، بحيث تبدو ضلالة المضلين بعدها غير ذات معنى، وغير ذات موضوع.

---

(١) الولد فى اللغة بمعنى المولود فيشمل البنين والبنات.

تبدأ الآيـات بتقرير أن الـله هو الذى يفلق الحب والنوى ليخـرج منه أنواع الزرع المختلفة. وهى حـقيقة يغفل عنها النـاس أحيانًا فيحسـبون أن الزرع ينبت من تلقاء نفسه، وما عليك إلا أن تبذر البذرة فى الأرض وترويها بالماء! نعم إنك تصنع ذلك، ولكن من الذى يفلق الحبة أو النواة فى باطن الأرض ليخرج منها النبتة الصغيرة التى تظل تنمو حـتى تثمر؟! أليـس هو الله الخالق سبـحانه؟ أليس هو الذى أودع فيـها خصائص النمو؟ أوليس هو الذى يأذن لكل حـبة بذاتها أن تنمو.. وإلا فلا نماء ولا إنبات؟!

والله هو الذى يخـرج الحى من الميت (كـمـا ينبت الزرع من الأرض المجـدبة)، ويخرج الميِّت من الحى (بعد أن تنتهى دورة الحيـاة فى الكائن الحى فيموت) وكلاهما يتم بقدر من الله.

ويجىء التعقيب بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟

ذلك هو الله الحق، الذى ينبت الزرع ويحيى ويميت. وهذه مجالات من مجالات قدرته. فهل من الشركاء من يفعل شيئًا من ذلك؟ فأنى تصرفون عن الحق وتتعاطون الإفك؟

وإذا كانت الجولة الأولى فى الحَبِّ والنَّوى، والحى والميت على الأرض، فالجولة الثانية فى الأفلاك: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

إن الله فالق الحَبِّ والنَّوى هو كذلك فالق الإصباح، أى مخرج الصبح من باطن الظلمة، كما تخرج النبتة المشرقة من باطن الأرض المظلم[(١)]. وهو الذى جعل الليل سكنًا. فمن حكمته سبحانه أن جعل أكثر الكائنات الحية التى خلقها تنشط للنور فى النهار وتسكن للظلمة فى الليل[(٢)]. وبمناسبة الحديث عن النهار والليل يأتى الحديث عن الشمس والقمر فيقول: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أى أن الله جعل الشمس والقمـر حسـبانًا، تحسب بـهما الأيام والشـهور والسنين كـما أن لكل منهـما دورة محـسوبة بالحسـاب الربانى الدقيق الذى لا يختـل قيد شـعرة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

---

(١) تأمل روعة الأسلوب القرآنى وبلاغته الأخاذة.

(٢) هناك من خلق الله كائنات تنشط فـى الليل وتسكن فى النهار ولكن الإشارة هنا للإنسـان خاصة ثم لمعظم الكائنات.

﴿الْعَلِيمِ﴾، وبسبب هذا الانضباط الدقيق يحسب بهما الإنسان الوقت، ويتعلم الإنسان الدقة من دقة الكون من حوله!

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فتعرفوا بها اتجاهكم فى ظلمة الليل حيث لا نور ولا دليل.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وأى إنسان يطلع على هذه الآيات ويعلم دلالتها لابد أن يهتدى إلى الله الواحد الذى لا ينبغى له شريك.

ثم هذه جولة ثالثة فى محيط الإنسان:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ من آدم الذى خلقه الله من تراب، ثم جعل منه زوجه حواء.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ إذ جعل الله النسل بعد ذلك يأتى بالتزاوج، الذى يتم فيه التقاء الخلية المذكرة المستقرة فى صلب الرجل بالخلية المؤنثة فى مستودعها بالرحم.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ فالأمر فى حاجة إلى تدبّر واعٍ يدرك هذه المعجزة فيدرك عظمة الصانع الحكيم.

وهذه الجولة الأخيرة فى عالم النبات:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فالنبات كله يحتاج إلى الماء، ولا يخرج من الأرض بغير رىّ.

ثم يأخذ السياق فى التفصيل بعد الإجمال:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

فهذا هو النبات كله يخرج أخضر طريا فى مبدأ الأمر ثم يأخذ طريقه فى النمو، فيخرج منه الحب المتراكب (مثل سنابل القمح والشعير وغيرها)، ويخرج منه النخل بأنواعه، والأعناب والزيتون والرمان، مختلف الأشكال والألوان والروائح والمذاقات، بل إن كل نوع من هذه الأنواع تجد فى ثماره المتشابه وغير المتشابه. . .

وحين يتملى الإنسان بخياله هذه اللوحة الجميلة الممتلئة بأشكال النبات المختلفة، فإن وجدانه ينفعل بها، ويحب أن يتأمل فيها ويشبع نظره منها..

والسياق القرآني بالفعل يدعوه إلى ذلك!

إنه هنا لا يدعوه إلى الأكل منها! ففي مكان آخر من السورة يذكر الأكل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ولكنه هنا في هذا السياق لا يأمر بالأكل ولا يوجّه إليه، إنما يوجّه إلى شيء آخر: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

انظروا إلى هذا الجمال البديع الذي أخرجته يد الصانع المبدع..

املئوا وجدانكم ومشاعركم بهذا الجمال، ثم تدبروا... فماذا تجدون في هذا المنظر الرائع الأخاذ؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فكل من ينظر ويتدبر يجد الآيات التي تهديه إلى الإيمان.

وهنا ـ والوجدان في قمة تأثره ـ يعرض السياق ضلالة المشركين فتبدو ـ بعد هذه الآيات كلها ـ سخفًا لا معنى له وأمرًا تشمئز منه النفس ولا تسيغه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ فهم من خلقه، ومع ذلك فهؤلاء المشركون يجعلونهم شركاء له!

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اختلقوا بنين وبنات ينسبونهم إلى الله بغير علم.. وأي علم هذا الذي ينتج هذه الأضاليل؟! ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي أبدعها على غير مثال. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يناقشهم بمنطقهم: كيف يكون له ولد وليست له زوجة؟ وقد نسوا ـ وهم يلفّقون هذه الأبناء والبنات لله ـ نسوا أن يلفّقوا له زوجة كذلك لتلد هؤلاء البنين والبنات!

ثم إنه سبحانه وتعالى هو خـالق كل شيء ـ وهم يُقرُّون بذلك ـ فأى شيء يدعو الخالق أن يتـخذ بنين وبنات؟ ما حاجـته إليهم وهو الذى يقـول للشيء كن فيكون، وهو صـانع هذه الآيات المعروضـة فى السمـاوات والأرض . . . ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؟

ثم يجيء التـعـقيب الأخـيـر بعـد عرض آيات الخلـق، ومناقشـة الضـالين فى ضلالتهم، يحسم الأمر كله:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. ذلكم. . . الخـالق الذى رأيتم آيات خـلقـه. . هو ربكم الذى لا إله إلا هو. . فاعـبدوه وحده مخلصين له الديـن، لا تشركوا به شريكًا من ولد مـزعوم أو آلهة مدّعاة. . وهو المسيطر المتصرف فى كل شيء: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. لا تراه الأبصار فى الدنيا، بينما يرى هو سبحانه كل الأبصار من عليائه، وهو اللطيف الخبير بخلقه وما يدور فى نفوسهم من أفكار ومشاعر، سواء منهم المهتدى والمُمْعن فى الضلال.

* ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

٣ ـ إنكار البعث:

كان من أشد ضلالات العرب فى الجاهلية إنكارهم على الله أنه يستطيع أن يبعث الموتى بعـد أن مـاتوا وتحولـوا إلى تراب! وبلغ بهم الأمـر فى التكذيب أنهم كـانوا يعـجّبون مـن الرسول ﷺ حين يحـدثهم بأمر البـعث حتى روى القـرآن عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

وكان القـرآن يعالج هذا الأمر بـتعريفـهم بقدرة الله الخالق، التى لا تـنتهى عند

حد، ولا يُعْجِزُها شيء فى السماوات والأرض، وأن الذى خلق الخلق أول مرة من العدم قادر على أن يعيد خلقه مرة أخرى، ثم يريهم من آيات الإحياء حولهم ما يلفت نظرهم إلى عملية إخراج الحى من الميت معروضة أمامهم فى كل لحظة. والذى يستطيع أن يخرج الحى من الميت يستطيع حين يشاء أن يبعث الموتى ويردهم إلى الحياة:

* ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١ - ١٥].

تعرض الآيات مجالات القدرة الإلهية المعجزة التى تخلق وتحيى الموات، فيبدو إنكار البعث بعدها تفاهة فى الفكر وسخافة فى العقل، لا تصدر عن إنسان سوى التفكير.

تبدأ الآية الأولى بذكر القرآن المنزل من الله على رسول الله ﷺ يدعو إلى الهدى، ولكن الكافرين الذين نزل القرآن لهدايتهم عجبوا حين جاءهم المنذر ﷺ يحدثهم عن البعث فقالوا: ﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾. وموضع العجب عندهم أنهم لا يتصورون أن الله يقدر على بعثهم بعد أن يصيروا ترابًا فيقولون: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾.

ثم تقرر الآيات أن الله العليم سبحانه يعلم كل من يموت منهم فلا يضيع منهم أحد خارج علم الله، وأن عنده سبحانه كتابًا مسجلاً فيه كل شىء. وذلك ردًا على توهمهم أنهم إذا ضاعوا فى الأرض وأصبحوا ترابًا فقد ضاع كل أثر لهم على

الإطلاق! فهم يحسبون أنه ما دام قد ضاع منهم هم فقد ضاع من الله أيضًا ولم يعد الله قادرًا على الإتيان به فضلاً عن بعثه من جديد!

ثم يلفت السياق نظرهم إلى آيات الخلق من فوقهم ومن حولهم. فهذه السماء الضخمة وهذه الأرض الممتدة إلى آخر مدى النظر وما فيها من جبال وزروع . .

ثم يعدّد الآيات الدالة على قدرة الله على الإنشاء والإحياء، فمن الماء النازل تنبت فى الأرض جنات من الفاكهة وزروع تنتج الحب والنخيل الباسقات وكلها رزق للعباد. وبالمطر يحيى الله الأرض الموات المجدبة. وبالكيفية ذاتها يحيى الموتى. ويخرجهم من الأرض كما يخرج النبات والزرع. إن عملية الإحياء واحدة فى الحالين، والذى يقدر على الأولى يقدر على الثانية، ولكن البشر المطموسى البصيرة لا يدركون هذه الحقيقة، فيسلمون بالأولى ولا يسلمون بالثانية.

ويذكر السياق أنهم ليسوا وحدهم الذين يكذبون بالبعث؛ فقد كذبت قبلهم جاهليات كثيرة يعدد منهم السياق قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادًا وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة (الذين أرسل إليهم شعيب) وقوم تبع. ثم يقدم النذير للعرب المنكرين: إن هؤلاء الأقوام كلهم كذبوا فدمّر الله عليهم وحقّق فيهم وعيده، وهؤلاء إن أصروا على تكذيبهم فليس لهم عند الله إلا ذات المصير.

ويختم السياق بهذا السؤال الإنكارى الذى يقرر الحقيقة: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾؟ لقد خلق الله الكون كله من قبل، وها هم أولاء يرون الكون متماسكًا أمامهم مما يدل على عظمة الخالق وقدرته، فعلى أى أساس يشكون فى قدرته على البعث؟!

* ﴿الـمـر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ١ ـ ٥].

* ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ⑺⑻ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ⑺⑼ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ⑻⑽ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ⑻① إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ⑻② فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٣].

* * *

تثبيت الإيمان

لا ينتهى دور القرآن مع النفس البشرية عند بيان العقيدة السليمة ومناقشة الانحرافات التى تقع فيها الجاهلية بشأن حقيقة الألوهية والربوبية، إنما يخطو خطوة أخرى ليصل إلى تثبيت تلك العقيدة الصحيحة، وتركيز الإيمان بالله الواحد المنزه عن الشريك والشبيه.

ووسيلته الكبرى إلى ذلك هى التذكير: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وسائل تثبيت الإيمان فى النفس البشرية:

١ ـ التذكير الدائم بعظمة الله التى لا تُحدّ، وآيات قدرته فى الآفاق والأنفس، حتى يخشع القلب ويستسلم لله.

٢ ـ التذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ويحصى عليه أعماله، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة، حتى تصبح تقوى الله جزءًا لا يتجزأ من مشاعر القلب، وركيزة ثابتة فى الضمير.

٣ ـ كذلك يوجه القرآن القلب البشرى إلى ذكر الله دائمًا فى حالة السراء والضراء، ففى السراء يذكر الله شاكرًا لأنعمه، وفى الضراء يذكر الله صابرًا ومتطلعًا إليه سبحانه ليكشف عنه السوء.

٤ ـ يورد القرآن القصص التى تثبّت الإيمان، قصص الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين الذين صبروا على الأذى حتى جاءهم نصر الله، وقصص الكفار الذين كذّبوا وعاندوا حتى دمر الله عليهم بكفرهم.

٥ ـ أخيرًا يرسم القرآن صورًا محببة للمؤمنين وصفاتهم، وما ينتظرهم من الجزاء فى الآخرة مخلدين فى الجنات، وصورًا كريهة منفّرة للكافرين وصفاتهم، وما ينالهم من العذاب يوم القيامة.

ويظل القرآن يكرِّر هذه التوجيهات حتى ترسخ فى النفس، وحتى يصبح الله حاضرًا فى القلب لا يغفل الإنسان عن ذكره، فتستقيم مشاعره، ويستقيم

سلوكه، ويصبح عبداً ربَّانيًا مقربًا إلى الله فى الدنيا والآخرة، فيرزقه الله الطمأنينة والسعادة فى الدنيا، ويمنحه فى الآخرة جنته ورضوانه.

وفيما يلى نعرض نماذج من آيات الكتاب الكريم كما فعلنا فى الفصول السابقة من الكتاب:

١ ـ التذكير بعظمة الله وآيات قدرته فى الآفاق والأنفس:

سبق لنا أن ذكرنا نماذج من الآيات فى الفصول السابقة كلها تتحدث عن عظمة الله التى لا تحدّ، وقدرته التى لا يعجزها شىء فى السماوات ولا فى الأرض. وبيَّنا أن القرآن يستخدم آيات الله فى الكون حين يخاطب الوجدان، وحين يخاطب العقل، وحين يرد على دعاوى المبطلين، سواء فى الشرك أو فى ادعاء الولد أو فى إنكار البعث أو إنكار وجود الله، إن وجد فى الأرض من ينكر وجود الله!

وقد كانت النماذج السابقة كلها تكفينا لبيان اهتمام القرآن بإبراز هذه الآيات، لتوضيح العقيدة السليمة وتركيزها فى النفس كذلك.

ولكن كثرة النماذج فى القرآن الكريم تجعلنا لا نكتفى بما سردناه منها من قبل، على كثرته، بل نضيف إليه نماذج جديدة، تستطيع أن تراجعها على ضوء الأمثلة المشروحة فى الكتاب من قبل. ولكن ينبغى أن نعرف أن القرآن لا يعرض هذه الآيات لكى تكون مجرد معلومات تستقر فى ذهن الإنسان وينتهى بها الأمر هناك، وإنما يريد الله سبحانه وتعالى من التذكير المستمر فى القرآن بآياته فى الأنفس والآفاق أن تؤثر هذه الحقائق فى القلب البشرى تأثيرًا دائمًا لا ينتهى عند لحظة التأمل العارضة، بل يظل فى القلب ويستقر فيه، حتى يتحول الإيمان بالله إلى حقيقة راكزة فى نفس الإنسان، تنعكس فى سلوكه الواقعى.

فما قيمة أن أعرف أن الله خلق السماوات والأرض، وأن له آيات معجزة فى كل شىء خلقه، ثم ينصرف قلبى بعد ذلك عن ذكر الله، وينصرف عن طاعته فيما أمر به وما نهى عنه؟!

وما قيمة أن أعرف أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له، وأنه خلق الكون بقدرته، وأبدع فيه ما أبدع، ثم لا أسأل نفسى حين أقوم بعمل من الأعمال: هل هذا العمل يرضى الله أم لا يرضيه؟!

كلا! لا قيمة إذن لهذه المعرفة!

ولقد كان العرب فى الجاهلية يعرفون أن الله هو الذى خلق السماوات والأرض، وهو الذى خلقهم هم أنفسهم، والقرآن يسجل عليهم ذلك: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ولكنهم - مع علمهم بهذا - لم يكونوا يعبدون الله حق عبادته، وكانوا يشركون به آلهة أخرى، ويخالفون عن أمره فيما أمر به وما نهى عنه، ولذلك لم تنفعهم معرفتهم شيئًا، وسماهم الله جاهليين، وقال عنهم إنهم لا يعلمون.

إنما يريد الله سبحانه وتعالى من عباده أن يعرفوا عظمته وجلاله ليعبدوه حق عبادته ويطيعوه فى سلوكهم الواقعى. ولذلك يظل يذكرهم بآياته فى السماء والأرض وفى أنفسهم حتى تخشع قلوبهم، ويستقر فيها الإيمان، ويتحول إلى عمل فى واقع الأرض.

(أ) آيات الخلق والإبداع فى السماوات والأرض:

* ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٤٠].

* ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ١٩ - ٢٢].

* ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا

وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ⑱ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ⑲ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ [نوح: ١٥ ـ ٢٠].

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ⑥ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⑨ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⑫ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑭ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦].

* ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ㉔ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ㉕ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ㉖ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ㉗ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ㉘ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ㉙ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ㉚ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ㉛ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

* ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ⑰ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ⑱ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ⑲ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

(ب) آيات القدرة المعجزة في الأنفس:

* ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

* ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

* ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑥ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٦ ـ ٩].

* ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ㊷ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ㊸ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ㊹ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ㊺ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص: ٦٧ ـ ٧١].

* ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ

أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

* ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧].

(جـ) فى نعم الله على العباد:

* ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

* ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ۝٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٧ ـ ٢٢].

* ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٠ ـ ١٤].

* ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢].

* ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٠ ـ ١٣].

* ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

(د) في تدبير الكون بغير شريك:

* ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

* ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

* ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١١ - ١٣].

* ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ[1] (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

* ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

---

(١) هذه الأيام الأربعة يدخل فيها اليومان السابقان اللذان خلق الله فيهما الأرض، فتكون بالإضافة إلى اليومين المذكورين فى الآية التالية، الخاصين بخلق السماوات ستة أيام فى مجموعها.

* ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

(هـ) فى تأييد الرسل بالمعجزات:

* ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ١٧ - ٢٤].

* ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

* ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٧ - ٩].

* ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

* ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

٢ ـ التذكير بمراقبة الله للإنسان:

* ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

* ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

* ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

* ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: ٢ ـ ٥].

* ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

* ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

٣ ـ توجيه القلب البشري إلى ذكر الله:

* ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

* ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

* ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

* ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

* ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

٤ ـ قصص الأنبياء:

ترد هذه القصص فى كثير من سور القرآن وخاصة فى سورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة مريم، وسورة طه، وسورة الأنبياء، وسورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القصص. ويمكنك مراجعة هذه السور فى المصحف، وستجد قراءتها سهلة ميسرة. وستجد خاصة فى «الأعراف» و«هود» و«الشعراء» أن القرآن يلفت نظرنا إلى أمور معينة فى حياة هؤلاء الأنبياء:

أولاً: أنهم كلهم جاءوا بكلمة واحدة هى «لا إله إلا الله» «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره»، وهذا يبين لنا أن أهم شىء يرسل الله الرسل من أجله هو تعريف البشر بربهم وخالقهم، ليعرفوا أنه إله واحد وليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

ثانيًا: أنهم كلهم قد لقوا التكذيب من قومهم، وتعرضوا للاضطهاد والإيذاء والتهديد بالقتل أو الطرد، ولكنهم لم يتنازلوا عن رسالتهم، ولم يتخلوا عن دعوتهم، وهذا يبيِّن لنا أن العقيدة هى أغلى شىء فى حياة الإنسان، وأنه مهما أوذى فى سبيل عقيدته فلا ينبغى له أن يفرط فيها أو يتساهل فى أمرها.

ثالثًا: أنهم حين تعرضوا للتكذيب والاضطهاد لجئوا إلى ربهم، يشكون إليه ما فعله قومهم بهم، ويستغيثون به أن يفرّج كربتهم وينجيهم ومن معهم من المؤمنين، ولكنهم صبروا على الأذى ولم يغيروا موقفهم، وهذا يعلّمنا أن المؤمن فى موقف الشدة يلجأ إلى الله، ويتوجه إليه بالدعاء لكى يخلصه من شدته، ولكنه يثبت ويصبر حتى يأتى نصر الله، ولا يضعف ولا ينهار.

رابعًا: أن الله كان دائمًا ينـصر رسله والذين آمنوا فى نهاية الأمر، بعـد أن يصبروا على الشدائد ويحافظوا على عقـيدتهم ولا يتخلوا عنها أبدًا. وهذا يعلّمنا ألا نقنط من رحمة الله أبدًا مهما اشتد بنا الضيق، ونتطلع إلى الله دائمًا أن يرفع عنا الكرب مادمنا محـافظين على صلتنا بالله، مستقيمين على أمـره، مهتدين بهداه.

خامسًا: وفى القصص عبرة أخرى كذلك هى أن أهل الباطل مهما بدا فى وقت من الأوقات أنهم متمكّنون فى الأرض ومسيطرون، فإن الله يملى لهم ولكنه لا يفلتهم من عقابه فى الدنيا ولا فى الآخـرة. كما يقول الرسول ﷺ: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[1].

وإليك بعض النماذج من القصص القرآنى:

* ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

* ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ

---

(١) رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه.

الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٨].

* ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ٩ ـ ١٤].

* ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا

صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ١٠٤].

* ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨ ـ ٤٠].

* ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٦].

٥ ـ صور المؤمنين والكافرين:

يرسم القرآن صوراً وضيئة وجميلة للمؤمنين يعرض فيها خصالهم وأحوالهم، وأثر الإيمان فى قلوبهم وسلوكهم، تجعلنا نحبهم ونحب أن نكون منهم، لتنطبق علينا تلك الأوصاف الجميلة، ولنحظى برضاء الله فى الدنيا والآخرة.

كما يرسم القرآن فى ذات الوقت صوراً منفِّرة للكافرين وخصالهم وأحوالهم، وأثر بعدهم عن الإيمان فى قلوبهم وسلوكهم تجعلنا ننفر منهم ونكره أن نكون مثلهم، حتى لا نتعرض لمقت الله وغضبه فى الدنيا والآخرة.

وهذه الصور والأوصاف كثيرة فى القرآن؛ لأن فيها دروسًا تربوية يربينا بها الله سبحانه وتعالى حتى تستقيم فطرتنا ويستقيم سلوكنا وتصلح أحوالنا.

وإليك بعض النماذج منها:

* ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٤].

تبدأ الآيات بموازنة بين المؤمنين والكافرين يتبين منها لأول وهلة أنهم مفترقون بعضهم عن بعض فى صفاتهم ومقومات حياتهم وفكرهم. والقرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ من ربه هو الحق، بينما يصف الآخرين بأنهم عُمْىٌ. ثم يسأل هذا السؤال الإنكارى (أى الذى جوابه دائمًا: لا): ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾؟ والجواب لابد أن يكون: لا! فمن يقول إن الأعمى كالبصير، وإن من يعلم كمن لا يعلم؟!

والتعبير القرآنى الجميل يوحى إلينا بأن من يعلم أن القرآن والوحى حق هو المبصر، الذى يسير فى الطريق على نور، ولا يتخبط فى سيره لأنه يرى ما حوله. بينما الذى يشك فى الوحى ولا يتبعه هو الأعمى الذى يتخبط فى الطريق لأنه لا يراه. وهذه حقيقة، فإن المؤمن يعرف ـ من وحى إيمانه ـ ما هى غايته فى الحياة، وما الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ليصل إلى غايته. فغايته هى إرضاء الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه، ووسيلته هى الأعمال الصالحة، هى الطاعة لأوامر الله. بينما الكافر لا يعرف لماذا يعيش، إلا لإرضاء ملذاته القريبة، غافلاً عن النهاية التى تنتظره فى آخر الطريق.

ثم يجىء التعقيب فى نهاية الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾، فالذين لهم عقول هم الذين يتذكرون، وغيرهم لا يتذكر ولا يعتبر. والتعبير القرآنى يوحى إلينا مرة أخرى أن الكافر ليس من أولى الألباب، أى ليس له عقل. ذلك لأنه لا يفكر بهذا العقل الذى وهبه له الله ليفكر ويتدبر، ويعرف عن طريق تدبره حقيقة الألوهية والربوبية.

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝١٩ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ .
وأولو الألباب هم الذين وصفتهم الآية بأنهم الذين يعلمون أن ما أُنزل على الرسول ﷺ هو الحق. ولكن الآية الثانية تبيِّن لنا حقيقة عظيمة ينبغى لنا أن نتدبرها.

هل المطلوب من الإنسان هو أن «يعلم» مجرد علم بأن القرآن حق؟ فقط؟! وهل يكفى هذا عند الله؟

إن الآية الثانية وما بعدها تبين لنا أثر هذا العلم فى حياة الإنسان وسلوكه وتفكيره وشعوره، فهؤلاء الذين علموا أن القرآن حق يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ﴿ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ .

إذن فليس المطلوب هو مجرد «العلم»! بل إن هذا العلم ينبغى أن يحدث آثاره فى حياة الإنسان، وإلا أصبح بلا معنى، وأصبح وجوده وعدمه سواء.

إن الصفة الكبرى التى يتصف بها أولئك العالمون بأن القرآن حق هى أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. ولا تحدد الآية عهدًا معينًا ولا ميثاقًا معينًا، إنما تشمل كل عهد وكل ميثاق مع الله. والعهد الأكبر هو الذى أودعه الله فى الفطرة وأشهد الفطرة عليه، وهو عبادة الله الواحد بلا شريك: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وكذلك العهد الذى تذكره سورة يس: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

ولا تنتهى صفة المؤمنين بأنهم هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، بل يستمر السياق ليصفهم بأوصاف جميلة أخرى: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾. ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ أى: يصلون كل ما أمر الله به أن يوصل، لأن «ما» تفيد العموم. والتعبير بإطلاقه هكذا دون تحديد يشمل كل شىء أمر الله بوصله. وفى مقدمة كل شىء صلة الإنسان بربه بطبيعة الحال، فهذه أول صلة أمر الله بها أن توصل: صلة العبادة الحقة لله. ويأتى بعدها صلات الإنسان بوالديه، وصلاته بذوى قرباه، وصلاته

بالمسلمين جميعًا يحب لهم الخير، ويحب لهم كما يحب لنفسه. وهكذا يشمل هذا التعبير الموجز كثيرًا من تصرفات الإنسان.

ومع القيام بهذه الصلات التى أمر الله بوصلها فهم يخشون ربهم، وهذه الخشية تجعلهم يتصرفون فى أمورهم بما يرضى الله، فيتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص، خشية أن يغضب الله عليهم، وكذلك يخافون سوء الحساب، فيتجنبون الأعمال والأقوال التى تعرضهم للحساب الشديد.

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾، فهم يصبرون على الشدائد لأنهم يبتغون وجه الله، ويتطلعون إليه بالرجاء، ولكنهم صابرون، لأنهم يعلمون أن ما أصابهم هو قدر من الله، فيرضون به تقربًا لله وتحببًا إليه ليرضى عنهم.

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾، وإقامة الصلاة تقتضى توفية كل أركانها، وأدائها بالوقار والخشوع اللازم لها.

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً ﴾، فهم لا يبخلون بأموالهم، وكذلك لا ينفقونها رياء، وإنما ينفقونها لوجه الله فى السر والعلانية.

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾، يتلقون السيئة ويردون عليها بالحسنة نبلاً منهم وترفعًا، وتقربًا إلي الله، لا ضعفًا ولا استخذاءً، وإنما كما يقول الله سبحانه وتعالي: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهكذا رأينا أن أولى الألباب، الذى يعلمون أن القرآن حق، يتصفون بكل هذه الصفات النبيلة الرائعة. تصرفاتهم نظيفة، مشاعرهم نظيفة، كل سلوكهم جميل. لماذا؟ لأنهم عرفوا الحق، وهذه هى المعرفة التى يريدها الله من عباده. فحين يعرفون حقيقة الألوهية ينعكس ذلك على سلوكهم فيصبح على هذه الصورة الرفيعة المحبوبة التى يحبها الله ويحبها الناس.

وما جزاؤهم على ذلك كله؟!

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ لهم العاقبة الحسنة فى الدار الآخرة.

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾، ويا لها من جائزة جميلة على السلوك الجميل!

ولكن الله يتفضل عليهم بأكثر من ذلك! ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، فهم لا يدخلون وحدهم، ولكن يدخل معهم الأشخاص الذين يحبونهم من آباء وأزواج وذرية. فيا لها من متعة: متعة الصحبة فى جنات النعيم، جزاء الاستقامة على أمر الله.

وهل ينتهى الأمر عند ذلك؟ كلا! إن فضل الله يشملهم بأكثر من ذلك!

أرأيت حين تكون ضيفًا عند أحد الناس، فيدخل من باب الحجرة فيحييك. أليس ذلك يسر قلبك ويشعرك بالحفاوة والتكريم؟ وإذا كرر الدخول عليك بالتحية؟ ألا يسرك ذلك أكثر؟ وإذا كان أهل البيت كلهم يجيئون إليك ويظهرون حفاوتهم بك فكيف يكون شعورك؟ ألا تحس بالسعادة والرضى والارتياح؟

إن الله يحتفى بك فى الجنة، فيرسل ملائكته يحيونك! ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، يدخلون عليهم بالتحية والحفاوة والتكريم، يقولون: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

ألا يروقك هذا النعيم؟! ألا تحب أن تكون واحدًا من هؤلاء الذين يكرمهم الله هذا التكريم؟ بلى ولا شك!

والآن قارن حال الفريق الآخر، الذى رفض الهدى وأصر على أن يكون أعمى لا يبصر. إنه يمثل الصورة المقابلة تمامًا في كل شيء! ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

فمن أى الفريقين تحب أن تكون، بعد أن رأيت مصير هؤلاء ومصير هؤلاء؟!

* ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦].

* ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩].

بهذه الوسائل كلها يصل القرآن إلى تثبيت الإيمان فى القلب البشرى.

فحين يحس الإنسان بوجود الله معه فى كل لحظة...

حين يحس بآيات القدرة فى كل شىء فى الكون من حوله، وفى ذات نفسه..

حين يحس أن ماضى البشرية كله كان يهيمن عليه قدر الله وتدبيره... وأن الحاضر كذلك والمستقبل..

حين يحس أن الدنيا كلها ملك لله، والآخرة كذلك...

حين يحس أن أعماله كلها محسوبة عليه، وسيحاسب عليها..

حين يرى صور الرسل الكرام وصبرهم وتضحياتهم..

حين يرى صور المؤمنين كريمة نظيفة جذابة، وصور الكافرين قبيحة منفِّرة..

حينئذ يمتلئ قلبه بخشية الله وتقواه، وبالتطلع فى ذات الوقت إلى حبه ورضاه..

وذلك هو الإيمان الصادق الذى يحبه الله، ويقرب به عبده إليه، فيصبح واحدًا من أولياء الله، الذين يقول الله عنهم فى كتابه الكريم: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

* * *

تحكيم شريعة الله

مر بنا فى الفصل السـابق ونحن نتحدث عن صور المؤمنين والكافرين أن مـعرفة الحق المنزل من عند الله لابد أن يكون لـها مقـتضىً واقـعىٌ فى حيـاة البشـر. فهى ليست معرفة تُخْتَزَن فى الذهن، إنما ينبغى أن تتحول إلى سلوك واقعى.

وأول مجـال لتطبيق هذه الحـقيـقة، وأبرز صورة لـها، هى تحكيم شريـعة الله، والتقيّد فى أمور الحياة كلها بمنهج الله.

إن شهادة «لا إله إلا الله» هى أول ما ينطق به المسلم، وهى مع تكملتها «محمد رسول الله» إعلان الدخول فى الإسلام.

فما معنى هذه الشهادة؟ وما مقتضاها؟

معناها أن الشخص الذى ينطق بالشهادة قد أقر بالعبودية لله وحده، فقد أقر بأنه لا يوجد إله إلا الله، أى لا يوجد مـعبود بحق إلا الله. فمن شـأن الإله أن يُعبد، ومادام لا يوجد إلا إله واحد هو الله سبـحانه وتعالى، فليس هناك إذن من تنبغى له العبادة إلا الله، ولا يجوز التوجه بالعبادة لسواه.

فما معنى العبودية لله؟

ترى إذا نحن نطقنا بالشهادة بألسنتنا وحدها ولم نقرّ بها فى قلوبنا نكون قد عبدنا الله؟!

وإذا نحن نطقنا بهـا بألسنتنا ثم أعلنّا ـ بأقـوالنا وأفعـالنا ـ أن أوامر الله ليـست ملزمة لنا، وأن من حقنا أن نخالفها كلها، أو نتخير منها أشياء ننفذها وأشياء أخرى لا نلتزم بتنـفيذها.. هل نكون قـد عبدنا الـله؟ هل تكون قلوبنا قد أقـرت بالفعل بالعبودية لله وحده؟

كلا! فالإقـرار معناه الالتزام! وإلا فهى كلمـة تُقال باللسان، ولا رصيـد لها من الواقع!

وقد أنزل الـله شريعـة معينـة تحتوى أحكـام الحلال والحرام، وأمـر بتنفيـذ هذه الشريعـة فى واقع الأرض. فإذا جـاء إنسان يقول بلسـانه: «لا إله إلا الله، محـمد رسول الله»، ثم يرفض أن يتحاكم إلى شريعة الله، ويضع لنفسه حلالاً غير ما أحل

الله، وحرامًا غير ما حرم الله، فما قـيمة الكلمة التى يقولها بلسانه؟ هل هى كلمة صادقة؟ وهل تنفعه عند الله؟

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمـران:١٩]. والإسلام كـما قلنا فى أول الكتاب هو إسلام الوجه لله، أى التوجـه الكامل إلى الله، والخضوع الكامل لأوامر الله. التوجه الكامل لله فى الاعتقاد، فلا يعتقد أن هناك من يخلق أو يرزق أو يضر أو ينفع أو يحيى أو يميت إلا الله. والتوجه الكامل لله فى شعائر التعبد، فلا يصلى إلا لله، ولا يصـوم إلا لله، ولا يزكى إلا لله، ولا يحج إلا لله. والتوجـه الكامل لله فى الدعاء، فلا يدعو إلا الله. والتوجه الكامل لله فى أصول الحكم، فلا يحكم إلا بما أنزل الله. والتوجه الكامل لله فى الأخلاق والسلوك، فلا يتخذ قيمًا أخلاقية ولا قواعد سلوكية إلا ما أمر به الله.

هذا هو الإسلام الحقيقى، وهذا هو المدلول الحقيقى لشهادة أن لا إله إلا الله.

* * *

والمجتـمع المسلم هو المجتـمع الذى يلتزم بهـذا الأمر. فتكون أحـكامه، وتكون أفكاره ومعتقداته وأخلاقه وسلوكه جميعها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله.

وحين يتم ذلك يكون الله هو المعبود حقًا فى ذلك المجتمع.

إنه لا يكفى أن نعبـد الله داخل المسجد، بإقامـة الشعائر التعـبدية هناك، إذا كنا نخرج من المسجد فتكون لنا وجهة أخـرى غير الله، ومصدر آخر نتلقى منه أفكارنا ومعتقداتنا وسلوكنا وأحكام حلالنا وحرامنا غير الله.

ما قيمة تلك الشعائر التعبدية التى أقمناها إذن داخل المسجد؟

إن القيام بالعبـادة داخل المسجد يجب أن يكون معناه الحقيـقى أننا أقررنا وشهدنا بالعبودية لله وحـده، فجئنا نؤدى فرائض العبادة التى أمرنا بهـا الله. فإذا كنا بمجرد خروجنا من المسجـد نتجه إلى مصدر آخـر غير الله، نستمـد منه أحكامنا وشرائعنا ومنهج حياتنا، فـمعنى هذا أننا اتخذنا إلهين اثنين فى الحقيقـة لا إلهًا واحدًا! فالإله الأول هو الذى عبدناه داخل المسـجد بشعائر التعبد من صـلاة ودعاء، والإله الثانى هو الذى عـبدناه خـارج المسجـد، وتلقينـا منه أحكام الحلال والحـرام، وتنظيمـات المجتمع وعلاقات الأفراد! والله يقول لنا محذرًا فى كتابه العزيز:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

فهل نكون قد عبدنا الله الواحد - الذى أقررنا بوحدانيته بألسنتنا - إذا خصصناه بجزء واحد من العبادة ثم أخرجنا بقية العبادة عن اختصاصه سبحانه وتعالى؟ أم نكون فى الحقيقة قد أشركنا به إلهًا آخر، وكذبنا فى شهادتنا التى شهدناها بألسنتنا، لأننا نقضناها فى واقع حياتنا؟

وهل يتقبل الله منا ذلك؟ هل يتقبل منا أن نذهب لعبادته داخل المسجد، ولو تنسّكنا هناك وذرفنا الدموع من شدة التأثر، ثم نوليه ظهورنا أول ما نخرج من المسجد، ونتجه إلى سواه، نستمد منه منهج الحياة؟

فلننظر ماذا يقول الله لنا فى هذا الأمر الخطير: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فيقرر الله بكلام واضح حاسم أن الإيمان ليس زعمًا باللسان، وإنما محك الصدق فى هذا الزعم هو التحاكم إلى شريعة الله.

ولنتدبر الآيات الخاصة بهذا الشأن من أولها:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ(١) وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥].

---

(١) كل حكم غير حكم الله فهو طاغوت. ولفظ الطاغوت يطلق فى القرآن على كل شىء يتّبعه الناس ويعبدونه غير الله، فالأصنام طواغيت، وحكم غير الله طاغوت.

بدأت الآيات بذكر قوم يزعمون أنهم آمنوا بالله وآمنوا بالقرآن، ثم هم يريدون أن يتحاكموا لغير شريعة الله، ثم انتهت بتقرير ربانى حاسم أنهم لا يؤمنون حتى يتحاكموا إلى شريعة الله، ويسلموا فى داخل أنفسهم أنها هى الشريعة التى يجب التحاكم إليها، وإلا فهم على وضعهم الحاضر غير مؤمنين.

والقرآن واضح جدًا فى تقرير هذه الحقيقة. خذ مثلاً هذه الآيات من سورة النور:

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥٢].

فهؤلاء قوم يقولون آمنا بالله وبالرسول. أى يقولون: نشهد أن لا إله إلا الله ونشهد أن محمدًا رسول الله! ويزيدون على ذلك فيقولون: أطعنا! فيزعمون الطاعة كذلك! ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾.

فما هو التولى الذى حدث من هذا الفريق فنفى عنه صفة الإيمان وقال الله عنه: ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾.

هذا هو الذى تبينه الآية التالية: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

فهذا الفريق الذى ينفى الله عنه الإيمان هو الذى يدعى لتحكيم شريعة الله فيعرض عنها. وسواء أكان إعراضًا قلبيًا، أم إعراضًا ظاهرًا، فكلاهما ينفى الإيمان ويلغى حقيقة الشهادة التى ينطقون بها بأفواههم؛ لأن الله يقرر فى آية سورة النساء التى سبقت الإشارة إليها أن التسليم القلبى شرط للإيمان: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

ثم يمضى السياق يبين حال أولئك المنافقين: أنهم إذا أعجبهم حكم الله فى أمر من الأمور، أو رأوه يحقق مصلحة لهم يأتون إليه مذعنين، ويندّد القرآن بهم على هذا السلوك المعوجّ، الذى يتحاكمون فيه إلى شريعة الله مرة ويعرضون عنها مرة حسب الأهواء والمصالح بعد أن ثبت عليهم وصف عدم الإيمان.

أما المؤمنون فحالهم مختلف، وآية إيمانهم أنهم يتحاكمون إلى شريعة الله. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وتقرر الآية الأخيرة أن هؤلاء الذين يتحاكمون إلى شريعة الله، ويطيعون الله ويخشونه هم الفائزون حقا.

من ذلك يتبين لنا بوضوح أن المحك الحقيقى للإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله. وأن الناس إن قالوا بألسنتهم: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وإن أدّوا جزءًا من العبادة المفروضة ثم رفضوا الالتزام ببقيتها فما هم بمؤمنين.

ويتبين لنا كذلك أن العبودية لله وحده ــ وهى مفهوم الإقرار بالشهادة ــ لا تتحقق فى عالم الواقع حتى يُعبَد الله عبادة شاملة، تشمل أصول الاعتقاد، وشعائر التعبد، والتحاكم إلى شريعة الله، وتطبيق منهج الله فى كل مجال من مجالات الحياة. وأن التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله لون من الشرك لا يختلف عن شرك العبادة بحال من الأحوال. يقول الله حكاية عن المشركين أنهم يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

والسياق يندّد بهم لأنهم يدّعون أن هذا الشرك الذى يمارسونه هو بأمر الله ومشيئته، مع أن الله أرسل إليهم الرسل يَنْهَوْنَهم عن الشرك. ولكن المهمّ فى الآية أن المشركين يحددون شركهم فى أمرين: ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾. فالتحليل والتحريم بغير إذن من الله كعبادة الأصنام والأوثان سواء بسواء.

* * *

والإسلام ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة، وليس هناك دين

منزل من عند الله هو عقيدة فقط بغير شريعة تحكم الحياة. إنما البشر هم الذين يصنعون ذلك من عند أنفسهم فيشركون! ولنرجع إلى القرآن لنرى حقيقة هذا الأمر:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٤٧].

فالتوراة التى أنزلت إلى اليهود فيها عقيدة وشريعة. والإنجيل الذى أنزل على النصارى فيه عقيدة وشريعة. وكذلك القرآن:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ ـ ٥٠].

حقيقتان تقررهما هذه الآيات:

الأولى: أن كل دين منزل من عند الله هو عقيدة وشريعة فى ذات الوقت. عقيدة تحكم الوجدان، وشريعة تحكم واقع الحياة.

والثانية: أن كل حكم غير حكم الله فهو جاهلية، وأنه لا يوجد إلا نوعان اثنان من

الحكم: حكم الله وحكم الجاهلية. فالمؤمنون هم الذين يتبعون حكم الله، أما الذين يتحاكمون لغير ما أنزل الله، أى يتبعون حكم الجاهلية فما أولئك بالمؤمنين.

* * *

وإذا كانت تلك هى حقيقة الدين الربانى، فإن البشر من عند أنفسهم هم الذين فَصَلُوا العقيدة عن الشريعة، وجعلوا الدين عقيدة فقط، وقالوا إن الدين صلة بين العبد والرب مكانها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة! إنما واقع الحياة تحكمه شرائع يضعها البشر لأنفسهم. وبذلك خرجوا من دين الله وأصبحوا فى الجاهلية! وهذا ما وقع للنصارى فى أوربا بصفة خاصة، إذ فصلوا العقيدة عن الشريعة وفصلوا الدين عن الدولة، ووقعوا فى هذا الفصام النكد الذى يقسم الحياة قسمين: قسمًا من اختصاص الله سبحانه وتعالى يُمَارس فى داخل الكنيسة، وقسمًا لا علاقة له بالله يُمَارس فى واقع الحياة.

وامتد بهم الفصام النكد ففصلوا بين الدين والعلم، وبين الدين والسياسة، وبين الدين والاقتصاد، وبين الدين وعلاقات المجتمع.. بل فصلوا بين الدين والأخلاق!

وماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة هى الحيرة والقلق والاضطراب الذى يحكم حياتهم، وحالات الجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية المتزايدة؛ لأن النفس البشرية الواحدة يحكمها إلهان مختلفان أو آلهة متعددة: إله فى داخل الكنيسة، وإله أو آلهة متعددة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والفكر والأخلاق. والله يمثل لهذه الحالة فى القرآن فيقول:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

والمثل مضروب لتقريب حقيقة الألوهية للعرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، وقد كان عندهم نظام الرق؛ فيقول لهم: هذا عبد يملكه شركاء متشاكسون كل منهم يأمره بأمر يختلف عن صاحبه ويجذبه إلى ناحيته، فهل تكون حاله فى هدوء وسكينة وسلام مثل العبد الذى يملكه رجل واحد فيوجّه إليه أوامر واحدة فى اتجاه واحد؟ طبعًا لا يستوون!

وهذا نفسه هو حال الجاهلية المعاصرة حين تعبد إلهًا فى المعبد، وآلهة أخرى

متشاكسة خارج المعبد، فلا تعرف السلام ولا الهدوء ولا الطمأنينة، إنما يحكم حياتها القلق والاضطراب.

* * *

ولقد كان المسلمون بمنجاة من هذا كله وهم يعبدون إلهًا واحدًا لا شريك له، يعبدونه فى المسجد وخارج المسجد. يتوجهون إليه باعتقاد صحيح فى وحدانيته، ويتوجهون إليه بشعائر التعبد، ويتوجهون إليه فى شئون حياتهم المختلفة، فيتحاكمون إلى شريعته وينفذونها فى واقع الحياة. وكانوا بذلك كما وصفهم الله فى كتابه: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولكن المسلمين ظلوا يبعدون عن حقيقة دينهم فهمًا وسلوكًا حتى أصابهم الضعف فتمكن منهم أعداؤهم.

وحين تمكَّنوا منهم فقد أرادوا أن يقضوا على عنصر القوة فى كيانهم لكى لا يعودوا إلى النهوض مرة أخرى. وكان أول ما اتجهوا إليه فى البلاد الإسلامية التى حكموها هو تنحية شريعة الله عن الحكم ووضع القوانين الوضعية بدلاً منها.

ثم ظلوا يعملون، ومعهم أدواتهم من العملاء الذين تأثروا بهم، على حصر الإسلام رويدًا رويدًا فى دائرة الاعتقاد الوجدانى والشعائر التعبدية، لا صلة له بالسياسة ولا الاقتصاد ولا علاقات الأفراد فى المجتمع ولا القيم الخلقية ولا السلوك الواقعى..

ونرى أثر ذلك واضحًا فى البلاد التى لا تحكم بشريعة الله، وتروح تستورد المبادئ والنظم من الشرق والغرب، فتكون النتيجة هى التبعية للشرق والغرب، وزوال العزة التى كانت لهم يوم أن كانوا مؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وتكون النتيجة هى شيوع أمراض الجاهلية فى المجتمع الإسلامى، من تحلل خلقى وفكرى، وقلق وحيرة واضطراب، وقبل ذلك كله غضب الله وسخطه على الذين خالفوا عن أمره، وخرجوا عن طاعته: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ودين الله واضح لا لبس فيه:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فلنعبد الله مخلصين له الدين، ولتكن آية إخلاصنا تحكيم شريعة الله، لكى نكون حقًا مسلمين.

* * *

الإيمان بأسماء الله وصفاته

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

قلنا فى الفصول الأولى من الكتاب إن القرآن يُعرِّف البشر بالله سبحانه، لكى يعبدوه حق عبادته، ويتوجهوا إليه وحده فى كل أمورهم بغير شريك. فإنك لا تستطيع أن تقوم بالعبادة الحقيقية ولا التوجه الحقيقى إذا كنت لا تعرف من الذى تعبده وتتوجه إليه، أى إذا لم تعرف صفاته التى يتصف بها، حتى تكون عبادتك عن معرفة وعلم.

والله يصف نفسه فى كتابه الكريم بالصفات التى يريد منا سبحانه وتعالى أن نعرفه ونصفه بها. فليس لنا أن نبتدع من عندنا صفات لله غير التى وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله الكريم ﷺ، فإن هذا لا يليق بجلال الله وعظمته، ولا بالأدب الواجب من العباد نحو ربهم وخالقهم.

وحين يقرأ الإنسان القرآن بحس متفتح، ويتدبر آياته، فإن قلبه يمتلىء بالخشوع لله، والخشية منه سبحانه، والتطلع إليه فى ذات الوقت بالحب والرجاء..

من الذى يقرأ قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

أو قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [الزمر: ٢٣].

أو قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

من الذى يقرأ هذه الآيات وأمثالها دون أن يمتلئ وجدانه بحبّ الله والخشوع له، والرغبة فى التقرب إليه، والعمل على رضاه؟ وإذ يحسّ بهذه المشاعر فإن القرآن ييسر له التقرب إلى مولاه بأن يعرفه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

فحين يعلم أن الله رحيم، وأنه يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ويقول: ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

ألا يجلعه ذلك يتطلع لرحمة الله، ويطمع فى أن يغفر له الله ذنوبه حين يخلص إليه ويتوب!

وحين يعلم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وأنه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ألا يجعله ذلك يتطلع إلى الله ليبسط له فى الرزق، ويغدق عليه من نِعَمِه، وهو المنعم الوهاب؟

وحين يعلم أن الله هو الواحد القهار: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ألا يمتلئ قلبه رهبة من الله، الذى يقهر بسلطانه كل شىء، والذى تستجيب السماوات والأرض لقهره، فلا تملك أن تخرج على طاعته، والذى لا يتم فى الكون كله إلا ما يشاء؟

وحين يعلم أن الله هو علام الغيوب، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢].

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

ألا يتحرز وهو يهم بأى عمل من الأعمال، لأنه يعلم أن الله يراه ويراقبه، بل يعلم حتى خلجات شعوره التى لا يحدث بها أحدًا من البشر، وأنه لا يمكن أن يتخفى عن الله فى عمل أو فكر أو شعور؟!

وحين يعلم أن الله هو المهيمن على السماوات والأرض، لا يحدث فيها شيء إلا بإذنه، وهو وحده الذى يدبر الأمر، ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [النجم: ٤٣].

ألا يجعله ذلك يتوجه إلى الله وحده، فهو العلى العظيم الذى لا يساويه أحد ولا يعلو عليه أحد، ولا يتوجه إلى أحد سواه فى السراء ولا فى الضراء، فلا أحد غيره يكشف السوء، ولا أحد غيره يزيد السرور؟

وهكذا. . وهكذا. . كلما علم صفة من الصفات ازداد معرفة بالله، وازداد طاعة وتقربًا إلى الله.

من أجل هذا يكرِّر القرآن أسماء الله الحسنى، ويأمرنا أن ندعوه بها، ويعرِّفنا بها رسوله ﷺ فيقول: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة»(١). والمقصود بالإحصاء ليس مجرد ذكرها باللسان والقلب غافل عن معناها، بل المقصود أن يمتلئ القلب بها ويتدبرها فينعكس أثر ذلك فى السلوك.

* * *

(١) متفق عليه.

نتبين من ذلك إذن أن أسـماء الله وصفـاته وأفعاله الواردة فى القـرآن، هى مثل آيات قدرة الله فى الخلق وفى الـرزق، وفى الإحياء والإماتة، وفى إجـراء الأحداث وفى علم الغيب. . المقصود بها التعريف بالله، لتـزداد معرفة العباد بربهم، ويعبدوه على بصيرة، ويبعدوا عن الشرك والضلال.

نعم! إن ضلالة البشرية الكبرى هى الشرك(1).

والله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] يحب لعباده أن يهتدوا إلى حقيـقته، ولا يشركوا به، ويحب أن يعاونهم على معرفـة هذه الحقيقة، وييسرها لـهم، لأنه بعباده رءوف رحيم. وكمـا يعرّفهم بآيات قدرتـه فى السماوات والأرض فإنه فى ذات الوقت يعرفهم بأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا انفصال بين هذه وتلك.

فهـو حين يعرّفهم بآياته فى الخلق، يعـرّفهم بأنه هو «الخالق» «البـارئ» «المبدع» «بديع السماوات والأرض».

وحين يعرّفهم بآياته فى الرزق، يعرّفهم بأنه هو «الرزاق» ذو القوة المتين.

وحين يعرّفهم بهيمنته على كل شىء فى هذا الكون، يعرّفهم بأنه «المهيمن» وبأنه «يدبر الأمر».

وحين يعرّفهم بآياته فى الإحياء والإماتة، يعرّفهم بأنه «هو يحيى ويميت».

وحين يعرّفهم بقدرته على البعث، يعرّفهم بأنه «يبعث من فى القبور».

وحين يعرّفهم بأنه سبحانه وتعالى متفرد فى كل شىء، متفرد فى الكمال وحده، ومتـفرد فى كل شىء وحـده، فإنه يقـول لهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويقول لهم: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

---

(1) إذا كانت هناك فى العـصر الحاضر ضـلالة أكبر هى الإلحاد وإنكار وجـود الله أصلاً فهذه كـما قلنا ضلالة مفـتعلة وغير حقـيقية. والفطرة ـ حـتى فى ضلالها ـ تأباها، كما مـر بنا من حديث رائد الفضاء الروسى جاجارين.

ولقد اختلفت الفرق فى تأويل الأسماء والصفات والأفعال وما كان ينبغى لها أن تختلف!

إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الواردة فى القرآن وفى الحديث يعرِّفنا الله بها على نفسه لنتعرف عليه. وما كان ينبغى أن تكون هى التى تضلِّلنا عن معرفة الله! لولا أن هذه الفرق الضالة قد فتنت عن حقيقة الإسلام البسيطة الواضحة بنظريات وأفكار دخيلة على الإسلام. والقرآن - دليلنا وهادينا - واضح فى هذا الأمر كل الوضوح.. فهو يحدِّثنا عن أسماء لله، تدل على صفات، وتنشأ عنها أفعال:

«فالوهَّاب» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو صفة لله تعالى، وينشأ عنها أن الله يهب ما يشاء لمن يشاء..

و «الرزَّاق» اسم من أسمائه، وهو كذلك صفة من صفاته، وينشأ عنها أن الله يرزق العباد بما يشاء من رزق..

ونحن نؤمن بهذه الأسماء لأنها وردت فى كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، ولأننا نراها ونلمسها ونشهدها فى الكون من حولنا وفى ذات أنفسنا، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

وكل تدبر فى آيات الله فى الكون وفى النفس يصل بنا إلى اليقين الكامل بأن كل ما وصف الله به نفسه هو الحق كل الحق، فهو الواحد الأحد، وهو المتفرد بالقدرة، المتفرد بالملك، المتفرد بالأمر والتدبير.

فعلينا إذن أن نؤمن بتلك الأسماء والصفات والأفعال، وأن نقف كذلك عند ما جاء منها فى القرآن والحديث ولا نزيد على ذلك.

وهذا هو مذهب السلف رضوان الله عليهم: يؤمنون بها كما وردت، ولا يؤوِّلونها؛ لأن التأويل ليس من شأن البشر، لا لهم طاقة به، ولا ينبغى لهم أن يخوضوا فيه، إنما يأخذون الأمر بالبساطة التى يوضِّحها القرآن والحديث.

فهذه الصفات حقيقة، ولكنها لا تشبه ما نراه من صفات البشر، فالبشر عاجزون والله قادر، والبشر ناقصون والله كامل، والبشر محجوبون عن الغيب والله علام الغيوب، والبشر محتاجون لمن يطعمهم ويسقيهم ويرزقهم والله هو الغنى المستغنى عن كل أحد وكل شيء، والبشر فانون والله هو الدائم من الأزل إلى الأبد.. فكيف تتماثل صفات الله مع صفات البشر، وأفعاله مع أفعال البشر؟

كلا! ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فصفاته هو متفرد بها سبحانه؛ لأنها صفات الكمال، وهو المتفرد وحده بالكمال.

والوجود كله يشهد بذلك التفرد، وفطرة الإنسان من أعماقها تشهد به كذلك.

ولا حاجة بنا، ولا حاجة للفطرة السوية، بتأويلات الفرق المنحرفة، سواء منها ما يعطل الصفات، ومن يبحث فى كيفيتها ولم يُؤتَ القدرة على تكييفها، ومن يشبّهها بأعمال البشر والله ليس له مثيل..

إنما نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ونحمد الله على توفيقه.

* * *

الانحراف عن الإيمان والتوحيد

الشرك والإلحاد كلاهما انحراف عن الإيمان والتوحيد. والفرق بينهما:

أن المشرك يعرف أن هناك إلـهًا خالقًا لهذا الكون لكنه لا يـفرده بالعبادة، فيـعبد آلهة أخرى مع الـله أو من دون الله، يقدم لها شعـائر التعبد، ومن أنواعـها الدعاء والطاعة والاتباع، والمحبة والولاء، ويجعلها واسطة بينه وبين ربه.

أما الملحـد ـ فى اصطلاح المعاصرين اليـوم ـ فهو الذى ينكر وجـود الله أصلاً، وينسب الخلق والموت والحياة لغير الله، ولا يؤمن بالبعث.

والشرك والإلحـاد كلاهما انـتكاس يصيب البشـر حين ينحدرون إلى الجـاهلية، فينحـرفون عن الفطرة السـوية التى خلقهم الله عليـها. وإن كان الانحـراف الغالب على البشـر فى جاهلياتهـم خلال عصور التـاريخ المختلفـة هو الشرك، والنادر هو الإلحاد، فيما عدا الجاهلية المعاصـرة التى انحدر الناس إليها فى العصر الحاضر والتى غلب عليها الإلحـاد بصورة لا مثيل لها فى التاريخ من قـبل، بسبب بعض العوامل التى سنتعرض لها إن شاء الله بشىء من التفصيل على صفحات الكتاب.

والقرآن يشير إلى هذا الانتكاس فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ ـ ٦].

كمـا يبين القرآن أن الأصل فى الناس هو الإيمان والتوحـيد، فإن الله قد أشـهد البشـر جميـعًا على أنه هو وحـده ربهم بدون شريك، وهم فى عـالم الذر قبل أن يولدوا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤].

والآيات تدل على أن الله قد ألهم البـشرية كلها بأنه هو ربها وإلهـها. وأنه ليس لها رب ولا إله غيره. وأنه أخذ عليها ميثاقًا بذلك: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾، فلم يعد يقبل منهم أن يقولوا يوم القيامة: نسيـنا وكنا غافلين عن هذا الميثاق! أو يحتجوا بأن آباءهم أشركـوا وأنهم اتبعوهم فى شركـهم لأنهم من ذريتهم! فشـرك الآباء لا يبرر

للأبناء أن يحيدوا عن ميثاق الفطرة، لأنه عهد بينهم وبين الله ولا دخل للآباء فيه! وإن كان الله من رحمته لا يحاسب الناس بميثاق الفطرة وحده، وإنما يحاسبهم بعد تذكرتهم على يد الرسل. ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ولا يعذبهم حتى يبعث لهم رسولاً يبلغهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

كذلك يقول الله فى القرآن فى سورة الروم عن أمر الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

فهاتان الآيتان تدلان على أن الدين القيم ـ وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده دون شريك ـ هو الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

كما أن الرسول ﷺ يحدثنا بأن الإسلام ـ أى إسلام الوجه لله وعبادته وحده دون سواه ـ هو دين الفطرة، إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة[1]، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2].

بل نجد فى القرآن أن الكون كله، وليس الإنسان وحده، مفطور على عبادة الله، بسماواته وأرضه، وشمسه وقمره، ونجومه وجباله، ودوابه وشجره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

فالتوجه لله بالعبادة ـ الذى تشير إليه الآيات بالسجود لأن السجود أبرز علامات

---

(١) أى على الإسلام. (٢) متفق عليه.

العبادة ـ هو فى فطرة الكون كله، الذى فطره الله علي عبادته وطاعته: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والإنسان خَلقٌ من خلق الله، مفطور مثل بقية الكون على التوجه لله بالعبادة. ولكن الله كرمه وفضله على كثير ممن خلق، ومنحه الوعي والإدراك وحرية الاختيار: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠].

ولكن الإنسان ـ بسبب هذا التكريم ذاته ـ قد اختلف أمره؛ فبقى بعضه على الفطرة السوية التى خلقه الله عليها، أى بقى متجهًا بالعبادة لله وحده دون شريك، وضل بعضه فوقع فى الشرك والإلحاد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

فأما الذين استقاموا على الدين القيم فعبدوا الله وحده دون شريك، فهؤلاء بقوا كما فطرهم الله «فى أحسن تقويم»، وأما الذين انحرفوا عن العبادة الصحيحة بشرك أو إلحاد فقد انتكسوا فأصبحوا «أسفل سافلين» ولم يعودوا يستحقون التكريم الذي منّ الله به على الإنسان، بل أصبحوا موضع الإهانة عند الله: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾، واستحقوا غضب الله ولعنته؛ لأنهم قابلوا الإحسان الربانى بالإساءة، وقابلوا النعمة بالكفران!

والآن بعد أن عرفنا ذلك نعود فنتكلم عن الشرك والإلحاد كل على حدة.

الشرك: أسبابه ودوافعه

إذا عرفنا أن الشرك انتكاسة تصيب الفطرة، ومرض يصيب القلب، فلنحاول أن نتعرف على أسبابه، كما يحاول الطبيب أن يتعرف على أسباب المرض الجسدى ليعالجه.

فالأصل فى الجسد هو السلامة والصحة، ولكنه عرضة للإصابة بالمرض إذا لم يحافظ الإنسان على أسباب الصحة، وعرضة لأن يتمكن منه المرض ويستفحل إذا لم يأخذ الإنسان بأسباب العلاج.

والنفس الإنسانية كذلك، الأصل فيها هو السلامة والصحة، ولكنها عرضة للإصابة بالمرض إذا ترك الإنسان نفسه بغير مراقبة دائمة لأعماله ولم يزنها بالميزان الصحيح. أو بعبارة أخرى إذا غفل الإنسان عن ذكر الله فوسوس له الشيطان وأبعده عن الطريق. وهى عرضة كذلك لأن يتمكن منها المرض ويستفحل إذا لم يسارع الإنسان إلى التوبة إلى الله والإنابة إليه والعودة إلى سبيله. فيصبح عندئذ ممن يقول الله عنهم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وهذا المرض الذى يصيب القلب له عدة أسباب ودوافع، بيَّنتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، نعرض جانبًا منها فيما يلى:

١ ـ الإعجاب والتعظيم:

فطرت النفس البشرية على الإعجاب بالبطولة وغيرها كإعجاب الابن بوالديه وهو أمرى فطرى وشرعى، يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وتعظيم النبى المرسل مطلوب كذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٢، ٣].

وتعظيم العلماء والصالحين من الأمة واجب: «العلماء ورثة الأنبياء»(١). «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا فضله»(٢).

ولكن الانحراف ينشأ من زيادة التعظيم حتى يصل إلى التقديس، فهنا يدخل فى دائرة الشرك؛ لأن التقديس لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى وحده بغير شريك. وكل تعظيم وصل إلى حد التقديس، سواء كان لشخص مثل الصالحين والأنبياء والعلماء والعباد وغيرهم كالملائكة والجن أم لشيء مثل الشمس والقمر والنجوم وما فى هذا الوجود فهو شرك؛ لأنه توجه لغير الله بما لا ينبغى إلا له.

ومن هذا اللون من الانحراف نشأ كثير من الشرك فى تاريخ البشرية، مما جاء ذكره فى القرآن والأحاديث النبوية.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٣].

ويقول ابن كثير فى التفسير: «وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: هذه أصنام كانت تعبد فى زمن نوح. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: «ويغوث ويعوق ونسرا» قال كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم. فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»(٣).

كذلك وقع فريق من المنحرفين فى الشرك بتقديس أنبيائهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه أحمد.

(٣) تفسير ابن كثير فى سورة نوح.

كذلك وقعوا فى تقديس أحبارهم ورهبانهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ووقع بعضهم فى الشرك بسبب تعظيم الملائكة والجن - وهم خلق من خلق الله - فزعموا أنهم أبناء الله وبناته، وقدّسوهم على هذا الاعتبار، فيقول الله عنهم: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩، ٢٠].

ووقع فريق آخر من البشر فى الشرك بسبب تعظيم بعض الأجرام السماوية إلى حد التقديس، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم، فيقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال لبعضهم الذين عبدوا نجم الشّعرى لشدة لمعانه فى السماء: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣- ٤٩].

وهكذا دخلت هذه الفرق الضالة كلها فى الشرك من باب تعظيم الأشخاص، أو أشياء هى من خلق الله، فقد عبدوهم مع الله أو من دون الله، وضلوا بذلك عن الفطرة السوية التى تتجه لله وحده تعبده بغير شريك.

٢ ـ الميل إلى الإيمان بالمحسوس والغفلة عن غير المحسوس:

فى الإنسان ـ كما فطره الله ـ نزعتان فطريتان متكاملتان: إحداهما تنزع إلى الإيمان بالمحسوس، أى ما يقع فى دائرة الحس ويمكن للحواس أن تدرك وجوده بالنظر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس، والأخرى تنزع إلى الإيمان بالغيب، أى بما لا يقع فى دائرة الحس ولا يمكن للحواس أن تدرك وجوده بطريق مباشر.

وإذا كان الإنسان يشترك فى النزعة الأولى مع بعض المخلوقات الأخرى، فقد خصَّه الله بالنزعة الثانية ـ وهى الإيمان بالغيب ـ وكرَّمه بها، وفضَّله بها عن كثير ممن خلق. وكانت هذه الموهبة الربانية من عوامل رفعة الإنسان واتساع أفقه وعظمة روحه، وانفساح المجال أمامه وراء المحسوسات القريبة إلى آفاق التفكير والتدبّر فى الكون كله لينتفع به ويستدل به على عظمة خالقه ومبدعه.

ولكن فطرة الإنسان عرضة للمرض كما قلنا، إذا لم يداوم على رعايتها وتقديم الغذاء الصالح لها، من ذكر لله وتقرب إليه بالأعمال الصالحات، وعندئذ يرين على القلوب ما يرين عليها من ظلمات: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ومن الأمراض التى تصيب فطرة الإنسان أن تغفل عن غير المحسوس، وتحصر اهتمامها رويدًا رويدًا فى دائرة المحسوس وحده، ثم تمتد بها الغفلة حتى تستغنى تمامًا بعالم الحس عما وراءه، بل تمتد بها الغفلة أحيانًا أكثر من ذلك فتنكر ما وراء الحس إنكارًا كاملاً وتزعم أنه غير موجود[١].

وفى المراحل الأولى من هذه الغفلة لا ينكر المشرك وجود الله، ولكنه يتلمس صورة محسوسة قريبة يضفى عليها فى خياله بعض خصائص الألوهية من نفع وضر، وعلم للغيب، وتصريف للأمر بالمشاركة مع الله! فمع أنه يعلم أن الله هو الخالق، وأنه لا يشاركه أحد فى الخلق، إلا أنه يزعم أن فلانًا من الناس (نبيًا كان أو وليًا من أولياء الله الصالحين) أو الملائكة، أو الجن، أو صنمًا من الأصنام يستطيع أن يضر أو ينفع، أو يستجيب للدعاء، أو يبسط الرزق لمن يشاء، أو يعلم الغيب ويخبر به من يستطيع أن يتلقى عنه. وفى مثل هذه الصورة كان العرب فى جاهليتهم. فقد

(١) سنرى فيما بعد أن هذا المرض الأخير هو أوسع أبواب الإلحاد الذى شمل جانبًا كبيرًا من البشرية فى العصر الحاضر.

ورد فى القرآن أنهم يعرفون أن الله موجود وأنه هو الخالق: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨، لقمان: ٢٥].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ومع ذلك كانوا يشركون به الجن والملائكة والأصنام التى يعبدونها ـ فى زعمهم ـ لتقربهم إلى الله زلفى!

ولكن الغفلة كما قلنا قد تمتد إلى أبعد من ذلك. فيغفل المشرك عن الله الذى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ويتصور أن الشيء المحسوس هو الله. فهنا لا يكتفى المشرك بأن يزعم لتلك المحسوسات بعض خصائص الألوهية، بل يضفى كل خصائص الألوهية عليها. وفى مثل هذه الصورة كان المصريون فى زمن الفراعنة إذ كانوا يزعمون أن «رع» ـ وهو قرص الشمس ـ هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى المميت، وهو الذى يبعث الناس يوم القيامة ويحاسبهم! كما كان المجوس ينسبون الخلق والضر والنفع والإحياء والإماتة للنار! وفى مثل هذا المستوى كذلك كانت الجاهلية الرومانية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الهندية والجاهلية الصينية.

وبعض هذه الجاهليات كان يضيف إلى ذلك الشرك لونًا آخر، فيزعم أن فلانًا من البشر هو ابن الله، ويضفى عليه بعض خصائص الألوهية أو كلها، كما كانت الجاهلية الفرعونية تزعم أن الفرعون هو ابن الله (ابن الإله رع)، وأنه يجلس عن يمينه يوم القيامة. والجاهلية الهندية تزعم أن البراهما خلقوا من رأس الإله، وأنهم من أجل ذلك مقدسون ولا يحاسبون على أعمالهم (بينما المنبوذون نجسون لأنهم مخلوقون من قدم الإله ولذلك فهم مهينون ومحتقرون!!). ولا تختلف النصرانية المحرّفة كثيرًا عن ذلك، إذ زعمت أن المسيح ابن مريم هو ابن الله. وقالت مرة إنه هو الله، ومرة قالت إنه واحد من ثلاثة يكونون فى مجموعهم إلهًا واحدًا. وإلى ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقد وصل بنو إسرائيل إلى درجة أبشع من ذلك حين قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وحين مرُّوا على قوم يعبدون الأصنام فقالوا لموسى اجعل لنا إلهًا (أي صنمًا) نعبده مثل هؤلاء القوم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وحين عبدوا العجل واتخذوه إلهًا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٧، ٨٨].

كل هذا ونبيهم بين ظهرانيهم يعلمهم أمر دينهم(١).

أما الدرجة القصوى من هذه الغفلة فهى التى تؤدى إلى إنكار وجود الله ألبتة، وستتحدث عنها حين نتحدث عن الإلحاد.

٣ ـ الهوى والشهوات:

من الأمراض التى تصيب الفطرة كذلك وتوقعها فى الشرك غلبة الهوى والشهوات. ذلك أن دين الله المنزَّل يشمل دائمًا أحكامًا إلهية يأمر الله البشر أن يلتزموا بها وينفذوها لتستقيم حياتهم وتتوازن: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وحين تكون الفطرة مستقيمة فإنها تتقبَّل ما فرضه الله عليها بالرضا، وتجتهد فى تنفيذه تعبدًا لله وطمعًا فى رضاه. ولكن حين يغلب عليها الهوى وحب الشهوات فإنها تضيق بما أنزل الله وتحب أن تتبع شهواتها. وفى ذلك يقول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١].

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩].

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

---

(١) كان موسى قد تركهم أربعين ليلة ليتلقى من ربه الشريعة المنزلة ففعلوا هذا الفعل الشنيع، مع أنه ترك أخاه هارون ليخلفه فى قومه مدة غيابه عنهم.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن أجل هذه الشهوات يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كما يصفهم الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧، ١٠٨].

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وهؤلاء يرفضون الهدى الربانى، ويرفضون أن يعترفوا بالوحى المنزل من عند الله، ولو استيقنوا فى دخيلة أنفسهم أنه الحق، لأنهم لو اعترفوا لكان عليهم أن يلتزموا، وهم يكرهون الالتزام بما أنزل الله، لأن شهواتهم تغلبهم وتثقل فى حسهم. لذلك ينكرون أن ما جاء من عند الله هو الحق، ويجادلون فيه بالباطل، ويضعون قواعد وموازين للحياة وللأعمال غير ما قرر الله، ثم يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأن ما يتبعونه من نظم وقواعد وموازين أحق أن يُتَّبَع مما أنزل الله، فيقعون بذلك فى الشرك ـ شرك الاتباع[1].

وعلى هذه الصورة، كانت الجاهلية العربية التى ذكرها الله فى القرآن ذكراً مفصلاً فى كثير من الآيات فى السور المكية خاصة. وعلى هذه الصورة كذلك نجد الجاهلية المعاصرة التى غرقت فى الشهوات إلى أذنيها، ورفضت الاعتراف بالوحى الربانى؛ لأنها تريد أن تتبع أهواءها ولا تريد أن تلتزم بما أنزل الله.

٤ ـ الكبر عن عبادة الله:

الكبر كذلك من الأمراض التى تصيب الفطرة فتنحرف بها عن صورتها السوية وتوقعها فى الشرك.

(١) سنتكلم فى الصفحات التالية عن أنواع الشرك.

والكبر درجات تبدأ بالاستكبار على الناس وتنتهى بالاستكبار على عبادة الله. وكلها خلق مقيت مرذول لا يصدر عن نفس سوية مستقيمة؛ لذلك يقول الرسول ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»(1).

وغالبًا ما يكون الكبر فى نفوس من حصلوا على شىء من متاع الحياة الدنيا، من مال أو جاه أو سلطان. ولكنه ليس وقفًا عليهم، ويمكن أن يتسرب إلى أى نفس مريضة فيصاب صاحبها بما يسميه المعاصرون «جنون العظمة» ولو كان من أحقر الناس!

ويبين لنا الله فى كتابه الحكيم أن الكبر من أسباب الكفر والشرك، كما جاء فى قصة النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكما جاء فى قصة فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ـ ٢٥].

وكما كان من أمر الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١ـ ٢٦].

---

(1) رواه مسلم.

ثم بيَّن لنا الله أنها قاعـدة شاملة وليست ظاهرة فردية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وهذا الكبر عن عبادة الله أوضح ما يكون فى الجاهليـة المعاصرة، فهو ليس وقفًا على أصحاب المال أو الجاه أو السلطان، إنما سرى المرض فى جسم الغرب حتى صار أتفه الناس شأنًا يستكبر عن عبادة الله!

٥ ـ وجود الطغاة الذين يريدون أن يستعبدوا الناس لأنفسهم فيرفضوا أن يحكموا بما أنزل الله:

ومن أهم أسباب الشرك فى تاريخ الجاهليـات كلها وجود طغاة من البشر يريدون أن يستعـبدوا الناس، ويسخروهـم فى قضاء شهواتـهم، فيرفضوا الانصـياع لما أنزل الله، ويضعوا من عند أنفسهم تشريعات لم يشـرِّعها الله، فيحلّوا ويحرّموا من عند أنفسـهم، اتباعًـا لأهوائهم، ويفرضوا تشـريعاتهم المزيفـة على الناس بما يملكون فى أيديهم من سلطان.

هؤلاء الطغاة فـى الواقع ينصِّبون أنفـسهم أربابًا من دون الله حين يعـطونها حق التشـريع من دون الله؛ لأن الله وحده هـو صاحب هذا الحق حيث إنـه هو الخالق سبحانه وإنه هو العليم الخبير: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالله سبحـانه وتعالى بحق ألوهيته وربوبيتـه لكل الخلق، وبعلمه التام بكل شىء هو الذى يحق له أن يقـول: هذا حرام وهـذا حلال، هذا حـسن وهذا قبـيح، هذا مباح وهذا غير مباح.

فإذا جـاء أى إنسان فادعى لنفـسه حق التحليل والتـحريم، والمنع والإباحة فـقد جعل نفســه شريكًا لله، بل جعل نفـسه إلهًا من دون الله. ومن تبعـه فى ذلك فقد أشركه فى العبادة مع الله، أو أشرك به من دون الله!

وهؤلاء الطغاة، الذين سماهم الله فى القرآن «الملأ» هم أول من يتصدى لتكذيب الرسل الذين يرسلهم الله لهداية البشرية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠].

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٥ ، ٦٦].

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٣ـ ٧٦].

وهكذا دائمًا يتصدى الملأ لتكذيب الرسول المبعوث من عند الله، ثم لا يكتفون بالتكذيب بل يتبعونه بالتهديد.

وهذا الأمر الذى يبدو لنا غريبًا لأول وهلة ليس غريبًا فى الحقيقة!

فهؤلاء الملأ يعرفون جيدًا أن السلطة التى يستعبدون بها الناس ليست شرعية فى الحقيقة، لأنها مخالفة لما أنزل الله، ولكنهم يتجاهلون ذلك ويمضون فى غيهم طاغين مستكبرين. فإذا جاء الرسول من عند الله يقول: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ ـ وهو ما قاله كل رسول لقومه ـ فهو فى الحقيقة ينادى برد الأمر إلى الله، صاحب الحق وحده فى التشريع للناس، وفى تقرير الحلال والحرام والمباح وغير المباح.

ثم إنهم لا يكتفون بتهديد الرسل أنفسهم، لكنهم يقفون بالمرصاد للناس الذين يستعبدونهم بسلطانهم، خوفًا من أن يفروا من سلطانهم الجائر إلى الله.. فيهددونهم كما يهددون الرسل، ويطلبون منهم أن يستمروا فى ولائهم لهم ويمنعونهم من تقديم الولاء الخالص لله! أى يأمرونهم بالشرك ويهددونهم بالقضاء عليهم إن أسلموا لله!

ووجود الطغاة من جانب يقابله وجود المستضعفين الذين يخضعون لهم من الجانب الآخر. الأولون يأمرون بالشرك والآخرون يطيعون، خوفًا أو ذلاً.

يقول الله تعالى عن الأولين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨ـ ٣٠].

ويقول عن الآخرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ـ ٣٣].

* * *

أنواع الشرك:

ليست الصورة الوحيدة للشرك هى السجود للأصنام كما يبدو لبعض الناس الذين يقرءون فى التاريخ أن العرب فى الجاهلية كانوا مشركين يعبدون الأصنام، فيتبادرإلى أذهانهم أن عبادة الأصنام هى السبب الوحيد فى وصف العرب بأنهم كانوا مشركين، ويظنون من جهة أخرى أن الصورة الوحيدة للشرك هى عبادة الأصنام.

ولكنا إذا رجعنا إلى القرآن، ثم أنعمنا النظر فى حياة الجاهلية العربية ذاتها، نجد أن عبادة الأصنام لم تكن إلا لونًا واحدًا من ألوان الشرك فى الجاهلية العربية، فضلاً عن الجاهليات الأخرى التى مرت بها البشرية فى تاريخها الطويل.

حقيقة أن عبادة الأصنام صورة واضحة ملموسة للشرك لا تحتاج إلى بيان. ولكن الشرك هو فى الحقيقة أوسع دائرة من عبادة الأصنام والسجود لها وتقديم القرابين إليها. وقد اتخذ فى الجاهليات المختلفة صورًا شتى، وما يزال يتخذ إلى هذه اللحظة أشكالاً متعددة فى حياة الناس فى الشرق والغرب، قد لا يلتفتون إليها ولا يدركون أنها ضروب من الشرك، حين يحصرون صورة الشرك فى أذهانهم فى عبادة الأصنام فحسب.

وفى الجاهلية العربية ذاتها كانت هناك ألوان متعددة من الشرك إلى جانب عبادة الأصنام، وعبادة الملائكة والجن، والظن بأنها تشفع لهم عند الله أو تقربهم إلى الله زلفى.

لقد كانت «القبيلة» ربًا يُعبد مع الله أو من دون الله!

انظر إلى قول دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد!

فما معنى قوله ذلك؟

معناه أنه لا يوجد عنده معيار للرشد أو الغيّ إلا ما تقوله قبيلته «غزية». بل معناه أسوأ من ذلك فى الحقيقة، معناه أن القبيلة هى التى تحل له وتحرم.. فإن غوت فهو يغوى معها، مع علمه بأنها غاوية؛ لأن الغى يصبح فى نظره حلالاً مادامت القبيلة قد فعلته. وإن رشدت فهو يرشد معها، لا لأنه يرى أن الرشد هو الأصلح، بل لأن القبيلة قد فعلته فهو الحلال فى هذه اللحظة.

وفى كلتا الحالتين لا نجد أن الله موجود فى حسّه! فهو لا يأخذ حلاله ولا حرامه من الله. ولا يتلقى منه الأمر ولا يرجع إليه فى التصرف. إنما يأخذ من القبيلة، ويتلقى عنها، ويرجع إليها. وإذن فهى الرب الحقيقى بالنسبة إليه، وإن كان يعرف أن الله موجود، وأنه هو الذى خلقه وخلق السموات والأرض!

وكذلك كان عرف الآباء والأجداد عند هؤلاء الجاهليين ربًا يعبد من دون الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [لقمان: ٢١].

وليس العرب وحدهم هم الذين قالوا ذلك فى جاهليتهم، ففى القرآن أيضًا أن هذا كان شأن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [إبراهيم: ٩، ١٠].

وعلى ذلك نستطيع أن نعدد ألوانًا مختلفة من الشرك - سواء فى الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات - بجانب العبادة الخالصة للأصنام أو الأوثان بوصفها هى الله، كاعتقاد الجاهلية الفرعونية أن (رع) «قرص الشمس» هو الإله، واعتقاد المجوس أن النار هى الإله، واعتقاد الأشوريين أن بعلاً هو الإله، واعتقاد قوم نوح أن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا هى الآلهة.

فمن ضروب الشرك:

١ - شرك التقرب والزلفى:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣].

وهذا النوع من الشرك - كما ذكرنا من قبل - يمارسه الشخص الذى يعرف أن الله موجود، وأنه هو الخالق الرازق المحيى المميت ولكنه مع ذلك يتصور خطأ أن هناك كائنات أخرى لها بعض خصائص الألوهية، وأنها من ثمَّ قريبة من الله، وإذًا فالتقرب إليها يؤدى إلى القربى من الله!

فمن تقرَّب من الصنم وتمسَّح به، ومن صلى له وسجد، ومن تقدم إليه بالقربان، فقد أشرك.

ولقد يبدو لنا اليوم أن هذا اللون من الشرك ساذج جدًا وسخيف جدًا بحيث يستنكف منه الإنسان المعاصر، الذى تيسرت له وسائل التعليم والثقافة، واتسعت حصيلته العلمية والفكرية.

ومع ذلك فانظر إلى ملايين الناس التى تطوف حول أضرحة المشايخ والأولياء والقديسين فى أرض الإسلام وخارج أرض الإسلام، تطلب منهم أن يقربوهم إلى الله زلفى.

وانظر إلى الذين يخشون - فى دخيلة أنفسهم - غضبة الذين يعظمونهم من ولاة وشيوخ وعظماء، ولا يخشون غضب الله، والذين يعتقدون فيمن يعظمونهم أنهم أقرب ضرًا لهم ونفعًا من الله سواء كانوا ملوكًا أو علماء أو رؤساء!

أتراهم قد بعدوا فى هذا الأمر من عُبَّاد الجاهلية الذين قال الله عنهم: ﴿أَلا لِلَّهِ

الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣].

٢ ـ شرك طلب الشفاعة من غير الله:

وقريب من شرك التقرب والزلفى شرك طلب الشفاعة من غير الله؛ لأنه امتداد له فى الحقيقة.

وقد كان العرب فى الجاهلية يمارسون الشركَيْن معًا. فقد كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، وكانوا فى الوقت ذاته يطلبون الشفاعة منهم لتوهمهم أنهم أصحاب كلمة مسموعة عند الله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

وكما عبدوا الأصنام لتشفع لهم عند الله ـ وبخاصة اللات والعزى ومناة ـ فإنهم عبدوا الملائكة كذلك باعتبارها بنات الله حسب ادعائهم الباطل، وأنها لذلك مسموعة الكلمة عند الله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

ولقد يُخيَّل إلينا كذلك أن هذه القضية قد انتهت مع انتهاء الجاهلية العربية، ولم يعد لها وجود. ولكن المتأمل فى حياة الناس اليوم يجد نظائر لها فى تشفيع الموتى من الأولياء والصالحين عند الله فى قضاء المصالح وفى الرضا عن العباد.

وقضية الشفاعة كقضية الزلفى، كلتاهما تنشأ من توهم أن هناك من يملك من الأمر شيئًا مع الله، أو يملك التأثير فى مشيئة الله وإرادته. وهو وَهْمٌ باطل لأن الله هو الغنى، وهو المدبر المهيمن على كل ما فى الوجود، ومشيئته هى النافذة وحدها فى هذا الكون. فالخلق جميعًا عبيد له وأقربهم إليه أتقاهم له.

ولا ينفى هذا أن تكون هناك شفاعة بين يدى الله يوم القيامة يتقبلها سبحانه ويستجيب لها[1]. ولكنها أولاً بإذن منه سبحانه للشافع أن يشفع، وثانيًا رضاه عن المشفوع له، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

٣- شرك الطاعة والاتباع:

الأصل فى العبادة هو الطاعة. ومعنى عبادة الله طاعته فيما أمر به وما نهى عنه. فإن الإيمان الحقيقى بعظمة الله وألوهيته، وأنه هو الخالق لهذا الكون، والمدبر لكل شئونه، والمهيمن على كل شىء فيه، هذا الإيمان يؤدى إلى نتيجة لازمة هى الطاعة لهذا الإله المتفرد بالربوبية والألوهية دون شريك.

أما الذى يصر على الغواية، ويرفض الانصياع لأمر الله، ويتوجه بالطاعة لغير الله يأخذ منه ما يحرم وما يحل، وما يباح وما لا يباح، فلا يمكن أن يكون فى دخيلة نفسه مقرًا لله بالألوهية بغير شريك، ولو ادعى ذلك! إنما هو فى الحقيقة قد وضع غير الله فى مقام الألوهية واتجه إليه بالعبادة، أى بالطاعة التى كان ينبغى أن تكون لله وحده دون سواه.

يقول الله فى القرآن عن اليهود والنصارى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ويحدد الرسول ﷺ معنى العبادة، ومعنى اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله تحديدًا واضحًا حاسمًا فى قصة عدىّ بن حاتم حين جاء ليسلم على يدى رسول الله ﷺ وكان نصرانيًا من قبل: روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير -

---

(١) كشفاعة الرسول ﷺ فى أهل الموقف يوم القيامة وشفاعته فى قوم من العصاة استوجبوا دخول النار، ألا يدخلوها، وشفاعته فى قوم من العصاة دخلوا النار: أن يخرجوا منها.

من طرق ـ عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام، وكـان قد تنصرَّ فى الجاهليـة فأسرت أختـه وجماعة من قـومه. ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغَّبته فى الإسلام، وفى القدوم على رسـول الله ﷺ . فقدم عدىّ المـدينة ـ وكان رئيسًا فى قـومه طىء، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ـ فتحـدث الناس بقدومه. فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضـة، وهو (أى الرسول ﷺ) يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. قال: «بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

فعدىّ بن حـاتم كان يظن أن العبادة هى الـركوع والسجود فحـسب، لذلك قال إنهم لم يعبدوهم! ولكن الرسول ﷺ بيَّن له حقيـقة الأمر كما علَّمه الله. بيَّن له أن طاعة الأحبار والرهبـان فى التحليل والتحريم بغير مـا أنزل الله هى عبادة لهم، ومن ثم فهى إشراك بالله؛ لأن الطاعة فى هذه الأمور إنما تكون لله وحده حيث إنه هو الإله المعبود بحق. فالتوجه بها لغيـر الله عبادة لمن تُوجِّه إليه، وإن لم يكن معها ركوع ولا سجـود ولا تقديم قرابين!! بل هى عـبادة لغير الله وإشـراك به حتى ولو ظل الركـوع والسجود يُـقدَّم لله وحـده ولا يُقدَّم لغـيره! فالركـوع والسجـود لله، والتلقى من عند الله فى التـحريم والتحليل كـلاهما سواء، ومـجموعـهما مـعًا هو العبادة. ولم يقل الله لعباده إذا ركعتم لى وسجدتم فقد تمت عبادتكم لى، ولم يعد عليكم بأس فى أن تطيـعوا غـيرى فى التـحليل والتحـريم. . إنما أمر الله عـباده أن يسجـدوا له ويركعوا، وأن يتـبعوا ما أنزل إليـهم من حلال وحرام، وأخـبرهم بأن إسلامهم لايتم بغـير الأمرين معًا فى ذات الوقت، وأنهم إن توجهـوا بهذا الأمر أو ذاك لغيـر الله فقد أشـركوا: ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

فالسجود لغير الله فى الآية الأولى ينفـى العبادة لله. وعدم اتباع ما أنزل الله فى الآية الثانية مرادف لاتباع الأولياء ـ أى الشركاء ـ من دون الله.

وكذلك يقول الله حكاية عن الكفار فى تبرير شركهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

فهم يحددون الشرك الذى هم واقعون فيه بأمرين فى ذات الوقت: العبادة بمعناها الظاهر أى الركوع والسجود وكذلك التحريم والتحليل بغير ما أنزل الله، وهم هنا فى الآية يحاولون تبرير هذا الشرك بشقيه بأنه راجع إلى مشيئة الله، والله يكذّبهم فى ذلك ويقيم الحجة عليهم بأنه أرسل إليهم الرسل ليبلغوهم حقيقة الإسلام: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٥، ٣٦].

وهذا اللون من الشرك هو الذى يعمّ وجه الأرض اليوم.

فأما الأرض غير الإسلامية فقد حوت كل صنوف الكفر والشرك. ومن أبرزها شرك الطاعة فى التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله، واتخاذ الأرباب المختلفة من دون الله.

وأما الأرض الإسلامية فقد وقع من أهلها فى هذا النوع من الشرك كل من رضى بشريعة غير شريعة الله، مجلوبة من الشرق أو الغرب، وكل من رفع رايةً للتجمع أو للجهاد غير راية الإسلام، من قومية أو وطنية أو علمانية أو غيرها من الرايات التى لم يأذن بها الله.

وهؤلاء وهؤلاء يقيمون أربابًا ـ وإن كانت غير محسوسة ـ ويعبدونها من دون الله.

فالذى ينادى بالقومية أو الوطنية ويتخذ ذلك ذريعة لإقامة وطن لا تحكم فيه شريعة الله، هو فى الواقع يتخذ القومية أو الوطنية ربًا يعبده من دون الله، سواء فى ذلك من يقيم هذه الراية ومن يرضى بها؛ لأن الأول يصدر باسمها تشريعات تحل وتحرم بغير ما أنزل الله، والآخر يتلقى منها ويطيعها ولا يتوجه بالتلقى والطاعة إلى الله.

والذى ينادى بوجوب إفطار العمال فى رمضــان لأن الصيام يضر بالإنتاج المادى، يتخذ الإنتاج المادى فى الحقيقة ربًا من دون الله، لأنه يطيعه مخالفًا أمر الله.

والذى ينادى بخروج المرأة ســافرة متبرجــة مخالطة للرجال باسم الــتقدم والرقىّ وباسم التحرر، يتخذ التقدم والرقىّ والتحرر فى الحقيقة أربابًا معبودة من دون الله، لأنه يحل باسمها ما حرم الله، ويطيعها من دون الله.

والذى يدعو إلى إبطال شريعة الله أو تبديل المثل الإســلامية التى تصون الأخلاق والأعراض لكى نبدو فى نظر الغرب متحضرين غير متخلفين، يتخذ الغرب وتقاليده أربابًا معبودة من دون الله، ولو صلى وصــام وزعم أنه مسلم؛ لأن الغرب وتقاليده أثقل فى حسِّه من أوامر الله، وأولى بالاتباع والطاعة من أوامر الله!

وهكذا نجد صورًا متعددة من شرك الطاعة والاتباع تعم حياة الناس اليوم دون أن يتبيــنوا ما هم واقعون فيــه من الشرك، مع أن كتاب الله وأحــاديث الرسول ﷺ واضحة حاسمة فى هذا الأمر: أن العبادة هى التلقى من الله فى كل شأن من شئون الحياة. وكمــا نتلقى من الله شعائر التعبــد، فنعبده سبحانه وتعــالى بما تعبَّدنا به من صلاة وصيام وزكاة وحج، كذلك نتلقى منه أمور حلالنا وحرامنا، أى الشريعة التى تحكم أمور حياتنا فى الصغيرة وفى الكبيرة ســواء؛ لأن الله تعبَّدنا بتنفيذ شريعته كما تعبَّدنا بالصلاة والصوم والزكاة والحج، وكلها سواء، واعتبر التوجّه في هذه أو تلك لغيــر الله شركًا، وقــال عن الذين يفعلون ذلك: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقد أمرنا الله بمفــاصلة الواقعين فى هذا الشرك: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

لذلك ينبــغى علينا أن نتبين طــريقنا جيــدًا فى وسط هذا الشرك الذى يعم الــيوم وجه الأرض، وأن نجتــهد ونتحرى ألا نعبــد إلا الله ولا نشرك به شيئًــا. وألا نتخذ أربابًا نتوجه لها بالعبادة من دون الله.

٤- شرك المحبة والولاء:

وقريب من شرك الطاعة والاتباع شرك المحبة والولاء للمشركين والكفار. إن ولاء

المسلم ينبغي أن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين كما أمرنا الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٥ـ ٥٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وكذلك المحبة لا ينبغى أن تكون لغير الله ورسوله والمؤمنين. ولا ينبغى بحال من الأحوال أن تكون لشىء ولا لأحد يقع فى دائرة الكفر والشرك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إن العبادة ليست هى الشعائر التعبدية وحدها من صلاة وصيام وزكاة وحج، كما يظن كثير من الناس فى العصر الحاضر. ولايكون الإنسان مسلمًا موحدًا بمجرد أن ينطق بشهادة التوحيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ثم يؤدى الشعائر التعبدية. وإنما يجب مع ذلك أن يعمل بمقتضى شهادة التوحيد ليكون موحِّدا حقًا. والتوجه بالولاء والمحبة للكفار والمشركين هو نقض لشهادة أن لا إله إلا

الله ولو ظل الإنسان ينطقها بلسانه ويؤدى معها شعائر التعبد! لذلك يصف الله موالاة اليهود والنصارى والكافرين بأنها ردة، فيقول فى سورة المائدة: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

ثم يقول: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

إن التوحيد أمر هائل جدًا، وليس مجرد كلمة تُنْطَق! إنه أمر شامل يشمل كل عمل الإنسان وكل فكره، ويشمل حتى مشاعره الداخلية التى قد يخفيها داخل نفسه ولا يُبِيِّنها للناس.

ولا يتم التوحيد فى حقيقة الواقع حتى تكون كل أعمال الإنسان وكل أفكاره وكل مشاعره مستقيمة على نهج واحد، متوجهة كلها إلى الله، مستمدة كلها من منهج الله.

أما إقامة منهج الحياة وسلوك الإنسان وفكره وشعوره على أسس تدين لغير الله، فهو شرك لا يغفره الله؛ لأنه نقض واقعى لشهادة التوحيد ولو ظلت تُنْطَق بالأفواه!

٥- شرك الرياء:

والمقصود بشرك الرياء هو التوجه بالعمل لغير الله. فقد يكون العمل فى ذاته سليمًا فى صورته، كالصلاة مثلاً، ركعاتها مضبوطة، وقيامها وقعودها على الصورة التى بيَّنها رسول الله ﷺ، ولكن صاحبها لا يصليها لكى يؤدى الفريضة لله، ويتقرب بها إليه. إنما يصليها ليمدحه الناس ويقولوا عنه إنه من الصالحين.. فهنا لا يكون العيب فى صورة العمل، إنما فى التوجه به لغير الله.

وكذلك إذا أنفق ماله رئاء الناس، أو قام بأى عمل من الأعمال بغية امتداح الناس له وثنائهم عليه.

جاء رجل إلى الرسول ﷺ فسأله: الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل للذكر،

والرجل يقاتل ليرى مكانه من قومه، فأى ذلك فى سبيل الله؟ فقال الرسول ﷺ : **«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»**(١).

وقد يكون العمل فى أصله موجهًا إلى الله، ولكن يدخل معه فى أثناء أدائه حب السمعة، والسعى إلى نيل المديح من الناس، فيكون شركًا كذلك، يقول الرسول ﷺ : **«قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»**(٢).

ومن هنا ينبغى أن نتنبه لأنفسنا لكى لا نقع فى هذا اللون من الشرك. فإنه يكون أحيانًا **(أخفى من دبيب النمل)**.

* * *

تلك كلها ألوان من الشرك يقع فيها البشر حين ينحرفون عن طريق الفطرة السوية كما فطرها الله. وهى كلها مجافية لحقيقة التوحيد.

ذلك أن حقيقة التوحيد التى تقر بها السماوات والأرض، ويقر بها الإنسان المؤمن، ليست شيئًا مظهريًا ولا أمرًا جزئيًا، إنما هى الحقيقة الجوهرية فى هذا الكون كله، وهى الركيزة الكبرى للإنسان المؤمن، منها تنطلق تصوراته وأفكاره، ومشاعره وسلوكه، وكل شىء فى حياته.

ولا يتأتى أن يكون الإنسان موحدًا فى جانب من جوانب حياته، ثم يتوجه فى جوانب حياته الأخرى لغير الله، فإنه بذلك يكون قد اتخذ إلهين، والله يقول: ﴿ **وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [النحل: ٥١].

وهذه الرهبة المذكورة فى الآية هى الحصيلة الحقيقية للإيمان بأقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات. وتنزيه الله عن كل شريك وتنزيه صفاته عن التشبيه والتأويل. ومؤداها هو التوجه لله وحده بالعمل كله، سواء كان العمل صلاة ونسكًا، أو سعيًا فى الأرض وراء الرزق، أو كسبًا أو إنفاقًا، أو علمًا أو سياسة أو اقتصادًا أو اجتماعًا أو سلمًا أو حربًا أو اعتقادًا.. إلخ: ﴿ **قُلْ إِنَّ**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

﴿صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وأيًا كانت أنواع الشرك، وهو لا يخرج فى جميع أحواله عن أن يكون شركًا أكبر ينفى الإسلام بالكلية، أو شركًا أصغر يبطل العمل الذى صاحبه، أو شركًا خفيًا هو من أكبر الكبائر، فإنه أمر باطل فى حكم الله، كما أنه قبيح مستنكر فى حكم العقل. فأيما إنسان سليم العقل مستقيم التفكير لا يمكن أن يتقبل الشرك بالله فى أية صورة من صوره. ولذلك يندد الله بالمشركين فى كثير من المواضع بقوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ لأن مقتضى العقل أن يتوصل الإنسان إلى حقيقة التوحيد، ويصل بها إلى درجة اليقين. فهذا هو الكون مفتوحًا أمام الحس البشرى، هل فيه شىء واحد ينبئ بأن يدًا غير يد الله قد تدخلت فى خلقه أو فى تدبيره؟ وهل يمكن أن ينتظم سير الكون هذا الانتظام الدقيق لو كانت فيه إرادتان مختلفتان أو صنعتان مختلفتان؟!: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ١ ـ ٤].

إن النظر فى أى شىء من خلق الله، كبير أو صغير، لينتهى بالعقل إلى نتيجة واحدة، هى التوحيد.

والقرآن يشير إلى تلك الحقيقة فى مواضع شتى، ويضرب للناس الأمثال: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فالذباب فى نظر الناس من أهون الأشياء وأحقرها.. ومع ذلك، فهل يستطيع أحد ـ غير الله ـ أن يخلق ذبابة واحدة ولو اجتمع كل أهل السماوات والأرض؟!

بل إن الأمر أبعد من ذلك فى العجز ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، فهم لا يعجزون فقط عن خلق الذباب، بل يعجزون عن استرداد شىء سلبه الذباب منهم. إن الذباب يقف على الطعام فيقضم منه قضمة لا تكاد ترى، أو

يعلق بأرجله وأجنحته مثل ذلك.. فهل يستطيع أحد أن يسترد منه ما سلب من الطعام؟!

ألا ما أعجز الناس.. والشركاء المزعومين!

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ـ ٤٣].

وإذا كانت حقيقة الكون كله قائمة على توحيد الألوهية والربوبية، بالاستجابة لأمر الله، والعمل بمقتضى هذا الأمر كما قال الله عن السماوات والأرض: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

إذا كانت هذه هى حقيقة الكون فأى ظلم يوقع فيه الإنسان نفسه حين ينحرف عن هذه الحقيقة الهائلة التى تقوم عليها السماوات والأرض؟

أى ظلم فى إنكار الحق الذى يستجيب له الكون كله ويقر به، وأى ظلم أن يورد الإنسان نفسه موارد الهلاك بهذا الإنكار؟!

لذلك يصف الله الشرك بأنه ظلم، ويصف المشركين بأنهم هم الظالمون: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

ويقول الرسول ﷺ: «إن من أكبر الكبائر الشرك بالله»[١].

* * *

(١) رواه البخارى.

آثار الشرك

إذا كان التوحيد كما رأينا هو ما فطر الله عليه الإنسان السوىّ، وهو الذى يستقيم به الكون وحياة الإنسان، فإن الشـرك الذى يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة فى دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فرداً أم جماعة.

١ ـ وأول آثار الشرك إطفاء نور الفطرة:

قـال رسول الله ﷺ: «مـا من مـولود إلا ويولد على الفطرة فـأبواه يهـوِّدانه أوينصِّرانه أو يُمجِّسانه».

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم استخرج ذريته من صلبه أمثال الذرّ، فأخذ عليهم العهد والميثـاق ألا يشركوا به شيئًا: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعلى هذا فإن الشـرك نقضٌ للميثـاق الذى أخذه الله على البشـر وهم فى عالم الذر، كـمـا أنه انحـراف عن الغـاية التي خلق الله الجن والإنس من أجلهـا، قـال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن الإنسـان يستـمـد مـن حقيـقـة التـوحيد إشـراقتـه ونـوره وسداد أمـره، فإذا أشرك بالله تصبح أعماله كـسراب بقيعة يحسبه الظمآن مـاء. وتصبح حاله وأعماله معتمة مظلمة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

٢ ـ ومن آثاره القضاء على منازع النفس السامية:

فالنفس المتعلقة بالـله المتطلعة إلى رضاه لا تستغرقهـا شهوات الحس ولا تنصرف بكليتهـا إلى متاع الأرض القريب، إنما تتطلـع دائمًا إلى المثل العليا والقيم الرفـيعة، وإلى الترفع عن الدنـس فى كل صوره وأشكاله، سواء كـان فاحشـة من الفواحش

التى حرّمها الله، أو ظلمًا يقع على الناس، أو موقفًا خسيسًا يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا.

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد فى النفس ويغشّيها الشرك، فإن النفس تنحطّ فتشغلها الأرض. يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها. ويكون جهادها صراعًا خسيسًا على هذا المتاع الزائل يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب.. وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب، القوى يأكل الضعيف، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق.. وهو الأمر الذى نراه سائدًا فى الجاهلية المعاصرة في كل منحى من مناحى الحياة. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

٣- ومن آثاره القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه فى العبودية الذليلة:

إن العزة الحقيقية هى التى تُستَمدّ من الإيمان بالله الواحد: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فالمؤمن على يقين من تلك الكلمة التى يردّدها فى كل صلاة: الله أكبر.. أكبر من كل شىء ومن كل أحد. ومن ثم يحسّ المؤمن الذى تعلق قلبه بالله أنه عزيز بتلك القوة المستمدة من العبودية الحقة لله الحق، فهو الإله الخالق الرازق الضار النافع المحيى المميت، المالك للأمر كله بلا شريك. ومن ثم لا يعود يخشى الأشياء ولا الأشخاص ولا الأحداث: لأنه يعلم أن الله هو المدبر الحقيقى لكل ما فى الكون، وأن أحدًا فى الكون كله لا يملك شيئًا مع الله. فعلام إذًا يذل لغير الله؟ علام يبذل من كرامته وعزته لبشر مثله، عاجز ولو كانت فى يده مظاهر القوة، ضعيف وإن كان جبارًا فى الأرض، محتاج مثله لما عند الله لأن الله هو الحى القيوم وكل ما عداه صائر إلى زوال؟!

كلا.. لا يبذل المؤمن من عزته لأحد غير الله.

ولكن المشرك لا يعرف هذه العزة ولا يتذوقها.

إنه عبد.. ولكنها عبودية ذليلة لأنها ليست عبودية لله، الكريم الرحيم، الذى يُعزّ عباده بعزته!

إنه عبد.. لبشر مثله يتحكم فيه فيذله، أو عبد لشهواته: شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان.. كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعًا وتمكنًا وتجبرًا فى الأرض..

ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذى تذل له أعناق الرجال، ويأتى اليوم الذى يقفون فيه موقف الخزى الأكبر أمام العزيز الجبار: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ـ ٢٠٧].

٤ـ ومن آثاره تمزيق وحدة النفس البشرية:

فالله سبحانه وتعالى فطر هذه النفس بحكمته، وأنزل الكتاب الذى تعمل بمقتضاه هذه النفس فتكون على فطرتها السوية كما خلقها الله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

والدين القيِّم هو عبادة الله وحده بلا شريك: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

وهى الكلمة التى قالها نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد ﷺ والأنبياء جميعًا.

ويعلم الله سبحانه وتعالى أنه حين يعمل الإنسان بمقتضى كلمة التوحيد هذه فإن نفسه تكون «فى أحسن تقويم» وتكون على استوائها، لأنها تتجه كلها وجهة واحدة فى جميع تصرفاتها. فالإنسان ـ المؤمن ـ يتجه بصلاته ونُسُكه إلى الله، ويضرب فى الأرض يبتغى الرزق فيتوجه إلى الله يطلب منه التوفيق والعون، ويتوجه إليه بالعمل ذاته فيبتغى فيه الحلال الذى أحله الله ويتجنب الحرام الذى حرمه الله، فيكون فى كل لحظة ذاكرًا لله لأنه يتحرى حلاله وحرامه فى كل تصرف وفى كل موقف. كلما همّ بحركة أو عمل أو هجس فى نفسه هاجس سأل نفسه أولاً: أحلال هو فيأتيه، أم حرام فعليه أن يتجنبه؟

وكذلك هو إن ذهب يتعلم، أو ابتغى أن يتزوج، أو باع أو اشترى، أو تعامل مع

الناس فى أمر من أمور حياته: يتوجه إلى الله أولاً ويستلهم كتابه المنزل الذى يحوى تفاصيل ما أحل الله وما حرم، وما أباح وما منع[1]. فإذا هو فى كل نشاط حياته متجه إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

عند ذلك تطمئن النفس وتستقر: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وتكون قوة هائلة فى ذات الوقت، كحزمة الضوء التى تتجمّع فتضىء أو تتجمع فتكون شعلة متقدة..

قوة هائلة تنطلق فى الأرض تبنى وتعمر فى كل اتجاه، راضية مطمئنة، نشيطة وثابتة فى ذات الوقت، كما كان ذلك الجيل الفذّ الذى بدأ به تاريخ الإسلام: ينشر الدعوة فى أرجاء الأرض بسرعة لا مثيل لها فى التاريخ، ويقيم العدل الربانى فى كل مكان، ويحارب الكفر والشرك والطواغيت فيسحقها وينتصر عليها، وينشئ حضارة فذة تجمع بين الروح والمادة، وتعمل للآخرة دون أن تنسى عمارة الأرض: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وتلك هى حصيلة التوحيد. حصيلة تجمع النفس البشرية فى اتجاه واحد، إلى الله.

أما الشرك فهو يشتت تلك الوحدة التى فطر الله النفس البشرية عليها، ويمزقها.

يصلى الإنسان - إذا صلى! - لإله. ويبيع ويشترى ويبتغى الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح. ويمارس شهواته باسم إله ثالث يحل له العلاقات غير المشروعة ويزيّن له الخبائث. وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقرّبه إلى الله زلفى.. وهكذا تتشتت نفسه فى محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التى كثيرًا ما يكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها.

وفى النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمنه وطمأنينته: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ

---

(١) وكذلك السنة النبوية المطهرة تحوى تفاصيل شرع الله وهى من عند الله لأن الرسول ﷺ إنما يشرعها بوحى الله وأمره ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

وأوضح مثال على ذلك تلك الجاهلية المعاصرة التى يمارسها الناس فى أكثر أرجاء الأرض.

ولقد كانت هذه الجاهلية تبهر الناس وتخدعهم بالتقدم العلمى والمادى الهائل الذى حصلته. ولكنها تكشفت ـ حتى لأصحابها ـ عن تمزق نفسى لا مثيل له فى التاريخ، يتمثل فى التزايد المستمر لحالات القلق والجنون والاضطراب العصبى والنفسى والانتحار والإغراق فى المسكرات والمخدرات!

وأخيرًا تصايح الشباب هناك بأنه يحسّ بالضياع، ولا يجد لحياته معنى، ولا يجد نفسه فى اتجاه يكسبها الاستقرار والطمأنينة!

وتلك هى الحصيلة الأخيرة للشرك، مهما بدا من مظاهر التقدم المادى والعلمى، لأن النفس الممزقة بين الأرباب المختلفة لا يمكن أن تجد الطمأنينة أو تحس بالاستقرار.

٥ـ ومن نتائجه إحباط العمل:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والحبوط مأخوذ من «حبطت الناقة» إذا انتفخ بطنها وماتت نتيجة تناولها طعامًا سامًا، ويراد به ضياع نتيجة العمل وانقلابه بالوبال على صاحبه.

والله يقول للرسول ﷺ: إن الله قد أوحى إليك كما أوحى إلى النبيين من قبلك أن الشرك يحبط العمل ويفسده، ويئول فى النهاية إلى الخسران، الخسران الأكبر فى الآخرة بدخول النار والعياذ بالله.

ولكنه لا يقتصر على الدار الآخرة، فنحن نرى آثار ذلك الخسران فى الحياة الدنيا بادية واضحة فى الجاهلية المعاصرة، كما أشرنا فى الفقرة السابقة.

إن الناس فى الجاهلية المعاصرة قد انتفخوا من كثرة ما أعطاهم الله استدراجًا عن

طريق التقدم العلمى من سيارات وثلاجات وطائرات وصواريخ وقنابل ذرية ونووية وأموال وخيرات من كل الأنواع.

انتفخوا بكل ذلك حتى وصلت بهم «النفخة» إلى الاستكبار على الله، يقول الله عن أمثالهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

ولكنه انتفاخ كانتفاخ الناقة الخابطة بالغذاء المسموم.

فاستثمار خيرات الأرض وصل حاليًا إلى حد لم يبلغه فى التاريخ، والفقر الجاثم على كثير من ربوع الأرض ليس له كذلك مثيل فى التاريخ!

وتقدم الطب بلغ درجة لم يصلها من قبل قط، ونسبة المرض كذلك فى تزايد مستمر، وتنشأ أمراض جديدة لا عهد للبشرية بها من قبل، وآخرها مرض نقص المناعة المكتسبة المسمى بالإيدز.

والتنادى بالحريات السياسية والحريات الإنسانية يشبه الدوىّ فى برلمانات الأرض، وصحفها ووسائل إعلامها، والعبودية التى يعيش الناس فيها فى أكثر بقاع الأرض أبشع عبودية فى التاريخ.

ووسائل المتاع التى اخترعها البشر ليتناولوا بها أكبر قسط من متاع الأرض لا مثيل لها فى كثرتها وتنوعها واستغراقها لحياة الناس، ودرجة الشقاء التى يحسها الناس من أول الاضطرابات النفسية إلى الجنون لا مثيل لها كذلك فى كل التاريخ!

وصدق الله العظيم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٦ - ومن آثار الشرك الأكبر خلود صاحبه فى النار:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٦ - ١٢١].

وأى شيء يمكن أن يكون أفظع من ذلك وأبشع؟

إن الحريق هو أفظع ما يتعرض له الإنسان فى الحياة الدنيا لأنه شيء لا يطاق.. شيء لا تستطيع احتماله الأعصاب. ومع ذلك فما أهونه وأيسره بجانب حريق الآخرة.

إنه ـ مهما اشتد ومهما امتد ـ فلن يتجاوز دقائق قد تمتد إلى أيام.. ثم بعد ذلك إما أن يشفي صاحبه وإما أن يموت. فكيف إذا كان لا يشفى قط ومع ذلك لا يموت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

عذاب ساعة أو ساعات لا يحتمله الإنسان فى الحياة الدنيا، فهل يستطيع أن يحتمل العذاب الذى يصل إلى درجة الاحتراق الكامل ثم يعود الجلد ـ الذى يشتمل على أعصاب الحس ـ جديدًا، ليحس صاحبه العذاب من جديد.

فهل من الحكمة أن يعرض الإنسان نفسه ـ بارتكاب الشرك ـ إلى هذه الدرجة الفظيعة من العذاب؟

إن الناس فى الحياة الدنيا يتقون الحريق بكل وسيلة، ويحاولون جهدهم ألا يصيبهم ذلك الحريق.

فما أغفل المشرك الذى يهرب جهده من لذعة عابرة فى الدنيا، ثم يركض بقدميه ركضًا ليلقى بنفسه فى الحريق الذى لا يزول أبدًا ولا يستطيع أن يخرج منه بعد أن يدخل فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ـ ١٦٧].

* * *

الإلحــاد

الإلحاد الذى ينتشر اليوم فى أوربا، شرقها وغربها، ويتبجح بإنكار وجود الله وينفى أن الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيى المميت وأنه خالق الكون ومدبره، ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ البشرية من قبل، من حيث سعة انتشارها، وتأثيرها فى حياة الناس وأفكارهم وتصوراتهم، وما أحدثته من تحلل وفساد خلقى.

حقًا، لقد وجدت نماذج من الإلحاد فى التاريخ القديم؛ فقد وجد الدهريون، الذين ينكرون البعث، وينسبون الموت للدهر بدلاً من الله. أولئك الذين أشار الله فى القرآن إليهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء هم البذرة الأولى للذين يقولون اليوم «بالطبيعة» بدلاً من الله، فيرتكبون ذات الجهالة التى وقعت فيها جاهليات قديمة من قبل.

ووجدت نماذج من التحلل الخلقى الذريع إلى جانب الإلحاد، كما حدث فى المزدكية التى انتشرت فى بلاد فارس فترة من فترات التاريخ وأباحت شيوعية المال والنساء، وأنشأت لونًا من الفوضى الخلقية لا مثيل له فيما سبق من القرون. وأولئك هم البذرة الأولى للشيوعية المعاصرة التى قدمها ماركس ولينين[1].

ولكن هؤلاء وأمثالهم كانوا قلة فى حياة البشرية من قبل.

ذلك أن الانحراف الأكبر الذى يقع فى عقائد الناس فى جاهليتهم هو الشرك كما أسلفنا وليس الإلحاد، لأن الفطرة ـ وإن ضلت ـ تظل تؤمن بوجود الله ولكنها تشرك معه آلهة أخرى. أما الإلحاد ـ بمعنى إنكار وجود الله أصلاً ـ فهو شذوذ نادر حتى فى الفطرة المنحرفة، سببه انطماس غير عادى فى البصيرة، يجعل الإنسان يعيش بكامله فى عالم الحس، فيؤله المحسوس وحده، وينفى وجود إله ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

لذلك كان الإلحاد ـ كما قلنا ـ أمرًا نادرًا فى تاريخ البشرية.

---

(١) تنسب المزدكية إلى «مزدك» الذى عاش فى فارس فى القرن السادس الميلادى ونشر مذهبه الذى يدعو إلى الإباحية الكاملة.

أما البشرية المعاصرة فقد انتشر فيها الإلحاد بصورة غير مسبوقة من قبل. ولابد من أن تكون هناك أسباب غير عادية هى التى أدت إلى انتشاره بهذه الصورة البالغة القبح.

إن السبب الرئيسى فى إلحاد اليوم هو ذات السبب فى كل إلحاد حدث فى التاريخ: انطماس غير عادى فى البصيرة، يؤلّه المحسوس وحده وينفى وجود الله.

ولكن الذى نبحث هنا عن أسبابه ودوافعه هو انتشار هذه الظاهرة على نطاق واسع غير معهود من قبل، بحيث يصبح هذا العدد الهائل من البشر مطموس البصيرة بهذه الصورة غير العادية، فيؤمن بالمحسوس وحده وينكر وجود الله.

ومادامت الفطرة ـ حتى فى انحرافها ـ لا تصل إلى هذه الصورة إلا فى حالات شاذة نادرة، فلابد أن هناك أشياء غير عادية فى حياة الناس فى أوربا ـ التى ينتشر فيها الإلحاد ـ قد مسخت طبائع النفوس هناك، فلم تقف فى انحرافها عند درجة الشرك. إنما تجاوزتها إلى الإلحاد الذى يجمع فى حقيقته بين الشرك والكفر: الشرك بمنح خصائص الألوهية لغير الله، والكفر بإنكار وجود الله.

ولابد لنا من لمحة سريعة عن حياة أوربا تبين لنا أسباب هذه الظاهرة الخطيرة غير العادية فى حياة البشرية.

أسباب الإلحاد:

أولاً: دور الكنيسة الأوربية فى إفساد النصرانية المنزّلة من عند الله:

بعث الله سيدنا عيسى بالحق، وأنزل عليه الإنجيل يبين للناس حقيقة التوحيد ويدلّهم على الشرائع التى ينبغى أن تحكم حياتهم بأمر من الله: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ولكن المجامع التى أنشأتها الكنيسة الأوربية لتقرير أمور العقيدة قد أفسدت هذا الدين الربانى المنزل من عند الله وشوّهت صورته تشويهًا بالغًا من ناحيتين:

الأولى: ناحية الاعتقاد، بأن جعلت الله ثلاثة بدلاً من واحد، وجعلت المسيح ابن مريم إلـهًا بدلاً من كونه بشرًا ورسولاً كبقية الرسل والأنبياء. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة ٧٣].

الثانية: ناحية الحكم بما أنزل الله فى الإنجيل. فقد أبطلوا الحكم بشريعة الله المنزلة إلا فيما يسمى «الأحوال الشخصية»، أى الزواج والطلاق، أما بقية أمور الحياة فقد بقى القانون الرومانى يحكمها بدلاً من شريعة الله. وفى ذلك يقول الله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم[1] بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ[2] وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3] [المائدة: ٤٦، ٤٧].

وبذلك أفسدت الكنيسة الدين النصرانى المنزل من عند الله إفسادًا كاملاً وأصبحت أوربا واقعة فى الشرك منذ أوائل اعتناقها المسيحية! وكان هذا الشرك مقدمة لمزيد من الفساد فى الحياة الأوربية.

ثانيًا: موقف الكنيسة من العلم:

فى العصور الوسطى كانت أوربا تعيش فى ظلام الجهل والخرافة. ومن هنا ينطبق عليهم وصف «العصور الوسطى المظلمة» كما يعبرون عن حياتهم فى تلك الفترة من تاريخهم.

ثم وقعت بينهم وبين المسلمين سلسلة من الحروب هى المعروفة فى التاريخ باسم

---

(١) أى على آثار أنبياء بنى إسرائيل السابقين لعيسى ابن مريم. الذين كانوا يحكمون بمقتضى شريعة التوراة.

(٢) تكررت هذه الإشارة فى الآية مرتين ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ الأولى لعيسى ابن مريم، أى أن عيسى جاء مصدقًا للتوراة، والثانية للإنجيل، بمعنى أن الإنجيل جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة أى مؤكدًا صدق نزولها من عند الله.

(٣) الفاسقون هنا معناها الكافرون.

الحروب الصليبية، التى استغرقت قرابة قرنين من الزمان، من القرن الحادى عشر الميلادى إلى القرن الثالث عشر.

وفى تلك الحروب احتك الصليبيون بالمسلمين وعرفوا عن كثب مزايا الحياة الإسلامية وفضائلها، وما تحويه من حضارة وعلم، فتأثروا بها تأثرًا بالغًا، وحاولوا إقامة حياتهم فى أوربا على ضوء بعض المبادئ والقيم التى وجدوها عند المسلمين. كما جاءهم التأثير من ناحية أخرى باحتكاكهم بالمسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية الإسلامية وجنوب إيطاليا الإسلامى حيث كانت المدارس والجامعات الإسلامية مزدهرة يفد إليها طلاب العلم من كل مكان فى الأرض. ويؤمها الأوربيون لنيل العلم على يد الأساتذة المسلمين، ويتعلمون العربية لتلقى العلم وترجمة الكتب الإسلامية العلمية إلى لغاتهم الأوربية.

ومن هذين التأثيرين بدأت أوربا تنهض وتخرج من عصورها الوسطى المظلمة.

ولكن الكنيسة وقفت ضد الحركة العلمية التى بدأت تنشأ فى أوربا.. ويرجع ذلك إلى سببين فى آن واحد:

السبب الأول: خوفها على مكانتها فى نفوس الجماهير. فقد كانت تلك المكانة قائمة على مجموعة من الخرافات التى تبثها الكنيسة فى عقول الناس، وتقول لهم: إن هناك فى الدين أسرارًا لايعرفها إلا رجال الدين وإن على الناس أن يخضعوا لرجال الدين خضوعًا أعمى، ولا يسألوا عن تلك الأسرار، وإنما يطلبون البركة من رجال الدين بطاعتهم إياهم فى كل ما يأمرون به. وهم - أى رجال الدين - كفيلون بتقريبهم إلى الله بهذه الطاعة ليغفر لهم ذنوبهم.. وكانت الكنيسة تخشى إذا انتشر العلم أن تتفتح أعين الناس على تلك الخرافة وأمثالها فتضيع مكانة رجال الدين فى نفوسهم، ولا يعود للكنيسة ذلك السلطان المقدس عند الجماهير!

والسبب الثانى: أن ذلك العلم فى الحقيقة هو علم المسلمين. وكان الأوربيون الذين يُبتَعَثون إلى المدارس والجامعات الإسلامية ينقلون معهم علوم المسلمين، وينقلون معها فى الوقت ذاته تأثرًا واضحًا بالإسلام والقيم والمبادئ الإسلامية، فخشيت الكنيسة أن ينتشر الإسلام فى أوربا مع الحركة العلمية المنقولة أصلاً عن الجامعات الإسلامية والعلماء المسلمين؛ لذلك قامت تحارب العلماء الأوربيين الذين تأثروا بعلوم المسلمين محاربة وحشية. وتهددهم بالتقتيل والتعذيب

والتحريق فى النار حتى الموت إذا لم يتراجعوا عن الأفكار العلمية التى نقلوها عن علماء الإسلام! وكان هذا بداية انحراف خطير بالغ الأثر فى الحياة الأوربية هو فصل العلم عن الدين، وإيجاد عداوة بين الدين والعلم، وبين المتعلمين والدين! واستمر هذا الانحراف يتزايد على مر العصور فى أوربا حتى أصبح الدين فى حس المتعلم الأوربى ممثلاً للخرافة، وأصبحت «النظرة العلمية» فى تصوره هى إبعاد مفاهيم الدين كلها عن مجال البحث العلمى، وعدم الإشارة إلى الله أصلاً فى أية حقيقة من حقائق العلم تتصل بالكون أو الحياة أو الإنسان(١).

ثالثًا: طغيان الكنيسة ورجال الدين:

لم تكتف الكنيسة بما أفسدته من دين الله المنزل، ولا بموقفها المعادى للعلم وحقائقه النظرية والتجريبية، بل أضافت إلى ذلك طغيانًا بشعًا على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم وأجسادهم:

١ ـ ففرضت عليهم احتكار الوساطة بين الناس وبين الله. فلا يملك الإنسان أن يتصل بربه إلا عن طريق الكاهن. . ولا تقبل منه التوبة والاستغفار من ذنوبه إلا بالجلوس أمام الكاهن على «كرسى الاعتراف» وإعلان الكاهن له بقبول توبته.

٢ ـ وفرضت عليهم أفكارًا معينة عن شكل الأرض وعمر الإنسان على سطح الأرض، تخالف ما وصلت إليه حقائق العلم الثابتة، وقالت لهم: إن هذه أفكار مقدسة لأنها منزلة من عند الله، ومن خالفها فهو كافر ملحد.

٣ ـ وفرضت عليهم العشور، أى أن يقدِّمُوا عُشْرَ مالهم هبة خالصة للكنيسة. لا لله ولا للمساكين، إنما ليعيش بها رجال الدين فى بذخ لا يحلم به الأباطرة فى عصر من العصور.

٤ ـ وفرضت عليهم السخرة، أى أن يعملوا فى فلاحة الأرض المملوكة للكنيسة يومًا واحدًا من كل أسبوع سخرة بغير أجر.

---

(١) من هنا يقول دارون: «إن الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق»، فينسب الخلق لما سماه «الطبيعة» ويرفض أن ينسبه لله. ومن هنا كذلك يرد اسم الطبيعة فى الكتب العلمية الأوربية حيث كان ينبغى أن يذكر اسم الله. ويرون هناك أن ذكر اسم الله فى أى بحث علمى يفقده الطابع العلمى!!

٥ ـ وفرضت عليهم الخضوع المذل لرجال الدين، فيتعين على الناس أن ينحنوا عند مرور الكاهن بهم حتى تلتصق جباههم بالأرض، ولو كانت الأرض مملوءة بالوحل والطين.

وأضيف إلى ذلك كله أنه حين قامت الجماهير فى أوربا فى العصور الحديثة تطالب بحقوقها المسلوبة، وتطلب رفع الظلم الواقع عليها من رجال الإقطاع، وقفت الكنيسة إلى جانب الظالمين من رجال الإقطاع وهددت الجماهير المستعبدة بغضب الله عليها إن ثارت على ظلم الأسياد!

وكان لذلك كله آثار بعيدة فى تنفير الناس من الكنيسة، وبالتالى من الدين!

رابعًا: الرهبانية:

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد تقبلها الله منهم ـ وإن كان لم يكتبها عليهم ـ لأنهم ابتغوا بها رضوان الله فى مبدأ أمرهم. ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها، بل تحولت الأديرة التى يسكن فيها الرهبان والراهبات إلى مباءات من الفساد الخلقى أبشع بكثير مما يجرى فى داخل المجتمع على أيدى الفساق المنحلين!

وفى ذلك يقول الله: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد ظلت السيرة السيئة التى يتناقلها الناس عن الحياة الخاصة لرجال الدين تزداد سوءًا حتى صارت سخرية الساخرين، وصارت كذلك منفرة للناس من الدين.

خامسًا: مهزلة صكوك الغفران:

وذلك حين زعم البابا أنه يضمن المغفرة للناس عند الله ويملك أن يدخلهم الجنة مقابل دفع مبالغ معينة من المال! وكتب صكوكًا ـ اشتهرت باسم صكوك الغفران ـ يقول فيها: أنا البابا .. فلان.. أمنح المغفرة لفلان من الناس عن كل ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، وأنه أصبح بريئًا من الذنوب كيوم ولدته أمه، وأنه يدخل الجنة يوم القيامة ويكون مباركًا عند الرب! ثم راح يبيع هذه الصكوك للناس بالمال! فصاروا

يرتكبون من الذنوب والجرائم ما يرتكبون، ثم يشترون صكوك الغفران من البابا متوهمين أنهم يدخلون بها الجنة وينالون بها مغفرة حقيقية من عند الله!

واتسعت الدائرة حين وكَّل البابا من دونه من رجال الدين فى بيع الصكوك للناس حتى صارت المسألة مهزلة ضخمة لا تؤدى فى النهاية إلى توقير الدين ولا رجاله المزعومين.

لذلك كله ظل نفور الناس من الدين يتزايد على مر العصور فى أوربا حتى انسلخوا منه جملة فى العصر الحديث!

سادسًا: تشويه الكنيسة لصورة الإسلام فى نفوس الأوربيين:

قلنا من قبل: إن الكنيسة قامت تحارب الحركة العلمية فى أوربا لأنها كانت تحمل معها تأثيرًا إسلاميًا واضحًا، لأن المبتعثين الأوربيين إلى بلاد الإسلام كانوا يرجعون متأثرين بالروح الإسلامية، وبما شاهدوه فى بلاد المسلمين من تقدم علمى وحضارى. ونضيف هنا أن الكنيسة حين فزعت من هذا التأثير الإسلامى الذى يحمله المبتعثون معهم، وخشيت من انتشار الإسلام فى أوربا مع الحركة العلمية المستمدة من علوم المسلمين، قامت بحملة واسعة لمحاربة هذا التأثير، وجندت كتابها ليكتبوا ضد الإسلام، ويشوهوا صورته النقية، ويتهجموا على رسول الله ﷺ ويتقولوا عليه الأقاويل، ويتهموا المسلمين بكل كبيرة فى الأرض، ليحولوا بين أوربا وبين اعتناق الإسلام!

وكان لهذه الحملة المزدوجة ضد العلوم المستمدة من المسلمين وضد المسلمين والإسلام آثار بعيدة المدى فى الحياة الأوربية.

فأما الحملة ضد الإسلام فقد أثرت بالفعل فى نفوس الأوربيين فصدتهم عن اعتناق الإسلام، وساعد على هذا الصد أن الهزيمة التى منى بها الصليبيون فى حروبهم مع المسلمين كانت ما تزال تحز فى نفوسهم. وأما الحركة العلمية والحضارية المستمدة من الأصول الإسلامية فقد مضت فى سبيلها؛ لأن الناس أحبوا ثمار العلم بعد أن أفاقوا من جهالتهم. وأحبوا ثمار الحضارة حين رأوها متاحة بين أيديهم. ولكن هذه الحركة العلمية والحضارية قامت مع الأسف على غير أساس من الدين، بل معادية للدين فى الحقيقة. ذلك أن مواقف الكنيسة السابقة كلها جعلت المثقف

الأوربى المتحضر ينفر من الدين الذى تقدمه له الكنيسة وهو المسيحية، كما أن حملة الكنيسة ضد الإسلام جعلت هذا المثقف لا يقبل الدخول فى الإسلام حتى وإن كان يستمد أصول حضارته من المسلمين!

ومن هنا نشأ الموقف الشاذ الذى أدى إلى الأزمة المعاصرة التى تعيش فيها البشرية فى الوقت الحاضر، وهو قيام حركة علمية ضخمة، وتقدم مادى واسع بعيد عن الدين ومعاد له، وبعيد عن كل القيم الروحية والأخلاقية التى لا تستقيم بدونها حياة الإنسان على الأرض. وأصبح الأوربى كلما زادت علومه وتقدمه المادى يغريه ذلك بمزيد من البعد عن الدين!

سابعًا: دور اليهود فى إفساد الحياة الأوربية:

فى هذا الموقف الشاذ الذى هيأته الكنيسة الأوربية بمواقفها المختلفة ظهر اليهود ليدفعوا عجلة الفساد دفعًا إلى الأمام.. فهم كما وصفهم الله فقال تعالى: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

لقد رأى اليهود الفرصة سانحة لينقضّوا على النصرانية عدوهم القديم، فأطبقوا عليها من كل جانب، يبثون الأفكار الهدامة، ويفسدون الأخلاق وينشرون كل رذيلة باسم التقدم والحضارة تارة وباسم الحرية الشخصية تارة أخرى حتى استطاعوا بالفعل أن يفسدوا الحياة الأوربية بكل أنواع الفساد التى لا تخطر على البال.

فمن ناحية قام ماركس - وهو يهودى - يدعو إلى الشيوعية والإلحاد، وهو صاحب القولة المشهورة: الدين أفيون الشعوب!

ومن ناحية أخرى قام فرويد - وهو يهودى - بنشر نظرياته عن الجنس، التى يدعو فيها إلى التحلل من الدين والأخلاق والتقاليد بحجة أنها تسبب الكبت والعقد النفسية والعصبية!

ومن ناحية ثالثة أشرف اليهود على الحركة الصناعية الرأسمالية فى أوربا ليشغّلوا فيها أموالهم بالربا، وعن هذا الطريق سيطروا على كل نواحى الحياة الأوربية فأفسدوا فيها مفاسد جمة.

١ - فقد أغروا المرأة بالخروج إلى العمل فى المصانع، فلما كثر عدد النساء العاملات أغروهن بالتبرج والزينة والأزياء الفاضحة لتفسد أخلاقهن ويفسد الشبان معهن.

ومن وراء ذلك تكسب بيوت الأزياء وبيوت الزينة مكاسب مالية هائلة وترجع كلها فى النهاية إلى اليهود.

٢ ـ أطلقوا شعارات «الحرية والإخاء والمساواة» وتحت شعار الحرية نشر الإلحاد والفساد الخلقى باعتبارهما من أبواب الحرية الشخصية للإنسان! فمن شاء أن يلحد فليلحد .. ومن شاء أن يتبذل ويتحلل فليفعل ذلك، وليس لأحد أن يتدخل فى «حريته الشخصية»!

٣ ـ حطموا كيان الأسرة بإغراء المرأة بالخروج للعمل وجعلها تنظر إلى البيت والأمومة ورعاية النشء على أنها قيود سخيفة تحد من انطلاقها وحريتها..

٤ ـ انشئوا أجيالاً من الأطفال بلا أسر لأن الأم مشغولة بالعمل فى الخارج ولا تجد فرصة حقيقية لتربية الأطفال، فنشأت ظاهرة جنوح الأحداث التى تشكو منها كثير من المجتمعات الغربية.

تلك بعض المفاسد التى أحدثها اليهود فى الحياة الغربية، وما تزال عجلة الفساد دائرة تأتى كل يوم بجديد.

ثامنًا: مسئولية المسلمين عن ذلك كله:

وأخيرًا لابد لنا أن نذكر أن الأمة الإسلامية مسئولة مسئولية كبيرة عن هذا الفساد الحادث اليوم فى الأرض. إن هذه الأمة لم يخرجها الله ويجعلها خير أمة فى التاريخ لتعيش فى حدود نفسها فحسب، بل لتكون قائدة ورائدة لكل البشرية:

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد ظل الخير يعم البشرية كلها حين كانت هذه الأمة قائمة برسالتها تنشر النور والهدى فى آفاق الأرض، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتدعو إلى الإيمان.

فلما تخلت هذه الأمة عن رسالتها فى القرون الأخيرة، وأصابها الضعف والوهن

تبعًا لـذلك، فقد تولت قيـادة البشرية أمة جـاهلية لا تؤمن بالله ورسله، ولا تحكّم شريعته فى الحياة، ومن ثم أتيحت الفرصة لشياطين الجن والإنس أن يعيثوا فسادًا فى الأرض، وينشروا الكفر بدلاً من الإيمان.

ولن تصلح الأرض مرة أخرى حتى يعود المسـلمون عودة صادقة إلى دينهم الحق وعندئذ يتحقق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين كما تحقق مرة من قبل: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [النور: ٥٥].

هذه اللمحة من تاريخ أوربا تعيننا على تفهم الجو الحالى السائد فى الغرب والذى انتشر فيه الإلحاد والفساد الخلقى.

لقد نشأ من العوامل الثلاثة سالفة الـذكر ـ وهى موقف الكنيسة ودور اليهود فى الإفساد وتخلى المسلمين عن رسالتهم ـ وجود جو معاد للدين فى أوربا، صالح لكل جراثيم الفساد أن تنتشر فيه.

ولعل أخطر هذه الجراثيم جميعًا هو الإلحاد والفساد الخلقى؛ لأن الإنسان إذا بعد عن الله، وعن تطبيق منهج الله فى الأرض، فلا حدود للهاوية التى يمكن أن ينحدر إليها. والواقع الأوربى الحاضـر خير برهان على هذه الحقيقـة المؤلمة، فإن الانفصال القـائم بين الدين والعلم، وبين الدين والحـياة، قـد أدى إلى فسـاد الفطرة البشـرية ذاتها، فضــلاً عما أصابها من أمـراض القلق والجنون والانتحار والأمراض النفـسية والعصبية وانتشار الجريمة والإدمان على الخمر والمخدرات حتى بين الشباب المراهقين.

وذلك كله راجع إلى البعد عن الله، والبعد عن الدين.

* * *

قضية الإلحاد
لا تقوم على أساس من العقل ولا من العلم

إن قضيــة الإلحاد المنتشر فى الأرض اليوم لا تقــوم على أى أساس من العقل ولا من العلم، فى عــصر يزعم لنفــسه أنه يعيــش فى كل أموره على أساس مــن العقل وأساس من العلم.

فهؤلاء الملحدون حين تواجههم قضية الخلق، وهى القضية التى تتحدى كل منكر لوجود الله، يقولون إن «الطبيعة» هى التى تخلق!

وهذا كــلام غيــر علمى، وإن كــان يَرِدُ على ألسنة مــن يسمــونهم «علمــاء» فى الجاهلية المعاصرة!

فما الطبيعة على وجه التحديد؟!

يقول دارون: إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق.

ثم يعود فيقول: إن الطبيعة تخبط خبط عشواء!

يا سبحان الله!

هذا الإله المزعوم الذى ينســبون إليه الخلق لا هو عاقل ولا هو حكــيم.. فهو - على حد قــول دارون - يخبط خبط عــشواء وليس عنده تدبير منظم لعــملية الخلق، فكيف بالله يستطيع هذا الإله المزعوم المتخبط أن يدير الكون بهذه الدقة المعجزة التى نشهد آياتها فى كل ما حولنا من شئون الكون والحياة؟

وكيف استطاع هذا الإله المزعوم أن يخلق الإنسان على هذه الصورة؟ إن الإنسان كائن عاقل ومدبر وله إرادة وغاية وهدف. فهل يستطيع شيء لا إرادة له ولا غاية أن يخلق كائنًا له إرادة وغاية؟! وهل يستطيــع شيء لا عقل له أن يخلق كائنًا مفكرًا له عقل؟!

أما العلم فلنسمع فــيه شهادة بعض العلماء الذين فتح الله بصــيرتهم على جانب من الحقيقة وإن كانوا يعيشون فى ذات الجاهلية المعاصرة التى تلف بلاد الغرب.

يقول عالم الأحيــاء والنبات «رسل تشارلز إرنست» الأستاذ بجامــعة فرانكفورت بألمانيا: «لقــد وضعت نظريات عديدة لكــى تفسر نشأة الحــياة فى عالم الجــمادات،

فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بُذلَت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين.. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده. . ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذى خلق الأشياء ودبرها.

«إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها. وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيمانًا راسخًا»[1].

ويقول: «أ. كريسى موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فى كتابه بعنوان «الإنسان لايقوم وحده»: «ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل، بالغًا هذه الدقة الفائقة؛ لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثانى أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات.

«ولو كان الهواء أرفع[2] كثيرًا مما هو فإن بعض الشهب التى تحترق الآن بالملايين فى الهواء الخارجى كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهى تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً فى الثانية، وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق. ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروعة. أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، كان يمزقه إربًا من مجرد حرارة مروره».

---

(١) من مقال «الخلايا الحية تؤدى رسالتها» من كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم».
(٢) يقصد أقل كثافة.

«إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائى التى يحتاج إليها الزرع، والتى تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع، ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان. وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أى المحيط - استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتات وأخيراً الإنسان نفسه».

ويقول من مكان آخر من الكتاب:

«إننا نقترب فعلاً من عالم المجهول الشاسع، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هى فى جوهرها كهربائية. ولكن مما لا ريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل فى تكوين الكون؛ لأن هذا العالم العظيم خضع للقانون.

«إن ارتقاء الإنسان إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى، ودون قصد إبداعى.

«وإذا سلمنا بوجود القصد، فإن الإنسان قد يعتبر جهازاً، ولكن ما الذى يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه. والعلم لا يعلل من يتولى إدارته وكذلك لا يزعم أنه مادى.

«لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره»[1].

ويقول سير «أرثر طومسون» المؤلف الأسكتلندى الشهير تحت عنوان «العلم والدين»: «. . نحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى. ولا نجاوز المعنى الحرفى حين نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة، وحفزه من ثَمَّ إلى غاية جهده العقلى، فإذا به فى كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حين يتخطى مدى الفهم، وذلك فى اليقين والاطمئنان إلى الله»[2].

---

(١) ترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان: «العلم يدعو إلى الإيمان».
(٢) من كتاب «عقائد المفكرين» للعقاد.

ولسنا نذكر هذه الشواهد لنستدل بها علـى وجود الله، فعندنا كتاب الله يكفينا، والفطرة التى فطر الله الناس عليها تشهد بذاتها. ولكنا نذكرها فقط لأن بعض الذين فتنهم التقدم العلمى فى هذا القرن يظنون أن العلم يقتضى عدم الإيمان بالله!!

* * *

آثار الإلحاد فى واقع البشرية المعاصر

إن هذه الموجة العاتية من الإلحاد، التى تسود أوربا، شرقها وغربها، وتنتقل بالعدوى إلى بقية أرجاء الأرض، قد خلّفت من الفساد فى الحياة البشرية ما لا مثيل له من قبل؛ لأن العالم اليوم قد تداخلت قضاياه وتشابكت، وصار ما يحدث فى أى جزء منه يؤثر بالضرورة فى بقية الأجزاء، فكيف إذا كان الأمر بهذه الخطورة وعلى هذه الدرجة من التأثير!

يقول الله فى كتابه الحكيم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وأى عمل يمكن أن يعمله الناس أسوأ من الإلحاد؟ وأى فساد أعظم من الفساد الناجم عنه؟

وإليك بعض النتائج التى ترتبت على هذا الإثم الخطير فى حق الله:

١ - القضاء على القيم الروحية والمثل العليا:

إن الإنسان الذى لا يؤمن بوجود الله لابد من أن تنحط معاييره وقيمه، ونظرته إلى كل شىء فى هذه الحياة. ذلك أن الإيمان هو الذى يقوى الجانب الروحى من الإنسان ويربطه بالمثل العليا، إذ يربط القلب البشرى بالله.

المؤمن هو الذى يعرف الهدف الحقيقى لحياته فى الأرض، لأن الله يقول له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فيعلم من ذلك أنه خلق ليعبد الله لا ليعبد شيئًا آخر غير الله.

والإنسان لابد أن يعبد.. هكذا خلقه الله عابدًا.. والعبادة جزء أصيل من فطرته. فإما أن يعبد الله، وإما أن يعبد شيئًا غير الله.

فإن عبدالله فقد التزم بطاعته، ونفذ أوامره، فتستقيم حياته فى الأرض، وينعم فى الآخرة بجنة الله ورضوانه، لأن الله يوجهه فى كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ إلى كل جميل من الخصال. يوجهه إلى عمل الخير والامتناع عن الشر. يوجهه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. يوجهه أن يكون أمينًا صادقًا. يوجهه أن يكون عادلاً

قوامًا بالقسط. يوجهه أن يكون نظيفًا فى سـره وعلانيته، نظيف الثياب نظيف البدن نظيف المشاعر نظيف السلوك. .

وأما إن كان لا يعبد الله، فسيعبد شيئًا آخر لا محالة.

يعبد بشرًا مثله، يضع له تشريعات من عند نفسه يحل فيها ويحرم على هواه. . فيطيعه.

أو يعبد شهواته. . شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان.

أو - فى واقع الأمر - يعبد الشيطان؛ لأنه فى الحقيقـة وجهة كل عابد لغير الله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فلننظر إلى الملاحـدة فى شرق الأرض وغـربها، مـاذا يعبـدون، وإلى أى شىء توجّههم عبادتهم. . ؟

الشيوعى عـبد للدولة، وللنظام الشيوعى، وللحـزب الحاكم، وللزعيم، لأنه لا يملك أن يفتح فمه بكلمة واحدة ضد واحـد من هؤلاء، وإلا كان نصيبه الموت. فهو - رضى أو كره - مستـذَل لهذه الأرباب كلهـا من أجل لقـمة الخبـز، من أجل أن يعيش[1].

والغربى عبدٌ للمال، وللشهوات. المال هو الذى يحركه، فلا يتحرك إلا من أجل الكسب المادى. والمال هو القيمة التى يقوم بها الإنسان. فوجوده ومكانته فى المجتمع مرهونان بمقدار مـا يتكسب من مال. والله يقول: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهم يقـولون: إن أكرمكم عندنا أغناكم. . ولو كـان الغنى قد جـاء من السلب والنهب والسطو على أقوات ملايين من البشر فى المستعـمرات التى يستعمرها الغرب وينهب أقواتهـا، وامتصـاص دماء الملايين من العمـال الذين يكدّون ويكدحون، ثم يسرق عرقهم وجهدهم هذا الرأسمالى ليتجبر بها فى الأرض.

ثم. . أين ينفقون أموالهم التى يجمعونها على هذه الـصورة ويصبحون عبيدًا لها فى النهاية؟

---

(١) لقد انهار النظام الشيوعى بحمد الله، ولكنّ له أذنابًا يحاولون بعثه من جديد!

إما أن يـنفقـوها فى شهـوات الجسـد الجامـحة التى تنحط بالإنسـان إلى مرتـبة الحيـوان. وإما أن يـنفقـوها فى الخراب والتـدميـر فى الصراع الوحـشى الدائر فى الأرض!

تلك عباداتهم، وذلك هو السلوك المتـرتب على عبادتهم. فمتى يشـعرون بالقيم العليا أو يستجيبون لدواعيها؟

٢ ـ الإخلال بالتوازن فى حياة الإنسان:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ ـ ٦].

لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على فطرته التى فطره الله عليها «فى أحسن تقويم» إذا بعد عن سبيل الله. بل إنه عندئذ يفقد توازنه فيقع «أسفل سافلين».

ذلك أن الإيمان هو الذى يحفظ التوازن بين العنصرين المكونين لخلق الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ⑦١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فالإنسان مكون كمـا يخبرنا العليم الخبير من قبـضة من طين الأرض ونفخة من روح الله.

فإذا كفر الإنسان وألحد فقـد أغلق النافذة التى يستمد منها النور، ولم يبق له إلا عتامة الطين وغلاظة الحسّ. أى لم يبق له إلا الماديات والمحـسوسات. إليها يتطلع، وفيهـا ينفق الجهد. وإليهـا يعود. وعندئذ تجذبه ثقلة الأرض فلا يسـتطيع أن يتوازن إزاءها؛ لأن الذى يمنحـه التـوازن إزاءها هو انطلاقـة الروح التى تصل قلبـه بالله، وتجعله يؤمن باليـوم الآخر ويعمل حـسابه فى جميـع أفعاله وأقواله فـلا يسفل ولا يتدنى. فـإذا فقدها فقـد توازنه وأصبح أسفل سافلين كـما يخبر الله عنه فى كـتابه الكريم.

والذى نراه اليوم فى الجاهلية المعاصرة هو مصداق ذلك القول، فلأى شىء يسعى الناس، وعلى أى شىء يتصارعون؟ مطالب الجسد ومـتاع الجسد وشهوات الأرض. وفى النهاية يفقد الإنسـان إنسانيته ويعود كالحيـوان، بل أسوأ من الحيوان: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٣ ـ القضاء على وازع الضمير:

الضمير هو «النفس اللوامة» التى أقسم بها الله جل شأنه فى كتابه العزيز: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢].

وهذا القسم من الله العظيم الجليل جل شأنه له دلالته، فإن الله العظيم لا يقسم إلا بشىء عظيم[١]. فإذا أقسم الله سبحانه وتعالى بالنفس اللوامة، التى تلوم الإنسان على فعل الشر وتدفعه إلى عمل الخير، فلا شك أن هذه النفس ذات وزن كبير فى ميزان الله. وإنها لكذلك، لأنها هى المحور الحقيقى لارتقاء الإنسان ومحافظته على قيمه العليا، كما أنها المحور الحقيقى لاستقامة أمر البشرية فى واقع حياتها.

فما الإنسان إذا فقد النفس اللوامة؟ إن نفسه حينئذ هى النفس الأمارة.. أى الأمارة بالسوء.. منها ينبع السوء، ومنها ينتشر الشر فى أرجاء الأرض.

والنفس الأمارة بالسوء لا يهذبها ولا يرتقى بها، ولا يرفعها إلى مرتبة النفس اللوامة إلا الإيمان بالله، الذى يجعل الإنسان مستحقا لرحمة الله المطهرة للنفس من دنسها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

أما الإلحاد والكفر فهو يذهب بالنفس اللوامة ولا يبقى إلا النفس الأمارة بالسوء.

ولقد يخيّل إلينا لأول وهلة أن أوربا الملحدة ذات ضمير. فالتاجر هناك لايغش ولا يخدع. والعامل لا يكذب ولا يخلف مواعيده. وأمور التعامل الفردى تقوم على الصدق والأمانة.

وهذا صحيح فى مظهره. ولكنها فى الحقيقة ليست أخلاقًا بالمعنى الحقيقى للأخلاق. إنما هى أخلاق التاجر الذكى الذى يحرص على كسب ثقة الزبون إلى آخر المدى، فيتودد إليه بخصال الصدق والأمانة والإتقان.

أما المحك الحقيقى للضمير فله مجال آخر.

---

(١) يأتى القسم فى القرآن منفيًا أحيانًا ومثبتًا أحيانًا أخرى وكلاهما قسم. من أمثلة النفى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ومن أمثلة الإثبات: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

فأين الضمير فى معاملة الزنوج فى أمريكا بالفظاظة والغلظة إلى حد القتل فى عرض الطريق؟

وأين الضمير فى استعمار الشعوب ونهب خيراتها وإبقائها فى حالة من الفقر والجهل والمرض والضعف والهوان؟

وأين الضمير فى موقف هيئة الأمم المتحدة من قضية فلسطين، وتحويل أهلها إلى لاجئين؟

وأين الضمير فى تقتيل المسلمين فى الفلبين وغيرها من بقاع الأرض؟

وأين الضمير فى إلقاء فائض القمح فى بعض البلاد فى الأنهار والبحار لكى لا ينخفض سعره فى الأسواق بينما الملايين فى بقاع الأرض يتضورون جوعًا ولا يجدون حبة من القمح؟

وأين الضمير فى إغراء الناس بالفساد الخلقى على أوسع نطاق لكى يكسب بضعة ألوف من الناس، ملايين الملايين من الأموال من أدوات الزينة والأزياء والأفلام السينمائية والصور الخليعة والخمر والمخدرات؟

٤ ـ اختلال الأمن والسلام فى المجتمع العالمى

لعل صورة العالم اليوم هى أسوأ صورة له فى التاريخ..

فلم تمرّ على العالم فترة من فقدان السلام واضطراب الأمن أحلك مما مر به فى هذا القرن الأخير.

الحرب العالمية الأولى قُتل فيها عشرة ملايين من الشباب، والحرب العالمية الثانية قُتل فيها أربعون مليونًا من البشر.. ولم تستقر أحوال العالم ما بين الحربين ولا قبلهما ولا بعدهما إلى هذه اللحظة.

والصراع الدائر لا يكف فى أطراف الأرض، ولا تكاد تجد مكانًا ينعم بالاستقرار.

ومن أجل أى شىء يقوم هذا الصراع؟

هل هو صراع لإحقاق الحق فى الأرض ونشر العدل بين الناس؟

هل هو صراع لإعطاء الضعيف حقه ووقف القوى عن العدوان على الضعيف؟

ليس هناك صراع واحد من أشكال الصراع القائمة بين الدول اليوم يدور حول إحقاق الحق ونصفة المظلوم. . إنما كلها صراع دائر على مزيد من التسلط ومزيد من العدوان! الدول التى تسمى نفسها «الدول الكبرى» تتصارع فيما بينها. . ولكن على أى شىء؟ على حيازة أكبر عدد من «المستضعفين» والتسلط عليهم! كما تتصارع الذئاب حول الفريسة، ينهش بعضها بعضًا لا دفاعًا عن الفريسة لتنجو، ولكن ليستأثر بها كل ذئب لنفسه دون بقية الذئاب. . والفريسة مأكولة أيًا كانت نتيجة الصراع.

قانون الغاب هو الذى يحكم الناس فى الأرض فى غيبة من شرع الله.

قانون الغاب يقول: الغلبة للقوة لا لصاحب الحق، القوى يأكل الضعيف. وشرع الله يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠].

يقول: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ولكن أنَّى للكفار والملحدين أن يطبقوا قانون الله؟! بل الأحرى بهم أن يطبقوا القانون الذى تتعامل به الوحوش فى الغاب، لأنهم حين يفقدون صلتهم بالله يفقدون إنسانيتهم ويصبحون مثل تلك الوحوش.

وليس الأمن الدولى وحده هو الذى فقده الناس حين قطعوا صلتهم بالله رب الكون والناس.

إن مجتمعاتهم كذلك قد فقدت الأمن.

فإحصاءات العالم كلها تقول إن نسبة الجريمة فى تزايد مستمر. سواء جرائم القتل أو جرائم اغتصاب الأموال واغتصاب الأعراض.

وفى كل عام تجتمع المؤتمرات فى شتى بقاع الأرض لتتدارس هذه الظاهرة الخطيرة، يحضرها رجال القانون ورجال الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الجريمة وغيرهم من «العلماء».

ثم تطلع الإحصاءات الجديدة تقول: إن نسبة الجريمة تزداد باستمرار.

بل ليس الأمن الدولى ولا أمن المجتمع وحدهما هما اللذان أصابهما الخلل والاضطراب.

إنه الأمن النفسى كذلك، أمن كل نفس بذاتها، وفى حدود نفسها!

ونظرة إلى الإحصاءات تطلعنا على هذا الأمر. فالإحصاءات لا تقول إن نسبة الجريمة وحدها هى التى تتزايد، إنما تقول كذلك: إن نسبة أمراض القلق والجنون والانتحار والاضطرابات النفسية والعصبية هى كذلك فى تزايد مستمر!

وصدق الله العظيم، فقد أخبرنا أن المصدر الحقيقى لطمأنينة النفس هو ذكر الله والاتصال بالله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فمن أين للناس طمأنينة القلب حين يبعدون عن الله، بل حين يشمئزون من ذكر الله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

٥ ـ فساد الفطرة الإنسانية والهبوط إلى مستوى الحيوان:

أين «الإنسان» فى هذه الدوامة التى تلف البشرية اليوم فى بعدها عن الله؟

هذا الشاب الذى نكث شعره وأسدله ولبس الكعب العالى والملابس الملتصقة بوسطه. هل هو «إنسان»؟

هذه الفتاة المسترجلة التى تدخن وتشرب الخمر وتلبس ملابس الفتى وتتشرد معه فى كل مجال.. هل هى «إنسانة»؟

هؤلاء النساء الكاسيات العاريات المتبرجات فى الطريق بكل زينة يستعرضن أجسادهن لكل نظرة جائعة وسعار مجنون. هل هن آدميات على مستوى «الإنسان»؟

هؤلاء الرجال الذين لا يغارون على أعراضهم. لا على نسائهم ولا بناتهم ولا أخواتهم، ولا على أعراض الآخرين، لأن قضية العرض كلها لا تخطر لهم على بال، هل بقى لهم شىء من كرامة «الإنسان»؟

وصنوف غيرها وصنوف من الانتكاس إلى مستوى الحيوان، بل أسوأ من الحيوان. . هل تعتبر فى عداد «الإنسان»؟

لقد تجاوز الفساد حدود الأخلاق: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

* * *

موقف المسلم من قضية الإلحاد

إن هناك ظروفًا معينة كما رأينا قد أثرت فى الحياة الأوربية وأدت إلى انتشار الإلحاد هناك.

ولسنا نقول: إن هذه الظروف تبرر ما حدث هناك من الكفر والتبجح به. فلا شيء على الإطلاق يبرر الكفر بالله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

وقد أعطى الله الأوربيين عقولاً يفكرون بها كما أعطى كل البشر، وأرسل رسله لبيان الحق: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء: ١٦٥].

فإذا أبطل الناس عمل عقولهم التى أعطاهم الله إياها، ولم يستمعوا لرسلهم أو حرفوا كلامهم، فهم مسئولون عن ذلك كله أمام الله يوم القيامة، ولا يغنيهم يومئذ أن يقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولكننا نقول فقط: إن هذه هى الظروف الواقعية التى أحاطت بالناس فى أوربا وكان من نتائجها انتشار الإلحاد بينهم هناك.

فما موقف المسلم من قضية الإلحاد؟

إن موقفه واضح تمامًا. فهو يرد هذه القضية من أساسها، ويبطلها إبطالاً كاملاً. فليس فى أصول دينه ولا فى تاريخه ما يؤدى إلى شيء مما حدث للناس فى أوربا من أشكال الاختلال.

فأصول الدين قد تكفَّل الله بحفظها من الضياع وحفظها من التحريف، يقول الله عن القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

كذلك قيَّض الله لسنة نبيه ﷺ رواة حافظين وعلماء مدققين حفظوا السنة ومحصوا روايتها ونفوا الدخيل منها وأبقوا الصحيح ودوَّنوه.

ومن هنا لم يحدث فى العقيدة تحريف كما حدث فى عقائد أهل الكتاب.

ثم إن الدين المنزل من عند الله بقى على صورته المنزلة عقيدة وشريعة، فلم يقسم كما فعل النصارى فى دينهم، فجعلوه عقيدة منفصلة عن الشريعة. وبقى الإسلام قرونًا عديدة يمارس فى واقع الأرض بصورته المتكاملة، فيحكم علاقة العبد بالرب، وعلاقات الحاكم بالمحكوم، وعلاقات الناس بعضهم ببعض بغير تفريق بين جزء من هذا الدين وجزء.

وحتى حين انحرف أغلب المسلمين فى القرون الأخيرة عن حقيقة الإسلام ففصلوا الدين عن الدولة، ووقعوا بذلك فى شرك الطاعة والاتباع، فإن انحراف قرن أو قرنين لا ينفى واقع اثنى عشر قرنًا كان المسلمون فيها يعدون الإسلام عقيدة وشريعة بغير تفريق، بعكس ما حدث عند النصارى فى أوربا حيث لم يطبق دين الله فى صورته المتكاملة قط.

ثم إن الإسلام ليست له «كنيسة» كالتى قامت فى أوربا تحرف الدين المنزل وتفسده. وليس له «رجال دين» ولا «كهنوت» يحتفظون بالأسرار ويستحوذون بهذه الدعوى على أرواح الناس وعقولهم. إنما فيه علماء وفقهاء فى أمور الدين يستنبطون الأحكام المستمدة من الشريعة الثابتة المحفوظة، تنفيذًا لأمر ربهم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهؤلاء العلماء والفقهاء يجتهدون، يخطئون ويصيبون، وليس لأحد منهم قداسة كرجال الكهنوت، ولا يحلون ولا يحرمون من دون الله كما وقع فى تاريخ النصرانية. والناس يحترمونهم ويوقّرونهم لعلمهم وفضلهم، ولكنهم لا يتخذونهم أربابًا من دون الله كما صنع أهل الكتاب بأحبارهم ورهبانهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ثم إن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والعلم، ولا بين الدين والحياة كما وقع فى حياة النصارى فى أوربا.

إن الإسلام دين الفطرة. وليس فى الفطرة انفصال بين الدين والعلم، ولا بين الدين والحياة!

ففى النفس البشرية نزعة فطرية إلى التدين، بما أودع الله فى الفطرة من التوجه

إلى الخالق وعبادته، ونزعة فطرية إلى تعلم العلم واستخدام ثماره فى عمارة الأرض: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

ولا تعارض فى الفطرة السوية بين هاتين النزعتين الفطريتين، بل تسير النزعة إلى الإيمان والنزعة إلى المعرفة جنبًا إلى جنب، وتتجهان وجهة واحدة.

وإذا كانت الجاهلية الأوربية المعاصرة قد فصلت بين هاتين النزعتين الفطريتين وأقامت بينهما العداء والصراع، وأنشأت غرورًا عقليًا وفتنة بالعلم تزيد الإنسان بعدًا عن الله كلما زادت حصيلته من العلوم والمعارف، كما قال الله فى وصف الجاهليات السابقة فى التاريخ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣].

إذا كانت الجاهلية المعاصرة قد صنعت ذلك فإن الإسلام لا يعرف هذه التفرقة على الإطلاق، وكتاب الله ملىء بالتوجيهات للناس أن يتعلموا ويتدبروا فى خلق الله ويستنبطوا السنن التى يجرى بها نظام الكون ويستفيدوا منها، ويكفى أن يكون الأمر الأول الموجَّه لرسول الله ﷺ هو هذه الكلمة العظيمة: ﴿ اقْرَأْ ﴾ التى تحمل التوجيه الشامل لطلب المعرفة. ثم يوجه الله رسوله ﷺ أن يستزيد من المعرفة: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾، ويقول للمسلمين جميعًا: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول لهم: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢].

ويقول الرسول ﷺ: «طلب العلم فريضة»(١).

---

(١) رواه ابن ماجه.

ولم يعرف تاريخ الإسلام الواقعى تلك الفرقة المصطنعة بين الدين والعلم، ولم يجر بينهما عداء ولا صراع، إنما ازدهرت الحركة العلمية الإسلامية تحت ظل العقيدة، بل انبثقت منها انبثاقًا أول مرة وظلت تنمو فى ظلها على الدوام.

وكذلك لم يوجد فى التاريخ الإسلامى ذلك الغرور العقلى ولا تلك الفتنة بالعلم التى تبعد الإنسان عن الله بمقدار ما يحصل من العلم!! إنما العكس فى حسّ المسلم هو الصحيح. فالعلم منحة من الله. هو الذى علم آدم من قبل، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ـ ٤].

فكلما ازداد المسلم علمًا زاد قربًا من الله وشكرًا له على ما أولاه من نعمه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

كذلك لا انفصال فى الإسلام بين الدين والحياة.

لا رهبانية فى الإسلام.

«ألا إنى لأتقاكم لله، ولكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(1).

وإذا كانت الجاهلية الأوربية قد فصلت بين الدين وأوجه نشاط الإنسان المختلفة فى الحياة وأوجدت حالة نفسية وعقلية تزداد بعدًا عن الله كلما فتحت عليها أبواب الرزق والتمكين في الأرض، فأصبحوا كما وصف الله قوم هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ـ ١٣٨].

إذا كانت الجاهلية الأوربية قد صنعت ذلك فإن الإسلام ـ دين الفطرة ـ لا يعرف

---

(1) رواه مسلم.

هذه التفرقة ولا يقرها. . فالله يقول للناس: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ويقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ويقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

لذلك قامت الحركة الحضارية الإسلامية فى ظل العقيدة بلا صراع بينهما ولا عداء، وكانت بذلك فريدة فى التاريخ. حركة تعمِّر الأرض، وتجوب الآفاق وتكشف مجاهيل الأرض، وتستثمر خيراتها بالفلاحة والصناعة والتجارة، وهى فى كل هذا عابدة لله، تنشر النور الربانى فى الأرض بنشر العقيدة الإسلامية، وتقيم العدل الربانى بين الناس بتطبيق شريعة الله.

ليس فى أصول هذا الدين ولا فى تاريخه شيء واحد مما حدث فى أوربا وانتهى هناك بالإلحاد والبعد عن طريق الله. إنما يقوم الإسلام ابتداء على ربط القلب البشرى بالله، وتوثيق هذه الرابطة فى كل عمل أو فكر أو شعور: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ومن هذه الرابطة الحية التى تربط القلب البشرى بالله، ينطلق المسلم يتعلم ويعمل، يبتغى من فضل الله ويعمر الأرض، ويأخذ نصيبه من المتاع المعقول المحلل له من عند الله شاعرًا بذلك كله أنه يقوم بدور الخلافة فى الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقائم بغاية وجوده فى الأرض من عبادة خالصة لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لذلك لا يتصور أن يتجه مسلم واحد فى الأرض إلى الإلحاد!

بل إنها الطـامة الكبرى أن يجىء «مـسلمون» من الذين كـان المفروض فـيهم أن يكونوا رواد الـبـشـرية إلى الإيمان وإلـى الحق وإلى المنهج الربانـى. . يجىء هؤلاء «المسلمون!» فـيتخلون عن دينهم الذى أنعم الله به عليهم حـيث قال لهم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

ويروحون يقلدون أوربا فيما وصلت إليه فى جاهليتها من سوء، فيعتنقون الأفكار الهدامة المنتشرة هناك، ويتخذون الإلحـاد مثلهم، ويغرقون مثلهم فى التحلل الخلقى ويدعون إليه.

ألا إنها الهزيمة الداخلية الكامنة فى نفوسهم إزاء الغرب، هى التى تؤدى بهم إلى هذا التقليد الأعمى: تقليد العبيد وتقليد القرود!

وما يمكن لإنسـان عاقل، فضلاً عن الإنسـان المسلم، أن يضع قدمه مخـتاراً فى الهاوية، إلا أن يكون قـد أصابه خبل فى فكره. أو أصـابه المسخ الذى يشوّه الفطرة ويفسد طبائع النفوس.

* * *

الباب الثانى

الإيمـــان بالملائكـة

- وظائف الملائكة
- أثر الإيمان بالملائكة فى حياة الإنسان

الباب الثانى
الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة جزء من الإيمان. فلا يتم إيمان المسلم إلا إذا آمن بوجودهم جملة، وبمن ورد ذكرهم فى القرآن والحديث على وجه التفصيل، وبأعمالهم التى كلفهم الله إياها.

ووجوب الإيمان بالملائكة وكونه جزءًا من الإيمان وارد فى نصوص كثيرة من القرآن والحديث.

فمما جاء فى القرآن قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨].

وجاء فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «فأخبرنى عن الإيمان.

قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت»، إلى أن قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»[1].

والله يبين لنا أن خلق الملائكة وتعدد أشكالهم هو من آياته الدالة على قدرته سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

ومعرفتنا بآيات الله تزيدنا إيمانًا به سبحانه وتعالى، فنعظمه ونوقره سبحانه بما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونعبده حق عبادته، فنفوز برضاه وجنته.

ولا شك أن فى عالمنا المحسوس آيات كثيرة تدل على قدرة الله المعجزة، كل منها كفيل بأن يهدى البصيرة المتفتحة إلى عظمة الله. لذلك يوجهنا الله إليها فى كتابه الكريم: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ⑳ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولكن إيماننا بعظمة الله وقدرته المعجزة يزداد ولا شك حين نعلم أنه ليس العالم المحسوس وحده هو كل ما خلق الله من كائنات. وأن هناك عوالم أخرى غير مرئية لنا هى من خلق الله كذلك، وأن فيها من العجائب بالنسبة لتقديرنا البشرى ما يعجز الخيال عن تصوره فضلاً عن استيعابه.

فإذا علمنا فوق ذلك أن هذه المخلوقات ذوات أجنحة، فإن حسًّنا ليؤخذ ـ خاصة بعد أن نعرف مهامها وأعمالها ـ لأن المخلوقات ذوات الأجنحة المعلومة لنا فى عالمنا المحسوس من طيور أو حشرات طائرة، مختلفة تمامًا عن هذه المخلوقات التى تقوم بأعمال هائلة فى السموات والأرض.

فمعرفة الإنسان بأن هذه المخلوقات الهائلة تطير مباشرة بأجنحتها يهز وجدانه بلا ريب، ويجعله يحس ـ من خلال عجزه ـ بالقدرة المعجزة التى خلق الله بها الملائكة.

فإذا زاد علمه أكثر من ذلك فعرف أن الملائكة ليسوا على مرتبة واحدة من حيث عدد أجنحتهم، فمنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، فإنه يزيد تعظيمًا لله الخالق الذى يزيد فى الخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير.

---

(١) رواه مسلم.

وإذا عرف بعد ذلك كله أنها مخلوقة من النور كما روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**». (أى من الطين) فإن عجبه لا يقف عند حد. فالنور كما يراه الإنسان فى عالمه المحسوس أشعة تنطلق مستقيمة فى الفضاء، أما أن يكون من هذا النور مخلوقات تتحرك وتتكلم، وتتشكل بأشكال شتى[1]، وتقوم بأعمال معينة تكلفها، فأمر وراء إدراك الحس.

وحقيقة أن خلق الله آدم من قبضة من طين الأرض معجزة هائلة يقف الحسّ أمامها عاجزًا متحيرًا؛ لأن النقلة بعيدة بين قبضة الطين وبين هذا البشر ذى الحواس والإدراك والقصد والإرادة والقدرة على تعمير الأرض واستخدام طاقات الكون المسخرة له من عند الله.

ولكن هذه النقلة على ضخامتها أيسر فى حسّ الإنسان من خلق الملائكة من النور. فالطين على أى حال مادة مجسمة، وجسم الإنسان مادة ماثلة للعيان. أما النور فإنه ليس مادة.. فكيف يكون مادة للخلق إلا أن تكون قدرة الخالق المبدع متجاوزة كل حد يستطيع العقل أن يصل إليه. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وحين يأخذ الإنسان حظه من استشعار عظمة الله الخالق المبدع، فإن قلبه يأنس لهذه المخلوقات ترفّ حوله وتملأ جنبات الكون.

وفرق كبير فى حس الإنسان بين أن يكون هذا الكون من حوله خاويًا موحشًا وبين أن يكون عامرًا بمخلوقات حية، بينه وبينها اختلاف.

فإذا كانت المخلوقات الحية فى الأرض من نبات وحيوان ـ والحيوان على الأخص بما فيه من الإنسان من أوجه شبه وأوجه اختلاف ـ تؤنس الإنسان وتبهج قلبه، وتنفى عنه الشعور بالوحشة فى سكناه لهذه الأرض، فيروح يتأملها ويتملاها، ويفرح كلما لقى واحدًا منها على مقربة منه.

---

(١) جاء فى حديث جبريل: عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: «يا محمد: أخبرنى عن الإسلام..» قال: ثم انطلق فلبث مليا ثم قال لى: «يا عمر: أتدرى من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». رواه مسلم.

إذا كان هـذا يحدث بالنسبة لعالم الأرض المحدود المحسوس، فإنه حرى أن يحدث بالنسبة للكون الكبير، ما يقع منه فى دائرة الحس وما يقع وراء الحس من آفاق.

فإذا كانت المخلوقات الطينية تؤنس وحشته فى الأرض، فإن تلك المخلوقات النورانية تؤنس وحشته فى الكون الواسع الذى هو جزء منه، فيصبح أروح نفسًا وأكثر طلاقة مما لو حبس نفسه فى دائرة المادة والحس.

* * *

ثم إن الملائكة مشغولة ليل نهار بالتسبيح للملك القدوس الواحد القهار: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ومن هنا نعرف أن أهم ما يقومون به تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه حيث هيأهم لهذا.

ألا ما أروعها صورة!

إن الإنسان يحاول أن يسبح لله فترة من النهار أو جانبًا من الليل فيفتر ولا يقوى على المضى فى التسبيح، لأن له جسدًا يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يرتاح وينام، ولأن له فكرًا لا يكف عن الانشغال بمطالب الحياة الدنيا.

ومن رحمة الله بالإنسان أن لم يكلفه ما كلف الملائكة من التسبيح الدائب ليل نهار! فإنه ـ سبحانه ـ وقد خلق للإنسان جسدًا يشتهى وعقلاً ينشغل بالتفكير، جعل العبادة المفروضة عليه من نوع آخر غير عبادة الملائكة، فإلى جانب التسبيح والصلاة وشعائر التعبد التى يشترك فيها الإنسان مع الملائكة، فإن الله من رحمته بعباده من بنى الإنسان جعل حركة أجسامهم وعقولهم عبادة إذا توجهوا بها إلى الله، والتزموا فى شأنها بما أنزل الله. وهكذا أصبح سعى الإنسان وراء الرزق عبادة، وعمارته للأرض عبادة، وطعامه وشرابه عبادة، وزواجه ونسله عبادة، ونومه وقيامه عبادة، إذا ابتغى فى ذلك كله مرضاة الله، وعمل فيها وفق أوامر الله. وكذلك يتم التناسق فى خلق الله بين طاقة المخلوق وما كلفه الله من ألوان العبادة.. وكلهم عباد لله عابدون!

نعم! ذلك من رحمة الله بالإنسان.

ولكن الإنسان مع ذلك ما يفتأ يعقد الموازنة بين نفسه وبين الملائكة فى قدرتهم على التسبيح لله بالليل والنهار لا يفترون.

ويعلم الإنسان أنه لم يكلف ذلك ولا يقدر عليه، ولكن وجود الملائكة المسبحين ليل نهار يستحثه على مزيد من العبادة ومزيد من التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، وكلما حاول ذلك زادت شفافية روحه وصار أقرب إلى الملائكة الأطهار.

* * *

ويزيد أنس الإنسان بالملائكة حين يعلم أنهم قريبون منه وأن بعضهم يسير معه حيث سار وبعضهم يتنزلون عليه بالسكينة والطمأنينة كلما أقبل على الله وتوجه إليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

ولقد رأى المسلمون الملائكة فى بدر يقاتلون معهم الكفار: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ـ ١٢٦].

وإذا كانت هذه خصوصية لأهل بدر فى موقفهم التاريخى الذى مكّن للإسلام فى الأرض بتأييد من الله، وكتب صفحة من أروع صفحات التاريخ، فإن الله يخبرنا أن الملائكة تتنزل على الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، ولو لم يروهم بأعينهم، وإنما علامة حضورهم هي السكينة والطمأنينة التى يحسّها هؤلاء؛ لأن الملائكة تتنزل عليهم: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾، كما تتنزل عليهم بالبشرى التى تزيد القلب سكينة وطمأنينة: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

كـمـا يخـبرنـا الله كـذلك أن الملائكة تنزلت بالسكـينة على المؤمنين فى بيـعـة الرضوان: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

فتنزُّل الملائكة بالتـأييد والتثبيت والطـمأنينة والبشرى لم يكن مـقصوراً على أهل بدر الكرام، إنما هؤلاء خصهم الله بأن يروا الملائكة رأى العين.

* * *

وكيف يكون شعور المؤمن حين يعلم أنه حين يقرأ الفاتحة فى الصلاة ترد الملائكة تقول: آمين؟! أفلا يحفزه ذلك إلى الإحسان فى أداء الصلاة حتى تكون جديرة بهذه المشاركة النورانية من جانب الملائكة؟

وحين يعلم أن كل عبـادة يتقرب بها الإنسان إلى الله، وكل عـمل طيب يعمله، وكل لفظة خيرة يتلفظ بها تحـملها الملائكة من توها إلى الله فى عليائه، تقول له: ـ وهو المطلع على كل شىء ـ إن عـبدك فلانًا يـتقرب إليك، إن عـبدك فـلانًا يذكرك ويثنى عليك، إن عبدك فـلانًا يحمدك ويشكرك، إن عبدك فلانًا قـد أحسن إلى عبد من عبـادك، إن عبدك فلانًا قد دعـاه الشيطان إلى الشر فلم يجـبه. حين يعلم ذلك كله ألا يحب أن تكثر الملائكة من ذكره عند الله بالخير، فيكثر من صالح الأعمال؟

* * *

وظائف الملائكة

من تمام العلم بهذه المخلوقات أن نعرف جملة من الوظائف التى تقوم بها:

إن أعمال الملائكة مرتبطة كلها بالحق، ولا شىء غير الحق. فليس فيها زيغ عن الحق لحظة واحدة من ليل أو نهار، كالذى يحدث فى عالم الجن و عالم الإنس.

فالجن والإنس تحدث منهما المعصية ويحدث منهما الزيغ عن الحق الذى يصل والعياذ بالله إلى حد الكفر والإلحاد. أما الملائكة الأطهار فهم يعيشون للحق وحده ولا يقومون بعمل من الأعمال إلا ما يرتبط بالحق.

١ ـ **فأول وظائفهم عبادة الله** بالتسبيح له فى الليل والنهار دون ملل ولا فتور ولا غفلة، والطاعة الدائمة، والمبادرة لامتثال أمر الله عز وجل، والعبادة الخالصة هى حق الله على خلقه، إذ التوحيد ـ وهو مقتضى العبادة الخالصة لله ـ هو الحق الذى تقوم به السموات والأرض.

يقول الله فى القرآن عنهم: ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

﴿ **فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٨].

﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**(١) **سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ㉖ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ㉗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ**(٢) **إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ ٢٨].

ويقول عنهم كذلك: ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: ٦].

٢ ـ **ومن وظائفهم حمل الوحى إلى الأنبياء والرسل،** وقد كلَّف الله جبريل عليه

---

(١) أى من الملائكة.

(٢) أى لا يقترحون على الله سبحانه وتعالى، وذلك ردًا على زعم المشركين أن الملائكة تشفع لهم عند الله من ذات نفسها.

السلام ذلك، ووصفه فى القرآن بالروح الأمين. والوحي كلام الله المنزل إلى البشر عن طريق رسله ليتبعوه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٥].

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ(١) فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ(٢) مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٣ـ ١٠].

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٣)﴾ [التكوير: ١٩ـ ٢١].

٣ ـ ومن وظائفهم ـ مع التسبيح والعبادة ـ الاستغفار للمؤمنين عند الله، وهو استغفار بالحق ـ فهم لا يستغفرون إلا لمؤمن ـ وبإذن الله لا من عند أنفسهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ـ ٩].

٤ ـ ومن وظائفهم تسجيل أعمال البشر وحفظها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ(٤) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢].

فكل إنسان على وجه الأرض، منذ الإنسان الأول إلى يوم تقوم الساعة، قد وُكّل به اثنان من الملائكة، أحدهما عن يمينه يسجل له ما يقوم به من حسنات. والآخر عن شماله يسجل عليه ما يقع منه من سيئات. وتظل هذه الحسنات والسيئات

---

(١) أى قوة عظيمة.
(٢) أى عبدالله إشارة إلى الرسول ﷺ.
(٣) أى بين الملائكة.
(٤) أى الملكان اللذان يسجلان الأعمال.

محفوظة فى سجلاتها حتى يأتى يوم البعث، فيحاسب بمقتضاها الإنسان وهو بين يدى مولاه، فإن كان مؤمنًا فإن شاء الله عذبه بسيئاته وإن شاء غفر له، وأما إن كان كافرًا فمصيره الخلود فى النار.

٥ - **ومن وظائف الملائكة قبض الأرواح حين ينقضى أجلها الذى حدده الله لها:** ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

٦ - **ومن وظائف الملائكة النفخ فى الصور - بأمر الله - مرتين:** المرة الأولى يصعق بها من بقى حيًا فى السموات والأرض إلا من شاء الله. والمرة الثانية يبعث فيها الموتى ليقضى بينهم بالحق: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨- ٧٠].

﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥].

٧ - **ومن وظائفهم الترحيب فى الجنة بالمؤمنين الذين فازوا برضوان الله، وتعذيب الكافرين فى النار،** وكلاهما حق. فقد أخبر الله عباده على ألسنة رسله أنه خلق السماوات والأرض بالحق، وأن مقتضى هذا الحق أن الحياة الدنيا ليست خاتمة المطاف، لأنه لا يتم فيها الجزاء على الحسنات ولا السيئات، إنما يتم ذلك عند البعث فى اليوم الآخر، فيحق الحق بدخول المحسنين الجنة ودخول المسيئين النار، فقيام الملائكة بالترحيب بالمؤمنين وتعذيب الكافرين هو تمام هذا الحق الذى خلقت به السموات والأرض: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ـ ٧٨].

٨ ـ ومن وظائفهم القيام بأعمال أخرى يأمرهم الله بها، ورد ذكرها فى القرآن دون بيان تفصيلى عنها، كقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١ـ ٣].

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١ـ ٤].

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا[1] (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ١ـ ٦].

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا[2] (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ـ ٥].

---

(١) على قول أنها ملائكة.

(٢) هى الملائكة كذلك على أحد الأقوال.

أثر الإيمان بالملائكة فى حياة الإنسان

عرضنا من قبل بعض آثار الإيمان بالملائكة فى حياة الإنسان، وقلنا: إن هذا الإيمان:

١ ـ يزيد من استشعار القلب البشرى لعظمة القدرة الإلهية المعجزة التى تخلق من النور ملائكة ذوى أجنحة مثنى وثلاث ورباع.

٢ ـ يزيد من إيمان الإنسان بالوحى المنزل من عند الله لأن الوحى تحمله الملائكة إلى الأنبياء والرسل.

٣ ـ يزيد من رغبة الإنسان فى التقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح تشبهًا بالملائكة الذين لا يفترون عن عبادة الله.

٤ ـ يملأ قلب الإنسان أنسًا بهذا الكون الرحيب من حوله إذ يعلم أنه معمور بتلك الأرواح النورانية، وأنها تتنزل على المؤمنين بالسكينة والطمأنينة.

٥ ـ الإقبال على عمل الحسنات والبعد عن عمل السيئات حين يستشعر الإنسان وجود الملكين اللذين يسجلان عليه أعماله.

٦ ـ الانتباه إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم، حين يتذكر ملك الموت المأمور بقبض الأرواح حين يتوفاها الله، ومن ثمَّ فلا تستحق هذه الحياة الدنيا أن يُشْغَل بها الإنسان عن الآخرة، ويكفيه منها المتاع الطيب الحلال الذى أباحه الله.

٧ ـ عمل الحساب للآخرة حين يتذكر الإنسان ترحيب الملائكة بالمؤمنين فى الجنة وتعذيبهم للكفار فى النار، فيحب أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه ووقاهم عذاب السموم.

* * *

الباب الثالث

الإيمان بالكتب

- وجوب الإيمان بالكتب السماوية.
- تحريف الكتب السابقة.
- القرآن نسخ الكتب السابقة كلها.
- تولى الله حفظ القرآن.
- مكانة القرآن فى نفس المؤمن.
- مقتضى الإيمان بالقرآن.

الباب الثالث
الإيمان بالكتب

الكتب السماوية التى ورد ذكرها فى القرآن هى بترتيبها التاريخى: صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن.

جاء فى ذكر صحف إبراهيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ـ ١٩].

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (37) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (38) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (41) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ـ ٤٢].

وذكرت التوراة فى مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ويشار إليها أحيانًا باسم «الفرقان» كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وأحيانًا باسم «الذكر» كما فى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وجاء في ذكر الزبور: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وذكر الإنجيل في أكثر من موضع في القرآن: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

كما جاء ذكر التوراة والإنجيل معًا في هذه الآيات من سورة آل عمران: ﴿الم ① اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

أما القرآن الكريم فقد ورد ذكره في آيات كثيرة إما باسم القرآن وإما باسم الفرقان، وإما باسم الكتاب، وإما باسم الذكر:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ⑤① وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢].

ثم جـاء الأمر الـربانى بالإيمان بالكتب المنزلة كلهـا ـ كـما جـاء الأمـر بالإيمان بالملائكة من قبل ـ وأن هذا جزء من الإيمان، لا يتم إيمان المرء إلا به.

كما جاء الإخبار بأن الكتب السابقة قـد حرفها أهلها ولم تعد على صورتها التى أنزلها الله بها.

وجاء الإخـبار كذلك بأن القرآن قـد نسخ الكتب السابقـة كلها، وأن الله تكفل بحفظه من كل عبث أو تحريف.

* * *

وجوب الإيمان بالكتب السماوية

يجيء ذكر الإيمان بالكتب السماوية فى القرآن فى صيغة الأمر تارة، وصفة للمؤمنين تارة أخرى. كما يجيء عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة.

فمن أمثلة الأمر: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

كما جاء في صيغة مشابهة له فى سورة آل عمران: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقد يجيء الأمر فى صيغة مجملة فى مثل قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فيجيء فى مثل هذه الصيغة: ﴿الم ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٤].

أو فى قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعض بأنهم كفار فيجيء فى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨⓪ وَإِذَا

قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٠، ٩١].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها، سواء كانت أمرًا مباشرًا أو وصفًا للمؤمنين أو وصفًا للكافرين، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به.

وذلك أمر بدهى بالنسبة للمؤمن. فمادام يؤمن بالله وصدق ما نزل من عنده من الوحى، ومادام الله يخبره فى كتابه الكريم أنه قد أنزل كتبًا سابقة على الأنبياء والرسل، فالواجب أن يؤمن بهذه الكتب المنزلة ويعتقد يقينًا أنها منزلة من عند الله.

ولو شك فى هذه الحقيقة أو كذَّب بها فهل يكون مؤمنًا على الإطلاق؟!

وكيف يكون مؤمنًا بالله حقًا وهو يكذب خبرًا آتيًا إليه من الله؟!

كذلك لو قال إنه يؤمن ببعض الكتب أنها منزلة من عند الله حقًا ويشك أو يكذب أن غيرها من الكتب منزل من عند الله، فهل يكون مؤمنًا بالله ولو زعم ذلك؟

إن من بين دعائم الإيمان التصديق. فكيف يوجد الإيمان إذا كذَّب الإنسان حرفًا واحدًا مما أخبره الله به؟ وما قيمة دعواه أنه مؤمن بالله. أو مؤمن ببعض الكتب التى أنزلها الله؟! إنها دعوى مردودة على صاحبها لأن الدليل العملى يكذبها..

ثم إن الكتب السماوية كلها تحتوى على حقيقة واحدة، هى الأمر بعبادة الله وحده. لقد اختلفت الكتب المنزلة فى اللغات التى نزلت بها، لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وهذه الكتب نزلت على أقوام مختلفين فاختلفت من ثم لغاتها.

كذلك اختلفت هذه الكتب فيما تحتويه من شرائع، فالله يخبرنا أنه أنزل شرائع مختلفة للأقوام المختلفين: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولكن القضية الأصلية فى هذه الكتب كلها واحدة لم تتغير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[1] [الشورى: ١٣].

كذلك نزلت الكتب كلها لتنذر الناس بيوم الحساب: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٥ـ ١٧].

ومادام الأمر كذلك فالإيمان بالكتب كلها هو كالإيمان بالكتاب الواحد سواء. والقضية عند المؤمن واضحة لا تحتاج إلى جدال. إنما الجدال قد جاء فى الحقيقة من أهل الكتاب لأنهم هم الذين رفضوا أن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله. وحساب هؤلاء على الله.

* * *

(١) أى أقيموا الدين لله وحده ولا تعبدوا آلهة متفرقة.

تحريف الكتب السابقة

أخبرنا الله فى كتابه المنزل أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم، فلم تعد فى صورتها التى أنزلها الله. فقد جاء عن اليهود: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١].

وجاء عن النصارى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وإذا تدبرنا هذا الأمر وجدنا أن هناك ثلاثة أنواع من التحريف على الأقل قد وقعت فى كتب أهل الكتاب، وكلها وردت الإشارة إليه فى القرآن:

١ ـ تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه.

٢ ـ التحريف بالتغيير والإضافة.

٣ ـ التحريف بالكتمان.

فمن أمثلة النوع الأول من التحريف:

أن الله قد حرم الربا فى جميع كتبه المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن. والتوراة التى بين أيدى اليهود اليوم ـ رغم كل ما حدث فيها من تحريفات شنيعة ـ ما تزال تحمل نصًا بتحريم الربا! ونصًا بوجوب الأمانة فى التعامل مع الناس.

ومع ذلك فاليهود ـ كما هو معلوم ـ يتعاملون بالربا على النطاق الدولى، ويسلبون عن طريقه أموال الناس بغير حق، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ

مّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

فكيف تحايلوا على النص الموجود فى كتابهم، أو بعبارة أخرى كيف حرفوه، ليبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا مع الناس وسلب أموالهم؟!

لقد قالوا: إن الربا غير جائز فى التعامل بين اليهود، وكذلك الأمانة واجبة فى تعامل اليهود بعضهم مع بعض.. أما إن كان الذى تتعامل معه من غير اليهود فلا بأس عليك أن تتعامل معه بالربا ولا بأس عليك أن تأكل ماله.. وذلك ما وردت عنه الإشارة فى سورة آل عمران: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

أى أنهم قالوا: لا حرج علينا فى سلب أموال «الأميين» الذين ليسوا يهودًا، ويزعمون أن الله أباح لهم ذلك وهم يعلمون أن هذا كذب على الله فإنه حرّم عليهم الربا إطلاقًا وحرم عليهم سلب أموال الناس جميعًا، أميين وغير أميين(١)!

أما التحريف بالتغيير والإضافة فله أمثلة كثيرة:

فأما اليهود فقد أضافوا إلى التوراة مجموعة من القصص والأساطير ما أنزل الله بها من سلطان، بعضها يصل إلى حد الفحش فى حق أنبيائهم. وما من نبى من أنبيائهم إلا ألصقوا به سلوكًا لا يليق بالشخص العادى فضلاً عن النبى المعصوم. بل إنهم تجرءوا على مقام الألوهية وقالوا فى حق الله سبحانه وتعالى كلامًا لا يخرج من فم مؤمن قط ولا يخطر له على بال. وقد ظلوا يرددون هذه الأقوال وغيرها حتى زمن الرسول ﷺ، وسجل عليهم القرآن اثنتين منها على الأقل: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ

---

(١) كان اليهود يطلقون على العرب لفظ «الأميين» أى الذين ليس لهم كتاب منزل. ومازالوا يطلقون هذا اللفظ على البشرية كلها من غير اليهود، لأنهم يزعمون أنهم هم وحدهم أصحاب الكتاب الحقيقى ومن عداهم ليس له كتاب! وأحيانًا يسمونهم «الأمميين» أى كل الأمم من غير اليهود!

بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

أما التوراة ففيها أبشع من ذلك فى حق اللـه مما يقشعر بدن المؤمن من نسبته إلى الله عز وجل[(١)].

وأما الإنجيـل فيحـوى من التغيير والإضافة ما لا يقل سخفًا وبشاعة ولكن فى اتجاه آخر، ذلك هــو تأليه عـيسى عليه السلام والزعــم بأنـه ابن الله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨ـ ٨٠].

وأسطورة ألوهية عيسى وبنوته لله وكون الله ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، كلها إضافة أضيفت إلى الإنجيل المنزل من عند الله، كتبوها بأيديهم وزعموا أنها من عند الله.

وقد رد القرآن عليهم ردًا مفصلاً فى أكثـر من سورة، وبيَّن حقيقة التوحيد، وأن عيسى عليه السلام لم يقل إلا كلمة التوحيد: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

---

(١) من أبسط الأمثلة على ذلك قـولهم: إن الله قد خاف على سلطانه بعد أن أكل الإنسـان من الشجرة المحرمة وهى فى زعمهم شجرة المعرفة، وخشى ـ سبحانه ـ أن يأكل الإنسان أيضًا من شجرة الحياة فيحـيا إلى الأبد! ومن أجل ذلك طرده من الجنة، وأقام حـراسة شديدة على شجـرة الحياة لكى لا يصل الإنسان إليهـا! وقولهم أيضًا: إن الله غضب على بنى إسـرائيل من كثرة جرائمـهم فأقسم أن يهلكهم، فراجعه سيدنا مـوسى حتى رضى عن بنى إسرائيل «وتندم الرب الإله على الشر الذى كان ينوى عمله بشعب إسرائيل»!

أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

ولكن المهم أن أناجيلهم الأربعة المعتمدة (إنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل متى وإنجيل يوحنا)[1] متضاربة بعضها مع بعض فى هذا الشأن، مما ينفى أن تكون كلها من مصدر واحد، فضلاً عن أن يكون مصدرها هو الله!

وفضلاً عن ذلك كله فإن هناك إنجيلاً خامسًا هو «إنجيل برنابا» منعت الكنيسة تداوله، وأحرقت ما وقع فى يدها من نسخه، وهددت من يوجد عنده بإصدار قرار حرمان ضده (أى الحرمان - فى زعمهم - من رضوا الله ومغفرته) لأنه يقرر أن عيسى رسول بشر، وليس ربًا ولا إلهًا، وأنه بشّر ببعثة محمد ﷺ من بعده!

وأما التحريف بالكتمان فهو على نوعين:

كتمان أحكام الشريعة، وكتمان الإشارة إلى بعثة محمد ﷺ .

والقرآن يسجل عليهم أنهم أمروا بعدم الكتمان فعصوا الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ويسجل عليهم أن الله أخذ عليهم ميثاقًا بأن يؤمنوا بكل رسول يأتى من عند الله مصدقًا لما معهم، كما يسجل عليهم أن خبر بعثة محمد ﷺ موجود عندهم في التوراة والإنجيل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

---

(١) نسبة إلى الرجال الذين كتبوها. وقد كتبوها فى أزمنة متفاوتة وبعد مدة من غياب المسيح عنهم، وكلهم كتبها من ذاكرته لا من النص المنزل.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وعلى الرغم من هذه الوصايا كلها لأهل الكتاب فقد عصوا أمر ربهم وكتموا الحق الذى أمروا بإعلانه على الناس:

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما «أن رسول الله ﷺ أتى بيهودى ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: «**ما تجدون فى التوراة على من زنى**»؟ قالوا: نُسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: «**فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين**». فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده. فرفعها فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما»(١).

وإذا كانوا بهذا التبجح فى إنكار أحكام الشريعة أمام الرسول ﷺ وهم يعلمون أنه رسول مؤيد بالوحى، وأن الوحى يخبره بحيلهم وكيدهم، فكيف يصنعون مع عامة الناس الذين لا يتنزل الوحى عليهم ليكشف لهم ما خبؤوه؟!

أما إنكارهم لبعثة الرسول ﷺ، فقد اجتهدوا فى محو كل ذكر صريح له عليه الصلاة والسلام فى كتبهم وأخفوه عن الناس. ومع كل اجتهادهم هذا فقد بقيت إشارات فى التوراة والإنجيل لا يمكن تفسيرها إلا بأنها إشارة لمجيء الرسول ﷺ.

جاء فى العهد القديم فى سفر أشعياء فى الإصحاح الحادى والعشرين:

«وحى من جهة بلاد العرب. فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل

---

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم.

الددانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان. يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة. ومن أمام شدة الحرب. وإنه هكذا قال لى السيد: فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد وبقية عدد قسيّ أبطال بنى قيدار تقل، لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم»(١).

وجاء فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام: «يأتى من بعدى الفاراقليط».

وهذه كلمة يونانية معناها «الحمد». أى أنها مشتقة من «أحمد» وقد أبوا أن يترجموها فى النسخة العربية وأبقوها هكذا لكى تظل غير مفهومة للقارئ ولكيلا يعلم من هذا الذى سيأتى بعد المسيح!

وقد مر الزمن.. ولم يأت بعد المسيح إلا محمد ﷺ!

وفى عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) نشرت صحيفة الأهرام المصرية هذا النبأ على إحدى صفحاتها:

«عثر فى دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد عليه الصلاة والسلام».

ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور!

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

لقد كرم الله إبراهيم عليه السلام حين ابتلاه الابتلاء العظيم فنجح فى الابتلاء إذ أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فاستسلم لأمر الله واستعد بالفعل للتنفيذ، ففداه الله بذبح عظيم، واختار إبراهيم بأن جعله للناس إمامًا: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) الددانيون اسم قديم لبعض القبائل العربية، وقيدار اسم لأحد آباء قريش، وسكان أرض تيماء إشارة إلى أهل المدينة. والهاربون هم المهاجرون من مكة إلى المدينة. والنص كله يشير إلى نزول الوحى فى جزيرة العرب واضطهاد المؤمنين وهجرتهم إلى المدينة ووقوع معركة بدر بعد سنة من الهجرة وضياع مجد الكفار من قريش ومقتل عدد من أبطالهم فى المعركة.

وفى لحظة التكريم تطلّع إبراهيم عليه السلام أن يظل هذا العـهد لذريته من بعده فسأل ربه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأجابه الله سبحانه: ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

ومعنى ذلك أن العهد يظل فى ذرية إبراهيم إلا إذا ظلموا فيؤخذ منهم العهد.

ولقد بقى العهد بالفعـل فى بنى إسرائيل، وهم من ذرية إبراهيم عليه السلام عن طريق ابنه إسحاق: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣، ٢٤].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

ولكنهم ظلمـوا فنزع الله العهـد منهم وأعطاه فريقًا آخر من ذرية إبراهيم عـليه السلام هـم أبناء إسماعـيل جد النبـى ﷺ. وعندئذ ملأ الحـقد قلوبهم وكـفروا بالرسول ﷺ بعدما كانوا يترقبون مبعثـه ويستفتحون به على كفار قريش، يقولون لهم: سيظهر فى جزيرة العرب نبى وسنتبعه ونزداد به عزًا ونقهركم به، ظنًا منهم أنه سيكون من أبناء إسحاق، فلما جاء من أبناء إسماعيل كفروا به!

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

* * *

القرآن نسخ الكتب السابقة كلها

شاء الله سبحـانه وتعالى أن ينسخ الكتب السابقة كلها وينزل كتابه الأخـير ليبقى فى الأرض إلى قيام الساعة.

كان كل رسول من السابـقين يرسل إلى قومه خاصة، بينما بعث الرسـول محمد ﷺ إلى البشرية كافة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وكذلك كانت الكتب السـابقة تنزل لأقوام معينين بينما أنزل القـرآن للناس كافة: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

لذلك اقتـضت مشـيئة الله أن ينسخ هـذا الكتاب الشامل الكامـل ما سبـقه من الكتب جميعًا ويهيمن عليها: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ـ ٥٠].

ولم يعـد يقبل من أحد أن يستـمسك بما سبق من الكتب ويرفض القرآن: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

وإقامة الـتوراة والإنجيل بالنسبـة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الآية مـعناها: الإقرار بوحدانـية الله، ذلك أن التـوراة والإنجيل المنزلين من عند الله يـقرران هذه الوحـدانية تقريرًا جازمًا، ولكن أهل الكتاب حرفوهما. فـالمطلوب منهم هو إقامتهما مرة أخرى،

أى الرجوع إلى أصل التوحيد. ثم إن التوراة والإنجيل قد ذكرا محمداً ﷺ وأمرا باتباعه عند ظهوره، فإقامتهما معناها الإيمان بالرسول ﷺ وما نزل عليه من وحى.. أى الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(١).

* * *

على ذلك يمكن تلخيص موقف المؤمن من الكتب السابقة على هذا النحو:

١ ـ يؤمن بأن الله أنزل كتبًا ورد ذكرها فى القرآن هى بترتيبها التاريخى كما يأتى: صحف إبراهيم ـ التوارة ـ الزبور ـ الإنجيل ـ القرآن.

٢ ـ وأن هذه الكتب جميعًا تحتوى على حقيقة أساسية واحدة هى وحدانية الله عز وجل ووجوب إخلاص العبادة له بغير شريك، وطاعته فيما يأمر به وينهى عنه.

٣ ـ أن الكتب السابقة على القرآن لم يعد لها وجود فى صورتها المنزلة لأنها إما ضاعت ولم يعد لها أثر معروف كصحف إبراهيم، وإما حرفت على أيدى أصحابها كالتوراة والإنجيل.

٤ ـ أن التحريف الغالب كان إما بالتغيير والإضافة وإما بالكتمان. ومن أبرز الإضافات أساطير التوارة وقصة تأليه عيسى وقصة التثليث. ومن أبرز ما كتموه الإخبار عن بعثة الرسول ﷺ.

٥ ـ أن مشيئة الله قد اقتضت نسخ الكتب السابقة كلها ما ضاع منها وما حُرف. وأنزل القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، وناسخًا لكل ما سبق تنزيله من عند الله.

* * *

---

(١) متفق عليه.

تولى الله حفظ القرآن

أنزل الله القرآن مصدقًا لما بين يديه كما ذكرنا آنفًا وناسخًا له. ثم تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الأخير مما تعرضت له الكتب السابقة كلها من ضياع أو تحريف: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد بقى القرآن - كما أراده الله - محفوظًا خلال أربعة عشر قرنًا من الزمان، وسيظل باقيًا ما شاء الله له أن يبقى، لم يصبه تغيير ولا تحريف. لم ينقص منه ولم يزد عليه حرف واحد منذ أنزله الله على رسوله ﷺ.

لقد منَّ الله على هذه الأمة بأن تكون خير أمة في التاريخ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومنَّ عليها ببعثة الرسول ﷺ من بينها: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومنَّ عليها كذلك بحفظ الكتاب المنزل إليها، وعدم تعرضه للضياع والتحريف.

إن التوراة تولاها قوم غضب الله عليهم لأنهم كفروا بالله وقتلوا أنبياءه وعاثوا في الأرض فسادًا: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١].

ومن هذه الصفات كلها التى اتصفوا بها عاثوا فسادًا فى كتابهم المنزل عليهم فمحوا منه ما لم يوافق أهواءهم، وأضافوا إليه أساطير ما أنزل الله بها من سلطان: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ (١) ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وأما الإنجيل فإن أصحاب عيسى وحوارييه كانوا يعيشون فى حالة اضطراب وتشتت بسبب الاضطهاد الواقع عليهم من الدولة الرومانية، فلم يدوِّنوا الإنجيل كما

---

(١) أى يختلقون كلامًا من عند أنفسهم.

سمعوه من عيسى عليه السلام، إنما تناقلوا ما وعت ذاكرتهم منه سرّاً وعلى خوف من عيون الدولة الرومانية. فلما بدئ بتدوينه بعد ثلاثين عامًا على الأقل من رفع عيسى عليه السلام[1]، كان الأصل قد فُقد، وكانت الإضافات الدخيلة هى التى يتناقلها النصارى. ثم إن الأناجيل الموجودة الآن ليست هى نص الكتاب المنزل باعتراف أصحابها. إنما هى ذكريات شخصية كتبها كل مؤلف منهم على حدة وضمنها بعض الأقوال المنسوبة إلى المسيح.

أما القرآن فقد هيأ الله له ظروفًا مختلفة تمامًا، تمَّ بها الحفظ الذى قدره الله له منذ الأزل وهو فى اللوح المحفوظ.

١ ـ هيأ له أمة قوية الحافظة بصورة غير عادية. فقد كان العرب فى الجاهلية يروون ألوفًا من أبيات الشعر بغير تدوين، إنما يحفظونها فى ذاكرتهم ويتداولون روايتها.

٢ ـ هيأ له سهولة فى الحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

٣ ـ هيأ له أمة مستقرة آمنة ممكّنة فى الأرض، لديها الفرصة الكاملة للحفظ والتدوين، فكان الحفّاظ يحفظون على يدى رسول الله ﷺ حتى يتقنوا الحفظ ثم يدونوا ما يحفظون ويراجع عليهم رسول الله ﷺ بنفسه.

٤ ـ وأخيراً هيأ له مراجعة من الملأ الأعلى. فقد كان رسول الله ﷺ يحفظ ما يوحى إليه ثم يراجعه على جبريل عليه السلام مرة كل سنة. وفى السنة الأخيرة راجع جبريل القرآن كله على رسول الله ﷺ مرتين.

٥ ـ ثم إنه بعد تدوينه لم يعد هناك مجال لعبث عابث. بل إن الحفّاظ ظلوا خلال القرون يراجعون كل نسخة تكتب من المصحف مراجعة دقيقة. فلما أن صار المصحف يطبع طباعة صارت لجان من كبار الحفّاظ تراجع كل حرف منه قبل أن تأذن بطبعه.

وبهذه الوسائل كلها تحقق للقرآن ذلك الحفظ الذى قدره له الله منذ الأزل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) فى رواية أنه بدئ بتدوينه بعد سبعين سنة.

مكانة القرآن فى نفس المؤمن

للقرآن فى نفس المؤمن مكانة ليست لأى كتاب آخر على الإطلاق.

فالقرآن هو كلام الله المنزل على رسول الله ﷺ، المتعبد بتلاوته. وكفى بذلك تعظيمًا فى نفوس المؤمنين.

فالمؤمن يعظم ربه ابتداء، فيعظم بالتالى كل شيء يأتيه من عند ربه، فكيف بكلام ربه المنزل، الموجه إليه ليهديه سواء السبيل، وينير قلبه وطريقه، ويهديه خير الدنيا وخير الآخرة؟

إن الكتاب الذى يصلنى من مؤلف قدير فى مادته يكون عزيزًا عندى بمقدار ما أعرف عن ذلك المؤلف من مكانة فى العلم. فكيف بكتاب رب العالمين القادر المقتدر العليم الحكيم؟

وإن الكتاب الذى يعطينى جزءًا صغيرًا من المعلومات، وفى باب واحد من أبواب المعرفة يكون عزيزًا عندى بمقدار فائدتى منه. فكيف بالكتاب الذى يحوى الخير كله ويدل عليه؟

وإن الكتاب الذى أعلم أن قراءتى له ترفع منزلتى بين أصحابى يكون أثيرًا عندى بمقدار هذه الرفعة. فكيف بالكتاب الذى يرفع منزلتى فى الملأ الأعلى، ويرفع منزلتى عند رب العالمين؟

وإن الكتاب الذى يقدمه إلىَّ أستاذى وأعلم أن قراءتى له ستزيد درجاتى عنده أكون حريصًا على قراءته بقدر ما يزيدنى من درجات وعلامات، فكيف بالكتاب الذى تكون تلاوته تعبدًا يرفع درجاتى عند الله؟

ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض.

إنه لا يوجد كتاب فى تاريخ البشرية كله نال من المكانة فى نفوس أصحابه كما نال القرآن فى نفوس المؤمنين.

ولا يوجد كتاب قُرئ وحُفظ فى تاريخ البشرية بقدر ما قرئ هذا الكتاب، ولا عجب أن سماه رب العالمين «القرآن» فهو الكتاب المقروء، الذى لا تفتر قراءته فى ليل أو نهار فى صلاة أوذكر أو حلقة درس أو ترتيل.

وإن علينا - إلى جانب القراءة - أن نتدبر معانى القرآن، فقد أمرنا بذلك فى الكتاب العزيز: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

والله يندد بالذين لا يتدبرون القرآن فيعمون عن آياته: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

وحين نتدبر القرآن فستتضح لنا معان عدة ينبغى أن نكون على وعى منها:

١- القرآن هو منهج التربية الإسلامية:

فالقرآن هو كتاب التربية الذى ربى هذه الأمة التى وصفها خالقها بقوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾. ومن ثم فإنه يحوى جميع عناصر التربية الصالحة بين دفتيه. ومن ناحية أخرى فإن كل كلمة فيه هى توجيه تربوى لإنشاء «الإنسان الصالح» فى هذه الأرض. سواء كان أمرًا بعبادة، أو توجيهًا أخلاقيًا، أو نهيًا عن أمر لا يحبه الله ولا يرضاه لعباده، أو تشريعًا منظمًا لحياة البشر، أو قصة من قصص المؤمنين أو قصص المكذبين، أو حديثًا عن اليوم الآخر، ووصفًا لمشاهد الحساب والثواب والعقاب، أو توجيهًا عقليًا لتدبر آيات الله فى الكون أو سننه فى الحياة.

كلها جاءت فى القرآن للتربية والتوجيه. وكان من حصيلة تدبرها على الوجه الأكمل وتنفيذها بالجدية الواجبة أن خرج هذا الجيل الفذ من المؤمنين، صحابة رسول الله ﷺ، الذين استحقوا وصف الله لهم بالكامل، وكانوا بالفعل خير جيل فى خير أمة أخرجت للناس.

٢- القرآن كتاب الشريعة:

والقرآن هو كتاب الشريعة المنظمة لحياة البشر على الأرض.

وهو منهج حياة كامل.

فهو لم يدع جانبًا من جوانب البشرية إلا تناوله بما يصلحه ويصلح له، علاقة الفرد بربه. علاقة الفرد بالمجتمع. علاقة الحاكم بالمحكوم. علاقات الأسرة.

علاقات الجنسين. علاقات المسلمين بالفئات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامى. علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من دول الأرض.

كل شىء فى حياة الإنسان تناوله هذا الكتاب المعجز بالتفصيل أو الإجمال[1].

ومن ثمَّ فلا شىء فى حياة المسلم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الفكرية أو الروحية يرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب (وشرحه وتفصيله فى سنة الرسول ﷺ). ولا شىء فى حياته يجوز أن يخرج عن تعاليم هذا الكتاب، مهما استجد فى حياته من أمور!

لقد أنزل الله هذه الشريعة لتحكم حياة الناس إلى قيام الساعة. فقول القائلين من مرضى القلوب: إن هذه الشريعة قد نزلت قبل أربعة عشر قرنًا، فهى لا تصلح للتطبيق اليوم، معناه - والعياذ بالله من الكفر - أن الله لم يكن يعلم وقت تنزيل هذه الشريعة أنه ستجدُّ فى حياة الناس أمور غير التى كانت وقت نزول القرآن! أو أنه نزَّل الشريعة ناقصة وفرض على الناس ألا يحكموا بغيرها وهدَّدهم على ذلك بالخلود فى النار، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

إنما عرف المسلمون خلال التاريخ أن نظام حياتهم كله موجود فى هذه الشريعة، وأن عليهم - حين يجدّ فى حياتهم أمر - أن يستنبطوا له حكمًا من الشريعة الثابتة الأركان.

وعرفوا - فوق ذلك - أن هناك أمورًا تركها رب العزة بغير نص، لا نسيانًا منه جلت قدرته ولكن رحمة منه بعباده، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ، فهذه يجتهدون فيها بما يحقق مصالح الناس دون أن يخالفوا مقاصد الشرع.

وفى جميع الحالات تكون شريعة الله هى الحاكمة فى حياة الناس: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) ما أجمله القرآن فصّلته السنة النبوية المطهرة، وهناك أمور متغيرة تَجدّ فى حياة البشرية يجتهد فيها الفقهاء ولكنهم فى اجتهادهم لا يخرجون على أصول الشريعة المبينة فى الكتاب والسنة.

٣ ـ القرآن مرشد السالكين فى رحلة الحياة:

والقـرآن هو الذى يعرّفنا حـقيـقة الإنســان، ودوره فى الأرض، وغاية خلـقه، وحدود طاقاته، ومنشأه ومصيره.

بعبارة أخرى هو دليل الرحلة البشرية من مبدئها إلى منتهاها.

إن السائر فى رحلة يحـتاج إلى دليل يبيّن له من أين تبـدأ وأين تنتهى وأى شىء يجد فى الطريـق، وأين يمضى، وأين يتوقف ليتـزود بالزاد. فإن لم يكن مـعه هذا الدليل فإنه يخبط خبط عشواء، ونهايته إلى البوار.

والرحلة البشرية الكبرى فى حاجة إلى دليل، يبّين للسائر فيها معالم الطريق.

وحين تضل البشـرية عن دليلها ـ فى فترات جـاهليتها ـ فإنهـا تتخبط وتصيـبها الحيرة والقلق والضياع، كما يعبر عنها الشاعر الجاهلى المعاصر[١] حين يقول:

جئت لا أعلم من أين ولكنـى أتيت!
ولقد أبصرت قدامى طريقًا فمشيت!

وليس أبلغ من هذا التعبير عـن الضلال! وهذه الأزمة تكررت بصورة أو بأخرى فى كل جاهلية من جـاهليات التاريخ، ولكنها أحدّ ما تكون فى الجـاهلية المعاصرة، التى لا مثيل لها فى التاريخ!

إن الإنسان ليـتساءل، بوعى منه أو بغيـر وعى: من أنا؟ من أين جئت؟ إلى أين أذهب بعد الموت؟ لأى شىء أعيش؟ على أى نهج أعيش؟

وإذا لم يجد إجـابة واضحة شـافية لـهذه الأسئلة التى تخطر علـى الفطرة فإنه يشقى ويضل، ويتحير ويحس بالضياع.

والله خالق هذه النفس البـشرية يعلم أن هذه الأسئلة تخطر على الفطـرة وتحتاج إلى جواب، كما يعلم سبحانه أن طريقة حياة الإنسان فى الدنيا، ومصيره فى الآخرة مرهونان باهتـدائه إلى الأجوبة الصحيحـة على هذه الأسئلة أو عدم اهتـدائه إليها. لذلك فقـد نزّل له فى كتابه الحكيم إجابة كـاملة واضحة لتلك الأسـئلة التى يتوقف على إجابتها كل شىء فى حياة الإنسان.

عرّفه مم خلق أول مرة: من قبـضة من طين الأرض ونفخة من روح الله: ﴿إِذْ

---

(١) هو «إيليا أبو ماضى» فى ديوان له يسمى «الجداول».

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فعرف من ثمَّ أنه جسد وروح، وأن حياته ينبغى أن تشمل جانب الجسد وجانب الروح، متصلين غير منفصلين، فلا يستغرقه جانب الجسد وحده ولا جانب الروح.

وعرَّفه مهمته فى الأرض: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فعرف أنه مستخلف فى هذه الأرض ليقوم بعمارتها. وأن غاية وجوده هى عبادة الله بمعناها الواسع الذى يشمل شعائر التعبد كما يشمل نشاط الحياة كلها، أى التوجه بنشاط الإنسان كله إلى الله، وسيره فيه بمقتضى أوامر الله.

وعرَّفه بالمنهج الذى ينبغى أن يعيش بمقتضاه: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأعطاه تفاصيل هذا المنهج فى كتاب الله وسنة رسوله.

وعرَّفه كذلك بمصيره بعد الموت: إن الحياة لا تنتهى بانتهاء هذه الجولة فى الحياة الدنيا، وإلا فهى عبث لا يصدر عن إله حكيم: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

إنه لابد من البعث والحساب والجزاء لكى ينتفى العبث عن خلق الله،

ولكي لا يستوى المحسن والمسيء في نهاية المطاف: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

وهو يحاسب في الحياة الآخرة بمقتضى ذات المنهج الذي نزل ليحكم حياة الناس في الأرض: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

ثم يكون الجزاء هو الخلود في الجنة أو النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء: ٥٦، ٥٧].

وهكذا فإن القرآن يعطى الإنسان دليل الرحلة كاملاً من بدء الرحلة إلى منتهاها، ويبين له كل معالم الطريق.

٤ - القرآن يدعو إلى تدبر آيات الله فى الكون:

والقرآن يوجه أنظارنا - بصورة ملحوظة - إلى تدبر آيات الله فى الكون: فى السموات والأرض، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والنبات والحيوان.. وكل ما يقع عليه الحس من كائنات.

يوجه أنظارنا إليها لنتعرف على قدرة الله المعجزة فى الخلق والتدبير، فنؤمن بالله ونعبده حق عبادته: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن

يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤١ ـ ٤٦].

ويوجه أنظارنا إليها لنتعرف ـ فى الوقت ذاته ـ على السنن الربانية التى يجرى بمقتضاها نظام هذا الكون، لكى نحقق ـ بالعلم ـ استغلال الطاقات الكونية المسخرة لنا أصلاً من عند الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

فهذه الطاقات الكونية مسخرة من عند الله للإنسان. نعم، ولكنها تحتاج لأن يتعرف الإنسان على السنن التى تجرى بها لكى يستغلها فى عمارة الأرض.

والقرآن يوجهنا إلى هذه المعرفة التى توصلنا إلى استغلال ما سخر لنا من الطاقات: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ(١) وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ(٢) إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويقول عن نبى الله داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

---

(١) أى قوة وصلابة.

(٢) إشارة إلى السلاح الذى يصنع من الحديد الصلب ويستخدم فى القتال.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾(1) [الأنبياء: ٨٠].

ومن هذه التوجيهات وغيرها فى القرآن اتجه المسلمون إلى العلم، وإلى العلم التجريبى خاصة، فأنشئوا المنهج التجريبى فى البحث العلمى، الذى تقوم عليه النهضة العلمية الحاضرة فى أوربا، بعد أن تعلمت أوربا ما تعلمت فى مدارس المسلمين. ومن قبل ذلك كان العلم على يد اليونان علمًا نظريًا بحتًا لا يؤدى إلى تقدم كبير.

٥- تدبر السنن التى تحكم حياة الإنسان:

ويوجه القرآن أنظارنا كذلك إلى السنن الربانية التى تجرى بها حياة البشر على الأرض، لنتعرف على هذه السنن وتقوم حياتنا بمقتضاها، لأنها سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: ٤٣].

فمن هذه السنن أن المؤمنين حين يستقيمون على أمر الله يستخلفهم ويمكّن لهم فى الأرض ويمنحهم الأمن والطمأنينة، ويبارك لهم فى حياتهم كذلك: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ولكن الكافرين ليسوا ممنوعين من التمكين فى الأرض ولكن على وجه آخر: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ

---

(1) إشارة إلى الدروع الواقية التى تستخدم فى الحرب.

سَعْيُهُم مَّشْكُوراً (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ١٨ـ ٢٠].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فالمؤمنون يمكَّنون فى الدنيا لإصلاح الأرض، ثم تكون لهم العاقبة الحسنة فى الآخرة فينعمون بالجنة والرضوان: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

أما الكافرون فيمكَّنون ابتلاء وفتنة، وحين يوغلون فى البعد عن الله تفتح عليهم أبواب القوة والاستمتاع وتنهال عليهم الأسباب. لا رضًا من الله عليهم بل ليزدادوا إثمًا ليأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

كذلك فإن التمكين للمؤمنين يختلف عن التمكين للكافرين من وجه آخر. فالمؤمنون يمنحهم الله «بركات من السماء والأرض» فيعيشون فى أمن وطمأنينة وبركة فى الوقت والصحة والأموال والأولاد. . أما الكافرون فيفتح عليهم أبواب كل شىء من الرزق المادى، ولكن بلا بركة ولا أمن ولا طمأنينة، لأن الطمأنينة إنما تجىء من ذكر الله وهم لا يذكرون الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومن السنن الربانية كذلك أن أعمال البشر من سيئة أو حسنة تترتب عليها نتائج حتمية لا يمكن تغييرها، لأن سنة الله لا تتغير ولا تتبدل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

والنتائج تترتب بقدر من الله. ولكن الله يخبرنا أنه يجرى قدره فى الأرض بحسب ما يكون من سلوك الناس.

٦ ـ معرفة الأحداث التاريخية الكبرى:

ومن تتبعنا لسنة الله فى حياة الناس نستطيع أن ندرك الأحداث الكبرى فى التاريخ. ونستطيع كذلك أن نقدر حاضرنا الذى نعيش فيه، وأن نزن تطلعاتنا إلى المستقبل بميزان الواقع.

فمن أحداث التاريخ الكبرى تمكين الأمة المسلمة فى الأرض فترة طويلة من الزمن وفى رقعة فسيحة من الأرض، حين كانت مستقيمة على أمر الله، تحقيقًا لوعد الله بالاستخلاف، والتمكين والتأمين للذين آمنوا من هذه الأمة وعملوا الصالحات، وقيام هذه الأمة فى فترة استخلافها بنشر الخير فى ربوع الأرض وإقامة العدل الربانى فى أرجائها.

ومن أحداث التاريخ الكبرى كذلك انحسار المد عن الحركة الإسلامية، سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية أو العلمية أو الحضارية حين تخلى المسلمون عن رسالتهم التى أهّلهم الله لها، وهى أن يكونوا رواد البشرية وقادتها بعد أن يستقيموا هم أنفسهم على أمر الله. فلما انحرفوا عن طريق الله وتخلوا عن حقيقة إسلامهم لم تتغير سنة الله فيهم، ولم يغنهم أنهم من ذرية قوم مؤمنين: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومن أحداث التاريخ الكبرى أن أوربا ـ وهى أمة أو مجموعة من الأمم الجاهلية

لا تؤمن بالله ورسوله ولا تحكم بما أنزل الله ـ قد مكن لها فى الأرض، وفتح عليها أبواب كل شىء: فى السياسة والحرب والمال والقوة العلمية والعملية.

وكثير من الناس ينبهر بهذا السلطان الذى أوتيته أوربا، وبهذا التمكين، ويظن أنه مخالف لسنة الله! ولكن تدبر آيات الله يرينا أنه لا شىء مما حدث فى التاريخ يجرى مخالفًا لسنة الله، ولا يمكن أن يحدث ذلك قط.

فالذى حدث:

أولاً: أن هذه الأمم الجاهلية قد مُكنت فى الأرض بعد أن تخلت الأمة المسلمة عن دورها. ونتيجة لهذا التخلى من جانب المسلمين تمكنت هذه الدول الكافرة.

ثانيًا: أن هذه الأمم حين مكنت انتشر الفساد فى الأرض ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

ثالثًا: أن هذا التمكين الذى يعبر عنه القرآن بقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنقصه البركة التى لا تعطى إلا للمؤمنين حين يمكّنون فى الأرض، وليس فيها الطمأنينة التى تأتى من ذكر الله. إنما فيها الأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار والجريمة والقلق والاضطراب والحيرة والضياع.. وكلها كما تقول إحصاءاتهم آخذة فى الازدياد.

رابعًا: أن حضارتهم الجاهلية فى سبيلها إلى الانهيار بحسب سنة الله كما ترى العين الفاحصة من وراء صور التقدم المادى الذى يبهر العيون(١)، وكما يقول مفكروهم أنفسهم، ولكن هذا الانهيار لا يحدث بين يوم وليلة، لأن الله يقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٧، ٤٨].

ذلك بالنسبة لرؤية الماضى والحاضر على ضوء السنن الربانية التى أمرنا الله أن نتدبرها ونحن نقرأ القرآن.

أما بالنسبة لتطلعاتنا نحو المستقبل، فنحن نتطلع لأن نستعيد ما فقدناه من القوة

---

(١) انهارت الشيوعية بالفعل، وبدأ الحديث عن انهيار الحضارة الغربية.

والاستخلاف والتمكين والتأمين. وذلك من واجبنا؛ لأن اللـه لم يخرج هذه الأمة لتكون فى وضع الاستخذاء والضعف، ولا الذلة ولا الهوان: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولكن هذا الأمر لا يتم بالتمنى. ولا يتم حتى يغير الناس ما بأنفسهم. ولا يتم دون جهد يبذل ودون جهاد: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

فحين يريد المسلمون أن يستعيدوا مكانتهم فى الأرض فهذا هو الطريق!

وهذا الذى نتعلمه من سنن الله ونحن نتدبر القرآن.

* * *

مقتضى الإيمان بالقرآن

إن الإيمان بأن القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله ﷺ ، يقتضى أن تكون له آثار واقعية فى حياتنا.

يقتضى أولاً أن نعيش معه ونتعبد بتلاوته وحفظه. فالقرآن ينبغى أن يكون هو الصاحب والأنيس قبل أى صاحب آخر أو أنيس.

يكفى أن يستشعر المؤمن فى قلبه أن الله يخاطبه هو شخصيًا بهذا القرآن، رجلاً كان أو امرأة، فتى كان أو فتاة، وأن الله فى عليائه ينظر فى شئون البشر الذين خلقهم، فلا يتركهم ضياعًا، ولا يتركهم سدى. إنما يرسل لهم الهدى والنور، ويتعهدهم بالرحمة والفضل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

يكفى أن يستشعر أنه هو شخصيا موضع نظر الله وعطفه ورحمته: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وأنه أقرب ما يكون إلى ربه وهو قائم وساجد لربه يصلى، وكذلك وهو يتلو القرآن تعبدًا وتدبرًا وتقربًا إلى الله.

والحياة مع القرآن تستجيش الحسّ، وتفتح القلب، وتمنح الروح شفافيتها لأنها تعيش مع النور الربانى المنزل فى الكتاب، فيخف الإنسان من ثقلة الجسد وجذبة الأرض.

ويقتضى ثانيًا: أن نربى أنفسنا بهذا القرآن.

فالقرآن ـ كما ذكرنا ـ هو كتاب التربية الإسلامية الشامل الذى أخرج الأمة التى كانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

وحين نقرؤه أو نحفظه للتعبد، فإننا فى الوقت ذاته نقرؤه لنصوغ أنفسنا بحسب أوامره وتوجيهاته.

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»! وهى جملة بليغة على إيجازها، تعنى أن الرسول ﷺ كان هو الترجمان الصادق لكل ما جاء فى القرآن من أوامر وتوجيهات.

ولن يستطيع أحـد من البشر - مهـما اجتهد - أن يكون مـثل رسول الله ﷺ .
ولكن الله يأمرنا بأن نتخـذ منه الأسوة الحسنة : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثم قال لنا من رحمته سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فـواجبنا إذن أن نحـاول - ما اسـتطعنا - أن نربى أنفـسنا بالقرآن ونحن نحـفظه ونتلوه.

ولنعلم أن أداة التربية العظمى فى هذا الكتاب هى العقيدة.

العقيـدة الصحيحة الراسـخة كانت هى الأداة الأولى لتربيـة هذه الأمة الفذة فى التاريخ، وبصفـة خاصة ذلك الجيل الأول الفذ الذى صنعـه القرآن على يدى رسول الله ﷺ ، فكان قمة لا يدانيها شىء فى تاريخ البشرية كلها.

والعقيـدة ليست كلمة تقال باللسـان: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محـمداً رسول الله.. وإنما هى واقع يعاش، ومنهج كـامل للحياة.. إنها حيـاة كاملة فى ظل الله تستمد من أوامره وتوجيهاته، وتعمل بمقتضاها فى واقع الأرض.

وإن المساحة العظيمة التى يشملها الحـديث عن العقيدة فى كتاب الله لم تكن من أجل هذه الكلمة التى تقال باللسان، وإنما من أجل أن تتـحول إلى عمل مشهود فى عالم الواقع، وتتـرجم إلى وجدان وسلوك: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ⦗١٩⦘ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ⦗٢٠⦘ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ⦗٢١⦘ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٢].

ولنعلم كذلك أن أسمـاء الله الحسنى وصفاته وأعمـاله الواردة فى كتاب الله فى معرض الحـديث عن العقيدة لم تنزل لنحـولها إلى أمور جدليـة عقيمة كـما فعلت الفرق الضالة الشـاردة فى تاريخ الإسلام. إنما نزلت للتعريف بالله سـبحانه والإيمان بها وإثباتها كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، فيتربى المؤمنون على حقائق الإيمان الموروث عن رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار.

حين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فهو يعلمنا ـ من ناحية ـ بأمر مما اختص به الله سبحانه وتعالى، وهو أن الله وحده هو الرزاق دون شريك يشاركه فى الرزق. وهو يربينا ـ من جهة أخرى ـ على هذه الحقيقة الإيمانية لنوقن ـ فى السراء وفى الضراء سواء ـ أنه لا أحد على الإطلاق يملك قطرة واحدة من الرزق، لا أن يزيدها ولا أن ينقصها ولا أن يقطعها سوى الله. ومن ثم فلا يجوز لنا أن نتوجه لغير الله فى طلب الرزق، ولا يجوز لنا أن نميل عن قولة الحق حفاظًا على الرزق، أو نتبع أحدًا من الظالمين ـ بالباطل ـ خشية أن يقطع عنا الرزق، لأن شيئًا من ذلك لا يتم بأيدى البشر فى الحقيقة إنما يتم بتقدير الله، وإن كان البشر ـ فى الظاهر ـ هم الذين يصنعون هذا أو ذاك.

والتربية على العقيدة أمر غير مجرد المعرفة النظرية بحقائق العقيدة، فكثير من الناس إذا قلت له إن الله هو الرزاق وحده قال: نعم! فإذا تعرض لمحنة أو ضيق أو هُدِّد فى رزقه تزلزلت هذه الحقيقة فى قلبه لأنها لم تكن راسخة بالفعل.. لم تكن تحولت إلى يقين، وإلى سلوك مبنى على ذلك اليقين!

وكل صفات الله وأسمائه واردة فى القرآن على هذا النحو، للتعريف بحقيقة الألوهية، وللتربية على حقيقة الإيمان، وأن الله هو الضار النافع. المحيى المميت. القابض الباسط.. كلها ينبغى أن تتحول فى قلوبنا إلى يقين، ثم تتحول فى حياتنا إلى سلوك مبنى على هذا اليقين، وعندئذ نكون تربينا ـ كما تربت الأمة المسلمة الأولى ـ على حقائق الإيمان الواردة فى القرآن.

* * *

ويقتضى ذلك أن تتحول حياتنا كلها إلى واقع إسلامى، فى كل منحى من مناحى الحياة.

فكما ينبغى أن يستقيم سلوكنا الشخصى على مقتضى كتاب الله، من صدق وأمانة ونظافة وتطهّر، وبُعد عن الإثم والبغى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ

بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ـ ١٥٣].

كذلك ينبغى أن يكون القرآن هو منهج حياتنا العامة إلى جانب حياتنا الفردية، لأن الإسلام لا يفرق بين الفرد والمجتمع فى الالتزام بأوامر الله.

فالحكم ينبغى أن يكون بشريعة الله.

وتعاملاتنا الاقتصادية ينبغى أن تكون فى حدود ما حلل الله.

وصلاتنا الاجتماعية ينبغى أن تكون محكومة بأوامر الله. فى داخل الأسرة وخارجها. فى علاقات الجنسين. فى علاقات الناس بعضهم ببعض. فيما يحل للمرأة أن تبديه من زينتها، وما يحل للرجل من نظر أو كلام.

والأفكار التى نتعلمها والتى نبثها ينبغى أن تكون متمشية مع مفاهيم الإسلام وتوجيهاته، غير متعارضة مع شىء ألزمنا الله به فى كتابه الحكيم.

وبذلك نكون حقا أمة القرآن. .

الباب الرابع

الإيمــان بالرســـل

- وجوب الإيمان بالرسل.
- حقيقة النبوة.
- الوحى وأنواعه.
- حاجة البشر إلى الرسالة.
- مهمة الرسل.
- أثر الرسل فى حياة الناس.
- صفات الرسل.
- أولو العزم من الرسل.
- الرسالة المحمدية.
- المعجزة
- وضع العالم الإسلامى المعاصر.
- مستقبل الأمة الإسلامية.

الباب الرابع
الإيمان بالرسل

(١) وجوب الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان، فلا يعتبر الإنسان مسلمًا ولا مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قد أرسل للبشر رسلاً من أنفسهم يبلغونهم الحق المنزل إليهم من ربّهم، ويبشرونهم وينذرونهم، ويبيّنون لهم حقيقة الدين، كذلك لا يعتبر مسلمًا ولا مؤمنًا حتى يؤمن بالرسل جميعًا، لا يُفرِّق بين أحدٍ منهم، وأنهم جميعًا جاءوا بالحق من عند الله.

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

وجاء في حديث: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»: «قالَ: ما الإيمانُ؟ قالَ: الإيمانُ أن تُؤْمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ...»[1].

يتبيّن لنا من النصوص السابقة ـ وأمثالها كثير فى القرآن والحديث ـ أن الإيمان بالرسل ركن أساس من أركان الإيمان، لا يتم إسلام المرء إلا به، وأنه يستوى عند الله من أنكر الرسل جميعًا، ومن أنكر واحدًا منهم بعينه، فالمنكرون كلّهم عند الله كفّار، إنّما المؤمن هو الذى يُؤْمن بالرسالات جميعًا وبالرسل جميعًا دون تفريق.

وإذا سألنا أنفسنا: لماذا أوجبَ الله الإيمان بالرسل، وجعله ركنًا من أركان الإيمان، ولم يكتفِ ـ سبحانه وتعالى ـ من البشر بوجوب الإيمان به وحده، مع أن الإيمان بالله هو أساس كل شىء، وعبادته هى غاية كل شىء؟ فالإجابة على هذا السؤال واضحة. فكيف يعرف الإنسان ربه المعرفة الحقة إلا عن طريق الرسل؟ وكيف يعبده العبادة الحقة إلا بإرشادهم؟

انظر إلى ضلالات البشرية فى أمر ربها خلال التاريخ!

كيف تصورته، وكيف عبدته فى جاهلياتها المختلفة؟

مرة تصورته فى قرص الشمس كما فعلت الجاهلية الفرعونية. ومرة تصورته فى النار الملتهبة كما فعلت الجاهلية الفارسية. ومرة تصورته على هيئة بشر ذى خصائص فائقة كما فعلت الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية. ومرة فى القمر، ومرة فى النجم، ومرة فى صنم من الأصنام! وهكذا اختلفت التصورات وضلّت كلها عن معرفة الله الحق، لأنها استرشدت بخيالها وأهوائها وعلمها القاصر، ولم تأخذ الحق من طريقه الصحيح المعتمد من عند الله، وهو طريق الرسل الموحى إليهم بالحق.

ولا يقل عن ذلك ضلالاً ما تصورته الجاهليات المختلفة من وجود أرباب صغيرة مع رب الأرباب، تقوم ببعض اختصاصاته سبحانه! فإلهٌ للمطر، وإله للبرق، وإله للرعد، وإله للريح، وإله للبحر، وإله للخصب، وإله للنسل، وإله لكل شأن من شئون الحياة يختص به من دون الله أو مع الله كما كان العرب يقولون فى الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

أما العبادة فقد ضلّت مثل ضلال التصور! وذلك أمر طبعى! فما دام

---

(١) رواه مسلم.

البشر لا يرجعون فى أمر العبادة إلى المرجع الصحيح الذى يبصّرهم بالحق، فسوف يضربون فى التيه كما تملى لهم أهواؤهم وخيالاتهم، أو - بالأحرى - كما يملى الشيطان عليهم لإغوائهم، فكانت النتيجة دائمًا أنهم قدموا شعائر التعبد لغير الله، ودعوا غير الله، واستعانوا بغير الله، وحرّموا وأحلّوا بغير سلطان من الله!

فإذا آمنا أن قضية الألوهية والربوبية هى القضية الكبرى فى حياة الإنسان، وأن عبادة الله هى غاية الوجود الإنساني: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أدركنا على الفور لماذا كان الإيمان بالرسل ركنًا رئيسًا من أركان الإيمان، لأنه يستحيل على البشرية - كما رأينا من الواقع التاريخى - أن تهتدى إلى الحق فى شأن الألوهية ولا فى شأن العبادة إلا عن طريق ذلك المصدر الموثق، وهو الرسل المرسلون من عند الله.

وكذلك الشأن فى وجوب الإيمان بالرسل كلهم دون تفريق بين أحدٍ منهم.

لقد جاءوا كلهم بقضية واحدة وكلمة واحدة. جاءوا يبينون أنه لا إله فى هذا الوجود كله إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك. وجاءوا يقولون للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٥٠، ٦١، ٨٤].

فما معنى الإيمان بواحد منهم دون الآخر؟! إن إنكار واحد منهم مثل إنكارهم جميعًا، ما داموا كلهم جاءوا من عند الله، وبلّغوا شيئًا واحدًا أوحى الله به إليهم ليبلّغوه إلى الناس: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

* * *

(٢) حقيقة النبوة

لقد اقتضت حكمة الله أن يرسل الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الحق:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وإذ اقتضت حكمة الله ذلك فقد كان من سنة الله فى خلقه أن يصطفى بعض عباده فيمنّ عليهم بالنبوة أو الرسالة، ويمنّ على أقوامهم ببعثهم إليهم ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الصافات: ١١٤].

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والنبوة والرسالة اصطفاء خالص من عند الله يختص به من يشاء من عباده، وليست شيئًا يكتسبه العباد منْ ذات أنفسهم بعمل يعملونه من جانبهم.

وكل ما يقع للبشر فى حياتهم هو من عند الله. وكل موهبة توهب لهم فى ذات أنفسهم أو فيما بين أيديهم هى من عند الله. ولكن الله قدَّر أن يكون للإنسان جانب من الكسب فى كل ذلك. فقد أعطى الإنسان القدرة على المعرفة ووهب له ذكاء يتفاوت من شخص إلى شخص، ومنحه طاقات مختلفة، ثم كلّفه أن يعمل، وأن يبذل جهدًا معينًا لتحصيل المعرفة، واستخدام الذكاء فى عمارة الأرض وغيرها من شئون الحياة:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤، ٥].

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

ويستطيع الإنسان بتحصيله الشخصى أن ينمى ما وهب الله له من مواهب. فيستطيع مثلاً أن ينمى قوته الجسدية بالرياضة البدنية والتدريب فيصبح قوى الجسم، متين العضلات. ويستطيع أن ينمى قوته الذهنية بالتدريبات العقلية وتعلم العلم وإمعان الفكر، فيستنبط ويكتشف ويخترع ويدبِّر ويخطط. ويستطيع أن ينمى قوته الروحية بالامتناع عن بعض لذائذ الحس، وبالتأمل، وبإبعاد النفس شيئًا من الوقت عن عالم الحس القريب بصورة من الصور، فتصفو روحه، ويكتسب طاقة روحية كبيرة.

كل هذه الأعمال هى فى أصلها موهبة من الله، وهى فيما تنتهى إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه وتحصيل يكدون فيه ويكدحون.

أما الرسالة والنبوة فموهبة من الله ذات طبيعة مختلفة. إنه لا يدَ للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار، إنما هى اصطفاء خالص من جانب الله سبحانه وتعالى لعبد من عباده، يجتبيه وينعم عليه ويبعثه بالهداية إلى الناس.

لا يوجد عمل معين يعمله الإنسان من جانبه فيرتقى به إلى مرتبة النبوة ولو أنفق عمره كله فيه!

يستطيع الإنسان بالتدريب المستمر أن يصبح بطلاً من أبطال الرياضة إذا كان عنده استعداد جسمى معين.

ويستطيع بالتدريب المستمر أن يكون مهندسًا بارعًا أو طبيبًا نابغًا أو عالمًا مبرزًا، إذا كان عنده الاستعداد العقلى المناسب.

ويستطيع بالتدريب المستمر أن يحصل على صفاء روحى يناسب استعداده.

ولكنه لا يستطيع بأى جهد يبذله أن يكون نبيًا ولا رسولاً. ولكن الله يصطفيه فيكون!

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

وحقيقة إن الذين يصطفيهم الله ليكونوا رسلاً وأنبياء هم خيار الناس وأفضلهم: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧].

ولكنا نحن لا نستطيع ـ بمقاييسنا ـ أن نقول: إن فلانا من البشر يستحق النبوة أو إنه أولى بها من غيره! ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

والأنبياء أنفسهم يتفاوتون في مراتبهم: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ولكن النبوة فى حد ذاتها مرتبة فوق مراتب البشر العاديين. فالبشر يتفاوتون فى مراتبهم، منهم الحقير، ومنهم العظيم. ولكنهم ـ فى أعلى درجات عظمتهم ـ يقفون عند حد معين هو أدنى من مرتبة النبوة. فإذا اختار الله واحدًا من البشر المتازين ليجعله نبيًا فإنه يرفعه من مكانه الذى كان فيه ليضعه فى مرتبة جديدة عالية لم يكن ليصل إليها من ذات نفسه مهما اجتهد، لأنها خارج الحدود التى يستطيع البشر أن يصلوا إليها باجتهادهم. ويصبح منذ لحظة اصطفائه شخصية أخرى، بشرية ـ نعم ـ فى كل تصرفاتها العادية، ولكنها مشتملة على عنصر جديد لا يُتاح للبشر العاديين، ذلك هو الاتصال بالله عن طريق الوحى.

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧ـ ٢٠].

فهم بشر فيما يتعلّق بالأمور العادية، يُولدون ويموتون، ويأكلون الطعام، ويسعون وراء الرزق، ويتزوج منهم من يتزوج ويكون لهم ذرية أو لا يكون حسبما قدّر الله لهم، ويفرحون ويتألمون، ويجرى عليهم كل ما يجرى على البشر فى هذه الشئون. ولكنهم ينفردون بهذه الخاصية الفريدة وهى تلقى الوحى من عند الله، وإرسالهم للناس ليبلغوهم ما أوحى الله به إليهم من الهدى والتبيان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥].

كيف تتم لهم هذه الخاصية، وكيف تكـون نفوسهم ومشاعرهم حين توهب لهم القدرة على تلقى الوحى من الله؟!

لا نستطيع نحن البشر العاديين أن نعرف ذلك يقينًا لأنها تجربة خارجة عن حدود بشريتنا، ولكنا نستطيع القياس للتقريب.

إن الإنسان منا ليحس أحيانًا ـ ولو نـادرًا ـ بشىء من الصفاء الروحى، فيحس كأن فيضًا من النور يشع من حوله ويملأ نفسه ومشاعره، ويحس كأنه أصبح كائنًا جديدًا غير الذى كان من قبل، لا تثقله ثقلة الأرض، ولا ينحبس فى إطار جسده المحدود، ولكنـه يرفرف بروحه طلـيقًا من القـيود. ويعـود ينظر إلى الناس وإلى الوجود كله من حـوله بنظرة جديدة وروح جديدة. فـإذا بينه وبين الناس تعاطف ورحمة، وبـينه وبين الوجود مودّة وتجاوب. ويحس فـوق ذلك كله أنه قريب من الله؛ لأن مشاعـره صارت أنظف وأطهر، وشعوره بعظمة الله أكـبر، وتطلعه إلى رحمـة الله أشد. كم تستـغرق هذه اللحظات من حيـاة البشر؟ وكم يطيـقون أن يرتفعوا إليها؟

إنها لحظات قليلة ولا شك فى حياة الإنسان. ولكنها فى نفسه عميقة الأثر. وإن آثارها لتظهر فى طمأنينة نفســه من الداخل وفى طريقة تعامله مع الناس فى الخارج. فيـعاملهم بالمودة والرأفة، وتتـسع نفسه لاحـتمال الجهـد والصبر على مـا يلقاه من الناس!

وحين تتكرر هذه اللحظات وتتقارب فإنها تعطى صاحـبها سمة واضحة، ويعرف الناس أن صاحـبهـا عظيم، وأنه ليس كالآخـرين الذين يعيـشون فى إطار مـصالح الأرض القريبة وشهوات النفس الهابطة.

ولكن للبشر على أى حـال طاقة معينة يقفون عندها فى هـذه الأمور، وبقدر ما يحصّلون منها تكون عظمتهم بالقياس إلى غيرهم من البشر.

والآن فلنتطلع إلى أفق آخر..

فلنتصور إنسانًا لا يعيش هذه المشاعر لحظات مـتفرقة، ولا حتى لحظات متقاربة،

إنما هى الأصل فى حياته، وهى الزاد الدائم الذى تتغذى به روحه، والأفق الدائم الذى يحلق فيه.. كيف يكون نوع مشاعره، وعلى أى درجة من العظمة يكون؟

ذلك، بشيء من التقريب، هو النبى - كل نبى! - ثم تتفاوت مراتبهم بعد ذلك فى الفضل!

ولنأخذ القضية كذلك من الجانب الآخر..

إن الإنسان ليحس فى بعض اللحظات أن الله راض عنه، وقريب برحمته منه، فكيف يكون أثر هذا الإحساس فى نفسه ومشاعره؟ ألا يحس أن نفسه تتسع وتتسع، وروحه تصفو وترتفع؟ ألا يحس بأن ذلك الفيض الإلهى قد ملأ قلبه بالنور، ورفعه درجات عن الأرض، حتى لكأنه ليس جسدًا جاثمًا على الأرض، ولكنه روح ترفرف فى السماء؟

ألا يجعله ذلك الفيض الإلهى أقرب إحساسًا بعظمة الله، وأشد رغبة فى عبادته، وأشد إخلاصًا فى دعائه والتوكل عليه، وأقرب إلى استجابة أمره، والعمل بما يرضيه؟ ثم، ألا ينعكس ذلك كله على تكوين نفسه وعلى تعامله مع الناس؟

فإذا كان ذلك من أثر لحظات عابرة يحس فيها الإنسان بذلك القرب من الله... فكيف بمن يكلمه الله؟ كيف بمن يتنزل عليه الوحى الربانى، فَيَصِلُهُ الوحى الربانى بالله؟!

ذلك - بالتقريب - شأن الأنبياء، ثم يتفاوتون فيما بينهم بما شاء لهم الله من درجات.

أما كيف يتم ذلك فأمر لا نعلمه نحن، ولكنا نعلم أنه يتم بتهيئة خاصة من الله يمنّ بها على عبده الذى اصطفاه، كما قال سبحانه وتعالى عن نبيه موسى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩].

وكما قال عن نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

* * *

(٣) الوحى وأنواعه

يقول الله سبحـانه وتعالى فى سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

تبين هذه الآية أنواع الوحى الربانى إلى عباده المصطفين ليكونوا رسلاً وأنبياء. إن الله لا يكلم أنبياءه مواجهة، لأن هذه المواجهة لا يقوى عليها البشر فى الحياة الدنيا. إنما يكلمهم بإحدى طرق ثلاث:

١ ـ **وحيًا يُلقى فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله.** ويسمى ذلك أيضًا بالإلهام ومنه رؤى الأنبياء كرؤيا سيدنا إبراهيم أنه يذبح ولده إسماعيل: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

٢ ـ **أو من وراء حجاب،** كما كلم الله موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

دون أن يرى الله، لأن ذلك مستحيل بالنسبة إليه، فلما طلب الرؤية حين جاء إلى ميقات ربه لم يُجَبْ إلى طلبه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٣ ـ **أو يرسل الله الملك المكلف بالوحى فيوحى إلى الرسول ما يشاء** بطريقة من الطرق التى بيَّنها رسول الله ﷺ:

الأولى: ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه دون أن يراه، كما قال ﷺ: **«إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوعى أنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا الله وأجْمِلوا فى الطَّلَب».**

الثانية: أن يتمثل الملك لرسول الله ﷺ فى صورة رجل فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول.

الثالثة: أنه كان يأتيه فى صورة صلصلة الجرس. وكان أشده عليه حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا فى اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها.

الرابعة: أن يرى الملك فى صورته التى خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه. وهذا وقع للرسول ﷺ مرتين كما جاء فى سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم ٨ ـ ١٤].

* * *

(٤) حاجة البشر إلى الرسالة

خلق الله البشر وهو أعلم باحتياجاتهم.

لقد خلق لهم أجسادًا تحتاج إلى الغذاء لكى تنمو وتعيش حتى تقضى أجَلَها المقدَّر لها، كما تحتاج إلى الكساء والمأوى. وخلق لهم عقولاً تحتاج إلى المعرفة والتعليم لتقوم بما تطلبه الأجساد من غذاء وكساء ومأوى، وتقوم بما كلف الإنسان به من عمارة الأرض: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

وخلق لهم أرواحًا تحتاج إلى الهداية لتستقيم حياة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

ثم إن الله تكفّل بكل احتياجات البشر، لأنهم لا يملكون شيئًا بغير تلك الكفالة الربانية التى تعطيهم كل شىء، وبغيرها لا يملكون شيئًا على الإطلاق.

تكفّل بالرزق كله، وجعله فى متناول الإنسان فى الأرض التي نشأ منها وفيما يحيط بها من ماء وهواء وأفلاك: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠].

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم ٣٢ ـ ٣٤].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وتكفل بالمعرفة التى تحتاج العقول إليها، وزوّد الإنسان بالأدوات اللازمة لتحصيلها: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣ ـ ٥].

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢].

وتكفل كذلك بالهداية التى تحتاج إليها الأرواح فأرسل الأنبياء والرسل ليبينوا للناس الحق ويهدوهم إليه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

ومع أن الله سبحانه وتعالى قد تكفّل بكل ذلك رحمة منه بعباده بغير إلزام (فمنذا الذى يملك إلزام الله جل وعلا بأى شىء على الإطلاق؟!).. مع ذلك فإن الإنسان ليطغى، ويظن فى لحظة غفلته أنه مستغن عن كفالة الله فى أى أمر من الأمور! ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

يظن أحيانًا أنه ـ بجهده الذاتى ـ هو الذى يخرج الزرع من الأرض ليأكله، ويستخرج الماء ليشربه، ويعمر الأرض ليسكنها ويستمتع بها، ويقول: أنا الذى فعلت ذلك!

من أجل ذلك يذكره الله: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ(١) (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٦٣ـ ٧٤].

---

(١) قد يظن بعض الناس لأول وهلة أن إنزال المطر من السحاب، أو ما يسمونه المطر الصناعى، يتعارض مع هذه الآية، وأن الإنسان أصبح هو الذى ينزل الماء من المزن وليس الله جل جلاله! وهذا الوهم السطحى لا حقيقة له. فالإنسان لا يخلق السحاب، وليس هو الذى خلق الماء الذى يتصاعد إلى الجو فى هيئة بخار ويتكون منه السحاب الذى ينزل منه المطر. وحين يتحكم الإنسان فى استنزال الماء من بعض السحب فهو يستخدم السنن الربانية التى يتكاثف بها السحاب ويمطر، ولا يأتى بشىء من عند نفسه! ولقد جاءت الأخبار من أوربا (عام ١٣٩٦ من الهجرة الموافق لعام ١٩٧٦ من ميلاد المسيح) بأن الجفاف قد حل بأوربا بصورة لم يسبق لها مثيل منذ مائه وخمسين عامًا خلت، فاحترقت الزروع والأشجار، ومات منها الكثير، ونفقت الماشية، ووزعت المياه على الناس بالبطاقات فى بعض بلدان أوربا، ووقف الإنسان بكل علمه واختراعاته عاجزًا أمام هذا الأمر الربانى.

وبذلك يرده إلى الحقيقة، وهى أن الله هو المنشئ والصانع، وأنه إذا كان - سبحانه - قد يسّر للإنسان تسخير طاقات السماوات والأرض لعمارة الأرض وسكناها والاستمتاع بخيراتها، فكل ذلك من عنده - سبحانه - وبما أودع الإنسان من قدرة على التعرف على سنن الله التى يدير بها الكون، واستخدام هذه المعرفة لمنفعته. ولكن الإنسان بذاته لا يملك شيئًا! ولو شاء الله لجعل الزرع حطامًا بعد أن يبذل الإنسان كل جهد فيه! ولو شاء لجعل الماء النازل من السحاب أجاجًا لا يصلح للشرب(١)، ولو شاء كذلك لم ينشئ المادة التى تتولد منها الطاقة الحرارية التى يستدفئ بها الإنسان فأوجعه البرد أو قضى عليه!

كذلك يفرح الإنسان بما عنده من العلم ويحسب أنه من عند نفسه، وأنه مستغنٍ به عن الله، فيذكّره الله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فأدوات المعرفة هى أصلاً منحةٌ من عند الله، فضلاً عن أنها لا تؤدّي إلى المعرفة بذاتها، وإنما بما أودعها الله من قدرة على التعلم: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥].

ولو شاء الله لذهب بسمع الناس وأبصارهم وأفئدتهم فلا يقدرون على شىء! أو لو شاء لسلب قدرتهم على التعلم فلا يقدرون على شىء مع وجود السمع والأبصار!

كذلك يظن الإنسان أنه مستغنٍ عن هداية الله، أو أنه أعلم بأموره ومصالحه من الله!

والجاهلية المعاصرة أوضح مثال على ذلك، وإن كانت الجاهليات كلها - لسبب أو لآخر - تتنكب طريق الهداية الربانية.

يقول الإنسان لنفسه فى كل جاهلية، وفى الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة: إن لى عقلاً يفكر، فأنا أفكر بعقلى وأدبر أمرى كله بغير حاجة إلى هداية الله.

---

(١) إن مشيئة الله هى التى جعلت عملية البخر التى ينشأ منها السحاب والمطر تصعّد الماء العذب إلى السماء وتترك الملح فى جوف البحر، فينزل المطر من السحاب عذبًا صالحًا للشرب، ولو شاء الله لغيَّر سننه فجعل المطر ينزل أجاجًا كماء البحر فيموت الإنسان عطشًا. وإلى ذلك تشير الآية: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾.

ثم يكون من نتيجة ذلك كل الضلال والظلم والاضطراب الذى تعج به كل جاهلية، وهذه الجاهلية بصفة خاصة!

إن الإنسان الجاهلى حين يقول هذه القولة الضالة يغفل عن مجموعة من الحقائق:

١ ـ يغفل **أولاً** عن أن هذا العقل الذى يتيه به عجبًا هو موهبة من عند الله وليس كسبًا ذاتيًا من عند الإنسان! فواجب الشكر على هذه النعمة ذاتها يقتضى أن يرجع الإنسان إلى ربه فيما أمر به من منهج لاستخدام هذا العقل والاستفادة بطاقته، وقد رسم الله منهجًا للتفكر فى ملكوت الله يؤدى بالإنسان إلى معرفة الله الواحد الحق، وما ينبغى تجاه الله من عبودية وطاعة والتزام.

٢ ـ ويغفل **ثانيًا** عن أن الله منشئ هذا العقل ومانحه للإنسان قد جعل لطاقته حدودًا معينة لا يستطيع أن يتعداها، ثم كلفه ما يدخل فى طاقته، ولم يكلفه مالا يقدر عليه وما ليس من شأنه.

فهذا العقل ـ مثلاً ـ مهيأ للتعامل مع الكون المادى، واستنباط السنن التى يجرى بها الله هذا الكون (أى ما نسميه فى علم الفيزياء: خواص المادة)، واستخدام هذه المعرفة فى تسخير طاقات السماوات والأرض من أجل عمارة الأرض والاستمتاع بما فيها من متاع.

ولكنه ليس مهيأ لمعرفة الغيب مهما اجتهد ومهما حاول.

وليس قادرًا على الإحاطة بالأشياء كلها، وأوضح دليل على ذلك «العلم» ذاته، فهو يصف ما يستطيع معرفته من «ظواهر» الأشياء ولكنه لا يتعرض «لكنهها»؛ لأن «الكنه» خارج عن إدراكه! يتحدث مثلاً عن ظواهر الكهرباء ولكنه لا يعرف ما سرها. يتحدث عن خواص المادة ولكنه لا يتحدث عن المادة ذاتها، ولقد حللها إلى أبسط تكويناتها وهى الذرة، ثم حلل الذرة، فقال: إنها طاقة كهربية سالبة وموجبة ومتعادلة. ويبقى السؤال الذى لا جواب له عند العلم، ولا عند العقل: ما الطاقة ذاتها؟! سؤال لا إجابة له إلا هذه الإجابة: إنها شيء أودعه الله فى بنية هذا الكون فحسب!

فإذا كان هذا موقف العقل من الأشياء فكيف يكون هو الحكم فى الغيبيات التى

لا سبيل له إلى إدراكها، وفى الأمور التى يحتاج الحكم فيها إلى الإحاطة الكاملة بكل شىء؟!

٣ ـ على أن هذا الإنسان الجاهلى حين يقول هذه القولة الضالة يغفل عن شىء آخر شديد الأهمية (أو هو يغالط فيه فى الحقيقة)، وهو أن الذى يتحكم فى حياة الناس فى الجاهلية ليس هو العقل فى الحقيقة ولكنه الهوى والشهوات، سواء كان هوى فرد واحد أو مجموعة من الأفراد أو هوى كل الناس!

والجاهلية المعاصرة أوضح نموذج لذلك.

وإلا فأين مكان «العقل» عند الناس فى الفوضى الخلقية المتفشية اليوم فى أرجاء الأرض، وكل تجارب التاريخ تؤكد أنه ما من أمة فشت فيها الفوضى الخلقية إلا كان مصيرها إلى الانهيار؟!

وأين العقل عند الدول الكبرى وهى تنفق على أسلحة الدمار ما لو أنفقته فى شئون السلم ما بقى فى الأرض كلها جائع واحد ولا محتاج؟!

وأين ذهب العقل عن «الإنسان» كله فى هذه الجاهلية، وهو يرى نتيجة بعده عن الله: الاضطراب والحيرة والأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والضياع، ومع ذلك يصر على المضى فى طريق الغواية ويتنكب طريق الله؟!

كلا! إنه ليس العقل هو الذى يتحكم فى حياة الناس فى الجاهلية، ولكنه الهوى والشهوات.. ثم يزعم الإنسان لنفسه أنه فى غنى عن هداية الله!

على أن الجاهلية المعاصرة ـ وإن كانت أسوأ جاهليات التاريخ وأشدها عتواً ـ ليست هى النموذج الوحيد لضلال البشرية حين تبعد عن هداية الله. والتاريخ ملىء بالنماذج الصارخة على ذلك الضلال.

ففى الجاهلية الفرعونية كان الفرعون ـ وهو بشر يولد من أبوين بشريين ـ يعد إلهًا! وتصل به الجرأة على الله أن يقول على ملأ من الناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾! ويعبده الناس ويتقدمون له بشعائر العبادة!

وفى الجاهلية الهندية تعد البقرة إلهًا! ويتبرك الناس بالاستحمام من بولها المقدس!

وفى الجاهلية العربية ـ وغيرها ـ كانوا يعبدون أصنامًا ينحتونها بأيديهم ثم يقدمون إليها القرابين والصلوات!

وبالإضافة إلى هذه الضلالات التى تقع فيها الجاهليات فهنالك لون آخر من الشرك تقع فيه كل جاهلية حين لا تتحاكم إلى شريعة الله.

فحين لا يكون شرع الله هو المتبع فلابد أن يشرِّع البشر لأنفسهم، وعندئذ يصبح بعض الناس أربابًا لبقية الناس. فالذين يشرِّعون من دون الله ويحلون ويحرمون على هواهم يتخذون من أنفسهم أربابًا فى الواقع، ويستعبدون الناس بسلطانهم ويخضعونهم لأهوائهم. والآخرون عبيد لهذه الأرباب، ينفذون إرادتها ولا يملكون مخالفتها، لأنها تملك السلطة التى تخضعهم بها. ومن هنا يصبح الإنسان عبدًا لبشر مثله، بدلاً من أن يكون على وضعه الكريم الذى كرمه به الله: عبدًا لله وحده دون شريك.

وفضلاً عن ذلك فإن الفئة التى تشرع تضع التشريعات دائمًا لصالحها على حساب المستضعفين الذين يقع عليهم عبء هذه التشريعات دون أن ينالوا من خيراتها إلا الفتات. فحين كان الإقطاع سائدًا فى الأرض كان الإقطاعى هو السيد الذى يملك السلطة والباقون هم العبيد. وفى الرأسمالية يكون الرأسماليون هم السادة المسيطرون والعمال هم العبيد. وفى الشيوعية يكون الحكام ـ أعضاء الحزب الشيوعى ـ هم السادة المستمتعون بكل الخيرات وبقية الشعب هم العبيد. ولا يكون الناس أحرارًا إلا حين تكون شريعة الله هى الحاكمة فى الأرض. فعندئذ فقط يكون الحاكم والمحكوم سواء أمام القانون، لأنه قانون الله المنفذ على الجميع، لم يضعه فرد ولا طائفة لمصلحتهم الخاصة. ويكون الحاكم والمحكوم معًا عبيدًا لله على سواء، خاضعين لحكم واحد هو شريعة الله.

كذلك توجد دائمًا فى كل جاهلية ألوان من الاختلالات الاجتماعية والخلقية والنفسية والفكرية تنشأ كلها من الابتعاد عن منهج الله.

ففى الجاهليات القديمة نجد أمثلة مضحكة ومقززة فى ذات الوقت.

فقد كان المجرم فى الجاهلية الإغريقية يُعَدّ بطلاً إذا استطاع أن يرتكب جريمته ويفلت من العقاب! أما إذا لم يستطع الإفلات ووقع فى يد الشرطة فعندئذ فقط يعد مجرمًا يستحق العقاب...

وفى الجاهلية العربية كانوا يئدون البنات، وكان الرجل يرث عن أبيه كل شيء حتى زوجاته (غير أمه) فيصبحن جزءًا من الميراث!!

وفى بعض بلاد الهند والتبت كانت المرأة التى يموت عنها زوجها تدفن معه حية ولا يعد ذلك جريمة فى نظر الناس، وإنما يعد قيامًا بواجب الوفاء من الزوجة لزوجها!

وأما الجاهلية المعاصرة فلا تقل سوءًا إن لم تكن أسوأ! ونظرة سريعة إلى المجتمع البشرى المعاصر تكشف عن بشاعة ما فيه من اختلالات.

تقول الإحصاءات الأمريكية: إن نسبة الطلاق فى أمريكا تزيد على ٤٠٪ من مجموع الزيجات، ومعنى ذلك اضطراب أحوال الأسرة وعدم استقرارها.

وتقول إن مرض الجنون يفتك بعدد من أفراد الشعب الأمريكى يزيد على أى وباء آخر من الأوبئة الفتاكة. ومعنى ذلك أن نوع الحياة الذى تقدمه الجاهلية المعاصرة لا يتلاءم مع فطرة الإنسان ولا يسعدها.

وتقول: إن نسبة الجريمة فى ارتفاع مستمر، وإن وسائل الإعلام و«التليفزيون» بصفة خاصة من العوامل المؤثرة فى ارتفاع نسبة الجريمة.

وتقول: إن الجنوح الإجرامى عند الأطفال والمراهقين أصبح يشكل خطرًا على مستقبل الأمة، وإن من أهم أسباب هذا الجنوح غياب الأم عن البيت لانشغالها فى العمل، وعدم وجود من يرعى الأطفال وينشّئهم التنشئة الصالحة لأن المحاضن لا يمكن أن تغنى غناء البيت..

وهذا كله رغم الرفاهية الظاهرية التى يعيش فيها الشعب الأمريكى!

كلا، لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة سليمة بعيدًا عن الهداية الربانية.

وكل حياة البشر بعيدًا عن المنهج الربانى خلال التاريخ مصداق لهذه الحقيقة وشاهد عليها.

ولم يستطع العقل البشرى مرة واحدة أن يضع منهجًا متكاملاً خاليًا من العيوب.. وكلما أبرز التطبيق العملى عيبًا فى تلك المناهج البشرية حاول البشر إصلاحه بعيب جديد تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان.

ذلك أن وضع المنهج الصالح لحياة البشر يحتاج إلى جملة أمور يقصر عنها العلم البشرى.

أولاً: يحتاج إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشرى ذاته. والإنسان ـ على الرغم من كل العلم المادى الذى عرفه ـ ما يزال شديد الجهل بكيانه الذاتى، كما يقول «الكسيس كاريل» أحد المفكرين الغربيين، وهو بالتالى شديد الجهل بما يصلحه وما يصلح له(1).

ثانيًا: يحتاج إلى إحاطة كاملة بماضى الجنس البشرى وحاضره ومستقبله، والتجارب التى خاضها وأسبابها ونتائجها. وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان، لأن كثيرًا من أحداث الماضى مجهول له، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذى يعيشه، أما المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه.

ثالثًا: ثم إنه يحتاج إلى أن يكون واضع المنهج غير متحيز، لا مصلحة له فى أمر من الأمور، ولا هوى ولا شهوات. وهذا أمر لا يتوفر أصلاً فى الإنسان، الذى ينجذب دائمًا إلى مصلحته الذاتية (كما يراها من وجهة نظره وكثيرًا ما تكون خاطئة) وتحركه دائمًا الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 19ـ 22].

رابعًا: ويحتاج واضع المنهج إلى علم كامل بمن يطيعه فى السر والعلن، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع ومعاقبة من يعصى حتى يكون المنهج محترمًا ومطبقًا، وهذه الأوصاف لا تتوافر فى الجنس البشرى، فالإنسان لا يرى إلا فى حدود ما تبصر عيناه، ولا يسمع إلا فى حدود ما يبلغ سمعه.

---

(1) الكسيس كاريل طبيب وعالم فرنسى ألف مجموعة من الكتب فى شتى الأبحاث العلمية والاجتماعية، من أهمها كتاب بعنوان «الإنسان ذلك المجهول»، نص فيه على أن الحضارة الغربية تضع مناهج سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وتعليمية للإنسان وهى تجهل طبيعة ذلك الإنسان الذى تضع له هذه المناهج! ومن ثم تكون النتيجة هى الخطأ الدائم والاضطراب، وهذا هو السبب فى أننا نزيد تأخرًا وهمجية كلما ازددنا تقدمًا فى الظاهر. وقال: إن عجز الإنسان عن معرفة طبيعة نفسه هو عجز أصلى لا سبيل إلى التغلب عليه، وأنه لا مناص لنا من الرجوع إلى حكمة الخالق، لأن حكمتنا الذاتية قاصرة ومضللة!

أما الله عز وجل فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

والله عز وجل قادر على أن يجازي من أطاعه ويعاقب من عصاه على الدقيق والجليل، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومن ثمَّ فإن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتى إلا من مصدر واحد هو الله تعالى.

فالله هو الذى يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذى خلقه سبحانه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والله هو الذى يعلم كل شيء في حياة البشر ـ وفي الكون كله ـ علم إحاطة واطلاع: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

والله هو الذى شرع التشريع الحكيم لأنه هو الغنى القادر، وليس محتاجًا إلى شيء مما عند الناس وهو الواهب لهم كل شيء، وهو الذى لا يزيد فى ملكه أن يكون الناس كلهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص فى ملكه أن يكونوا على قلب أفجر رجل منهم كما يقول الحديث القدسى.

والهداية الربانية التى تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقها هو الرسل والرسالات.

ومن ثم تصبح الرسالة حاجة بشرية لاغنى عنها، ولا استقامة لحياة البشر بدونها.

وكما تكفل الله سبحانه وتعالى ـ رحمة منه بعباده ـ بكل ما يحفظ حياتهم من

الطعام والكساء والمأوى والعـقل المدبر المنظم، فقد تكفل ـ سبحـانه ـ كذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب لتستقيم حياة الناس فى الأرض.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

* * *

(٥) مهمة الرسل

* إن المهمة الأولى للرسل هى هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده.

ولقد قلنا من قبل: إن الفطرة البشرية بذاتها تعرف وجود الخالق وتتجه إليه بالعبادة. ولكنها كثيرًا ما تضل، فتتصور الخالق على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى. ومن ثم يرسل الله الرسل ليعرّفوا البشر بحقيقة خالقهم وينفوا من عقولهم ونفوسهم التصورات الباطلة عن الله سبحانه وتعالى وما يترتب عليها من انحرافات فى الفكر والسلوك، وليعالجوا بصفة خاصة قضية الشرك، وهى أشد ما يتعرض له البشر من انحراف فى تصورهم للخالق وسلوكهم نحوه.

يقول الرسل جميعًا لأقوامهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فالله سبحانه وتعالى واحد أحد: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص].

ومن ثم تنتفى كل بنوة لله أو قرابة لأحد من البشر أو الجن أو الملائكة مما تعج به خرافات الجاهلية، ما باد منها وما لا يزال باقيًا حتى اليوم.

كذلك ليس الله متمثلاً فى صنم أو وثن أو فى الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من الكائنات، فكلها مخلوق والله هو الخالق: ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٩].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وكذلك فإن الله لا يشرك فى حكمه أحدًا ولا يوزع اختصاصاته سبحانه على أحد من خلقه، ولا ينتزعونها هم منه قهرًا عنه!

﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

كما يقوم الرسل بتعريف البشر بإلههم بصفاته كلها وأسمائه الحسنى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ـ ٢٤].

فإذا عرف البشر ربهم على هذه الصورة، وانتفى كل وهم باطل عنه فى أذهانهم وفى مشاعرهم، بقيت القضية الثانية التى يضل البشر بشأنها فى جاهليتهم، وهى الطريقة الصحيحة لعبادة الله.

• العبادة الصحيحة:

إنَّ العبادة ليست فقط فى الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، ولا فى تقديم شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء لله وحده دون شريك، بل هناك أمر آخر:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

إنه لابد من اتباع ما أنزل الله، وإلا فقد بطلت العبادة ولم يصبح المعبود إلهًا واحدًا وإنما إلهين اثنين. واحد تُقَدَّم له شعائر التعبد، وواحد يشرع وتطاع تشريعاته من دون الله[1]:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

تلك هى المهمة الكبرى للرسل جميعًا صلوات الله عليهم وسلامه: أن يهدوا

(١) راجع ص ١٢٦ ــ ١٢٩ من الكتاب.

البشـرية لإلهها الواحـد، ويدلوهم على الطريقة الصـحيحـة لعبـادته، وبذلك تقوم حياتهم عـلى قاعدتها الصحـيحة: إفراد الله سـبحانه وتعالى بالألوهيـة والربوبية، وتوحيد العـبادة له فى الاعتقاد وشعـائر التعبد واتباع مـا أنزل الله من التشريع، أى الحكم بما أنزل الله.

* وتبعـًا لهذه المهمـة تجيء المهمـة الثانية وهى تعـريف الناس بالمنهج الحق الذى تستـقيم به حيـاتهم فى الدنيا وينالون به رضـوان الله فى الآخرة. وذلك بتـبليغ ما أوحى به الله إليهم، وشرحـه وبيانه، وتعريف الناس بطريقة تطبيـقه وتدريبهم على ذلك كما يفعل المعلم مع تلاميذه حتى يطمئنوا أن أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعيًا صحيحًا وطبقوه التطبيق الصحيح.

وهذه المهمة تحتاج منهم إلى الصبر والمثابرة وسعة الصدر لأنها ليست مجرد إلقاء دروس عابرة، ولا قـراءة من كتاب. إنما هى مـهمة التـعليم، بكل ما يشتـمل عليه التعليم من مشقات.

* ولا تقتصر مهمة الرسل على التعريف والتعليم، على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة فى حياة الناس، إنما تمتد إلى التربية. فليس دين الله معلومات تلقى ثم تحفظ. إنما هو سلوك عملى بمقـتضى التعليم الـربانى. والسلوك العملى لا يكتسب فـجأة، ولا يكتـسب بغيـر جـهد يبـذله المربِّى والمتلقى على حـد سـواء. المربِّى - وهو هنا الرسول - يبذل جهـده فى التوجيه والملاحظة والمتابعة والتذكـير والصبر الطويل على انحرافـات الناس حتى تستـقيم، وبذل النصح باللين والمودة حتـى تتقبله الـنفوس وتعمل بمقتضاه. والمتلقى يبذل الجهد فى ضبط أهوائه حتى تستقيم مع المنهج المنزل، ومقاومـة الشهوات التى تجنح به عن الطريق، ودفع وسـاوس الشيطان التى تزين له المعصية والبعد عن طاعة الله.

ومهمـة التربية من أشق المهام التى يقـوم الرسل بأدائها؛ لأن النفوس لا تسـتقيم على المنهج الصحيح بمجرد دعوتهـا إليه! حتى لو عرفت وآمنت بأنه هو الحق، وأنه هـو الأولى بالاتبـاع! ذلك أن فى الـنفـوس نزعات دائمـة التطلع إلى مـتاع الحـياة الدنيـا ولذائـذها، ويحـتاج ضـبطهـا داخـل حـدود الله التى يقـول الله عنهـا: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

يحتاج هذا الأمر إلى جهد ليس بالقليل، وإلى تذكير دائم بالله وخشية منه، لأن لحظة الغفلة التي ينسي فيها الإنسان ذكر ربه هي التي يتحينها الشيطان لينفذ منها إلى قلب الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ [طه: ١١٥].

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ ﴾ [النساء: ١١٧ـ ١١٩].

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ العُرُوق. . . .»(١).

(أ) ووسيلة الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ إلى تربية أتباعهم وتقويم نفوسهم حتى تستقيم على أمر الله وتتحصن من غواية الشيطان، تبدأ من ذات أنفسهم، بأن يكونوا هم أنفسهم القدوة في كل ما يدعون الناس إلى اتباعه.

سُئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ»(٢).

لذلك يختار الله أنبياءه ـ وهم صفوة الخلق ـ من ذوى الأخلاق العالية التي تكون نموذجًا للناس: ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨]. ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

(ب) إنها تحتاج إلى الصبر والحلم وسعة الصدر: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(جـ) تحتاج إلى التذكير الدائم بالله ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(د) وتحتاج إلى معايشة الناس ومصاحبتهم وملازمتهم لا العزلة والانقطاع عنهم، حتى تقدَّم لهم التوجيهات والتعليمات فى مناسباتها، وتتم الملاحظة والمتابعة المطلوبة التى لا بد منها حتى يستقيم الناس على الخلق المطلوب، وتكون هناك فرصة لبذر العادات الصالحة فى نفوسهم.

(هـ) وتحتاج إلى معرفة بطبائع النفوس ومداخلها لتقديم التوجيه المناسب لها بالطريقة التي تقوّمها ولا تنفرها: «أُمرتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»(١). «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَخَوَّلُنا بِالمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّآمَةِ»(٢).

* ومن مهام الرسل كذلك تعريف الناس بالقيم الحقيقية التى تستحق الاعتبار وتستحق أن يحرص الناس عليها ويسعوا إلى تحصيلها.

إن الناس بطبيعتهم منجذبون دائمًا إلى متاع الأرض: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤].

وهم يحتاجون دائمًا إلى من يرفعهم من ثقلة الأرض هذه ويبصرهم بالقيم العليا التى ينبغى أن يتجهوا إليها من صدق وإخلاص وأمانة وتضحية وكرم وشجاعة وإيثار وعدل، مما يليق بالإنسان الذى كرمه الله وفضّله وجعله خليفة فى الأرض وحمّله الأمانة الكبرى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهذه المهمة هى فى الحقيقة جزء من مهمة التربية التى أشرنا إليها من قبل ولكننا نفردها بالحديث لأهميتها، ولأن الرسل يخوضون صراعًا مريرًا من أجل تقريرها أولاً، ثم تربية فريق من الناس عليها.

---

(١) رواه الديلمى بسند ضعيف بلفظ «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

(٢) رواه مسلم.

فإن الذى يصد الناس عن الإيمان بالرسل بادئ ذى بدء هو حرصهم على متاع الدنيا الزائف وخوفهم من أن يحرمهم منه الإيمان بالله والحكم بما أنزل الله!

فأما الملأ فإنهم يكونون مستحوذين على سلطان باطل يستعبدون به الناس لأهوائهم ومطامعهم ويخضعونهم بالقوة لذلك السلطان. لذلك فإنهم يحاربون الرسل ويصدون عن دعوتهم، لأن هذه الدعوة تحرمهم من سلطانهم وطغيانهم برد الحكم لله ونزع حق التشريع من أيدى البشر ورده إلى الله الذى يشرع بالعدل بين الناس ويأمر به: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وأما العبيد فعلى الرغم من أن الرسول المرسل من عند الله يجيء لتحريرهم من العبودية للملأ، ورد إنسانيّتهم المسلوبة إليهم بجعلهم عبيدًا لله وحده الذى يستحق العبادة، لا عبيدًا لبشر مثلهم، يتحكمون فيهم بالهوى والطغيان.. على الرغم من ذلك فإن الغالبية منهم تصد عن الرسل فى مبدأ الأمر ولا تتبع هدايتهم.. وذلك لأنهم يكونون دائمًا غارقين فى الشهوات التى يأتى دين الله ليطهرهم منها، ولكنهم - قبل أن يهتدوا - لا يرون ذلك تطهيرًا وإنما يرونه - بنفوسهم المنحرفة - حرمانًا من لذائذ الأرض المتاحة!

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إبراهيم: ٢، ٣].

وهؤلاء الكفّار، والملأ بصفة خاصة، لا يتركون النبى المرسل يؤدى رسالته، بل يتعرضون له بالأذى الذى يصل أحيانًا إلى التهديد بالقتل أو السجن أو الطرد والنفى، بل يصل فى بعض الأحيان إلى التنفيذ، كما قتل النبى يحيى والنبى زكريا.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

﴿ قَالَ (١) لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وهنا - حين يتعرض الرسل لتلك المحنة - فإنهم - بسلوكهم العملى - يبرزون القيمة الحقيقية التى تستحق الحرص عليها والجهاد من أجلها.

لقد كانوا يملكون أن يتخلوا عن عقيدتهم وإيمانهم ويركنوا إلى المسالمة فينجوا من العذاب الذى يلقونه هم وأتباعهم والاضطهاد الذى يتعرضون له. أو كانوا يملكون فى القليل أن يحتفظوا بالحق الذى عرفوه فى دخيلة أنفسهم ويكفوا عن الدعوة التى تزعج الكفار والملأ بصفة خاصة، فلعلهم لا يتعرضون لهم إن بقوا مؤمنين فى ذات أنفسهم دون أن يدعوا أحدًا غيرهم إلى الإيمان!

ولكن الرسل جميعًا يأبون ذلك على أنفسهم. يأبون أن يشتروا بكلام الله ثمنًا قليلاً هو متاع الحياة الدنيا الزائل الزائف الرخيص. ويأبون أن يتخلوا عن دعوتهم حتى من أجل سلامتهم الشخصية وراحتهم.

بل إن الرسول ﷺ قد عُرِضَ عليه الملك والثروة والجاه والسلطان وكل مغريات الأرض فقال قولته الخالدة لعمه أبى طالب: «وَالله يا عَمِّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فى يَمِينِى وَالْقَمَرَ فِي شمالِى لأَتْرُكَ هَذَا الأمْرَ ما فَعَلْتُ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِى» أو قال: «حَتَّى أَهْلَكَ دُونَهُ»(٢).

وهنا يقررون - بصورة واقعية مشهودة - أن القيمة الحقيقية العليا هى الإيمان بالله، والدعوة إلى الله، والجهاد فى سبيل الله، وأن ذلك أفضل وأعلى وأغلى من متاع الأرض كله، ومن الذهب والسلطان.

عندئذ تتغيَّر القيم والمعايير فى حياة الناس.

فأما الأتباع الذين آمنوا فإنهم يرون رسولهم الذى اقتدوا به وآمنوا على يديه يصبر على الأذى فى سبيل عقيدته ويصر عليها ولا يتخلى عنها تحت أى ضغط من إغراء أو تهديد، فيقتدون به ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله كما استعلى سحرة فرعون بعد إيمانهم: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ

---

(١) فرعون لموسى.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (71) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٠-٧٣].

وأما بقية الناس فإنهم - تدريجيًا - يستيقظون من غفلتهم، إذ يرون قومًا من الناس يُهدَّدون فى أمنهم وراحتهم، وفى كل المتاع الذى يحرصون هم عليه ويرون أنه غاية الحياة كلها وأغلى ما فيها، ومع ذلك لا يتخلون عن إيمانهم وعن عقيدتهم. فيتعلمون أن هناك فى الحياة ما يحرص عليه أكثر من المتاع، وما يضحى من أجله بالمتاع. وذلك هو رضوان الله ومتاع الآخرة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ(1) لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وعندئذ يعدّلون معايير حياتهم ليرتفعوا كما ارتفعت تلك الفئة المؤمنة ويدخلون فى الإيمان.

وأما الذين أصروا على الباطل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورفضوا الهدى الربانى فأولئك مآلهم الدمار والبوار إما فى الآخرة، وإما فى الدنيا والآخرة معًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٣٠].

وهكذا تتقرر القيم العليا - فى ذروتها - من خلال الصراع الذى يخوضه الرسل وأتباعهم بين الحق والباطل، ويتميز النفع الحقيقى من الزيف: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) أى الحياة الحقيقية التى تستحق أن يحرص عليها والحاوية للمتاع الحقيقى.

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

* * *

(٦) أثر الرسل فى حياة الناس

الرسل أعظم الناس أثرًا فى التاريخ الإنسانى، ذلك لأنهم يحملون معهم الإصلاح الجذرى الذى يصلح النفس البشرية ويقومها. ولأنهم هم القدوة الصالحة لكل خير.

لقد كان فى تاريخ البشرية «قادة» كثيرون و«زعماء» و«مصلحون». ولكنهم ـ ما عدا القلة المؤمنة منهم ـ كانوا محدودى الأثر فى حياة الناس، ولا يعدو تأثيرهم ـ مهما عظموا ـ الجيل الذى عاشوا فيه، أو على الأكثر بضعة أجيال قليلة بعدهم.

والسبب فى ذلك واضح:

١ ـ فهم غالبًا ما يتصدون لحل مشكلة جزئية فى حياة أقوامهم. ويحلونها فى حدود البصيرة البشرية المحدودة الآفاق.

٢ ـ ثم إن أشخاصهم لا تخلو قط من انحراف من الانحرافات البشرية العديدة، ومن نقص وهبوط فى بعض الجوانب.

ولهذين السببين معًا يكون تأثيرهم ـ مهما عظم ـ محدود النطاق.

انظر إلى الزعيم السياسى ـ أىّ زعيم سياسى فى حياة البشرية ـ ما مهمته التى يسعى إلى تحقيقها؟

إن مهمته محصورة فى تجميع أمته من شتات. أو تخليصها من نفوذ أجنبى مسيطر عليها. أو السعى إلى تغليبها على الأمم الأخرى.

لكن، ما القيم والمعايير التى يبنى جهاده عليها، ويوجه أمته إليها؟

إنها ـ مهما كانت ـ قيم ومعايير محدودة لأنها مرتبطة بمتاع الأرض القريب، منقطعة عن الله والآخرة. ومن ثم فهى قيم هابطة وإن بدت مرتفعة فى أعين الناس فى فورة حماستهم السياسية التى يدفعهم زعماؤهم إليها! وستظل أخلاق الناس معوجة فى مجموعها وإن حسنت بعض جزئياتها، لأنها أخلاق محكومة بتلك القيم الأرضية المحدودة. وستظل النفوس فى انحرافها وإن ارتفعت مؤقتًا فى فورة حماستها، لأن الأهداف التى تسعى إليها أهداف لا تتعلق بأصل الوجود الإنسانى بقدر ما تتعلق بعارض من عوارض هذا الوجود. وقد يصلح العارض ويظل الأصل بعيدًا عن الصلاح.

لذلك تقرأ سيرَ الزعماء السياسيين فى تاريخ البشرية ـ غير القلة المؤمنة ـ وتبحث عما خلّفوا فى الأرض فلا ترى إلا آثاراً كالأطلال!

واقرأ سيرة أى قائد حربى من عظماء التاريخ . . فما المهمة التى قام بها وما الآثار التى خلفها؟

إن مهمته محصورة فى قيادة الجند وتوجيههم إلى القتال، والانتصار بهم فى أكبر قدر من المعارك التى يخوضونها.

نعم! ولكن فيم كانت الحرب ذاتها؟ لأى هدف خاضها، ولأى شىء انتصر بجنده فيها؟

أمن أجل الحق والعدل؟ أمن أجل تثبيت مثل أعلى وإقرار وجوده فى حياة البشر؟ أم من أجل الغلبة وتوسيع الرقعة الأرضية وشهوة السيطرة على الآخرين وإذلالهم؟ وفى أى شىء يختلف الغالب والمغلوب؟ أم إنهما سواء، كل منهما يتمنى أن يفتك بالآخرين لو استطاع؟!

ما سمعنا ـ فى غير القلة المؤمنة من قواد التاريخ ـ أن أحداً منهم قام من أجل مثل أعلى يريد إقراره فى الأرض، أو قيمة عليا يجاهد من أجلها، ليرفع من نفوس البشر ويقربهم إلى مستوى الإنسانية! إنما الذى يغلب عليهم هو شهوة الفتح وزهو الغلبة والمطامع الأرضية المتمثلة فى توسيع الرقعة وزيادة الثروة على حساب المغلوبين و«ويل للمغلوب»! كما قال واحد ممن يحسبون قادة فى التاريخ[1]، لأن الحرب ليست لها أخلاق! ولا قانون يحكمها إلا قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف!

لذلك تبحث عن آثارهم الباقية فى التاريخ فلا ترى إلا بعض البطولات الفردية فى القتال، ولكن لا تجد قيماً باقية. وحتى الإمبراطوريات الضخمة التى يكونونها على عهدهم سرعان ما تتفسخ وتنطوى لأنها لا تمثل «قيماً» إنسانية، إنما تمثل شهوات بشرية فحسب!

وانظر سير «المصلحين» الاجتماعيين . . . كيف يصلحون؟ وما آثارهم الباقية فى التاريخ؟

أغلبهم ـ فيما عدا القلة المؤمنة المهتدية بهدى الله ـ ذوو نظرات جزئية، تتفق مع

(١) هو الإمبراطور «غليوم» إمبراطور ألمانيا وأحد قادتها العسكريين.

جزئية التفكير البشرى وعدم قدرته علـى الإحاطة، فضلاً عن الجهل الأصيل بطبيعة النفس البشرية ودروبها ومنحنياتها، وما يصلحها وما يصلح لها!

أغلبهم يتناولون مشاكل اجتـماعية جزئية يجدونها قائمة فى مـجتمعاتهم دون أن يتعمـقوا إلى الأصول التى تنشأ عنها المشكلات، ثم يحلونها حلولاً جزئـية كذلك بغير تقويم شامل لنفوس البشر ذاتها التى ينشأ من انحرافها ما نشأ من خلل فى تلك المجتمعات. فضلاً عن التعسف فى مـعالجة الأمور فى كثير من الأحيان لما رُكِّب فى طبع الإنسان من عجلة: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ولرغبته فى أن يرى الثمرة السريعة فى عمره المحدود.

وكثيراً مـا يحدث ـ كما وقع فى قضيـة تحرير المرأة فى أوربا ـ أن «الإصلاح» لا يكون جزئيًـا وقاصراً فحسب، بل يكـون على حساب جوانب أخرى يـفسدها ذلك الإصلاح المزعوم ويخربها. فـرفع الظلم الواقع على المرأة الغربية، دون الرجوع إلى الحلول الصحيحـة المتضمنة فى المنهج الربانى، قد أدى ـ كمـا نراه اليوم ـ إلى إشقاء المرأة ذاتها بإنهاكـها فى العمل خارج البيت بالإضـافة إلى تكاليف الأسرة والأولاد، وتمزيق أعصابها بين أبنائها المتشبثين بها وبين مـقتضيات العمل فى الخارج، كما أدى إلى تحول المرأة إلى سلعـة فى السوق، رخيـصة الثمن لمن أراد، وذلك فـضلاً على الفساد الخلقى الذى ملأ المجتمع، وتـفسخ روابط الأسرة وضياع النشء الجديد الذى ليس له أمٌّ ترعاه وتربيه التربية الصحيحة.

وليس هذا هو النموذج الوحيد لضـلال «المصلحين» وتقديمهم للحلول التى تفسد أكثر مما تصلح. فإليك مثلاً آخر فى اتجاه آخر:

لقد قام «مـصلحون» ينددون بالظلم الواقع على العمال فى المجتـمع الرأسمالى، وينادون بضرورة رفع هذا الظلم وإصـلاح الانحراف، وكان كـلامهم صحيـحًا من حيث المبدأ بصـرف النظر عن صحة الأدلة التى يستـدلون بها أو عدم صحتـها، فإن الرأسماليـة نظام جاهلى منحرف، يقـوم على أساس المعاملات الربوية التى حـرَّمها الله، ويؤدى حتمًا إلى أن فريقًا قليلاً من الناس يظل يأكل الربا أضعافًا مضاعفة كما وصف القرآن، فيزدادون ثراء على حساب الكثرة المستضعفة التى تظل تهبط مواردها على الدوام وتتضاءل، فيقع عليها الظلم المتزايد، بينما الفئة القليلة تعيث فى الأرض فسـاداً بثرائها الفاحش تفـسد به الأخلاق، وتنتـهك به الأعراض، وتدوس به على

كرامة الآدميين. ويزيد الأمر سوءاً فى تلك المجتمعات الجاهلية أن هذه الفئة الطاغية هى التى تشرع ـ لأن تلك المجتمعات لا تتحاكم إلى شريعة الله ـ ومن ثَمَّ فإنها تضع التشريعات التى تضمن لها مزيداً من الثراء، وتوقع مزيداً من المظالم على المستضعفين!

فالرأسمالية انحراف جاهلى ظالم. هذا صحيح.

وقد قام «المصلحون» يندِّدون بمظالمه ويطالبون بضرورة إصلاحه.

ولكن كيف أصلحوه؟!

إنهم ـ وهم لا يتبعون منهج الله ولا يستمدون منه الحلول لمشاكلهم ـ لابد أن يخرجوا من مأزق إلى مأزق، ومن انحراف إلى انحراف.

لقد قالوا إن الملكية الفردية هى سبب الظلم كله فلنُلْغِ الملكية الفردية! ولنُنْشِئْ مجتمعًا بلا تملك! أما الذين فى أيديهم الملكية اليوم فلابد من إبادتهم بادئ ذى بدء، وجعل الملكية كلها فى يد الدولة ـ نيابة عن المجتمع ـ والدولة يشرف عليها الحزب الشيوعى الذى يعتنق هذه الأفكار!

لقد أصبح الناس جميعًا أجَرَاء للدولة، وهى التى تعيِّن لهم أعمالهم، وتحدد لهم أجورهم، وساعات عملهم، ومكان عملهم كذلك. وبالتالى لم يعد أحد يجرؤ أن يفتح فمه بكلمة نقد واحدة للدولة، وإلا فَـقَدَ عمله فمات من الجوع إن لم يتعرض للهلاك فى السجن والتعذيب والتشريد! وبعبارة أخرى أصبح الناس عبيداً على نطاق واسع، وأصبحوا من خوف الموت الحسى فى موت معنوى، تحت ضغط الحديد والنار والتجسس الذى يجعل الأب لا يثق بابنه والأخ لا يثق بأخيه!

وفى الوقت الذى استعبدت فيه الدولة الناس لقاء لقمة الخبز وعيش الكفاف، كان أعضاء الحزب الشيوعى الحاكم فى بحبوحة من العيش وترف لا يقل بذخًا عن الرأسماليين فى الغرب الرأسمالى!

وهكذا يفعل «المصلحون» الذين لا يستمدون من منهج الله.

* * *

أما «الفلاسفة» فلهم شأن آخر!

إنهم قوم يعيشون فى «الأبراج العاجية» كما يُقال! أى يعيشون فى عالم الأفكار المجردة فى عزلة عن الممارسة، وعزلة عن الناس.

إنهم ينظرون إلى المجتمع البشرى فيرون فيه مجموعة من العلل والانحرافات فيحللون أسبابها ويفكرون فى علاج لها، وبصرف النظر عن صحة تحليلاتهم أو فسادها وجدوى حلولهم أو عدم جدواها، فإنهم هم أنفسهم لا يقومون بتجربة عملية لها فى عالم الواقع. إنما هى أفكار. مجرد أفكار. عمل يتم كله فى داخل الذهن ولا يمتد إلى دنيا الواقع.

وقد يتوصل بعضهم بالفعل إلى نظرة عميقة شاملة، ودراية ـ نظرية ـ بالنفس البشرية وطبيعتها، ولكنهم ـ وهم بعيدون عن ميدان التجربة الواقعية، والاتصال المباشر مع الناس ـ لا يستطيعون أن يقدموا حلولاً واقعية قابلة للتطبيق، فيظل جهدهم محصوراً فى تقديم أفكار جميلة براقة، قد تعجب القارئ أو السامع لأول وهلة، ولكنها نادراً ما تحركه لعمل شىء فى عالم الواقع. فيظل المجتمع بعلله وانحرافاته على ما هو عليه، وتظل أفكار الفيلسوف البراقة مُثُلاً معلقة فى الفضاء! وتبحث فى التاريخ عن الآثار الباقية لهؤلاء الفلاسفة فلا تجد إلا تأثيرات فردية، ولا تكاد تجد مجتمعًا تحول عن طريقه أو قوّم انحرافاته نتيجة فِكْرٍ فكّر فيه فيلسوف! إلا أن يعتنق فكره قوم من الناس فيتحول فى نفوسهم إلى عقيدةٍ يقومون بالدعوة إليها والجهاد فى سبيلها، وعندئذ تؤثر ـ لا بذاتها، ولا بعمل الفيلسوف الذى فكّر فيها ـ وإنما بجهد الذين اعتنقوها ودعوا إليها. وكثيراً ما يتضح عند التطبيق أن أفكار الفيلسوف فى صورتها التى قدمها بها غير قابلة للتطبيق العملى، وأنها فى حاجة إلى تعديلات جوهرية أو صياغة جديدة ليمكن الاستفادة بها فى عالم الواقع.

* * *

أما الأنبياء فشأنهم مختلف.

١ ـ إنهم أولاً لا يتكلمون بأهوائِهِم ولا بتصوراتهم الخاصة، ولا بتصورات البشر القاصرة المحدودة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

لذلك فإن ما يدعون إليه الناس من قيم ومثل ومبادئ وأخلاق وسلوك عملى ليس متأثراً برؤيتهم الشخصية كالزعماء و«المصلحين»، ولا بمصالحهم الذاتية أو

أطماعهم أو أحقادهم (كما قامت الشيوعية على الأحقاد!) ولا بالقصور البشرى الذى يعجز عن الإحاطة، ومن ثم يعجز عن تقديم الحل الصحيح.

٢ ـ وهم ثانيًا ـ بالتوجيه الربانى ـ لا يتعاملون مع المشكلات الجزئية العارضة، إنما يتعاملون مع الجذور الأصلية العميقة. يتعاملون مع النفس البشرية مباشرة فيقوّمون انحرافاتها من الجذور قبل أن يتوجهوا لإصلاح المظاهر الخارجية للانحراف.

إنهم لا يعالجون المشاكل الاقتصادية منفصلة كما صنعت الشيوعية. ولا المشاكل الاجتماعية منفصلة كما صنع دعاة تحرير المرأة. ولا المشاكل السياسية منفصلة كما يصنع الزعماء السياسيون فى بلادهم.. فتكون الحلول كلها غير مجدية جدوى حقيقية لقصورها وجزئيتها، فضلاً عن إفسادها لجوانب الحياة الأخرى، لأن كل زعيم أو مصلح من هؤلاء حين يحاول علاج الجزئية الخاصة به يغفل عن آثارها فى الجوانب الأخرى، أو لا تهمه الجوانب الأخرى ـ وخاصة الأخلاقية والروحية ـ كما قال قائلهم: الاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق! والسياسة لا علاقة لها بالأخلاق!

أما الأنبياء المؤيدون بالوحى فلا يقعون فى هذا الخطأ الفادح الذى يقع فيه الزعماء و«المصلحون». إنما يعنون بتقويم النفس من أساسها، ثم يقدمون الحلول الشاملة التى يوحى بها الله إليهم لعلاج انحرافات المجتمع، فيقوم الإصلاح على أساس مكين من داخل النفس، فضلاً عن تكامل هذا الإصلاح المتمثل فى منهج شامل، لا يحل جزئية ويدع جزئية أخرى، كما أنه لا يحل جزئية على حساب جزئية أخرى. فلا ينشأ عنه الخلل الذى تتسم به مناهج البشرية الجاهلية.

٣ ـ ثم إن الحلول التى يقدمونها ـ بالتوجيه الربانى ـ ليست أفكارًا إصلاحية كأفكار الفلاسفة، وإنما هى مناهج عملية منزلة من لدن اللطيف الخبير الذى يعلم كل شىء عن النفس البشرية والمجتمع البشرى، ويعلم الطريقة الصحيحة التى تستقيم بها حياة البشر على الأرض: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٤ ـ والأنبياء بذواتهم هم القدوة الحية التى تتمثل فيها بادئ ذى بدء المبادئ والقيم

والأفكار التى يدعـون إليهـا. فالله سـبحانه وتـعالى يختـار أنبيـاءه ورسله من الأخيـار، ثم يصوغ نفوسـهم الصيـاغة التى تؤهلهم لحمل الحق الـذى يبلغونه للناس «أدّبَنى ربِّى فأحسنَ تأديبى»(١). فليس فيهم النقائص ونقط الضعف التى تعتـرى الزعماء والمصلحين من البشـر العاديين، والتى لم ينج منها زعـيم واحد ولا قائد ولا مصلح خـلال التاريخ البشرى كله. إنما يبـعثهم الله أنقيـاء أتقياء، طاهرين مطهرين، فيـكونون هم النموذج الذى يحتذى، ولا تقع الفرقـة ـ كما تقع دائمًا فى حياة المفكرين والمصلحين ـ بين ما يفعلونه وما يدعون إليه.

٥ ـ والأنبياء ليسـوا كالفلاسفة الذين يقدمون الأفكار وهم محـتجبون عن الناس فى أبراجهم العاجية. إنما هم يختلطون بـالناس ويدعونهم دعوة مباشرة إلى الأفكار والمبـادئ والقيم التى يحـملونها. وأهم مـن ذلك أنهم يربون أتباعـهم عليهـا. وذلك هو الجهد الحـقيقى الذى يبذله الأنبـياء ويؤتى ثماره فى واقع الأرض. إن الأفكار التى يحملونها لا تظل مُثُلاً معلقة فى الفضاء، إنما تتحول إلى واقع حى من خلال أشخاصهم أولاً، ثم من خـلال هذا الفريق من البشر الذين يربونهم. ومن ثم يصبح الأمر الذى يدعى الناس إليه واقعًـا مشهودًا يعرف الناس صورته الواقعيـة، فيقبلون عليه حين يرون ثمـاره الجميلة متمـثلة فى واقع بشرى يرونه أمام أعينهم.

٦ ـ ثم إن الوسيلة الحقـيقية العظمى التى يسلكهـا الأنبياء فى إصلاح الحيـاة البشرية وتقـويمها هى ربط القـلب البشـرى بالله، يتطلع إليـه ويخـشاه. وتلك أفـضل الوسـائل فى الإصلاح وأبعـدها أثرًا فى واقع الحـياة. وذلـك قبل اللجـوء إلى الوسائل الأخـرى كلّها التى تستخـدم عادةً فى تنظيم الحياة البـشرية. ومن أجل ذلك يكون بناؤهم راسخًا شديد الرسوخ لأنه يعتمد على عنصر أصيل عميق فى داخل النفس. بينما لا تملك النظم الأخرى كلها ـ التى تقوم على مناهج البشر ـ إلا أن تغرى الناس بالمنافع والمصالح أو ترغمهـم بقبضة السلطان. ومن ثم تنهار تلك النظم بمجرد أن تنـتهى المنافع والمصالح أو تضـعف قبضـة السلطان. بينما يبقى البناء الذى يبنيه الأنبياء على مدار التاريخ راسخ الأركان.

(١) سئل شيخ الإسلام ابن تيـمية رحمه الله عن هذا الحديث فقال: «الحـمد لله، المعنى صحيح لكن لا يُعرف له إسناد ثابت». وقد أورده السيوطى مرويًا عن ابن مسعود.

٧ - وكما ينفرد الرسل بمنهجهم الإصلاحى الشامل - الموحى به من عند الله - وبالطريقة التى يثبتون بها دعائم هذا المنهج فى واقع البشر عن طريق القدوة والتربية، فإنهم ينفردون كذلك بالعلم النافع الذى يقرب من الله وينجى من عذابه يوم القيامة.

إن «المصلحين» جميعًا - فيما عدا القلة المؤمنة منهم - لا يوجهون البشر إلا إلى النفع القريب الحاصل فى الحياة الدنيا، ولا يوجهونهم أبدًا إلى الله واليوم الآخر!

إن آفاقهم محصورة فى الحياة الدنيا، بحكم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، لذلك فإن توجيهاتهم لأقوامهم لا تخرج عن نطاق آفاقهم المحدودة، كما أنهم - بحكم بشريتهم من ناحية، وبعدهم عن الإيمان بالله من ناحية أخرى - يوجهون أقوامهم إلى الالتفاف حول أشخاصهم، أو - فى أفضل الأحوال - حول مبادئهم وقيمهم المحدودة الآفاق.

وهذا العلم الذى يعلّمونه لأقوامهم عن طريق توجيهاتهم ومناهجهم قد يكون مفيدًا فى الحياة الدنيا (على فرض خلوه من العيوب وهو عادةً لا يخلو منها!) وقد يعطى الناس بعض ما يشتهونه فى الحياة الدنيا من متاع يتمثل فى المآكل والمشرب والملبس والمسكن والسلامة والصحة والرفاهية والمال والأولاد...

ولكنه - على فرض خلوه من النقائص والعيوب والانحرافات. وتحقيقه لمصالح الناس فى الأرض[1] - فإنه ينتهى بأصحابه إلى البوار، لأنهم كما وصفهم القرآن: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

إن حياة الإنسان لا تنتهى بانتهاء الحياة الدنيا، وإنما تنتهى مرحلة منها فحسب، وتبدأ مراحل أخرى تنتهى بالبعث والنشور، والامتحان الذى يكرم المرء فيه أو يهان، فيصل إلى النعيم الخالد أو العذاب المقيم.

ولو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف لصحت دعوى أولئك المصلحين فيما

(١) رأينا من الواقع التاريخى، والتاريخ المعاصر بصفة خاصة، أن هذا لا يتحقق بتمامه أبدًا فى واقع البشر. فمن ناحية ينقسم الناس فى الجاهلية دائمًا إلى سادة وعبيد، ومن ناحية أخرى تتحقق بعض المصالح دائمًا على حساب المصالح الأخرى، وتصلح بعض الأمور بفساد أمور أخرى! ولكننا نفترض هذا جدلاً.

يدعون إليـه من ألوان «الإصلاح»! وإن كانت فـى واقع الأمر لا تحقق كل مـصال
الناس وتورث كل جيل مفاسد الجيل الذى قبله!

فكيف والحـياة التى يحيـاها الناس على الأرض هى أقـصر مراحلهـا؟! سنوا معدودة هى سنوات العمر المحدود، وبعـد ذلك من الآماد ما لا يحصيه إلا الله! بعد ذلك الخلود!

ألا إنه هو الخسران المبين حين ينحصر تفكير الناس فى الحياة الدنيا، ولو أصلح كل أمـور الحياة الدنـيا واسـتمتعـوا فيها بكل مـا يشتهون ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَا سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ [الشعراء: ٢٠٥ـ ٢٠٧] فكيف وهم لا يصلحون كل أمـور الأرض؟ وكيف ونه الأرض دائمًا مشوب، وأقل عيوبه القلق الدائم عليه من تقلب الأحوال، وهى دا تتقلب، ومن الموت وهو لابد أن يجىء؟!

إنهـا الخـسـارة المضاعـفـة.. فى الحياة الدنيـا وفى الحيـاة الآخرة: ﴿ وَمَا ه الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [العنكبوت: ٦٤].

لذلك فكل علم الأرض لا ينفع، إذا انقطع بالإنسان عـن الله واليوم الآخر. العلم النافع هو الذى ينفع الناس فى دنياهم وآخـرتهم معًا، فيحقق لهم مـصالح الحقـيقيـة فى الدنيا، ويصل بهم إلى دار الأمـان فى الآخرة: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٢، ١٠٣].

العلم النافع هو المعرفة اليـقينية بالله واليوم الآخر، واتباع مـا أنزل الله فى ا الدنيا. هذا هو الذى يضمـن للناس حاضرهم ومستـقبلهم. فأما حاضـرهم فيه ويستقيم باتباع المنهج الربانى، وأما مستقبلهم فيصلح بدخول الجنة التى وعد الله المتقين من عباده، الذين آمنـوا به فى الحياة الدنيا واستقامـوا على أوامره وانتهوا نواهيـه. وعندئذ يكون العلم الأرضى كلـه ـ من طب وهندسة وعـلوم ورياضي

وكيمياء وفيزياء.. إلخ ـ محققًا الفائدة لأنه يعين الناس على تحقيق المنهج الربانى ولا يفتنهم عن الآخرة. وإلا فإنه ـ هو ذاته ـ يصبح علمًا ضارًا إذا استخدم فى تزيين الحياة الدنيا بحيث تفتن الناس عن عبادة ربهم الحق، وتنسيهم ثواب الله وعقابه، وتغرقهم فى ضلال الشهوات.

وهذا العلم النافع ينفرد به الأنبياء والرسل لأنهم يتلقونه تلقيًا مباشرًا من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحى، ويؤمنون به إلى درجة اليقين، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلح دنياهم وآخرتهم.

أما الدعاة الآخرون و«المصلحون»، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فإنهم يرفضون هذا العلم النافع ابتداء، فكيف يعلمونه للناس؟ ويستنكفون عن عبادة الله فكيف يدعون إلى عبادته؟

وبالعلم النافع وحده صلحت أحوال الناس خلال التاريخ، واستخدم العلم الأرضى فى ظله فى نفع الناس وفى الخير. ويغير هذا العلم ـ الذى تفرد به الأنبياء والرسل، ودعا به الدعاة المؤمنون من بعدهم ـ ظل العلم الأرضى ينفع ويضر، ويزداد ضرره على نفعه على مر الأجيال، حتى يصبح فى الجاهلية المعاصرة كما نراه اليوم: أداة للإفساد والتدمير أكثر مما هو أداة للإصلاح والتعمير!

* * *

(٧) فضل الرسل على تقدم البشرية

حين نتحدث عن تقدم البشرية يتبادر إلى ذهن البعض منا - بتأثير الجاهلية المعاصرة - أننا سنتحدث عن التقدم المادى من سيارات وطائرات وما إليها من الوسائل والأدوات. . !

ولا ينبغى أن يظن هذا الظن من ينظر إلى الأمور نظرة عميقة ونظرة جادة!

فالتقدم المادى جانب من التقدم البشرى، نعم، مهمّ وضرورى، ولكنه ليس هو الذى يضع الإنسان فى مكانه من سلم الرقى «الإنسانى». إنما الذى يضعه فى ذلك المكان هو مقدار ما يشتمل عليه من القيم والمبادئ «الإنسانية» تصوراً وسلوكاً، وفكراً ومشاعر. ولنعقد موازنة سريعة تحسم لنا الحكم فى هذه القضية: هل مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم أفضل فى المقياس الإنسانى أم المجتمع الغربى المعاصر بما يعج به من مفاسد ومظالم واضطرابات وانحرافات؟

أيهما أقرب إلى صورة الإنسان «فى أحسن تقويم» كما خلقه الله وكما أراده أن يكون: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤- ٦].

أيهما أحب إلى الله وأحب إليك: ذلك الصحابى الجليل فى تقواه وورعه، وصدقه، وأمانته، ونظافة سلوكه ونظافة مشاعره، وعدله واستقامته، وتواضعه لله عز وجل مع ترفعه عن السفاسف والدنايا، وشجاعته فى الحق، وحرصه على الموت فى سبيل الله والعقيدة التى يعتنقها، وفى سبيل تحرير الناس من عبادة العباد وعبادة الشهوات إلى عبادة الله الواحد بلا شريك. . أم ذلك الغربى المنتفش بما لديه من علم ظاهرى، المتجبر فى الأرض بما لديه من إمكانات مادية، الهابط فى حمأة الشهوات، المتردى فى تعامله مع نفسه وتعامله مع الآخرين إلى عالم الحيوان: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥].

حقيقة أن المسلمين - بعد أن استقر لهم أمر الدين، ومكنوا فى الأرض - قاموا يسعون إلى تحصيل العلم الأرضى والتقدم المادى، وبلغوا فيه شأواً لم يبلغه غيرهم فى وقتهم، شعوراً منهم بأن هذا واجب عليهم للقيام بعمارة الأرض بالحق كما أمرهم الله. . ولكن ظل المقياس الذى يقيسون به حياتهم هو المقياس «الإنسانى» لا

المقياس المادى. المقياس الذى وضعه الله العليم الحكيم لتقويم «الإنسان»، لكى يكون «فى أحسن تقويم» منفرداً بين خلق الله بالخلافة فى الأرض وحمل الأمانة الكبرى التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

فحين نتحدث عن تقدم البشرية فإنما نتحدث عن تلك القيم والمبادئ التى تجعل من الإنسان إنسانًا بصرف النظر عن حظه من التقدم المادى: كيف يتعامل مع ربه؟ كيف يتعامل مع نفسه؟ كيف يتعامل مع الآخرين؟

وفى هذا المجال ـ وهو مجال الحياة الأصيل فى الحقيقة ـ نجد أن الفضل الأكبر هو للأنبياء والرسل قبل كل الخلق، لأنهم هم ـ بما أوحى إليهم ربهم، وبما جاهدوا فى سبيل الله ـ هم الذين قرروا تلك المبادئ والقيم فى واقع الأرض، وجعلوها حقيقة واقعة فى عهدهم، وتراثًا يُتَنَاقل من بعدهم.

ونستطيع أن نقول فى اطمئنان إن كل ما عرفته البشرية من خير حقيقى مرجعه إلى الوحى الربانى الذى حمله الرسل ودعوا إليه، ووثّقوا وجوده الواقعى فى الأرض بجهادهم، وإن كل ما أصاب البشرية من شر كان سببه الانحراف عن تعاليم الرسل وعدم الاقتداء بهم. وحين يختلط الحق بالباطل كما هو اليوم، ويختلط الخير بالشر كما يحدث فى كل جاهلية، يكون ما بقى من الخير فى الأرض ـ أيًا كان مقداره ـ راجعًا إلى الأنبياء والرسل، وما فيها من الشر راجعًا إلى الناس.

إن كل ما تتشدق به البشرية اليوم من الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة مستمد ـ فى أصله ـ من تعاليم الرسل، مع فارق واحد: أنه كان على يد الرسل حقيقة واقعة، ربّوا عليها أتباعهم، وجعلوها سلوكًا واقعيًا فى حياتهم، وهى على يد الأفّاقين اليوم كلام جميل يخدع به الناس دون أن يكون له رصيد من الواقع!

وإن الفترات المشرقة فى تاريخ البشرية كله هى الفترات التى سادت فيها تعاليم الرسل وكانت واقعًا يعاش بالفعل ولا يكتفى بأن يردد بالقول.

وتلك الفترات هى فترات الحضارة الحقيقية والمدنية الفاضلة، وما عداها فهو حضارات جاهلية زائفة، يختلط فيها الخير بالشر، ثم يظل الشر يتزايد حتى يصبح

هو الغالب على حياة الناس، ويظل يأكل ما بقى من خيـر متضائل حتى ينهار البناء كله على من فيه كما يوشك أن يحدث اليوم.

ولن ينقـذ البشـرية من الدمار اليـوم ـ ولا فى أى يوم ـ إلا أن تعود إلى تعـاليم الرسل تطبقها فى واقع حياتـها، وإلا أن تعود مسلمة إلى ربها: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* * *

(٨) مهمة التعليم الأساسية

إن مهمة التعليم الأساسية هى تربية الناس على تلك القيم والمبادئ التى جاء الرسل ليحققوها فى واقع الأرض، قبل أن تكون هى إعطاء المعلومات وتكثيفها فى أذهان الناس.

إن البشرية لا تتقدم بحشو المعلومات فى أذهان الناس، ولا بتحويل هذه المعلومات إلى سيارات وطائرات، وأدوات للمتاع الأرضى، أو إلى قنابل ومدمرات!

إنما تتقدَّم - كما رأينا فى الفقرة السابقة ونحن نتحدث عن فضل الرسل على تقدم البشرية - بالقيم والمبادئ «الإنسانية»، على أن تكون واقعًا عمليًا لا كلمات تلاك فى الأفواه بغير رصيد من الواقع.

والسبيل إلى بذر تلك القيم والمبادئ هو التعليم[1].

وكما كان الرسول ﷺ هو المعلم الأول، بعد الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكان هو المربى الأكمل، فمهمة المعلم كذلك أن يكون هو القدوة لتلاميذه فيما يربيهم عليه من مكارم الأخلاق وأن يهتم بتربيتهم عليها، ولا يكتفى بتلقينهم المعلومات وتدريبهم على الخبرات، فأيًا كانت قيمة تلك المعلومات والخبرات فهى وحدها لا تصنع «إنسانًا» ولا تحرك البشرية إلى عمل واحد من أعمال الخير. إنما الذى يحركها إلى عمل الخير هو إيمانها بالقيم العليا والمبادئ الإنسانية. والمدفع هو المدفع، ولكنه فى يد المؤمن أداة لتمكين الحق فى الأرض وإقامة العدل الربانى فى حياة الناس، بينما هو فى يد الكافر أداة للبغى والظلم والطغيان فى الأرض بغير الحق. وكذلك كل ثمار «التقدم العلمى» هى أدوات يمكن استخدامها للخير كما يمكن استخدامها للشر. والذى يحدد وجهتها وغايتها هو القيم الكامنة فى قلب من يستخدمها.

من أجل ذلك كانت المهمة الأولى للتعليم - قبل إعطاء المعلومات وتكوين

---

(١) التعليم فى المصطلح الإسلامى يعنى التربية أساسًا، ويشمل المعلومات كذلك، وليس مقصورًا على إعطاء المعلومات والخبرات كما هو الشائع فى كلام «التربويين» اليوم. ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ومن الحديث قوله ﷺ: «وأعوذ بك من علم لا ينفع» أى لا يقرِّب من الله.

الخبرات ـ هى تكوين هذا القلب الذى سيستخدم المعلومات والخبرات، لكى يستخدمها للخير لا للشر، يستخدمها لنفع البشرية لا لضررها.

وتكوين القلب إنما يكون بتأديبه بأدب النبوة، فذلك هو السبيل إلى الارتفاع به حتى يصبح (فى أحسن تقويم)، إذ الأنبياء ـ وإمامهم رسول الله ﷺ ـ هم صفوة الخلق، وهم القدوة فى مكارم الأخلاق. فإذا تأدب الإنسان بأدبهم فى الأمانة والصدق، والاستقامة والعدل، ونظافة الظاهر والباطن، المستمدة كلها من تقوى الله وخشيته، فقد تجمّع له الخُلُق الفاضل، وتحققت به الغاية التى سعى الرسل لتحقيقها. ومن ثم صار «إنسانًا صالحًا» كما يريده الله، وتحقق به وعد الله فى الدنيا والآخرة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وبعبارة أخرى فإن مهمة التعليم الأساسية هى تكوين الإنسان العابد لله، بالمعنى الواسع الشامل للعبادة، الذى يشمل الاعتقاد والعمل. يشمل شعائر التعبد وعمل الصالحات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وهذا الإنسان العابد لله ـ بالمعنى الشامل للعبادة ـ هو الذى يقيم المدنية الفاضلة. هو الذى يعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى. هو الذى يقيم العدل الربانى بين الناس. هو الذى ينتصر للحق. هو الذى يجاهد فى سبيل تحقيق المثل العليا، وتحويلها إلى واقع حىّ ملموس.

* * *

(٩) جناية النزعة المادية الإلحادية

إنَّ الجناية الكبرى للنزعة المادية الإلحادية الشائعة اليوم فى الجاهلية المعاصرة هى حرمانها للبشرية من الاهتداء بالمنهج الرباني والاقتداء بهدى النبوة. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

لقد قطعت تلك المادية الملحدة ما بين الناس وبين الله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وأوصدت قلوبهم عن الاستماع لوحى الله، بل أنكرت الرسالات والرسل أصلاً، بل لجت فى غيها إلى إنكار وجود الله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

واستكبروا فى الأرض بغير الحقّ واستنكفوا عن عبادة الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وماذا كانت نتيجة ذلك الاستكبار بالباطل، والبعد عن هداية الله؟

كانت النتيجة أن الشيطان أصبح هو المعبود فى الأرض بدلاً من الله!

إنّ دعاة المادية الملحدة قد أوهموا الناس أن الإنسان حين يُلقى عنه عبادة الله سيصبح سيد نفسه، ويصبح هو الله! (نستغفر الله)[1] فماذا صار فى الحقيقة؟

صار الناس عبيداً للطغاة بصورة لم يشهدها التاريخ، سواء طغاة الرأسمالية فى الغرب أو طغاة الشيوعية التى قامت فى الشرق.

---

(١) يقول أحد كتابهم الملحدين - وهو جوليان هكسلى - فى كتاب «الإنسان فى العالم الحديث»: «لقد تعلم الإنسان وأصبح مسيطراً على البيئة ولم يعد جاهلاً بالكون ولا عاجزاً عن السيطرة على طاقاته كما كان من قبل، ومن ثم فقد آن للإنسان أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل - فى عصر الجهل والعجز - على عاتق الله، ويصبح هو الله»! وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧].

وصار الناس عبيدًا للآلة، هي التي تحركهم وتسيرهم وتكيّف أفكارهم ومشاعرهم.

وصار الناس عبيدًا للشهوات، تملكهم ولا يملكونها، وتدمر حياتهم ولا يستطيعون استنقاذ أنفسهم منها: سواء شهوة الجنس أو الخمر أو المال أو السلطان!

وبعبارة موجزة أصبح الإنسان ـ كما قلنا ـ عبدًا للشيطان!

فأين هي الكرامة التي استمتع بها الإنسان حين نزع عنه العبودية لله؟!

إن العبودية لله هي التي تمنح الإنسان كرامته وعزته ورفعته وحريته، لأنها عبودية كريمة لإله كريم هو الذي تفضل على الإنسان بالكرامة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهو الذي منح المؤمنين به العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وبث فيهم الاستعلاء بالإيمان: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وحررهم ـ بالإيمان به والعبودية له وحده ـ من الذلة لبشر مثلهم أيًا كان وضعه في الأرض، أو لقوة أو لجاه أو لسلطان!

فما الذي منحهم إلههم الجديد حين عبدوه من دون الله؟!

منحهم الذلة للطغاة والعبودية للشهوات..

إنه على قدر الإله الذي يعبده الإنسان يكون موضع الإنسان ذاته! فحين يعبد الله الحق يكون في موضع الكرامة والرفعة، وحين يعبد آلهة من دونه يكون في موضع الذلة والهوان..

ومن ناحية أخرى كيف صار الإنسان حين ابتعد عن المنهج الرباني الذي هدت النبوة إليه؟

كيف صارت أخلاقه، وكيف صارت أحواله؟

أما أخلاقه فيكفى شاهدًا عليـها تقطُّع روابط الناس، والعزلة الفردية الأنانية التى يعيشون بها، وغلبة المنافع المادية عليهم ـ أفرادًا أو شعوبًا أو دولاً أو تكتلات ـ ولو خالفوا فى سبيل الوصول إليها كل القيم والمبـادئ والأخلاق (وخذ قضايا الاستعمار والتميـيز العنصرى نماذج «للأخلاق» المعاصـرة، وخذ كذلك قضيـة فلسطين!) كما يكفى شاهـدًا عليها التـبذل المسفّ فى الإباحـية الجنسـية التى تباح فـيهـا الأعراض وتختلط فيها الأنساب. وتموت فيها النخوة بالصدور، وينقلب فيها الإنسان كالحيوان المسعور.

وأما أحواله فيكفى شـاهدًا عليها الاضطرابات النفسية والعـصبية والجنون والقلق والانتحار، ومحاولة الهروب من الواقع بالإدمان على المسكرات والمخدرات.

ويكفى شاهدًا عليـها معدل انتشار الجـريمة، وهو معدل يتزايد باسـتمرار، ويقل بتزايده أمن الناس وطمأنينتهم وشعورهم بالاستقرار.

ويكفى شاهدًا عليها الظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى الواقع على جمهرة أهل الأرض،تحت أسماء براقة من الديمقراطية والاشـتراكية والعدالة والحرية والإخاء والمساواة!

وأخـيرًا يكفى شـاهدًا عليـها شـبح الجوع الذى يخـيم على أرجـاء واسعـة من الأرض، وشبح الحرب والدمار الذى يخيم على الأرض كلها بلا استثناء.

تلك هى حصيلة التخلى عن منهـج الله، والابتعاد عن هدى النبوة الذى أرسلت به من عند الله.

وتلك هى جناية المادية الملحـدة على البـشرية، حين قطعت مـا بينها وبين ربـها وأوصدت فى وجهـها طريق الهداية الربانية وصـدتها عن الاهتداء بالهداة الحقـيقيين الذين يحملون العلم النافع ويهـدونه إلى البشرية، ويقودونهـا به فى طريق الصلاح الحقيـقى والفلاح الحقيقى، الذى يصـلح الأمور فى واقع الأرض ويؤدى فى الآخرة إلى رضوان الله والنجاة من النار. .

(١٠) صفات الرسل

١ - بشريتهم:

كل الرسل الذين أرسلوا من عند الله لـلناس كانوا بشـراً، وكانوا ينطقـون بلغة أقوامهم الذين أرسلوا إليهم.

ولله فى ذلك حكمة كانت تخفى على الجـاهليات التى بُعِث إليها أولئك الرسل ولكنها لا تخفى على من يتدبر الأمر ببصيرة.

لقد كـانت الجاهليات تأخذ الأمـر من جانب التكذيب لا من جانب التـصديق. ولذلك كانت الحكمة تخفى عليها!

كانوا يكذّبون ابتداءً بالوحى، ويعتبرونه شيـئًا غير قابل للتصديق! ثم يبنون على ذلك تصورات خاطئة من عند أنفسـهم. كانوا يقولون: إنه لا يمكن أصلاً أن يوحِيِ الله إلى واحد من البشر بشيء! ذلك أن تصورهم لقدرة الله ناقص ومحدود: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وتصورهم كذلك للطاقـة البشرية محصور فى نطاق ذواتهم فـحسب. ولما كانوا هم لا يتلقون وحيًا ولا يخطر فى بالهم أن يتلقوا شيئًا من الوحى قط، فهم يقيسون كل البشر على أنـفسهم، فيقـولون: إنه لا يمكن أن يتنزل الوحي على أى واحد من البشر على الإطلاق! ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا(1) ﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(2) ﴾ [ص: ٤].

ثم يرتّبون على هذه الاسـتحالة تصوراً آخـر خاطئًا، فيقـولون: إنه إذا كان الله يريد فعلاً أن يصنع هذه العجيبـة الخارقة وهى تنزيل الوحى، فلابد أن يكون كل ما

---

(١) من العجيب الذى يلفت النظر أن هذه التـصورات الجاهلية ما تزال تتردد بذاتهـا فى كل جاهلية حتى جاهلية القرن العشرين!

(٢) ذلك بالإضافة إلى الحسد الشخصي: ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٥]. ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

يتعلق بهذه الظاهرة عجيبًا وخارجًا عن تصور البشر. ومن ثم فلا يجوز - فى نظرهم - أن يتنزل هذا الوحى على واحد من البشر لأن الكيان البشرى شىء عادى ومألوف، فلا يتناسب معه ذلك الشىء غير المألوف وهو الوحى! إنما الذى يتناسب معه - فى وهمهم - هو عجيبة أخرى خارقة، هى نزول ملك من السماء يتنزل عليه الوحى، أو - فى القليل - يكون مع الرسول الذى يتنزل عليه الوحى ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ[1] مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨].

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وهكذا نرى ضلال الجاهليات من خلال تصوراتها الضالة عن قدرة الله وحدود الطاقة البشرية، يعميها عن حكمة إرسال الرسل من البشر دون الملائكة.. ولو قدروا الله حق قدره وعرفوا أن قدرة الله ليست محدودة بحدود تصورهم الضيق، وإنما هى قدرة بغير حدود: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

ولو عرفوا أن الطاقة البشرية ليست محصورة فى نطاق ذواتهم ولا فى نطاق علمهم، وأن هناك جوانب من النفس البشرية تخفى على العلم وإن بدت آثارها واضحة كظاهرة التفكير والتذكر[2]، وجوانب أخرى أشد خفاء لا يكاد الإنسان يعرف لها كنهًا كظاهرة التخاطر عن بُعد[3]، وأن الله يصطفى أفرادًا من البشر فيمنحهم القدرة على تلقى الوحى بأجهزة خاصة فى داخل نفوسهم دون أن يخرجهم ذلك عن حدود بشريتهم.. لو عرفوا ذلك كله ما عجبوا أن جاءهم منذر منهم، وما استنكروا هذا الاستنكار فقالوا: أبَعثَ الله بشرًا رسولاً؟! وما طلبوا هذا الطلب الساذج: لولا أنزل عليه ملك؟!

لقد غفلوا فى طلبهم ذلك عن عدة أشياء:

---

(١) قوم نوح عليه السلام.

(٢) لا يعرف العلم كيف تتم عملية التفكير ولا عملية التذكر مع أنها تحدث فى كل يوم وكل ساعة.

(٣) أى تبادل الخواطر أو الأحاسيس عن بعد، أو الإحساس مقدمًا بأن شيئًا سيقع أو أن شخصًا سيحضر. وهناك شواهد يومية تقع فى حياة الناس تؤكد وجود هذه الظاهرة.

(أ) أن الملائكة لا يمشون في الأرض مطمئنين كالبشر، لأنهم لم يخلقوا لسكنى الأرض! ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

(ب) أن الملك لو نزل على الأرض فلابد له أن يتخذ صورة البشر، عندئذ لا يستطيعون أن يتعرفوا على حقيقته الملائكية، ولا أن يميزوا بينه وبين سائر البشر: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

(جـ) أن من سنة الله حين تكذب الجاهلية رسولها وتصر على التكذيب بعد نزول الآية التى يطلبونها لكى يتأكدوا من صدق رسولهم، فإن الله ينزل الملائكة عندئذ، ولكنه ينزلهم بأمر معين هو التدمير الفورى على أولئك الكافرين: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨].

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢].

(د) أن الحكمة منتفية تمامًا فى جعل الرسول من غير البشر أنفسهم، إن الرسول لا يأتى للتبليغ فقط، أى إنه لا يأتى ليبلغ الناس أمرًا معينًا من عند الله ثم يمضى. وإنما يمكث مع الناس حتى يربى فئة منهم على الحق يكون هو بذاته القدوة العملية لهم، ويكونون هم بدورهم قدوة للناس: ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

فأين تتحقق القدوة إذا كان الرسول من غير البشر؟! ألا يقول الناس يومئذ: هذا ملك ونحن بشر! لنا أجساد ونزعات وشهوات!؟ بلى! سيقولون! وسيمتنعون عن الالتزام بأمر ربهم بحجة أن هذا الالتزام ليس فى وسع البشر ولا هو من شأنهم إنما هو من شأن الملائكة الذين لا يسكنون هذه الأرض، ولا يحسون بثقلة الأرض تشدهم عن طريق الرغبات والشهوات! وعندئذ سيقولون: كيف يرسل الله إلينا ملكًا ويطلب منا الاقتداء به فى أعماله! أفلا يرسل إلينا بشرًا مثلنا، يحس كما نحس، ويفكر كما نفكر، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقتنا؟!

وتلك هى الحكمة الكبرى من إرسال الرسل بشراً، يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول، وحتى تتمثل الأسوة للبشر فى واحد من جنسهم، له ذات تركيبهم، وذات مطالبهم، وذات ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن.. إلخ.

حقيقة إن الرسل - إذ يصطفيهم الله ليبعثهم إلى الناس - يصوغهم صياغة خاصة تتناسب مع هذا الأمر العظيم، وتكون لهم طاقات تفوق طاقات البشر العاديين، فضلاً عن أن نزول الوحى إليهم واتصالهم المباشر بالله عن طريق الوحى يعمق فى نفوسهم معانى لا يمكن أن تبلغ ذلك المدى عند البشر العاديين.

نعم، ولكن هذه خصوصيات يختص الله بها رسله ولا يكلف البشر أن يصلوا إليها، لأنهم لا يستطيعون الوصول إليها بجهدهم البشرى! ولكن المهم فى الأمر أن صفة البشرية لا تفارق الرسول: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن ثم فالقدوة فيه متمثلة فيما ليس من خصوصيات الرسل وهذا هو الذى يكلف الله به عباده: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦].

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أى أن كل التكاليف التى كلف الله بها البشر هى فى حدود طاقتهم لأنَّ الله لا يكلّف النفوس فوق وسعها، وهو العليم بحقيقة طاقتها.

أما حكمة إرسال الرسل بلغات أقوامهم فهى واضحة بلا شك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

٢- عصمتهم:

الرسل معصومون فيما يبلّغون عن الله. فهم لا يخطئون فى التبليغ عن الله،

ولا يخطئون فى تنفيذ ما أوحى الله به إليهم. عصمهم الله من الخطأ فى هذه وتلك (وذلك من خصوصياتهم).

أولاً: لأن الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول فى التبليغ عن الله، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين ـ كلتاهما خارجة عن التصور: إما أن يسكت الوحى عن تصحيح الخطأ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمرًا معينًا ثم رضى جل جلاله أن يبلغ عنه غير ذلك الأمر.. وهذا لا يجوز فى حق الله تبارك وتعالى.

وإما أن يتنزل الوحى بالتصحيح، فيعود الرسول فيقول للناس: إن الله أمرنى أن أبلغكم كذا وكذا، ولكنى أخطأت فى التبليغ، وإليكم الآن تصحيح البلاغ! وينتج عن ذلك لا محالة أن يفقد الناس الثقة فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه لأن احتمال الخطأ فى التبليغ قائم فى أذهانهم.

وكلا هذين الأمرين خارج عن التصور لأنه يتنافى مع الحق الذى يتنزل به الوحى، ومع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى، ومع وجوب الطاعة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

ثانيًا: ولا يستقيم الأمر كذلك إذا أخطأ الرسول فى تنفيذ ما أوحى الله به إليه؛ لأن القدوة تنتفى يومئذ، ويضطرب الأمر فى نفوس الأتباع الذين اتبعوا الرسل فلا يعرفون أى طريق يسلكون. وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم. فالمفروض فى الشخص المؤمن أن يجتهد فى اتباع ما أنزل الله قدر جهده ليكون أقرب إلى الصواب. فإذا كان القدوة أمامه ـ وهو الرسول ـ يخطئ فى التنفيذ، فسوف يحس هو أنه فى حلٍّ من أن يخطئ! وليس عليه أن يتحرى الصواب، فهو ليس أفضل من الرسول المؤيد بالوحى، وعندئذ ينفرط عقد الأمر ولا يعود للدين ما أراده الله له من تعظيم فى نفوس المؤمنين.

حقًا قد يحدث فى تصرفات الرسل الشخصية ـ فى غير ما يتعلق بالوحى ـ أو فى اجتهاداتهم الشخصية ما يستوجب التصحيح أو التعديل من قبل الله سبحانه وتعالى، كما وقع لنبى الله داود حين حكم لأحد الخصمين قبل أن يستمع لقول الخصم الآخر:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢١- ٢٤].

وكما وقع من عبوس الرسول ﷺ فى وجه ابن أم مكتوم إذ جاءه يطلب الإسلام والاستماع إلى كلام الله، والرسول ﷺ مشغول عنه يرجو إسلام أبى جهل عمرو بن هشام، فلما ألح عليه ابن أم مكتوم تضايق ﷺ وعبس فى وجهه:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس: ١- ١١].

أو كاجتهاده عليه الصلاة والسلام فى أمر الأسرى فى وقعة بدر، إذ قبل مبدأ أخذ الفداء من الأسرى بدلاً من قتلهم كما اقترح عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فنزل الوحى مؤيداً لرأى عمر:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧- ٦٩].

ومثل هذه الأشياء لا تقدح فى عصمة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه. بل هى أقرب لتوكيد بشريتهم. فهم بشر عرضة للخطأ فى التصرفات الشخصية والاجتهادات الشخصية، ولكنهم معصومون من الخطأ فيما يتعلق بالوحى تبليغًا أو تنفيذًا. وهذا يجعلهم أقرب للقدوة والأسوة، فلو أنهم أصبحوا بعد بعثتهم نوعًا آخر من الخلق غير بقية البشر، لا يقع فى تصرفاتهم كلها ما يقع للبشر العاديين؛

لأصبحت القدوة بهم عسيرة، ولقال الناس لأنفسهم: هؤلاء الرسل ليسوا مثلنا فى أى شىء فكيف نقتدى بهم؟! ومن جهة أخرى يبقى الوحى - وما يتصرف به الرسل طبقًا للوحى - أمرًا قائمًا بذاته، لا يتنابه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فتجب له الطاعة الكاملة: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ١- ٤].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

٣- مجال القدوة بهم:

يبعث الله رسله من صفوة خلقه، ويختارهم من ذوى الصفات التى تصلح للأسوة والقدوة، ذلك أن الرسل هم هداة البشرية، وهم معلموها ومربوها، وقادتها الذين يقودونها إلى الخير. فلزم من ذلك أن يكونوا هم بذواتهم القدوة فى كل ما يدعون إليه من مكارم الأخلاق.

ولقد علم الله سبحانه وتعالى من طبيعة البشر، وهو خالقهم العليم بهم(١) أنه لا يكفى فى هدايتهم أن يسمعوا كلمة الحق تلقى إليهم. بل لابد أن يروها مجسدة فى كيان بشرى يتمثلها ويترجمها إلى واقع حى مشاهد وملموس، وعندئذ تكون قريبة إلى حسهم، قريبة إلى وجدانهم، وتكون أيسر عليهم فى التحقيق وفى التطبيق.

لذلك لا ينزل الله سبحانه وتعالى وحيه فى قراطيس يقرؤها الناس، وهو القادر سبحانه - لو شاء - أن ينزل على كل بشر قرطاسًا يقرؤه! وإنما ينزل كلماته على قلب بشر، يصنعه على عينه، ويمنحه من الصفات ما يجعله خير أداة لحملها، وخير نموذج لتقديمها للناس.

إن الله يدعو الناس باديء ذى بدء إلى الإيمان به وحده بغير شريك، ويبعث الرسل ليقولوا للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٥٠، ٦١، ٨٤].

ثم يدعوهم إلى صورة معينة من العبادة تتمثل فى شعائر تعبدية وأوامر ونواه تنظم حياة البشر على الأرض، وتقيم بينهم العدل الربانى الذى ينبغى أن تقوم عليه

---

(١) ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

حياتهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويرى الناس الإيمان المطلوب ـ أول ما يرونه ـ متمثلاً فى سلوك الرسول الذى يدعوهم إليه، فهم يرونه يدعو إلى عبادة الله الواحد غير مستند إلى جاه أو سلطان، بل متحديًا بدعوته كل جاه أو سلطان!

إنه يجىء والملأ مستكبرون فى الأرض بغير الحق، يستعبدون الناس بغير سلطان شرعى، لأنهم لا يحكمون بما أنزل الله، فيعلن كلمته البسيطة التى تدوى فى آذان الملأ كالصيحة المدوية: (اعبُدوا الله ما لَكُم مِن إلهٍ غَيْرُهُ). ويدرك الملأ على الفور أن هذه الكلمة البسيطة، المدوية فى ذات الوقت، معناها تنحيتهم عن سلطتهم الطاغية التى يستعبدون بها الناس، ورد العبودية لله وحده، يستوى فى ذلك الملأ والمستضعفون على حد سواء!

ولا يسلّم الملأ ما فى أيديهم من السلطة الغاشمة بسهولة! بل يقومون يتحدّون الرسول ويناوئونه ويناصبونه العداء، ويرى الناس الرسول المرسل إليهم يقف وحده إزاء السلطان الغاشم لا يستند إلى شىء من قوى الأرض، بل يستند إلى الله تعالى، إنه يحقق معنى الإيمان بالله فى صورة ملموسة مشهودة، لا فى صورة كلمات تنطق بها الأفواه أو شعارات معلقة فى الفضاء!

ويشتد الأذى بالرسول من اضطهاد الملأ الواقع عليه، فلا يلجأ إلى مداهنة القوم ولا ملاينتهم على حساب دينه وعقيدته. ويرى الناس مرة أخرى صورة واقعية لعمق الإيمان بالله. إنه ليس إيمانًا سطحيًا يتحطم تحت الضغط مهما اشتد، ولا إيمانًا وقتيًا يتبخر تحت وطأة الأحداث! إنما هو الإيمان الراسخ الذى يزداد عمقًا مع اشتداد الأحداث!

ويتعرض الرسول فى كثير من الأحيان إلى التهديد بالنفى أو السجن أو القتل فلا يتزحزح عن موقفه الصلب، ولا تؤثر عليه كذلك المغريات التى يتعرض لها أحيانًا كوسيلة من وسائل الحرب ضد عقيدة التوحيد ودعاة التوحيد! ويلجأ الرسول إلى الله وحده يدعوه أن ينقذه مما يلقاه من عنت الجاهلية وينجيه من مكرهم وكيدهم. ومرة أخرى يرى الناس الصورة الحية للإيمان العميق كيف تكيّف المشاعر وتوجه السلوك.

عندئذ لا يكون الإيمان دعوى، ولا صورة مبهمة غير متميزة الملامح. إنما يكون صورة واقعية ملموسة، يدرك الناس معناها الشعورى والسلوكى، ويقتدى بها المؤمنون الذين استجابوا لدعوة الإيمان.

ثم إن الله يطلب من الناس أخلاقًا معينة يتخلقون بها، وتجرى تعاملاتهم بمقتضاها. يطلب منهم الصدق والإخلاص والأمانة، والصبر والثبات والشجاعة، والكرم والمروءة والتحابّ فى الله، والبعد عن الفواحش والبغى والإثم.. ويحتاج ذلك كله إلى قدوة يقتدى بها الناس.

إن الناس قد يعرفون هذه المعانى كلها نظريًا، يعرفونها مما سمعوا عنها فى القصص أو قرءوا عنها فى التاريخ!.. ولكن ذلك وحده لا يحفزهم إلى الاقتداء بها والتخلق بما تقتضيه من أخلاق! إنما يحتاجون إلى أن يروها ممثلة أمام أعينهم فى واقع بشرى لتسهل عليهم القدوة وتكون قريبة المنال.

ويعلم الله من خلقه أنهم يحتاجون إلى ذلك، فيرسل إليهم الرسل نماذج حية لكل المعانى التى يريدها الله من خلقه. نماذج للصبر على الشدائد وتحمل الأذى فى سبيل الله. نماذج للثبات على الحق بأى ثمن ولو كان الثمن هو الحياة ذاتها أو هو الأمن والسلامة والاستقرار. نماذج للحب والمودة الصافية التى لا تطلب لذلك مقابلاً شخصيًا ولا منفعة قريبة. نماذج لاستقامة الطبع والصراحة وعدم المداراة فى الحق.

وباختصار: هم نماذج لكل حميد من الخلق وحميد من الخصال، والقدوة متمثلة فى كل ما يصدر عنهم من أقوال أو أفعال.

ولكن الدعاة والمصلحين بالذات لهم فى الأنبياء والرسل قدوة خاصة.

إن الدعاة هم روثة الأنبياء. وهم يتعرضون لكثير مما يتعرض له الرسل والأنبياء.

يتعرضون للأذى من المستكبرين فى الأرض الذين يكرهون كلمة الحق لأنها تكشف حقيقتهم للناس.

ويتعرضون للصد حتى من الجماهير التى قاموا لتخليصها من الذل والظلم والهوان..

ويتعرضـون لليأس من أن يكون جهادهم ذا ثمرة، أو أن يروا ثمـرة جهادهم فى عمرهم القصير المحدود.

لذلك يحتاج الدعاة بصفة خاصة أن يتأسوا بالأنبياء والرسل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

ويحتاجـون بصفة خاصة أن يتأسـوا بهم فى الثبات والصبر والتـحمل، والتوكل على الله وتفويض الأمر لله، فإن ذلك من ألزم مستلزماتهم فى جهدهم الشاق الذى يبذلونه فى سبيل الله.

والقرآن يوجه رسـول الله ﷺ أن يقتدى بالأنبيـاء والرسل من قبله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

فكيف يكون حـالنا نحن البشـر العاديين؟ ألسنا أحـوج إلى القدوة وأحـوج إلى الالتزام؟

* * *

(١١) أولو العزم من الرسل

يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبًا رسوله ﷺ : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وواضح من الآية أن الصفة البارزة فى أولئك الرسل أولى العزم هى الصبر، ذلك أنها هى الصفة التى يطلب الله عز وجل من رسوله الكريم ﷺ أن يتأسى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة.

وكل الرسل ـ كما رأينا فى الفقرة السابقة ـ ذوو صبر وثبات وتحمل. فلابد أن يكون اختصاص «أولى العزم» بهذا الوصف الذى وصفهم به الله فى كتابه الكريم ناشئًا من زيادة فى صفة الصبر عن الرسل العاديين، وقدرة فائقة على تحمل الشدائد، وثبات فى مواجهة المواقف الصعبة التى مرت بهم فى أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد.

وإذا كان الرسل جميعًا هم هداة البشرية وقادتها، وهم موضع القدوة والأسوة، فإن فى حياة أولى العزم من الرسل عبرًا خاصة، لطول جهادهم، وكثرة المواقف الصعبة التى تعرضوا لها، وثباتهم فى وجه العواصف المزلزلة التى تنخلع لها القلوب، واطمئنانهم إلى قدر الله ووعده بالنجاة والنصر.. ثم فيما حل بالمكذبين من أقوامهم من هلاك وتدمير.

إن الدعاة بصفة خاصة ـ كما قلنا فى الفقرة السابقة ـ هم أولى الناس بأخذ العبرة من سير الرسل جميعًا. ولكنهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سِيَرِ أولى العزم من الرسل، وعلى رأسهم محمد ﷺ ، لأنه ما من موقف يتعرضون له فى دعوتهم إلا له مثيل أو شبيه فى سِيَرهم.. ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل والجهد الشاق، وتذهب قوى الباطل بددًا ويبقى الحق راسخًا فى الأرض يظلل الناس بظلاله الوارفة، وينعم الناس فى ربوعه بالأمن، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحوا فى سبيله بأمنهم وراحتهم، وأموالهم وأنفسهم، يذهب منهم من ذهب شهيدًا فى سبيل الله ويبقى منهم من يبقى شهيدًا للحق بصبره وثباته وتجرده لله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وإليك نبذة سريعة عن أربعة من أولئك الرسل الكرام من أولى العزم:

١ ـ نوح عليه السلام:

من أبرز أمثلة الصبر على مشاق الدعوة والصبر على صدود المدعوين نوح عليه السلام. فلقد لبث يدعو ما يقرب من ألف سنة دون أن يستجيب له من قومه إلا أفراد قليلون! وحتى ابنه لم يستجب إليه وغرق مع المغرقين! وكذلك امرأته! وإن من أشق الأمور على نفس الداعية أن يدعو دون أن يستجيب له الناس الذين يدعوهم إلى الخير وإلى النجاة، ولكن أشق من ذلك أن يأتى الصدود من قبل المقربين من الأهل، بما فى ذلك الزوجة والولد، أقرب الناس إلى الإنسان، وأحراهم أن يكونوا أول المستجيبين.

ويقص القرآن الكريم علينا قصة نوح فى مواطن كثيرة بالإيجاز حينًا وبالإطناب حينًا آخر، ولكنها كلها تحمل العبرة لمن يتدبر القصة بقلب واع ولب متفتح، ففى قصص الأنبياء كما يقول القرآن: ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

واستمع إلى قصته مع قومه (فى سورة نوح):

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ١ ـ ٩].

فماذا كانت نتيجة الدعوة المثابرة التى لا تفتر بالنهار ولا بالليل، وتأخذ حينًا صورة الجهر وحينًا صورة السر؟! ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ

آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢١ـ ٢٤].

لقد كان قبل بعثته نجارًا. وكان معروفًا فى قومه بالأمانة والاستقامة والاجتهاد فى الصنعة، فلما اختاره الله للرسالة اتبعه بعض المستضعفين من قومه ولكن الملأ ـ كما هى العادة ـ استكبروا وعصوا، وراحوا يجادلون ويكذبون.

كانت دعواهم فى التكذيب أنه بشر مثلهم! ولو أراد الله أن يرسل إليهم رسولاً لأنزل ملكًا من السماء، أما أن يرسل بشرًا مثلهم فأمر ـ فى دعواهم ـ غير جائز! فهو إذن كاذب فى دعواه أنه رسول من عند الله، وما يريد بدعواه هذه إلا أن يتميز عليهم! فجزاؤه على ذلك أن يتهم بالجنون!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣ـ ٢٥].

ثم كان من دعواهم فى التكذيب كذلك أن الذين اتبعوه ليسوا من علية القوم بل من أراذلهم (كما يسمونهم):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ـ ٢٧].

ثم طالبوه ـ زيادة فى التعنت ـ أن يطرد أولئك الأراذل من صحبته إذا أرادهم أن يستمعوا إليه، وأن يعلن أنهم مطرودون من رحمة الله أيضًا!

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٢٩ـ ٣١].

وواضح من الآيات أنهم كانوا يُعنتونه كذلك بأن يطالبوه بأن تتدفق عليهم الأموال من خزائن الله، وأن ينبئهم بالغيب، وأن ينزل الملائكة من السماء إذا أراد منهم أن يؤمنوا به!

ولقد صبر نوح عليه السلام على هذا العنت كله، وعلى الصد الطويل من قومه بعد الدعوة المستمرة لهم عامًا بعد عام، سرًا وجهرًا، ونهارًا وليلاً.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦].

وأوحى الله إليه أن يصنع الفلك الذى سيحمل فيه المؤمنون حين يجىء الطوفان الذى يغرق المكذبين.. وكانت فرصة لقومه لكى يسخروا منه ويتهموه بالجنون، إذ أنه ما الذى يدفع إنسانًا عاقلاً أن يصنع فلكًا فى أرض يابسة تحيطها الجبال؟!

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

وفى الموعد المقرر فى قدر الله جاء الطوفان..

لقد كان نوح قد دعا ربه بعد الجهاد الطويل مع قومه والصبر الطويل على أذاهم أن يدمر عليهم: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]. ثم إنهم كانوا قد توعدوه بالقتل: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦].

فدعا ربه أن ينجيه من أذاهم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

لقد وصلت الأمور إلى قمتها.. ولم يبق إلا أن تمتد يد الله بالنجاة والرحمة للمؤمنين، وبالبطش والدمار للمكذبين.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١٠ـ ١٤].

لقد كانت هذه هى معجزة نوح..

الطوفان يغرق الأرض اليابسة ذات الجبال العالية، ويغرق المكذبين جميعًا فلا يبقى منهم فرد واحد. بينما تكتب النجاة للمؤمنين فى داخل الفلك المشحون، الذى كان الملأ يسخرون من نوح وهو يصنعه فوق اليابسة!

ولكن الابتلاء مع نوح لم يكن قد انتهى حتى لحظة الطوفان! كانت هناك بقية من الابتلاء يتعرض لها ذلك الرسول من أولى العزم.. فى ولده أقرب الناس إليه! ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢ـ ٤٣].

وينتهى الطوفان.. وتتم المعجزة.. ويغرق المكذبون.. وينجو المؤمنون وما تزال فى نفس نوح حسرة على ولده الذى ظن ـ من وعد الله له بنجاة أهله ـ أنه من الناجين! حسرة مزدوجة على فقده فى الحياة الدنيا، وفقده يوم القيامة حيث يكون فى النار مع الكافرين.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٤ـ ٤٦].

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ وإن كان ابنك من صلبك. فقد فرقت العقيدة بينكما، فلم يعد من أهلك، لأن أهلك هم المؤمنون.. وهذا عمل غير صالح لأنه أبى أن يؤمن وأصرّ على الكفر.. فكان جزاؤه الحق هو جزاء الكافرين..

وعندئذ يصل نوح عليه السلام إلى الذروة: ذروة التسليم لـله، والاطمئنان إلى قدر الله، والرضى بما كتب الله، وطلب الرحمة والمغفرة من الله:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: ٤٧، ٤٨].

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٩].

٢ - إبراهيم عليه السلام:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

ولفظ «أمة» الذى ورد فى الآية الكريمة يحمل مجموعة من المعانى. فمن معانيها أن إبراهيم عليه السلام - وحده - كان يساوى أمة كاملةً فى عمق إيمانه ورجاحة عقله وكريم خصاله. ومنها أن إبراهيم عليه السلام كان أبًا لأمة خرجت كلها من ذريته، فقد مد الله له فى العمر وأمده بذرية واسعة عريضة كان منها عدد غير قليل من الأنبياء: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٤ـ ٨٧].

ومن معانيها كذلك أن إبراهيم عليه السلام كان إمامًا. فقد قال الله له: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهو إمام الحنفاء الذين استقاموا على طريق الله وأخلصوا له العبادة والتوحيد. فقد تكرر وصفه فى القرآن بهذه العبارة ﴿ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وجاء الأمر للرسول ﷺ ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣]. فهو الإمام الذى يتبعه الحنفاء.

وقد منَّ الله عليه برجاحة العقل وبلاغة الحجة وسرعة البديهة كما يبدو لنا فى محاجته لقومه لإبطال الوثنية بالبرهان العقلى، كما ورد فى القرآن فى مواضع شتى،

منها ما جاء فى سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤-٨٢].

فقد أراد إبراهيم أن يصرف قومه عما هم فيه من الشرك إلى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له، فاستدرجهم إلى التفكير فى شأن الأصنام التى يعبدونها ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾؟ بهذا السؤال الإنكارى الذى يهز الغافلين:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩- ٧٤].

وبعد أن أيقظ تفكيرهم بهذه الأسئلة التى لا إجابة لها عندهم إلا أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، راح يتظاهر أمامهم بأنه يبحث عن إله يعبده بعد أن أعلن رفضه الباتّ لعبادة الأصنام (وهو فى حقيقة الأمر مهتد إلى الله الحق، ولكنه يريد أن يتدرج بقومه عباد الأصنام درجة درجة حتى يصل بهم إلى اليقين) فلما جن عليه الليل، رأى فى السماء كوكبًا لامعًا، فقال أمام قومه: سأتخذ هذا الكوكب اللامع إلها! فلما أفل أعلن لقومه أنه لا يعبد إلهًا يأفل ويغيب! ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فلما رأى القمر بازغًا قال (متظاهرًا) هذا أجدر أن يكون إلهًا، فنوره أقوى من نور الكوكب، ولكن القمر بدوره أفل! فتظاهر بالحيرة: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. وأخيرًا طلعت الشمس بضيائها الساطع وحرارتها وقوة شعاعها

فتظاهر بالفرح الشديد لعثوره أخيرًا على الإله المنشود! ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ فلما أفلت الشمس أعلن أخيرًا إعراضه عن كل تلك الآلهة الزائفة التى لا تستحق العبادة، وتوجهه للإله الحق، الذى فطر السماوات والأرض، على استقامة لا رجوع فيها ولا انحراف عنها (وهذا معنى «حنيفًا») وأعلن براءته التامة من كل شرك فى عبادة الله.

ونستطيع أن نتصور بطبيعة الحال استنكار قومه لموقفه ومحاجّتهم إياه، وإن كانوا لا يملكون حجة حقيقية أكثر من أنهم يفعلون كما فعل آباؤهم فحسب، وأن آباءهم لا يمكن أن يكونوا مخطئين خلال كل تلك الأجيال!

ولكنه يصر على موقف الهدى الذى هداه الله إليه، وعلى عبادة الله الواحد الذى هداه إلى حقيقة الإيمان. عندئذ يلجئون إلى تخويفه بانتقام الآلهة من تجديفه فى حقها وكفره بها، ويتوعدونه بأن هذه الآلهة المزعومة ستناله بالأذى لا محالة. وعندئذ يردّ عليهم فى اطمئنان الواثق: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ ولكنه فى أدبه مع ربه لا يقطع بأمر هو بعد فى طيات الغيب، فقد يكون الله سبحانه وتعالى قد قدر له أن يصيبه شيء من الأذى فيقول: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ثم يعود إليهم فيجابههم بحقيقة موقفهم: كيف تخوّفوننى بتلك الآلهة المزعومة التى تشركون بها، وهى عديمة السلطان لا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا تخافون أنتم من الله الحق الذى يملك الضر والنفع، وأنتم تشركون به وتعصون أمره؟! فأيّنا أحق بالأمن؟ الذى يلجأ إلى الإله الحق ويدخل فى حماه، أم الذى يحتمى بغير حمى سوى الأوهام؟

ثم يقرر الحقيقة التى تلخص الموقف تلخيصًا حاسمًا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ[1] أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وليس الأمن المقصود هو السلامة من الأذى فى الحياة الدنيا. إنما هو السلامةُ من عذاب الله فى الآخرة مع الاطمئنان إلى قَدَرِ الله فى الحياةِ الدُّنيا، وأنّ كلَّ ما يصيبُ المؤمنَ هُوَ خيرٌ له[2].

(١) الظلم المقصود هنا هو الشرك، وبيان ذلك قوله تعالى فى سورة لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

(٢) عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله لهُ خيرٌ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فكان خيرًا له وإن أصابته ضَرَّاء صَبَرَ فكانَ خيرًا له». رواهُ مسلم.

وتلك هى بلاغة الحجة التى منّ الله بها على إبراهيم فى محاجته لقومه، نراها مع سرعة البديهة فى موقف آخر فى مناقشة «النمرود» وهو الطاغية الجبار الذى كان يحكم الأرض التى يعيش فيها إبراهيم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

على أن الأمر لم ينتـه بين إبراهيم وقومه بتلك المحاجـة التى وقعت بينهم وبينه. فقد اعتزم إبراهيم أن يقتلع الشـرك بيديه، فعمد إلى تلك الأصنام التى يصرون على عبادتها، فحطمها فى غفلة من القوم!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١ـ ٦٣].

ولقد هزتهم المفـاجأة بالفعل فكادوا يرجعـون إلى صوابهم من شدة وقعـها على نفوسهم! ولكنهم عادوا فأصروا على الضلال. وبدلاً من أن يؤمنوا، راحوا يتوعدون إبراهيم عليه السلام بالإحراق فى النار!

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٤ـ ٦٨].

وهنا نواجه موقفًا لا يصبر فيه إلا أولو العزم!

حقيقة إن الله أوحى إلى النار ألا تحرق إبراهيم: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ولكن النص القرآنى لا يدلنا على أن الله أخبر إبراهيمَ بأن النار لن تمسه بسوء فهو إذن يواجه النار وهى النار. يواجهها مطمئنًا إلى قَدَرِ الله، نعم، ولكنه لا يستبعد إصابته بالأذى كما قال لقومه من قبل: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

إنه موقف الإيمان العميق بالله، الذى لا يتزحزح أمام أى خطر، ولو كان الخطر هو الحرق فى النار!

وكانت المعجزة التى نصره الله بها وأنجاه من كيد الكافرين: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩- ٧١].

ولكن ذلك لم يكن الابتلاء الوحيد فى حياته، ولا كان المنّ الربانى هو المن الوحيد.. إنما الابتلاء العظيم كان حين أمره الله أن يذبح ولده إسماعيل:

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ٩٧- ١٠٢].

لقد رأى إبراهيم فى منامه هذه الرؤيا التى فهم منها أن الله يأمره بذبح ولده الحبيب إسماعيل الذى وُهب له على الكبر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

إنه موقف لا تطيقه أعصاب أىّ أب، فضلاً عن إبراهيم الرقيق المشاعر، الفيّاض الوجدان.. ولكنه أمر من الله فهل يعصيه؟! كلا! إن إبراهيم لا يعصى ربه بحال ولو كان الأمر فوق الاحتمال.

بل إن الفتى نفسه ليسلم أمره لله فى هذا الموقف العصيب، ويستسلم لقدر الله:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إن كل ما يملكه الإنسان من الخيال لا يستطيع أن يصور تلك اللحظة الرهيبة، لحظة أن همّ إبراهيم بذبح ولده الحبيب، استجابة لأمر الله.

موقف لا يطيقه إلا أولو العزم.. ولقد أطاقه إبراهيم..

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٣].

ولكن الله تداركه برحمته.. لم يكن الله يريده حقًا أن يذبح ولده.. إنما كان «يبتليه».. كان يختبره.. إلى أى مدى هو على استعداد لإطاعة الله فيما يأمر؟ هل يطيعه فى الأمر الهين ويتوقف عن طاعته فى الأمر العظيم؟ أم هو على استعداد دائم لإطاعة الله أيًا كان الأمر الصادر إليه من الله؟

ولقد نجح إبراهيم فى الابتلاء.. بل نجح نجاحًا باهرًا لا يقدر عليه إلا أولو العزم الشديد.. فنزلت رحمة الله:

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣ـ ١٠٧].

عند ذلك منّ الله عليه بالإمامة جزاء على ما نجح فى الابتلاء:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ويشرّف الله إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت المعظم، وإعداده للطائفين والعاكفين والركّع السجود، فيدعوان هناك دعاءهما الحار:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٥ـ ١٢٩].

ويستجيب الله الدعاء. ويبعث محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ليتلو على هذه الأمة آيات الله ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها بإذن الله.

ويقول الرسول ﷺ: «أنا دعوة أبى إبراهيم..»[1].

«سلام على إبراهيم».

٣ ـ موسى عليه السلام:

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

من أكثر القصص ورودًا فى القرآن الكريم قصة موسى وفرعون، ذلك أنها مليئة بالعبر لمن يتدبرها، وزاخرة بالدروس التى تنفع المؤمنين.

كانت عين الله ترعاه منذ مولده، لأن الله كان يعده لأمر خطير..

ولد فى مصر، فى بيت من بيوت بنى إسرائيل، فى الوقت الذى كانت أشد ألوان الاضطهاد تقع عليهم تنفيذًا لقرار اتخذه ضدهم فرعون، فكان كل ولد ذكر يولد فى بيوت بنى إسرائيل يقتل بأمر ذلك الفرعون، وتترك البنات لينشأن فى الذل والضياع بغير رجال! وذلك فضلاً عن ألوان أخرى من السخرة والاستعباد والتعذيب، وكانت الحجة الظاهرية لفرعون فى هذه الأعمال أن بنى إسرائيل قد كثروا فى البلاد فهو يخشى مغبة زيادتهم! والحقيقة أنهم كانوا على دين غير دينه، يعبدون إلههم الذى عرفوه منذ أيام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ

---

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبرانى والحاكم والبيهقى.

إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقد كانوا جاءوا إلى مصر أيام يوسف عليه السلام، ومكثوا فيها وتكاثروا، فظلوا يعبدون الله ولا يعبدون الفرعون.. ومن هنا غضبه عليهم وطغيانه فيهم..

ولقد كان يملك ـ لو صدقت حجته الظاهرية ـ أن يطردهم من مصر ويعيدهم إلى بلادهم التى جاءوا منها، فيتخلص منهم دون أن يوقع الأذى بهم. ولكنها شهوة الطغيان والاستعباد التى كانت تحركه ضد بنى إسرائيل.

فى تلك الظروف العصيبة وُلِدَ موسى عليه السلام، فخافت عليه أمه من عيون فرعون أن يكشفوا وجوده فيقتلوه. وهنا تبدأ نعم الله عليه، إذ يوحى إلى أمه بالوسيلة التى تحفظه من القتل، وإن كانت تبدو فى عينها وسيلة عجيبة، هى أعجب ما يخطر فى البال على الإطلاق!

ولنرجع إلى سورة القصص نأخذ منها تفصيل قصة موسى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

يا لها من بشارة فى أحرج اللحظات، وإن كانت الوسيلة عجيبة لولا أنها من عند الله.

أرضعيه ولا تخافى! وإذا خفت عليه من جنود فرعون فألقيه فى اليم! ولا تخافى ولا تحزنى! إنّا رادوه إليك.. وليس هذا فحسب. بل إنّا جاعلوه كذلك من المرسلين.

ولم يطمئن قلب أم موسى أن تبقيه فى بيتها وترضعه! وكأنها اطمأنت إلى الوسيلة الثانية أكثر، فهو فى اليم أبعد عن جنود فرعون! ولكن قدر الله من وراء ذلك كان يرتب أمرًا! ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ⑧ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٨، ٩].

لقد حمله التيار إلى قصر فرعون فالتقطوه. ولقد عرفوا من قرائن الحادث أن هذا

وليد من بنى إسرائيل فهمّوا بقـتله بادئ ذى بدء حسب أوامر الفرعون. ولكن الذى يجرى فى الكون هو أمر الله لا أمر الفرعـون ولا غيره من الكائنات، ولئن كان أمر فرعون سـاريًا ونافذًا فليس لأنه الفرعون ذو الجبـروت، ولكن لأن الله قد قدَّر ذلك لأمـر يريده - سبـحانه - ويعـلمه، فـإذا أراد الله أن ينجـو موسى من القـتل، فلن يستطيع أمـر فرعون أن ينفـذ! لأنه لم يكن نافذًا من قبل بذات نفـسه ولكن بمشيـئة الله، فإذا وقفت مشيئة الله فى طريقه فأنَّى له النفاذ؟!

بل تتم السـخرية العظمى بآل فـرعون - بـقدر الله المقـدر - إن يكونوا هم الذين يتولون حمايته وتربيته ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾!

إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠].

مـرة أخـرى تتدخل رعـايـة الله.. إنها لو أبدت ما هى فيـه من خوف وقلق لانكشف الأمر، ولعرف عـيون فرعون فى أى بيت ولد موسـى.. وعندئذ فقد يقع البطش بأهل البيت كله ومن فيه. ولكن الله يربط على قلبها بالإيمان.

إن الله هو الذى يربط على القلوب فـتثبت، وليس البـشر من عند أنفـسهم هم الذين يصنعون!

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص: ١١- ١٣].

كل خطوة بتدبير من الله حتى يبلغ الأمر غايته المقدرة.

الرضيع - بتقدير الله - يرفض المراضع جـميعًا ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ حتى يخشى عليه آل فرعون من الهلاك جـوعًا. وفى ذلك الوقت تدفع أم موسى ابنتها - بدافع القلق عليه - لتتقـصى أخباره. فتذهب الفتاة - ولا حرج عليـها فإن فرعون لا يتعـرض للنساء بالقتل بل يبقـيهن إمعانًا فى الـفساد! - فتبـصر به فى قصـر فرعون فترشدهم - وهم لا يعرفونها - إلى أهلها ليرضعوه ويكفلوه!

وتتم الحلقة الأولى من القدر المقدور، فيرجع موسى إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق!

وتبدأ الحلقة الثانية فى قصر فرعون، حيث يربى موسى كأنه أمير من أمراء الأسرة، يعزز ويكرم، ويؤتى له بالمعلمين والمثقفين، ويتعلم لغة قومه فى بيت أمه، ولغة فرعون فى بيت فرعون!

ثم يدخل فى مرحلة ثالثة تنقل خطواته ـ بقدر الله ـ إلى بعيد..

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ١٤ـ ٢١].

لقد كان الاضطهاد واقعًا على بنى إسرائيل فى كل مكان. وهذا رجل مصرى يقتتل مع إسرائيلى فى أثناء مرور موسى. ويعلم الإسرائيلى أن موسى ـ وإن كان منهم ـ ذو حظوة فى قصر فرعون، فيستصرخه لإنقاذه من قبضة المصرى. وتهيج فى نفس موسى مشاعر الغضب من الذل والاستعباد الواقع على بنى إسرائيل فيضرب المصرى ضربة قوية ـ بغير نية القتل ـ ولكن يد موسى القوية الباطشة تقضى على الرجل فيموت. فيندم موسى على نتائج فعلته ويستغفر الله وينوى ألا يعود إلى مثل ذلك. ولكنه فى صباح الغد يسير فى طرقات المدينة خائفًا يترقب، يتحسس أخبار حادث الأمس، وهل عرف الناس أن موسى هو الذى قتل المصرى؟ عندئذ يلتقى بنفس الإسرائيلى واقعًا فى قبضة مصرى آخر يعتدى عليه، فيهمّ أن يبطش بالمصرى (رغم عزيمته بالأمس ألا يعود إلى ذلك!) فيخاف المصرى (أو يخاف الإسرائيلى ظنًا

منه أن موسى يريد أن يبطش به هو) فيقول: «أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس؟!» فيعرف موسى أن الخبر قد انتشر.. وفيما هو يفكر فى العواقب يجيئه رجل لا يعرفه (لعله هو مؤمن آل فرعون الذي سيرد ذكره بعد) ينصحه بالخروج لأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه.. ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٢ـ ٢٨].

لقد توجه إلى مَدين ـ بقدر من الله ـ وهناك على بئر مدين وجد زحمة من الناس يسقون، ووجد فتاتين لا تقدران على الحصول على الماء حتى يخف الزحام وليس لهما من يحمل عنهما ذلك العبء لأن أباهما شيخ كبير(١)، فتقدم موسى بما فيه من شهامة وأريحية فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل يستريح من عناء السفر ويشكر الله على الأمن والماء والظل.. فإذا إحدى الفتاتين تدعوه لمقابلة أبيها ليجزيه على شهامته ومروءته. فلما قص عليه موسى قصته قال له: (لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظالمين). ثم عرض عليه ـ بناء على اقتراح الفتاة باستئجاره ـ أن يزوجه إحدى ابنتيه مقابل خدمته ثمانية أعوام أو عشرة إذا شاء، فقبل موسى العرض وبقى مع الرجل الصالح تلك السنوات.

وانتهى الأجل المضروب فخرج موسى بأهله، فآنس من جانب الطور نارًا فقال لأهله: امكثوا حتى آتيكم من النار بقبس تصطلون دفئه.. وهناك تقع لموسى مفاجأة مذهلة لم تكن له ـ ولا لغيره ـ فى الحسبان.

---

(١) تقول بعض الروايات إن الشيخ الكبير والد الفتاتين هو نبى الله شعيب. وليس فى النص القرآنى ما يثبت ذلك ولا فى حديث صحيح.

إن النار التى ذهب يأتى منها بقبس يصدر منها صوت يناديه! ويقول الصوت: إنى أنا الله رب العالمين!

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص ٢٩، ٣٠].

إنها مفاجأة يذهل لها أى إنسان. ولا شك أن موسى قد أذهلته المفاجأة لولا الأنس الذى أحسه فى ذلك الصوت، والذى جعله يبقى إلى جانب النار يستطلع ما يكون من أمرها.

أما المفاجأة التى لم يطقها موسى فهى تحرك العصى التى كان يحملها كأنها ثعبان ضخم!

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣١ـ ٣٢].

لقد أصبح موسى رسولاً منذ تلك اللحظة. وها هو ذا يؤمر أن يذهب إلى فرعون بهاتين المعجزتين: العصا التى تتحول إلى ثعبان ضخم، واليد التى يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء.

ولكن موسى يخاف الذهاب إلى فرعون. لقد قتل منهم نفسًا، فهو عرضة أن يقتلوه، وفى لسانه عقدة فهو يخشى أن يضطرب نطقه فلا يفصح عما يريد أن يقول، ويطلب من الله أن يرسل معه أخاه هارون يعاونه فى الأمر:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤].

وتتجلى نعمة الله عليه فيجيب سؤاله، ويطمئنه إلى أن فرعون وملأه لن يصيبوه

بالأذى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٥].

ويذهب موسى إلى فرعون بالآيات فيحدث بينه وبينه ما يحدث فى كل جاهلية بين الطاغوت وبين الداعية الذى يدعو إلى لا إله إلا الله؟!

إنها قصة واحدة مكررة فى التاريخ!

ما من طاغوت فى الأرض يرحب بدعوة لا إله إلا الله أو يهادنها على أقل تقدير!

إنها كلمة بسيطة غاية البساطة: «لا إله إلا الله» ولكنها كما قلنا من قبل تدوى فى أذن الطاغوت كالصيحة المدوية. إن معناها المباشر أن هذا الطاغية ليس إلها كما يريد أن يصنع من نفسه، إنما هو عبد لله، ينبغى أن يخضع لسلطانه، ويأتمر بأمره، لأنه هو ـ سبحانه وتعالى ـ الإله الحقيقى الذى يُعبد وحده، ويُطاع وحده، ويحكم فى أمور الناس بحكمه وحده.

من هنا تنشب المعركة بين الطاغية وبين الداعية للا إله إلا الله، ولو كان الداعية لا يحمل سلاحًا ولا يدعو لقتال، بل يدعو للمهادنة والانتظار كما دعا نبى الله شعيب: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٧، ٨٨].

إن الطاغية يعتبر مجرد الدعوة للا إله إلا الله حربًا معلنة ضده هو شخصيًا لأنه يدرك جيدًا معناها! يدرك أن معناها رد السلطة المغتصبة التى يستعبد بها الناس إلى صاحبها الحقيقى.. إلى الله سبحانه وتعالى رب الجميع.

ومع أن موسى لم يطلب من فرعون بادئ الأمر أن يؤمن ويتبعه، إنما طلب منه فقط أن يطلق بنى إسرائيل ولا يعذبهم، إلا أن المعركة نشبت مع ذلك بينه وبين موسى كما تنشب فى التاريخ كله بين الطاغية وبين الدعوة للا إله إلا الله! ذلك أن موسى إنما يطالبه بإطلاق بنى إسرائيل وعدم تعذيبهم باسم الله الذى هو مرسل من قبله؛ ومن ثم فالقضية واحدة فى النهاية! قضية الإله الحقيقى الذى ينبغى أن يطاع: هل هو الله أم الطاغوت!

إنك من أى باب دخلت، فالقضية فى حس الطاغوت واحدة!

قد تكون القضيـة هى رفع ظلم سياسى، أو ظلم اجتمـاعى، أو ظلم اقتصادى، أو ظلم فردى، ولكنك إذا طلبت رفع الظلم باسم الله، وباسم الحكم بما أنزل الله، فقد كـفرت بالطاغوت، وأعلنت صراحة أو ضـمنًا نزع الربوبية منه وردها إلى الله! وكل شىء قد يحـتمله الطاغوت إلا هذه بالذات! إنه يحس أنهـا تصيبه فى مـقتل، ولو كانت كلمة تعلن بغير سلاح ولا قتال!

وقد أحس فرعون كمـا يحس الطغاة أبدًا حين يدعون إلى شىء باسم الله وطاعة الله.. أبى واستكبر.. ثم هدد بالبطش!

وفى الحـوار الذى دار بينهمـا كـما ورد فـى سورة الشـعراء مـا ينبئ عن ذلك: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[1] (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ[2] (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ١٦ـ ٢٩].

موسى يطلب إطلاق بنى إسرائيل، وفـرعون يحول القضية إلى قـضية الألوهية: مَن المعبـود الذى ينبغى أن يُطاع؟ وذلك أن موسى يطلـب إطلاق بنى إسرائيل باسم الله، لا باسم قضية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو وطنية أو عرقية!

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(١) الخطاب فى الآية لموسى وهرون.

(٢) يشير فرعون إلى المصرى الذى وكزه موسى فقضى عليه.

﴿غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٦ـ ٣٩].

لقد رأوا من موسى سبع آيات بينات: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥].

وبقيت من الآيات التسع[1] التى أرسل بها موسى آيتان:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢ـ ٦٦].

غرق فرعون الذى قال لملئه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وغرق معه جنده الذين استخفهم ـ بفسقهم ـ واستعبدهم لسلطانه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

كانت آية لكل جبار عنيد فى الأرض. ولكن متى كان الطغاة يعتبرون؟ ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وانتهت فترة عصيبة من حياة موسى.. فترة الجهاد الذى استمر بضع سنوات مع فرعون وملئه، والأذى ينزل ببنى إسرائيل لا يكفّ عنهم، وهو يحاول أن يبعث فيهم الصبر والاصطبار، ويبعد عنهم شبح اليأس:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ـ ١٢٩].

ويتحقق وعد الله لبنى إسرائيل فيستخلفهم فى الأرض:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فهل استقاموا على طريق الله الذى أسبغ عليهم من نعمه ما لم يسبغه على أحد من العالمين؟! كلا! إنهم ما كادوا يحسون بالأمن من أذى فرعون وظلمه، ويحسون بالكرامة بعد الهوان والذل، حتى بدءوا يتجبرون ويعصون ربهم، حتى وموسى عليه السلام حىّ بين ظهرانيهم!

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ثم اتخذوا العجل الذهبى إلها حين ذهب موسى لميقات ربه!

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ (١) عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وقالوا: لن نؤمن حتى نرى الله جهرة!

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

---

(١) مازالت عبادة الذهب قائمة فيهم منذ ذلك الحين.

وتوالت جرائمهم ومعاصيهم بعد ذلك وموسى يصبر عليهم ولا يسلم من أذاهم! ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨].

وكانت قمة معصيتهم ـ فى حياة موسى ـ هى رفضهم الجهاد لدخول الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

ومضى موسى للقاء ربه بعد طوال المصابرة على عصيانهم وانحرافهم، والمحاولة الدائبة لتقويمهم.. مضى وهم سادرون فى غيهم، لا يزيدون إلا معصية لله وكفراً به ويجمل القرآن الكريم وصفهم فى مثل هذه الآيات:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٣ـ ١٦١].

لذلك استحقوا اللعنة وباءوا بغضب من الله:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢١، ٢٢].

لقد صنع اليهود من الشر فى أجيالهم المتعاقبة ما لم تصنعه أمةٌ أخرى فى التاريخ.

٤ ـ عيسى عليه السلام:

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١]. ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

لكل نبى معجزة واحدة على الأقل. وأرسل موسى عليه السلام فى تسع آيات إلى فرعون وقومه. ولكن معجزة عيسى فى ولادته بغير أب تُعَد متفردة بين المعجزات جميعًا. فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعله هو ذاته آية للعالمين.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ١٦ـ ٢٢].

هكذا تبدأ قصة عيسى عليه السلام.. أو لعلها تبدأ قبل ذلك فى الحقيقة فى الرعاية الخاصة التى رعى بها الله مريم منذ مولدها:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧].

فهذه امرأة عمران تهب ما فى بطنها للمعبد (على عادة القوم الأتقياء يومئذ) تظن أنها ستلد ولدًا ذكرًا ـ فما كان يوهب للمعبد إلا الذكور ـ فلما وضعت فوجئت بأنها أنثى! وتحسرت على أنها لم تلد ذكرًا تستطيع أن توفى به نذرها. فواساها الله سبحانه وتعالى بقبول ابنتها مريم فى المعبد ولو كانت أنثى! وكلف النبى زكريا برعايتها فى المعبد والقيام بحسن تربيتها، ففوجئ زكريا بأحوال منها غير معتادة: «كلَّما دخلَ عليها زكريا المحرابَ وجدَ عندها رزقًا!» فهو يسعى إليها بالطعام فيجد الطعام فائضًا عندها ومتجددًا! فعرف أنها مباركة، وزاد ذلكِ من عطفه عليها ورعايتها.. ثم إن الله اصطفاها وطهرها..

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنّ اللّه اصْطَفَاكِ وطَهّرك واصْطفاك عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

فهى التقية النقية الطاهرة المباركة.. حتى لقد لقبها أهلها «أخت هارون» من شدة تقواها وصفاء سريرتها.

وبينما هى فى عزلتها، وهذه حالها، يجيئها جبريل عليه السلام بهذا الخبر العجيب: إن الله سيهب لها غلامًا زكيًا! وتذهل من المفاجأة وتضطرب لها اضطراباً عنيفًا، ويتمثل فى خيالها ما يمكن أن يقال عنها فتدافع عن نفسها: (أنّى يكون لى غلامٌ ولم يَمْسَسْنى بشرٌ ولم أكُ بَغيّا). فيقول لها الملك: كذلك! إنه أمر هين على الله. إن الله يريد أن يجعل منه آية للناس ورحمة. ثم إنه لا فائدة فى الجدل! فهو أمر محتوم! ﴿وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً﴾.

هكذا تبدأ المعجزة بخلقه بغير أب.. بالمشيئة الربانية فحسب.. بغير الأسباب التى تعودها الناس فى حياتهم.

نعم إن هناك سُنّة جارية، هى من أمر الله، وقد جرت هذه السُّنة بأن يأتى النسل من لقاء الزوجين وإخصاب البويضة بهذا اللقاء، بحيث لا يتكون جنين إذا لم يحدث للبويضة إخصاب.

ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى ليست مقيدة بهذه السنة الجارية ولو أنها من أمر الله! إنما الله سبحانه وتعالى يخلق بغير أسباب. يقول للشىء كن.. فيكون..

ونسمى نحن هذا الأمر خارقة! لأنها تخرق ما تعودنا عليه من سنة الله الجارية. ولكن الإعجاز فى الحقيقة قائم فى هذه وتلك! وإلا فمن الذى خلق البويضة فى رحم الأم وجعل من خصائصها أن تنجب بعد الإخصاب؟! إنه الله الذى يقول للشىء كن فيكون!

ومع ذلك يظل للخارقة وضع خاص فى حسّنا، لأنها تخالف المألوف.. ويعلم الله ذلك منا، فيجعل المعجزة دائمًا خارقة للمألوف، لتلفت حسّنا بشدة إلى الخالق الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض!

واقتضت مشيئة الله أن تكون كذلك ولادة عيسى عليه السلام..

وإذْ تكون ولادة عيسى بغير أب معروف، فإن مريم تكون حتمًا عرضة للاتهام!

بل إن أهلها هم أول من يوجه الاتهام إليها! فإنَّ فضيحتها لن تكون خاصة بها! إنما هى ستلطخ الأسرة كلها بالعار، وهى التى ورثت التقوى وحسن السمعة جيلاً بعد جيل:

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

وتتنزل رحمة الله بمريم، التى تقبّلها ربها بقبول حسن منذ مولدها، ورعاها وأكرمها، واصطفاها وطهرها.

تتنزل فى معجزة جديدة لعيسى، لا تقلّ إعجازاً ولا تقل روعة فى الحس:
﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٢٩ـ ٣٣].

﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٦].

وتتوالى المعجزات فى حياة عيسى..

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومع أن هذه المعجزات كلها قد جاءت تأييداً لرسالة عيسى عليه السلام، فإن الذين آمنوا به إيمانًا صحيحًا كانوا قلة قليلة سواء فى أثناء حياته على الأرض أو بعد رفعه منها.

فأما اليهود الذين أرسل إليهم عيسى فقد كذبوه وأبوا أن يتبعوه إلا قليلاً منهم. وقالوا: إن المسيح الذى وُعدنا به سيكون ملكًا ذا سلطان، أما هذا فقد جاء يحدثنا عن ملكوت الرب! فهو إذن ليس المسيح الموعود!

وأما النصارى فقد ألّهوه وجعلوه ابن الله..

ولنتتبّع كلا من الفريقين.

فأما اليهود فـقد كانوا ـ حتى فى حياة موسى عليه السلام ـ قـومًا ماديين. عبدوا العـجل الذهب، وظلوا من بعـدها يعبـدون المال ويتفننـون فى تحصـيله عن طريق الحرام، بأكل الربا، وأكل أمـوال الناس بالباطل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥][١].

ووصلوا إلى درجـة من قساوة القلـب وصفهـا الله فى هذه الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

فأرسل الله إليهم عيسى عليه السلام ليردهم إلى الصورة السوية التى يرضى عنها الله، فيتركوا ماديتهم الهابطة، وتلين قلوبهم بدلاً من قسوتها، ويستشعروا تقوى الله وخشـيتـه، فيكفـوا عن جرائمهـم الوبيلة التى لطخت تاريخهم كلـه.. لذلك جاء عيسى عليه السـلام يحدثهم عن ملكوت الرب، ويقول لهم: من أراد ملكوت الرب فليترك مـاله وأولاده وليتبعنى. ويحـدثهم عن الروح وصفاتها، وعن رفـعة الإنسان بالجانب المعنوى منه: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

لكنهم من أجل ذلك كرهوه!

إنهم يريدون أن يظلوا فى الدنس الذى يعيـشون فيه ولا يريدون أن يرتفـعوا عنه بحال من الأحوال. لذلك كذبوا عيسى وحرضوا على صلبه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فأما التكذيب فقد أقاموه على هذه الدعـوى المزعومة التى سبقت الإشارة إليها، وهى أن المسيح الذى ورد ذكره عندهم فى التوراة سيكون ملكًا عليهم ويجعل لهم سلطانًا على الأمم الأخرى. أما هذا فيتحدث فقط عن ملكوت الرب وليس بيده سلطان!

---

(١) مازال اليهود يعتبرون كل البشر غيرهم اميين! أو أمميين بتعبيرهم! ويعتبرون اموال البشرية كلها حلالاً لهم ولو حصلوا عليها بكل الطرق غير المشروعة.

وأما التآمر لصلبه فقد كانوا يحرضون ضده الحاكم الرومانى المسمى «بيلاطس» المولّى على فلسطين من قبل الرومان. كانوا يقولون: إنه شخص مشاغب ومهيج للجماهير! وإنه يحرضهم على عدم إطاعة القيصر الرومانى! وقد حاول بيلاطس أن يصدهم عن هذه الاتهامات، وقال لهم: إنه لم يسمع عنه إلا كل خير، وإنه يدعو إلى السلام والمحبة، فقالوا له: إن الأمن لن يستتب فى الأرض إلا إذا حوكم هذا الرجل وصلب! وإنه طالما بقى حيًا فستظل الاضطرابات قائمة من حوله! ثم لفقوا له قضية يكون من نتيجتها محاكمته وصلبه. وهم يزعمون أنهم قتلوه بالفعل فوق الصليب. ولكن القرآن يكذب ذلك تكذيبًا قاطعًا، كما تكذبه كتابات كثيرة للنصارى أنفسهم، بل إن الأناجيل ذاتها مضطربة اضطرابًا شديدًا حول هذا الموضوع. والذى حدث بالفعل هو أن الله ألقى شبهه على شخص آخر (يهوذا الأسخريوطى) فأخذ وصلب بدلاً من المسيح[1]. أما المسيح فقد رفعه الله إلى السماء ونجاه مما كان اليهود يكيدون له:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

أما قوله تعالى فى سورة آل عمران [٥٤، ٥٥]: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. فمعنى «متوفيك» هنا أنى أوفيك أيامك المقدَّرة لك على الأرض، أى أن أجله المقدَّر له فى الأرض قد انتهى ثم رفعه الله إليه، وليس معناها أنه مات، بل رُفع حيًا، ليبقى حتى ينزل مرة أخرى فى آخر الزمان ويحكم الناس بشريعة محمد ﷺ كما تقول الأحاديث الصحيحة.

وتلك معجزة من المعجزات التى صاحبت حياة المسيح عليه السلام، أو هى آخر

---

(١) ٣٠٦ يهوذا الأسخريوطى كان واحدًا من الحواريين (تلاميذ المسيح) ولكنه خانه سرًا وتآمر ضده مع اليهود. وتقول الروايات المسيحية نفسها: إنه كان أشبه الناس بالمسيح، كما تقول الروايات التاريخية الصحيحة إن عملية الصلب تمت فى الغسق أثناء دخول الظلام وإن الجماهير التى حُرِّضت ضد المسيح رأت يهوذا فحسبته هو المسيح ـ لقرب الشبه بينهما ـ فدفعته دفعًا إلى الجنود فوضعوه على الصليب. أما المسيح فقد اختفى وظل الناس يبحثون عنه فلا يجدونه.

معجزاته. فميلاده مُعْجز وكذلك توفيته أجله في الأرض معجزة، وكلاهما خارق للمألوف.

تلك قصته مع اليهود.. أما النصارى فقد انحرفوا بشأنه في اتجاه آخر.. واتخذوا من معجزاته حجة لتأليهه تارة وادعاء بنوته لله تارة أخرى.

كانت معجزة مولده أنه ولد من غير أب، فقالوا: لا يمكن أن يكون بغير أب، فهو إذن ابن الله!

ويردّ القرآن عليهم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فالخلق عند الله هو الخلق. يتم بالمشيئة وليس بالأسباب! ومشيئة الله ليست مقيدة بنوع معين من الأسباب، بحيث تعجز عن الخلق إذا لم تتوافر الأسباب المألوفة في علم البشر!

لذلك يعقب في سورة مريم (التي أوردنا نصوصًا منها من قبل) بعد تفاصيل مولد عيسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥].

وتختتم سورة المائدة بهذا الموقف المؤثر:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي(١) كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ

---

(١) يعني: أنهيت عمري المقدر لي في الأرض كما مر من قبل.

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١١٦ـ ١٢٠].

وهكذا نجد أن جهاد الرسل جميعًا متعلق بتلك القضية الكبرى: قضية التوحيد. قضية الإيمان بالله واليوم الآخر.

وأن جهدهم كله كان منصرفًا إلى إعادة الناس إلى حظيرة الإيمان بعد شرودهم عنها، وردهم إلى رؤية الحق الذى عموا عنه، والارتفاع بهم من انتكاس الحيوان إلى رفعة الإنسان، الذى شرفه الله بالخلافة فى الأرض، وفضله على كثير ممن خلق، ليقوم بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، الذى يكفل للبشر سعادتهم وطمأنينتهم فى الحياة الدنيا، ويكفل لهم فى الآخرة الجنة والرضوان.

* * *

الرسالة المحمدية
(١)
حال العالم قبل الإسلام

قبل مجيء الإسلام كانت البشرية كلها قد تردت إلى حالة شديدة من السوء، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور.

لم تكن الجزيرة العربية وحدها هي التي تسودها الجاهلية. وإنما كانت الجاهلية تعم وجه الأرض كلها بغير استثناء.

كانت هناك دولتان «عظيمتان» هما فارس والروم، تحكمان معظم الأرض المعمورة يومئذ، ولكل منهما «حضارة» تاريخية! ولكن على أي شيء كانت تقوم تلك «الحضارات»؟ وعلى أي مستوى فكري وروحي ومادي كان يعيش «الإنسان» في داخلها؟

في فارس كان كسرى هو الذي يحكم. ولكنه لم يكن ملكًا، إنما كان إلهًا..! كانت مراسيم التحية التي تقدم له أشبه شيء بشعائر التعبد! لم يكن يحق لأحد أن يدخل عليه حتى يمر بحاجب وراء حاجب، فإذا مثل بين يديه انحنى له انحناءة عظيمة، ويظل منحنيًا حتى يؤذن له بنصب قامته! فإذا تكلم قدم لكلامه بعبارات من الثناء تُشعر بالخضوع والمذلة أكثر مما تُشعر بالرغبة في الثناء! ثم إذا انصرف لم يحق له أن يعطي ظهره للإله المعبود! بل يخرج بظهره، حتى يظل وجهه هو المواجه لكسرى حتى يغيب عن ناظريه، لأنه لا يجوز في حق ذلك الإله المزعوم أن يستدبره الناس بظهورهم لأن في ذلك ما يخدش عظمته وقداسته!!

وكان الناس عبيدًا بالفعل لذلك الإله. يعيشون - أيًا كان مستواهم - على الصورة التي يسمح بها كسرى، أو تسمح بها تقاليد الملك المتوارثة منذ أجيال. وحفنة من الناس يستمتعون بخيرات البلاد، أولئك هم بلاط كسرى، المتحكمون معه في رقاب العبيد، أما بقية الشعب ففي حالة من الذل والفقر والعبودية لا تليق «بالإنسان». وكانوا يساقون إلى الحروب التي يشنها كسرى أو قواده «الطموحون» يموت منهم من يموت لغير قضية يؤمن بها، ويحيى من بقي حيًا في ذل العبودية والضياع.

مظاهر «العظمة» ومظاهر «الحضارة» كلها فى إيوان كسرى وقصره وبلاطه وكل ما يتعلق بـه، أما «الشعب» فـلا أهمية لـه إلا بمقدار ما يخـدم مصالـح أولئك السادة المتحكمين وعلى رأسهم ذلك «الإله»!

وهناك «فنون» نعم، وإنتـاج مادى.. ولكنه كله مسخـر ـ مع الناس أنفسـهم ـ لخدمة تلك المصالح المقدسة لا يخرج عنها!

أما العبادة الرسمية فهى عبادة النار!

ولهذه النار كهنة يسـهرون على إيقادها حتى لا تنطفئ.. لأنهـا إذا انطفأت كان ذلك فألاً سيئًا على الإله الجالس على عرش الأكاسرة!

وأما الأخلاق فقـد انهارت، وتفشت شيوعية مزدك بما تحـمل من إباحية وفوضى وانحلال.

أىّ هوان فكرى وروحى ومادى كان يعيش فـيه الإنسان فى ظل تلك «الحضارات العظيمة»؟!

* * *

وفى بلاد الروم لم يكن الحال أفضل من ذلك..

فالقيصر يحاط بالهالات كما يحاط كسرى.. والناس ـ كحالهم فى كل جاهلية ـ سادة وعبـيد. السادة قلة، ولكنهم يملكون كل شىء فى أيديهم، والعبـيد هم الكثرة المغلوبة على أمرها، المسخرة لمصالح السادة.

والحروب التى يشـنها القيـصر وقواده لا تنتـهى. وإليهـا يساق العبـيد ليـموتوا بالألوف ومئات الألوف.. فى سبيل ماذا؟ ما القضية التى يدافعون عنها ويموتون من أجلها؟ ومـا القيم التى يحرسونهـا؟ إنها «الإمبراطورية» ! إنهـا الأمجاد الشخـصية للقيصر والقواد! إنها شهوة الغلبة والاستعباد والإذلال والقهر! إنها البربرية الوحشية التى لا يحكمها قانون!

وهناك مثل فـارس فنون وإنتاج مـادى وعمارة للأرض.. ولكـن لمن؟ للسادة أم للعبيد؟! وما دور العبيد فيها غير خدمة الأسياد؟!

وهناك «عقيدة» محرفة تحرسـها الكنيسة ورجال الدين. والأحبار والرهبان أرباب

يحكمون عالم الروح والفكر بغير ما أنزل الله، ويأكلون أموال الناس بالباطل، فى الوقت الذى يحكم القيصر عالم الحس والمادة بالقانون الرومانى الجاهلى.. أى بغير ما أنزل الله. والناس عبيد للقيصر وبلاطه من ناحية، وعبيد من ناحية أخرى «لقداسة البابا» وَمَنْ حوله مِنَ الأحبار والرهبان.

* * *

فإذا تجاوزنا الإمبراطوريتين «العظيمتين!» وجدنا فى آسيا «الحضارة» الهندية و«الحضارة الصينية»..

ففى الهند ـ كما فى كل مكان ـ سادة وعبيد. ولكن العبيد فى الهند لهم وضع خاص. إنهم خُلقوا من قدم الإله! ولذلك فهم دنسون نجسون! وعليهم أن يحتملوا كل ما يقع عليهم من إذلال وإهانة وتعذيب، لأن هذا قَدَرُهم من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن هذا هو طريقهم الوحيد للخلاص! الخلاص عن طريق تناسخ الأرواح! فالإنسان يقضى عمره المحدد، ثم تنسخ روحه فتحل فى إنسان آخر جديد، ولكنها نفس الروح! فإذا رضى العبيد (المنبوذون) بقَدَرهم، ورضوا بالهوان والذل، وقاموا بأشق الأعمال وأقذرها، فربما.. ربما تنسخ أرواحهم فى أشخاص جدد، أرفع شأنًا من العبيد (وإن كانوا لا يصلون قط إلى مقام السادة الذين خلقوا من رأس الإله أو من ذراعيه!) فيكونون بذلك قد وصلوا إلى «الخلاص» المنشود!

وهناك «عبادات»... عبادات لا حصر لها، لآلهة لا حصر لها كذلك.. ولكنها كلها تشترك فى شىء واحد.. فى أنها ضلال، ولكن ربما كان أعجب ما فيها «بغايا المعبد»! بغايا يقمن بالبغاء فى المعبد! لوجه الإله! بل لوجه الشيطان! وربما كان أعجب ما فيها كذلك عبادة البقرة.. والتمرغ فى روثها والاستحمام ببولها.. من أجل البركة! ولو أن البقرة نطقت لسخرت من عبّادها، ولعجبت من «الإنسان» الذى كرّمه الله، كيف يرضى لنفسه بذلك الهوان!

وفى أقصى الأرض توجد الصين..

بلاد مترامية الأطراف يحكمها إمبراطور.. مقدس ككل حكام ذلك الزمان. تقدم له طقوس العبادة وتقدم له القرابين، ويخرّ الناس بين يديه ساجدين، والإله المعبود هو بوذا. تقام له التماثيل وتعبد. ينحتها الناس بأيديهم ثم يعبدونها! وفى البوذية

كما فى ديانات الهند يُحتقر الجسد ويعذب من أجل خلاص الروح. وتُحتقر الحياة الدنيا وتنبذ من أجل الحصول على الخلود.. الخلود أين؟ وعلى أية صورة؟ الخلود مع بوذا.. فى عالم الأوهام!

وهناك فنون، وهناك إنتاج مادى، وهناك «حكمة»، ولكنها كلها إلى ضياع، لأن الناس أنفسهم ضائعون!

* * *

أما الجزيرة العربية فغارقة فى الجاهلية ككل البشرية!

وتختلف الجاهليات فى صورتها الخارجية باختلاف البيئة ودرجة الحضارة المادية التى تسودها، ولكنها فى جوهر الجاهلية سواء، فالجاهلية هى الشرك، وهى الحكم بغير ما أنزل الله. و«الإنسان» فيها ضائع، تحكمه أوهام ما أنزل الله بها من سلطان، وتحكمه شريعة غير شريعة الله.

كان فى الجزيرة ألوان ثلاثة من الديانات.. كلها ضلال!

فهناك اليهود مركزون فى المدينة وما حولها، قد حرّفوا كتابهم «المقدس» منذ أجيال طويلة، وملئوه بالأكاذيب والأساطير، وغيروا فيه شرائع الله، ثم نبذوها جملةً وأصبحوا يحكّمون أهواءهم ومصالحهم، ويعبدون الشيطان فى الحقيقة بدلاً من عبادة الله.

وهناك فئات قليلة من النصارى واقعون فيما هم واقعون فيه من انحرافات.

وهناك العرب الوثنيون فى طول الجزيرة وعرضها يعبدون الأصنام، ويضعونها فى الكعبة، بيت الله الحرام، فى المكان الذى أمر إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعده ليعبد فيه الله وحده بلا شريك، المكان الذى دعا فيه إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ثم يقولون: إنهم على دين إبراهيم!

وتعشش فى رءوسهم مجموعة شتى من الأساطير!

الملائكة بنات الله... وتعبد لأنها بنات الله!

والجن ذوو نسب مع الله. ومن أجل ذلك يعبدون.

والأصنام، ينحتونها بأيديهم ويعبدونها، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وقريش تتحكم فى عقائد العرب، تأمرهم أن يطوفوا بالبيت عرايا، وتحل الأشهر الحرم، وتحرم غيرها نسيئًا، وتحل الميتة، وتحرم من الأطعمة الحلال ما تشاء.. والعرب يطيعون شريعتها الزائفة ويعصون شريعة الله!

ويئدون البنات، ويحتقرون المرأة ويظلمونها، ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويستبيحون الزنا، وتمضى حياتهم فى الشراب واللهو أو غارات السلب والنهب.. أو الفراغ! وبعض القبائل الغنية كقريش وثقيف وهوازن تشتغل بالتجارة بعض وقتها وتشتغل بالربا الفاحش فى أموال الناس، ثم تنصرف هى الأخرى إلى الفراغ!

و«الإنسان» ضائع كما هو ضائع فى كل الجاهليات..

* * *

كذلك كان حال العالم قبيل البعثة المحمدية. شرك يملأ وجه الأرض، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور.

وفى هذا الجو الحالك المظلم بعث النور.. بعث محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

(٢)
دعوة إبراهيم وبشارة عيسى
ورؤيا أم النبي ﷺ

يقول الرسول ﷺ : «أنا دَعْوَةُ أبي إبراهِيمَ، وبِشَارةُ عِيسَى، ورُؤيا أمِّي الَّتي رأت»[١].

فأما دعوة إبراهيم عليه السلام (التي سبقت الإشارة إليها) فهي المتضمنة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٩].

وأما بشارة عيسى عليه السلام فهي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

وأما رؤيا أمّ النبي ﷺ فهي عن ابن عباس: «أن آمنة كانت تقول: أتاني آتٍ حين مرّ بي من حملي ستة أشهر في المنام. وقال لي: يا آمنة إنكِ حملت بخير العالمين، فإذا ولدته فسميه محمداً واكتمي شأنك».

وهكذا التقت الدعوة والبشارة والرؤيا كأنها نقط لامعة على الأفق، تشير كلها إشارة موحدة إلى شخص الرسول ﷺ وهو بعد في ضمير الغيب، حتى ولد فانطلق منه النور.

* * *

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبراني والحاكم والبيهقي فيما رووه عن العرباض ابن سارية.

(٣)
بشارة التوراة والإنجيل

تحدثنا من قبل (فى الفصول الأولى) عن إشارات التوراة والإنجيل إلى الرسول ﷺ رغم ما أصابهما من التحريف على يد اليهود والنصارى، فإذا رجعنا فى هذا الشأن إلى القرآن نجد إشارتين صريحتين فى هذا الصدد.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وإذا كان اليهود والنصارى - خلال التاريخ - قد طمسوا تلك الإشارات الواضحة، فإنهم لم يستطيعوا محوها محواً كاملاً! وقد أشرنا من قبل إلى نسخة التوراة القديمة التى عثر عليها فى دير سانت كاترين بسيناء عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م، وفيها ذكر صريح للرسول ﷺ ثم اختفت بعد ذلك ولم يعد يرد لها ذكر!

وكان اليهود فى المدينة - قبيل بعثة الرسول ﷺ - يقولون للأوس والخزرج: لقد أظل زمان نبيّ! وسوف نقاتلكم به ونغلبكم. وإلى هذا تشير الآية القرآنية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وهم حين كانوا يقولون ذلك للأوس والخزرج لم يكونوا يرجمون بالغيب، وإنما كانوا يشيرون إلى ما هو مكتوب عندهم فى التوراة. مما يدل على أن نسخ التوراة

القديمة لم تذكر الرسول ﷺ باسمه وصفته فحسب، بل أشارت كذلك إلى مكان بعثته وإلى زمانها التقريبى، مما جعل اليهود يتوقعون قرب البعثة المحمدية. بل إن النص الذى أوردناه من التوراة آنفًا ليدل على أنهم كانوا يعرفون مكان بعثته ومكان هجرته كذلك، وذلك على الرغم مما ألقى على النص من الغموض!

أما النصارى فقد بدَّلوا فى الإنجيل لما دونوه بعد مدة من رفع عيسى عليه السلام، ثم ظلوا كلما ترجموه من لغة إلى لغة يزيدون الإشارات إلى الرسول ﷺ غموضًا، ومع ذلك فما تزال هذه الإشارة باقية فى أناجيلهم على لسان عيسى عليه السلام وهى: «سيأتى من بعدى الفارقليط» وفى بعض النسخ يضاف إلى هذه العبارة «من لا أستحق أن أحلّ سيور حذائه»[1]. ويأتى وصفه: «يملأ الأرض نورًا وعدلًا» وفى بعض النسخ: «يوبخ العالم على خطيئته، ويعلم الناس جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع من عند الله»، ومعنى ذلك أنه رسول موحى إليه من عند الله. وقد مر على ذلك قرابة عشرين قرنًا من الزمان، وما جاء إلا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً.. ولن يجىء غيره! فهو هو الذى تشير إليه أناجيلهم بلفظ الفارقليط[2].

وقد أمر موسى وعيسى عليهما السلام أتباعهما أن يؤمنوا بهذا الرسول حين يأتيهم، قيامًا بأمر الله وميثاقه مع الرسل جميعًا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولكنهم نكلوا عن أمر أنبيائهم حسدًا من عند أنفسهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) يعنى: هو أعظم منى بكثير، إلى درجة أننى لا أستحق أن أحل سيور حذائه. وذلك من تواضع عيسى عليه السلام.

(٢) كلمة يونانية معناها «الحمد» وهى أقرب شىء إلى اسم «أحمد» الذى ورد فى بشارة عيسى عليه السلام فى سورة الصف [آية رقم ٦].

(٤)
صفات الرسول ﷺ
وأحواله قبل البعثة

يختار الله سبحانه وتعالى رسله من صفوة خلقه.

والرسول ﷺ هو صفوة الأنبياء جميعًا وصفوة الخلق.

ويتولى الله سبحانه وتعالى رسله بالرعاية والتهذيب قبل بعثتهم دون أن يشعر الناس بذلك ودون أن يتوقعوا، حتى إذا بعثهم كانوا ـ نفسيًا وروحيًا وخلقيًا ـ مؤهلين لحمل الرسالة والقيام بها على الوجه الذى يريده الله منهم.

ولا يعرف الناس بطبيعة الحال ـ وإن كان الله يعلم ـ أن هذا الشخص بعينه سيكون رسولاً. ولكنهم يشعرون بصفاته المتميزة ويقدرونها، ويقولون أحيانًا: إن هذا الشخص سيكون له شأن..

وقد صدق ذلك كله بالنسبة لرسول الله ﷺ، على مستوى غير معهود فى تاريخ الرسل من قبل.

ولا نقول: إن هذا كان شعور أمه ﷺ، فربما كانت الرؤيا التى رأتها هى التى أعطتها إرهاصًا بذلك. ولا نقول كذلك: إنَّ هذا كان شعور عمه أبى طالب ولا جده عبدالمطلب، فربما كانت صلتهما المباشرة به هى التى أوحت إليهما بذلك. إنما كان هذا شعور قريش كلها على اختلاف مشاربها، كما كان هذا إحساس كل من رآه ولو مرة واحدة فى رحلة من رحلات التجارة التى شارك فيها أو طائفًا حول الكعبة أو جالسًا صامتًا لا يلهو كما يلهو الشباب من أقرانه.

لقد كان سمته، حتى فى شبابه الباكر ﷺ، سمت الرجل الوقور العميق التفكير، ومشاعره مشاعر «الإنسان».

ولقد كانت الجاهلية تعج بالمفاسد واللهو وتفاهة الفراغ، وإن لم تخلُ من رجال هنا وهناك لهم هيبة ووقار وجد. ولكن هذا الأمر كله كان نادراً شديد الندرة بين الشباب. والشاب الذى لا يلهو فى الجاهلية يكون عجيبًا! فإذا أضاف إلى جده

ووقاره أنه لا يغشى مجالس الشراب التى يغشاها حتى الشيوخ من ذوى الوقار! ولا يقارف شهـوات الجاهلية وإن كانت مبـاحة لا حجر عليـها ولا إنكار من أحد! ولا يذهب إلى تلك الأصنام المنـصوبة إلى جـوار الكعـبة، وإن كـانت مـوضع العبـادة والتقديس من الجميع! ويتعفف عن الظلم فى تلك الجاهلية التى يقول شاعرها:

ومن لم يَذُدْ عن حوضـه بسلاحِهِ يُهَـدَّمْ ومَنْ لا يَظلم الناس يُظلمِ!

إذا أضـاف ذلك وغيـره من الصـفات الكريمة النـادرة إلى الوقار والجـد فى سن الشبـاب، فلا شك أنه يلفت نظر كل من حوله، لأن أحـدًا من الشيوخ أنفـسهم لا يتوافر فيه ذلك فضلاً عن الشباب.

ثم إن صفـةً من صفـاته ﷺ كانت من البـروز والعمق حـتى إنها لفـتت نظر قـريش كلها، تلك هى الأمـانة، حتى لـقبـوه بالأمين، وكان الناس يودعـون لديه أماناتهم لـشدة اطمئنانهم وثـقتهم فى أمـانته. كـما بدا صدقـه وأمانتـه حين عمل بالتجارة مع عمه أبى طالب، بينما التجارة فى الجاهلية لا تخلو من الجشع ولا تخلو من الخداع!

ولقد كان صمته فى مجالس قريش، مع حكمته ورجاحة عقله حين يتكلم، مثار إعجاب قريش كلها وموضع تقديرها واحترامـها، حتى كانوا يستشيرونه فى أمورهم كما يُستشار الشيخ المحنك، ويرضون بحكومته فيما يحتكمون إليه من أمور.

ولعل أشهر مـا كان من ذلك هو تحاكُمُ قريش إليـه فى أمر الحجر الأسـود. فقد رأت قريش أن تعيد بناء الكعبة لما أصابهـا من تهدم فى بعض أحجارها، وأن ترفعها ضعف ما كانت عليه من ارتفاع، واتفق رأيهم جميعًا على ذلك وعملوا فيه متعاونين حتى جاء دور وضع الحجر الأسود فى مكانه، وهنا برز التنافس بين قبائل قريش كلٌ تريد أن يكون لهـا وحدها ذلك الشـرف! وظلوا فى جـدلهم أربعة أيام مـتواليـة لا يتفقـون على شىء، والمنافسة تتزايد وتحمى حـتى كادوا يقتتلون فيمـا بينهم! وأخيرًا اتفقوا على أن يـأخذوا برأى أول قادم عليهم! وكان أول قـادم - بقَدَرٍ من الله - هو الأمين. . فاسـتبشرت قـريش كلها وارتضوا حكومة الأمـين بينهم، اطمئنانًا إلى أن لديه الحل الذى يحسم النزاع ويزيل الخـلاف! وقد كان! نزع رداءه، وقال: ليـمسك رجل من كل قبيلة من قريش بطرف الرداء، ففعلوا فـقام إلى الحجر الأسود فوضعه بيديه فوق الرداء، وقـال: احملوه إلى المكان الذى سيوضع فيـه حتى إذا فعلوا ذلك

مشتركين ومتعاونين أخذ الحجر الأسود بيديه الكريمتين فوضعه فى مكانه من الكعبة. وبذلك اشتركت قريش كلها على قدم المساواة فى شرف رفع الحجر، ثم اختص الأمين - برضاهم - بشرف وضعه فى مكانه. وعاد الكل راضين مستروحين لقضاء الصادق الأمين.

وفى وصف خديجة رضى الله عنها له ﷺ حين أخذت تطمئنه وهو يرتجف من شدة المفاجأة حين نزل الوحى عليه أول مرة ما يعطي صورة عن أخلاقه ﷺ وانعكاسها في نفوس الناس. إذ تقول له: «**لا والله لا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّك تَصِلُ الرَّحِمَ وتَصْدُقُ الحديثَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتُكْسِبُ المَعْدُومَ وتَقْرِي الضَّيْفَ وتُعِينُ علَى نوائبِ الحَقّ**»(١).

وكان ﷺ يُكثر - فى صمته - من التفكير والتأمل، وعُرِفَ عنه أنه كان يتحنَّث شهراً كلَّ سنة فى غار حراء، فى عزلة عن الناس، يتعبد على دين إبراهيم، بعيداً عما أصاب هذا الدينَ من تشويه وتحريف على يد الجاهلية الوثنية السائدة..

لقد كان الله يُعدُّهُ لذلك الأمر الخطير... أمر الرسالة الموجَّهة إلى كل البشرية..

* * *

(١) رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها.

فأما الأناجيل فى تزويرها لسيرة عيسى عليه السلام فلا تقلّ نكرًا وإن كان على صورة أخرى! وأىّ شىء أشد نكرًا من تأليه عيسى وادّعاء بنوته لله؟! ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ـ ٩١].

ذلك ما أصاب سير الأنبياء من قبل من نسيان أو تحريف، فأما سيرة الرسول ﷺ فقد صانها الله عن العبث وعن النسيان، ووكلها ـ بقدر منه ـ إلى أمة ذات قدرة غير عادية على حفظ الروايات والنصوص، ومن ثَمّ بقيت محفوظة على مدار التاريخ. وبذلك فهى السيرة القطعية فى التاريخ كله التى يمكن الوثوق بوقائعها وأحداثها ونسبتها إلى صاحبها ﷺ.

ومن خلال هذه السيرة ـ ومن خلال القرآن كذلك ـ حفظت اللمحات الصادقة من سير الأنبياء من قبل، فلا حقّ يوثق به من سير أولئك الأنبياء إلا ما ورد فى القرآن أو الحديث. وفضلاً عن ذلك فإننا نستطيع أن نقرأ فى سيرة الرسول ﷺ سير الأنبياء جميعًا، فقد تجمّع فى حياته ﷺ ما تفرق فى حياة الأنبياء من قبل!

* * *

(٦)
شخصية جامعة

إن شخصية الرسول ﷺ هى أعظم شخصية فى تاريخ البشرية كله، لا بالنسبة للعظماء من البشر فقط، بل بالنسبة للأنبياء والرسل كذلك، بما فيهم الرسل أولو العزم.

فإذا قسنا بمقاييس العظماء من البشر، فإننا إذا وجدنا قائدًا سياسيًا فى أمة نذر نفسه للقيادة السياسية وانقطع لها، فوجد أمته فى شتات، لا يربط بينها رباط، ولا تجتمع على كلمة ولا هدف، فاستطاع من خلال قيادته الحكيمة، وتأثير شخصيته أن يجمع الأمة من شتاتها، ويوجد لها الرباط الذى يجعل منها أمة متماسكة، ووحّد كلمتها، ورسمَ لها هدفًا تتجمع حوله فتنسى خلافاتها وتتآلف قلوبها.. ثم برز إلى المعترك الدولى بهذه الأمة بعد توحيدها، فأحلها مكانًا مرموقًا بين دول العالم وشعوبه، وجعل لها احترامًا وتقديرًا بينهم.. فبماذا نسمى ذلك القائد السياسى فى لغتنا، وكيف نصفه؟ ألا نقول: إنه رجل عظيم؟ وهو قد انقطع لهذه المهمة وحدها دون سواها؟

فكيف إذا كان هذا جانبًا واحدًا من جوانب متعددة تشملها شخصية الرسول الأعظم ﷺ، وكيف إذا كان وهو لم ينقطع لهذه المهمة وحدها، قد بذّ فيها أىّ سياسىّ فى التاريخ ممن تخصصوا فى القيادة السياسية فحسب؟

وإذا وجدنا مصلحًا اجتماعيًا وجد المظالم والانحرافات الاجتماعية متفشية فى مجتمعه، الأنانية هى رائد الأفراد، والأثرة هى رائد الجماعات. القوىّ يظلم الضعيف، والغنى يأكل الفقير، والمجتمع أفراد وجماعات متفرقة، تتناحر فيما بينها على السلطة أو المال أو الجاه؛ نهازون للفرص كلهم، لا يرعى أحدهم لأخيه حقًا ولا يرقب فيه إلاً ولا ذمة.. فنذر نفسه لإقامة العدل الاجتماعى وإزالة الانحرافات من مجتمعه، وأوجد التوازن المنشود بين الفرد والمجتمع، وبين الحاكم والمحكوم، وجعل أغنياء الأمة يتعاطفون مع فقرائها ويشركونهم فى جانب من أموالهم، فيعيش المجتمع كله كأنه أسرة واحدة كبيرة، متكافلة متعاونة متحابة. فكيف نسمى ذلك المصلح فى لغتنا، وكيف نصفه؟ ألا نقول: إنه رجل عظيم؟!

تخصصوا لها ووهبوا أنفسهم لها على حدتها.. فكيف نسمى من جمع فى شخصه الكريم هذه الشخوص كلها، وكل واحد من بينها عظيم؟!

على أن عظمة الرسول ﷺ لا تكمن فى اجتماع هذه الشخوص المتعددة فى شخصه الكريم فحسب.. بل هناك درجة أعلى من العظمة، هى أن هذه الجوانب كلها لم يشغله واحد فيها عن الآخر! فعمل القائد السياسى لم يشغله عن عمل القائد الحربى، ولا عن عمل المصلح الاجتماعى، ولا المصلح الأخلاقى، ولا عن عمل المربى، ولا عن عمل العابد.. بل لم يشغله ذلك كله عن أسرته وزوجاته وبناته، فكان نعم الزوج، ونعم الأب، ولو أن إنسانًا تفرغ فقط لمطالب أسرة فى حجم أسرة الرسول ﷺ فعدل فيها عدله وأعطاها ما أعطى الرسول أسرته من الرعاية والحب، ألا نقول: إنه إنسان عظيم! فكيف إذا كانت هذه الأمور كلها لا يلهيه جانب منها عن الجوانب الأخرى، وهى تنوء بالمختصين فيها، المنقطعين عن الجوانب الأخرى؟

كان يتعبد حتى تتورم قدماه ﷺ، وحتى تشفق عليه عائشة رضى الله عنها من الجهد، فتقول له: هوِّن على نفسك فقد غفر لك الله من ذنبك ما تقدَّم وما تأخر، فيقول لها ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟!».

ومع هذه العبادة التى يعجز عنها المنقطعون لها وحدها، فهل طغى هذا التعبد على مهامه الأخرى ﷺ، فلم يعط القيادة السياسية حقها، أو التربية الخلقية، أو تربية المقاتلين فى سبيل الله، أو تربية أولئك الأفذاذ الذين كانوا قادة التاريخ فى كل ميدان، كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وعكرمة، وأسماء وسميّة.. ومئات غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم؟!

كلا! وإنها لعظمات بعضها فوق بعض، تجتمع كلها فى شخصه الكريم..

فإذا قسنا هذه الشخصية الفذة بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فنحن على ذات المستوى من العظمات.

إن شخصية الرسول ﷺ وحياته وسيرته قد جمعت ما تفرق فى الأنبياء الآخرين مما تميزوا به.

فإذا كانت حياة نوح عليه السلام قد تميزت بطول صبره على صد قومه مع عدم

الانقطاع عن دعوتهم، وإذا كانت حياة إبراهيم عليه السلام قد تميزت بحلمه وأناته، والرفق فى توصيل الحق إليهم، مع الامتثال الكامل لأمر الله والإسراع إلى طاعته، وإذا كانت حياة موسى عليه السلام قد تميزت بالقيادة الحكيمة التى ارتبط بها بنو إسرائيل حتى خرجوا من الاستضعاف والذل إلى الحرية والكرامة، وتكونت منهم أمة تحكم بشريعة الله، وإذا كانت حياة عيسى عليه السلام قد تميزت بجانبها الروحانى الشفيف اللطيف، فى مواجهة المادية الطاغية التى كانت تسود وجه الأرض، وتربية مجموعة من التلاميذ (هم الحواريون) على درجة عالية من الخلق والروحانية والطاعة لتعاليم رسولهم.. فإن حياة الرسول ﷺ قد استوعبت ذلك كله فى طياتها، وكان أثره فى كل جانب من هذه الجوانب أعظم من كل من سبقوه من الرسل الكرام. وذلك كله من فضل الله عليه وهو يعده للرسالة الخاتمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩].

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

* * *

(٨)
خصائص الرسالة المحمدية

الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة، وبها كمل الدين وتمت النعمة الربانية على البشرية. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

وتتميز الرسالة المحمدية عن الرسالات السابقة كلها بجملة خصائص:

١ ـ ختمها للرسالات السابقة ونسخها لها:

محمد رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ويقول الرسول ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء منْ قَبْلي كَمَثَل رَجُلٍ بَنى بُنيانًا فأَحسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلا مَوضعَ لَبِنَة منْ زاوية من زَوَاياه، فجَعَلَ الناس يطوفونَ به ويَعجبون لهُ ويَقُولونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟ فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتمُ النبيِّين»[1].

ورسالته هي الرسالة الخاتمة الناسخة لما قبلها: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فهو مصدق لها فى العقيدة. فالكتب كلها تقول: إنه لا إله إلا الله وحده بلا شريك، والقرآن يقول نفس الشيء. والكتب كلها تقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ والقرآن يدعو نفس الدعوة. ولكن القرآن مهيمن على ما بين يديه من الكتب فى شأن التشريع، فهو يحمل الكلمة الأخيرة المنزلة من عند الله، وشرعه هو الشرع الواجب الطاعة، ومن ثم فهو ينسخ كل ما أتى قبله مخالفًا له.

وعلى هذا المعنى تفهم أيضًا هذه الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

---

(١) رواه مسلم.

فهم مطالبون بإقامة التوراة والإنجيل فى أمر عبادة الله الواحد بلا شريك (ردًا على قول اليهود: عُزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله). وفى أمر الاعتراف برسالة محمد ﷺ لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل باسمه وصفته ومكان بعثته ومكان هجرته. ثم هم مطالبون بإقامة ما أنزل إليهم من ربهم ـ أى القرآن ـ عقيدةً وشريعة. وإلا فهم ليسوا على شيء كما تصفهم الآية، أى ليسوا على دين صحيح يقبله الله منهم.

٢ـ دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

والرسالة المحمدية هى الرسالة الوحيدة التى يؤمن أتباعها بالرسل جميعًا وبما أنزل إليهم! فقد كفر اليهود بعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، وكفر النصارى بمحمد ﷺ وآمنوا بعيسى، ولكن لا على أنه رسول بل على أنه إله وابن الله! أما المسلمون فهم وحدهم الذين يؤمنون بالرسل جميعًا من لدن آدم ونوح إلى محمد ﷺ. ويصف الله المتقين الذين آمنوا برسول الله ﷺ وأصبحوا مسلمين بأنهم: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٣، ٤].

وتلك مزية اختص الله بها هذه الرسالة وأتباعها. فقد قدَّر الله لهذه الأمة أن تسود فى الأرض: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

وعلم الله سبحانه وتعالى أن هذه الأمة ستواجه شعوب البشرية كلها ودياناتها جميعًا، وأنه سيدخل فى ذمتها يهود ونصارى. ويريد الله أن تكون هذه الأمة قائدة ورائدة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن طبيعة المعجزة الحسية أن تكون محصورة فى نطاق ضيق، هو نطاق المشاهدين الذين يستطيعون أن يروها بأنفسهم أو يسمعوا من قريب عن حدوثها، لذلك كان طبيعيًا أن يعرض الرسول معجزته على «قومه» خاصة لأنهم هم القريبون منه الذين يتسنى لهم رؤية المعجزة أو السماع عنها.

ثم يعلم الله سبحانه وتعالى أن البشرية ستنضج ذات يوم فلا تصر على المعجزة الحسية، المحدودة النطاق بطبيعتها، وإنما يتيسر لهم أن يؤمنوا بمعجزة من نوع آخر، غير محدود النطاق[1]، فيرسل بها رسوله ﷺ يبلغ بها العالمين.

والله هو الأعلم بخلقه، وبما يصلح لهم فى كل حين من الزمان: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٤ - شمولها لمطالب الحياة البشرية فى جميع الميادين:

كما كانت الرسالات السابقة محدودة فى المكان فقد كانت كذلك محدودة فيما تشمله من نواحى الحياة البشرية.

لقد جاءت كلها شاملة للقضية الكبرى التى لا تستقيم حياة البشر من غيرها فى الدنيا ولا فى الآخرة، تلك هى قضية الألوهية: لا إله إلا الله، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. ثم جاءت - إلى جانب ذلك - بإرشادات وتشريعات تناسب حالة القوم الذين بعث الرسول إليهم، وتصلح المفاسد الموجودة لديهم، كما بعث شعيب يقول: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣].

وبعث لوط يقول: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

ثم جاءت التوراة شاملة لكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولكنها محدودة بقوم معينين، هم بنو إسرائيل، وزمن معين مقدر فى علم الله، لذلك تعد تشريعًا خاصًا بهم، يلائم أحوالهم الخاصة، ويراعى تقسيماتهم السبطية (نسبة إلى

---

(١) سنتكلم فيما يلى عن المعجزة عامة والمعجزة القرآنية خاصة.

الأسباط الاثنى عشر وهم أولاد يعقـوب عليه السلام) ويكلف كل سبط منهم بمهمة معينة فى حياة تلك الجماعة المحدودة المحصورة.

وجاء عيسى عليـه السلام يقول لهم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]

فالإنجيل يعتبـر مكملاً للتـوراة فى الواقع وتعديلاً جزئيًـا لبعض أحكامـها، أو تخفيفًا لبعض العقوبات التى فرضت على بنى إسرائيل من جراء ظلمهم.

ثم جـاء الوقت الذى يعلم الله أن البشـرية قد تهـيأت فـيه لتلقـى رسالة عـامة شاملة، وقـدر الله أن تبقى هذه الرسـالة فى الأرض إلى يوم القيـامة، فـأصبح من المناسب لهذه الرسالة ـ الـشاملة للبشرية كلها ـ أن تكون شـاملة كذلك لكل مطالب البشرية فى جميع الميادين.

وهذا هو الحق بالنسبة للرسالة المحمدية.

إنها تشـتمل بادئ ذى بدء ـ كـالرسالات كلها ـ على القـضيـة الكبرى، قضـية الألوهية (وسنتكلم عـن هذه النقطة بشىء من التفصـيل فى فقرة تاليـة)؛ لأنها هى المقوّم الأول من مـقومات الحـياة البـشرية، التى لا يستـقيم بدونهـا أىّ إصلاح فى الأرض، ومن ثم فهى المطلب الأول من مطالب الإنسان الصالح فى الحياة الدنيا.

ثم تشتمل بعد ذلك على تشريعات وتوجيهات فى كافة شئون الحياة: السياسية[1] والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والخلقية.. إلخ.

ولا يتسع المجال فى هذا الكتاب لدراسة مفصلة لتلك الجوانب كلها، فهى مجال المتخصصين فـى دراسة الشريعة الإسلامية والفـقه الإسلامى، ولكنا نشير فـقط فيما يتعلق بدراستنا الحاضرة إلى ثلاثة أمور:

١ ـ أنه لا يوجد جانب من جـوانب الحياة البشرية عـلى الإطلاق لم يتعرض له الإسلام بتشريع أو تنظيم، فـهو بصفة عامة ينظم علاقـة الإنسان بربه (وهى العبادة بشتى أنواعها وفى مقدمتها الاعتقاد بوحدانية الله والالتزام بطاعته)، وعلاقة الإنسان بنفسه (وهى التـزكية التى تشيـر إليها الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩].

---

(١) مما يلاحظ فى التوراة أنهـا لم تتعرض لأى تنظيـمات سياسـية على نطاق «أمة» إنما ورد فيـها تنظيم للعلاقات الداخلية بين أسباط بنى إسرائيل فحسب.

وذلك كالنواحى السياسية والاقتصادية التى تتغير صورتها على الدوام من جيل إلى جيل. ولكنها، رغم تغيرها، ينبغى أن تلتزم بأصول ثابتة، فالصورة السياسية مثلاً تتغير، ولكن الحكم بما أنزل الله لا بأى شريعة أخرى مسألة لا يجوز أن تتغير.. ومبدأ الشورى لا يجوز أن يتغير. والحكم بين الناس بالعدل لا يجوز أن يتغير. ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجوز أن يتغير، وكذلك فإن الصورة الاقتصادية تتغير بتغير ما يستغل من طاقات السماوات والأرض، ولكنها فى تغيرها ونموها المستمر لا ينبغى أن تخرج عن الأصول العامة التى تحكمها، كتحريم الربا والاحتكار والغصب والسلب والنهب والغش والسرقة فى أى صورة من صورها، كما ينبغى ألا يُكنَز المال وألا يُستَخدم فى المعصية، وأن تؤدى زكاته، وأن يُنفَق منه فى سبيل الله.

وبذلك تتحقق لهذه الشريعة صفة المرونة فى الأمور المتغيرة مع ثبات الأصول العامة التى تحكمها.

٣ - أن هناك أمورًا متروكة لم يرد بشأنها نص وهى التى قال عنها الرسول ﷺ: «إنَّ الله تَرَكَهَا رَحْمَةً بالنَّاسِ غَيْرَ نسْيَان»[1]. وهذه تتسع لما يجدّ فى حياة الناس من مخترعات ومكتشفَات وتَنظيمات، وهى متروكة للاجتهاد بما لا يتعارض مع نص من نصوص الشريعة.

بهذه الصورة المعجزة يتسع الإسلام لكل نمو البشرية منذ نزول هذه الشريعة إلى أن تقوم الساعة. لا يقف فى سبيل نموها السليم، وإنما يقف فقط فى طريق انحرافاتها فيقوّمها، لأن غايته الأصلية هى تقويم حياة البشر على الأرض فى جميع العصور، حتى يكون الإنسان دائمًا كما خلقه الله، وكما أراده أن يكون: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦].

فلا يقف الإسلام فى سبيل التقدم العلمى والتقدم الحضارى. بل إن الإسلام هو الذى بعث المسلمين لينشئوا حركة علمية ضخمة، كان من أهم آثارها المنهج التجريبى فى البحث العلمى، الذى تعلمته أوربا على يد المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وجنوب إيطاليا الإسلامى، والذى قامت عليه نهضتها

---

(١) رواه الحاكم من حديث طويل له.

العلمية الحاضرة. والإسلام هو الذى أنشأ حضـارة تاريخية ضخمة أنارت العالم كله وقت أن كانت أوربا تعيش فى ظلام القرون الوسطى، المظلمة بالنسبة إليهم، المزدهرة بالنسبة للإسلام. وكان أروع ما فى هذه الحضارة أنها تعمر الأرض بأقصى ما فى طاقة البشر من قدرة على التعمير فى جميع الميادين وجميع الاتجاهات، ولكن دون أن تقطع ما بين الإنسان وخالقه، كما تصنع الحضارة الجاهلية المعاصرة فى الغرب، ودون أن تقطع ما بين الحياة الدنيا والآخرة، كما تصنع تلك الجاهلية، فتدفع الناس دفعًا إلى التكالب المزرى على شهوات الأرض، وعلى تحطيم كل القيم الفاضلة فى سبيل ذلك المتاع الرخيص، وما ينشأ عن ذلك حتمًا من فساد الفطر وفساد الأخلاق والصراع الرهيب الذى يهدد الأرض بالدمار!

كلا! إن الإسلام ينشئ حضارة من نوع آخر، أثمن وأعلى، حضارة تعمر الأرض، ولكنها تعمرها بمقتضى المنهج الربانى، فلا تحرم الناس من المتاع الطيب، ولكنها تحافظ على كيانهم الإنسانى وهم يتناولون ذلك المتاع، ولا تهبط بهم إلى مستوى الحيوان: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

٥- منهجها الفكرى:

تميزت هذه الدعوة كذلك بأن لها منهجًا فكريًا فى البحث عن الحق.

إن هذه الدعوة تخاطب الإنسان كله، وجدانه وفكره على السواء. وكما يستثير القرآن وجدان الإنسان لينفعل بمشاهدة آيات الله فى الخلق فيحس بعظمة الخالق وقدرته المعجزة، فيخضع وجدانه لعظمة الله ويستسلم له، فكذلك يوقظ القرآن عقل الإنسان ليتدبر، وليناقش الأمور مناقشة فكرية منطقية هادئة تصل به إلى اليقين.

فبينما يخاطبه، لإثارة وجدانه، بمثل هذه الآيات: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا

رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩ـ ٦٤].

فإنه يخاطبه لإيقاظ عقله بمثل هذه الآيات: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

إن هذه الآيات وأمثالها تكوّن فى مجموعها منهجًا فكريًا للوصول إلى الحق يمكن تلخيصه فى هذه النقاط:

١ ـ التخـلى عن التقليـد الأعمى والموروثات الفـاسدة التى لا تقـوم على دليل ولا برهان.

٢ ـ عدم اقتفاء أىّ فكرة قبل تمحيصـها وعرضها على البرهان والمنطق، لأن الإنسان مسئول عن تفكيـره واعتقاده، لأن الله أعطاه سمعًا وبصرًا وعقـلاً ليفكر لنفسه ويتدبر، ويوم القيـامة سيسأل سمعـه وبصره وعقله: كيف اقتـفى شيئًا دون أن يعرف حقيقته؟

٣ ـ التـدبر فى كل الأمور بالمنطق الـعقلى، وعـدم اتخاذ المواقف بدافع الهـوى لأن الهوى يعمى الإنسان عن الحق.

فإذا اتبع الإنسان هذا المنهج، فألقى عنه موروثاته التى لا تقوم على دليل، وكف عن التقليـد الأعمى، ورفض أن يتبع شيـئًا يُعرض عليـه إلا ببرهان، ثم راح يفكر بالمنطق بعيدًا عن الهوى فإنه لابد واصل بإذن الله إلى الحق.

وقد تميـزت هذه الدعوة بمنهجهـا الفكرى هذا عن سائر الرسالات قبلهـا، حيث كانت المعجزات الحسيـة هى الدليل على صدق الرسول المرسل من عند الله، وكانت وسيلة الناس إلى التصديق هى مشاهدة المعجزة أو السماع بها.

أما هذه الدعـوة التى أراد الله لها أن تبـقى حتى يرِثَ الله الأرض ومن عليـها، فقد جعلها ـ سبحانه وتعالى ـ موجـهة إلى العقل، لتخاطب أجيال البشرية كلها منذ نزولها إلى آخر الزمان، لا عن طريق شىء حـسى يراه جيل بعينه، ولكن عن طريق أداة دائمة فى تركيب الإنسان وهى العقل. والعـقل مصاحب للإنسان فى كل أجياله وفى أى مكان يكون فيه. ومن ثم تخاطبه هذه الرسالة وتدعوه إلى التصديق بها عن طريق هذه الأداة الكامنة فى تركيبه، فلا يجد مـفرًا ـ لو أخلص فى استخدام عقله ـ من التسليم بما فيها من حق.

والقـرآن لا يطالب الناس بالتـسليم الأعـمى بشىء على الإطلاق، بل يطالبـهم بالتدبر والتفكر فى كل القضايا ـ حتى قضـية الألوهية الواجبة التسليم ـ لكى يسلِّموا عن اقتناع، فيبقى التسليم راسخًا لا يهتز ولا يتقلقل.

قضيـة الألوهية، قضيـة الرسالة، قضيـة الوحى، قضية البـعث ـ وهى كلها من أركان الإيمان الأسـاسيـة ـ لم يطلب القرآن التـسليم بها بلا دليل! إنما قـال للناس:

فكروا وتدبروا ثم اسألوا أنفسكم بعد التفكر والتدبر، أإلهٌ مع الله؟! أيعجز الله عن إرسال الرسل وتنزيل الوحى وإحياء الموتى ومحاسبتهم؟! فإذا كان الجواب الذى يصل إليه العقل هو النفى، فقد وجب الإيمان إذن ووجب التصديق.

وليس معنى ذلك أن العقل البشرى يستطيع أن يحيط علمًا بكل شىء، فإن له حدودًا لا يستطيع أن يتجاوزها مهما حاول. ولكن المعنى أن الإسلام قد دعا العقل البشرى أن يعمل فيما هو متاح له، ليصل إلى اليقين فى تلك الحقائق الرئيسة الكبرى التى تكوّن أساس الإيمان، وأن الإسلام قد تفرد بهذا بين الرسالات.

على أن المنهج الفكرى الذى تتميز به هذه الدعوة الإسلامية لا ينحصر فيما يتعلق بأمور العقيدة، بل يمتد فيشمل ميادين أخرى.

فإذا كان القرآن قد طالب العقل البشرى بأن يتدبر آيات الله فى الكون ليتعرف على الخالق الذى له ملك السماوات والأرض وهو على كل شىء قدير، فقد طالبه كذلك بالتفكر فى تلك الآيات ليتعرف على السنن الربانية التى تحكم سير هذا الكون، ليتمكن من استخدام ما سخر الله له فى هذا الكون من طاقات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ [البقرة: ١٨٩].

«لَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ داءٍ دواءً فإذا مَرِضْتُم فَتَدَاوَوْا...»(١).

وإنَّ أمثال هذه التوجيهات فى القرآن والسنة التى لا تكتفى بطلب مشاهدة الأشياء بل تلفت النظر إلى عللها، لهى التى بعثت الأمة الإسلامية تطلب العلم من مصادره التى كانت متاحة يومئذ، ثم تنشئ من بعد حركتها العلمية الذاتية التى تتلمذت عليها أوربا فأنشأت نهضتها.. وكان أبرز ما فيها منهج المشاهدة والملاحظة والتجريب، الذى يقوم على أساسه كل التقدم العلمى الحاضر.

---

(١) رواه مسلم.

كذلك يطلب القرآن من العقل البشرى أن يتأمل فى حكمة التشريع (بقدر ما يُتاح له) حتى إذا طبقه كان تطبيقه واعيًا متفهمًا، فتختتم كثير من آيات الأحكام بمثل هذا التعقيب: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور: ٦١].

وهذا التوجيه هو الذى أنشأ الفقه الإسلامى، وهو أثمن ما أنتجه العقل المسلم من روائع، وما يزال هذا النتاج حيًا وقابلاً للحياة والنمو ما دامت الحياة..

كما أن الإسلام وجَّه العقل البشري إلى تدبر السنن الربانية التى تسيِّر حياة البشر على الأرض: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٣].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

«لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوف ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ أو ليوشِكَنَّ اللهُ أن يَبْعثَ عليكُمْ عقابًا منه ثم تَدْعونَه فلا يُستجابَ لكم»(١).

والغرض من هذه التوجيهات هى أن يعرف الإنسان أن حياته لا تمضى بلا ضوابط، وأنه ليس معفىً من نتائج عمله. بل إن كل عمل يعمله الإنسان فردًا أو جماعة له عواقبه سواء فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة، حسب سنن ربانية لا تتبدَّل ولا تتحول ولا تحابى فردًا ولا جماعة. فمن أجل ذلك عليه أن يتدبر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه، ويتدبر عواقب عمله قبل أن يقدم عليه.

---

(١) رواه الترمذى.

كـذلك يطلـب الإســلام مـن العقـل البشـرى أن يتـدبر عـبـرة التـاريـخ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فالمطلوب إذن هو دراسة التـاريخ لا على أنه مجموعة من الحوادث حـدثت بغير رابط ولا دلالة، ولكن على أنه يجرى حسب السنن الربانيـة الثابتة، وأن هناك رباطًا يربط الأحداث هو قدر الله المقدور، الذى يسير حسب تلك السنن الثابتة، فإذا تدبَّر العقل ذلك ووعى عبرة التاريخ، فإنه قمين ألا يقع فيما وقع فيه السابقون من أخطاء وخطايا، بل يقوّم خطاه بحـيث لا تصطدم مع السنن الربانية، فيسيـر آمنًا فى الحياة الدنيا، وفى طريق يؤدى به إلى الأمن فى الدار الآخرة.

وعلى ذلك يمكن تلخـيص المجالات التى يطلب الإسـلام من العقل البـشرى أن يتفكر فيها بهذه المجالات الخمسة:

١ ـ التدبر فى آيات الله فى الكون للتعرف على الخالق والإيمان به والتسليم له.

٢ ـ التدبر فى آيات الله فى الكون للتعرف على السنن التى تسيّر الكون لاستخلاص طاقاته وتسخيرها لعمارة الأرض.

٣ ـ التدبر فى حكمة التشريع لإحسان تطبيقه على الأحوال المتجددة فى حياة الناس.

٤ ـ التدبر فى السنن الربانية التى تسير حياة الناس فـى الأرض بمقتضاها لتقويم حياة المجتمع البشرى.

٥ ـ التدبر فى عـبر التاريخ والاسـتفادة منهـا فى تجنب الأخطاء، والاستقـامة على الطريق الصحيح.

وذلك أوسع مجال يمكن للفكر البشرى أن يعمل فيه العمل المثمر المفيد.

٦- غنى مصادرها التشريعية:

مما تميزت به هذه الدعوة كذلك غنى مصادرها التشريعية. فالرسالات السابقة كلها تجد تشريعاتها محصورة فى الكتاب المنزل فحسب. أما هذه الدعوة التى لم تنزل لقوم محدودين ولا لفترة من الزمان محدودة، وإنما نزلت للبشرية كافة ولأمد من الزمن ممتد إلى قيام الساعة، فقد خصها الله بسعة فى المصادر التشريعية تلائم سعة رقعتها وامتداد زمانها، فنجد مع الكتاب سنة الرسول ﷺ تفصل ما أجمله الكتاب وتبين أحكامه تارة، وتستقل بتقرير الحكم تارة أخرى. فقد فرض الله الصلاة - مثلاً - ولكن أحكام الصلاة بيَّنتها السنة. وكذلك الأمر فى الزكاة، فالسنة هى التى فصلت أحكامها وأنواعها ومقاديرها. واستقلت السنة ببعض الأحكام كحد الردة وحد الخمر وحكم الرجم للزانى المحصن، وأحكام البيع والشراء.. إلخ.

وإلى جانب الكتاب والسنة فباب الاجتهاد مفتوح فيما لم يرد فيه نص، أو فى طريقة تطبيق النص على حالة لم تقع فى عهد الرسول ﷺ، وهذا هو الذى كفل لهذه الشريعة أن تتسع للنمو الدائم فى حياة البشر ولا تضيق عنه، وجعل الحياة فى ظلها تتحرك وتنمو أبدًا ولا تتجمد، وهو ما لم يكن متاحًا للدعوات السابقة لأن الله قدر لها فترة محدودة من الزمن تنسخ بعدها، أما هذه الرسالة فلا ناسخ لها، لذلك وهبها الله القدرة على الامتداد ومواكبة الحياة المتجددة على الأرض.

ويعد العلماء مصادر التشريع فى الإسلام بهذه الأصول الأربعة:

(أ) الكتاب.

(ب) السنة.

(جـ) والإجماع.

(د) والقياس.

٧- موافقتها للفطرة البشرية:

حين نقول: إن هذه الرسالة تميزت بموافقتها للفطرة البشرية فليس معنى هذا أن الرسالات السابقة مخالفة للفطرة أو مجافية لها. فكل الرسالات من عند الله أصلاً (وإن كان قد أصابها التحريف فيما بعد) ولكن الرسالات السابقة كما أسلفنا قد

روعى فيهـا أنها جاءت لقوم مـحدودين، ولفترة من الزمن مـحدودة، لذلك كانت كلها تعـالج أمورًا محليـة وجزئية. أمـا هذه الرسالة العالميـة الممتدة فى الزمن فـقد جاءت لتعالج أمر الإنسان كله، بصـرف النظر عن جنسه أو لونه أو لغته أو زمانه أو مكانه.. ومن ثم فهى تتـعامل مع الفطرة الإنسانيـة ذاتها فى جميع أحـوالها لا مع البيـئة ولا الزمـان ولا المكان، فروعى فـيهـا من لدن منزِّلها جلَّت قـدرته أن تكون موافقة للفطرة تمامًا ومتلبسة بها.

إن الله هو خالق الفطرة البشرية العليم بما يصلحـها، وما يصلح لها. وهو منزِّل هذا الدين. نزّله على علم. وفصّله على قدّ الإنسان: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

وكلمـا مر الـزمن، وتقلبت البـشرية فى الـنظم الجاهليـة بعيـدًا عن منهج الله فأصـابتها الاضطرابات والانحـرافات، تبين لنا ما كـان خافيًا عـلينا من حكمة هذا الدين فى موافقته للفطرة البشرية وتقويمه لانحرافاتها.

إن فى الفطرة البشرية كما خلقها الله مجموعة من الدوافع أودعها الله فى الفطرة لتعين الإنسـان على القيـام بما كلف به من أمر الخـلافة فى الأرض، كـدافع الطعام والشـراب والملبس والمسكن والجنـس والتمـلك وإثبـات الذات.. إلخ. ولكن هذه الدوافع مع ضرورتها لعمارة الأرض خطيرة على الكيان البشرى إذا تركت بلا ضابط يضبط منطلـقها. فعـندئذ تتحول إلى شـهوات جامـحة لا يملك الإنسان نفـسه من سلطانها. والنظام الأمثل هو الذى يسمح لهذه الدوافع بالقدر المعقول من الحركة فلا يعطلها ولا يكبـتها من أصـولها، وفى الوقت ذاته يضبط منطلـقها فلا تتـحول إلى شهوات، فيـأخذ الإنسان نصيبه من المتـاع الطيب، وينضبط سلوكه فى ذات الوقت فى الحدود التى لا تعود عليه بالعطب والدمار.

وذلك بالضبط هو ما صنعه الإسلام.

يتيح للدوافع كلها أن تعمل، لا يستقذر شيئًا منها ولا يستنكره، وفى الوقت ذاته يعمل على تهذيب هـذه الدوافع والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسـان من رفعة فى حدود كيانه البـشرى، فلا تصبح شهوات جامحة وإنما رغبـات منضبطة بالحدود التى رسمهـا الله ـ بعلمه وحكمتـه ـ وقال عنها: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧]. و﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

لذلك لا يُقرّ الإسلام الرهبانية، لأنها تعطل دوافع الفطرة وتكبتها.

ذَهَبَ ثلاثةُ رَهط إلى بيت منْ بيوت رسولِ الله ﷺ فسألُوا عن عبادته ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها[1]، فقال أحدهم: أما أنا فأصومُ الدَّهرَ ولا أفطر، وقال الآخر: وأما أنا فأقُومُ الليل ولا أنامُ، وقال الثالثُ: أمّا أنا فلا أتزوَّجُ النساء. فلما سَمعَ بهِم رسولُ الله ﷺ قالَ لَهُمْ: «أمَا والله إنى لأخشَاكُمْ لله وأتقَاكُمْ لَهُ، ولكنّى أصومُ وأُفطِرُ، وأصلّى وأرقد، وأتزوَّجُ النساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتى فَلَيس منّى»[2].

كذلك لا يُقرّ الإسلام الانفلات مع الشهوات الجامحة كما تصنع الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة، فتفسد الفطرة وتفسد الأخلاق، وتنحط بالإنسان إلى درك الحيوان.

هـذا التوازن ـ الذى رأينا نموذجًا منه فى الحديث السابق فى أمر الطعام والشراب وراحة الجسد وعلاقة الجنس، والذى يجعل الإنسان «فى أحسن تقويم» ـ يقيمه الإسلام فى جميع مجالات الحياة بلا استثناء. . خذ نموذجًا لذلك الملكية الفردية.

إنَّ الغرب الرأسمالى يسمح للفرد بالتملك فى غير حدود وبلا ضوابط فينشأ عن ذلك الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى الموجود فى الغرب.

والشيوعية تكبت نزعة التملك فلا تسمح بالملكية الفردية إطلاقًا. . مما أدَّى إلى قتل الحوافز الفردية وتناقص الإنتاج حتى أصبحت روسيا ـ التى تملك أخصب مزارع القمح فى العالم، فى أوكرانيا وروسيا البيضاء ـ تحتاج إلى استيراد القمح من أمريكا بسبب عجز الإنتاج! وانتهى الأمر بالشيوعية إلى الانهيار.

والإسلام لا يصنع هذه ولا تلك.

إنه يتمشى مع الفطرة فيبيح الملكية الفردية من حيث المبدأ، ليتيح للحوافز الفردية أن تعمل، ولا يكبتها كما تصنع الشيوعية، ولكنه يضع الضوابط التى تمنع الظلم وتمنع الفساد. فيحرم الربا والاحتكار والغصب والسلب والنهب والسرقة والغش

(١) أى: رأوها قليلة فى نظرهم.

(٢) رواه البخارى.

كطرق للتملك أو لتنمية المال. ثم يفرض الزكاة التى تحد من التضخم وتشرك الفقراء فى جهد الأغنياء. ويوجب الإنفاق فى سبيل الله، ويحرم الكنز، ويحرم الترف والمخيلة بالمال. وهذه كلها ضوابط تمنع ما يحدث فى الغرب الرأسمالى من فساد خلقى وظلم اجتماعى وسياسى واقتصادى.

وهكذا لو تتبعت جميع مجالات الحياة تجد التوافق الكامل بين هذا الدِّين وبين الفطرة البشرية، كما تجد التوجيهات التى تمنع الانحراف أو تعالجه عند حدوثه، فتظل الفِطَرُ أقربَ ما تكون إلى السلامة، والحياة أقرب ما تكون إلى الاستقرار.

٨- سماحتها ويسرها:

﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

«إِنَّ هَذَا الدِّين يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّين أحدٌ إلاَّ غَلَبَهُ»(١).

إن الله لم ينزل هذا الدِّين أصلاً ليعنت به الناس! فماذا يفعل الله بإعنات الناس والتشديد عليهم؟ ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

بل إن الله ليس فى حاجة إلى عقاب الناس وتعذيبهم فى الآخرة كذلك: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧].

إنما نزَّل عليهم هذا الدين من أجلهم هم.. من أجل مصلحتهم.. من أجل أن

---

(١) رواه البخارى والنسائى.

يكونوا «فى أحسن تقـويم» كما خلقهم. من أجـل أن يكونوا مؤهلين للتكريم الذى كرمهم به الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ثم إنه من رحمته يجعل لهم هذا الدِّين من أجل مصلحتهم ثم يثيبهم ـ إذا اتبعوه ـ بجنته ورضوانه مكافأة لهم على العمل الصالح الذى عملوه «وكان الله شاكرًا عليمًا».

والإسلام ـ فى معالجته للنفس البـشرية ليرتفع بها إلى المقام اللائق بالإنسان ـ لا يجذب الإنسان جذبًا إلى أعلى فيمـزق أوصاله! ولا يفرض عليه المثل الأعلى فرضًا فيعجز عنه! إنما يأخذه خطوة خطوة يصعد به نحو القمة حتى تستقيم خطواته ويألف الصعود، ثم يحبه، ثم يحرص عليه!

إنما يفرض الإسلام فقط الحد الأدنى الذى لا تستقيم الحياة بدونه، ثم يترك البقية للتطوع النبـيل دون إكراه، مع التـحبـيب المستـمر فى الصـعود: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٤ـ ١٧].

أرأيت كيف يعالج الإسـلام النفس البشرية؟ إن هذه الشهوات محـببة إلى الناس كما تقـرر الآية، فهل حرمهـا الله فى ذاتها؟ كلا! إنما رسم لها فـقط حدودًا تكون حلالاً فى داخلها، حـرامًا فى خارجها. وتلك الحـدود هى التى لا تصلح الحياة إلا بهـا، فهى إذن مـفـروضة. ولكن الإسـلام يحـبب للإنسان أن يـتخـفف من هذه الشهوات حتى لا تصبح شغله الشاغل، وحـتى لا تشغله عن الجهاد فى سبيل الله ـ وهو ضرورة ـ أو تصده عن الإيمان بالله فتضيع آخرته: فيـقول له بادئ ذى بدء: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾ خير من الاستغراق مع هذه الشهوات؟ الجنة بما فيها من نعيم خـالد ورضوان. ولمن هذا النعيم؟ هنا يـرسم صورة جميلة شـفيفـة رائعة جذابة لعباد الله الذين يسـتحقون ذلك النعيم: إنهم الصابرون والصـادقون والقانتون والمنفقون والمستغـفرون بالأسحار. . صفات كلها نبيلة وحـبيبة إلى النفس. والقرآن يشجع عليها بهذا العرض الرائق الجميل. أرأيت إن شغل الإنسان نفسه بتحصيل هذه الصـفات الجـميلة، أيعـود يستـغرق فى الشـهوات؟! كـلا! إنه ـ من ذات نفسـه ـ

سيـنصرف عنهـا، دون إحسـاس بالقسـر ولا بالإعنات، وما يريد الإسـلام منه فى الوقت ذاته أن ينصرف عنها انصراف الرهبانية المعنت، إنما انصراف التخفف والترفع والرضى بالقدر الطيب المعقول..

ويفرض الإسـلام صلوات محـددة في اليوم والليلة، ولكنه يحـبب فى النوافل: «مايَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حَتَّي أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَهُ الذى يَسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الذى يُبْصِرِ بِهِ، ويَدَهُ التى يَبْطشُ بهاَ..»[1].

وكذلك يفرض صيام شهر رمضان، ولكنه يحبب فى صيام النفل.

ويفرض الزكاة بمقادير معينة فى المال، ولكنه يحبب فى الإنفاق فى سبيل الله.

وهكذا يأخذ بيد الإنسان فى رفق يحـببه فى الصعود حتى يحبه ويسـتقيم عليه، فينطبق عـليه هذا الوصف: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَـقَـامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْـهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

أما الـتكاليف المفروضـة فى ذاتها فـقد رُوعى فـيهـا أن تكون فى حدود الطـاقة البشرية: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإن عـجز الإنسان عنها ـ عـجزاً حقيـقيًا لا ادعـاءً ولا فراراً من التكليف (والله أعلم به) ـ فإن الله يخفف عنه بمقدار عـجزه، ويوجهه أن يقول: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ثم إن زلّ فإن الله لا يطرده من رحمته إلا إذا أصرّ..

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

فأىّ سماحةٍ أكبرُ من ذلك حتى مع المذنبين؟!

---

(١) حديث قدسى رواه البخارى.

(٩)
نماذج لأهم ما جاءت به الرسالة من القيم العليا

١- ترسيخ عقيدة التوحيد:

كل الرسالات جاءت أساسًا من أجل إحياء عـقيدة التوحيد التى يكون الناس قد انحرفوا عنـها إلى الشرك: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومع ذلك فإن من يتدبر القرآن يلاحظ على الفور مدى العناية التى أولاها القرآن لهذه القضية الخطيرة، بطريقة غير مسبوقة فى الرسالات السابقة.

إن الله قد قدر بقاء هذه الرسالة وامتـدادها إلى آخر الزمان، وأنزلها كذلك لكل العالمين. لذلك نجد فى القرآن مناقشـة لكل الشبهات التى يمكن أن تخطر على البال بالنسبـة لعقيـدة التوحيـد، ومطاردة شديدة ودائبة لهـذه الشبهـات حتى تنجلى من النفوس، وتتخلص العقيدة صافية من كل غبش على الإطلاق.

حقيقة إنَّ القرآن كان يردّ على شبهات كانت قائمة وقت نزوله؛ سواء بين العرب الوثنيين أو بين أهل الكتاب من اليهود والنصـارى. ولكن العناية العظيمة التى بذلت لقضية التوحـيد ليست على قدر الرد على تلك الشبهات فحـسب، بل المقصود منها ترسيخ عقيدة التوحيد فى النفوس بحيث لا تقتلع بعد ذلك أبدًا.

وأقوى دليل على أن هذه العنايـة لم يكن القصد بها مـجرد الرد على الشبـهات القائمة فى نفوس العرب المشركين وأهل الكتـاب فحسب، إن الحديث فى التوحيد، والدعـوة إلى ترسـيخ الإيمان به، وتوسيـع مسـاحتـه فى النفس حـتى يشـمل كل أقطارها، ظـل يتنـزل على المؤمنين فى المدينـة، حتى بعـد أن آمنوا، وحتى بعد أن قـام مجـتمع مـؤمـن يقـاتل فـى سبـيل نصرة هـذا الدِّين، ودولة تحرسـه من دون المعتدين:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [النساء: ١٣٦].

فالدعوة هنا ـ كما هو واضح ـ ليست للكفّار ولكن للمؤمنين.. ودعوتهم إلى الإيمان ـ وهم مؤمنون بالفعل ـ معناها دعوتهم إلى الحرص على الإيمان وإلى مزيد من الإيمان!

نعم، لقد جلّى القرآن قضية التوحيد وقضية الشرك بأجلى بيان.. وتتبعها فى النفس البشرية بكل دروبها ومنحنياتها، لكى لا يعشش الشرك فى أى ناحية منها ولا يخالط أى عمل أو فكر أو شعور يصدر عن المؤمن أو يخطر فى دخيلة نفسه.

لقد بين القرآن ـ بادئ ذى بدء ـ قضية على أقصى درجات الأهمية، وهى أن الشرك ليس محصوراً فى تقديم شعائر التعبد لغير الله، ولكنه يشمل كذلك الحكم بغير ما أنزل الله:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٣٥].

فعدم اتباع ما أنزل الله ـ فى آية «الأعراف» ـ صنو لاتباع الأولياء من دون الله، أى أنه شرك. وآية «النحل» تفصل أعمال الشرك ـ على لسان المشركين ـ فإذا هى عبادة غير الله والتحريم (والتحليل) بغير إذن من الله، أى عدم اتباع ما أنزل الله.

وجاء فى [النساء: ٦٥]: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

وفى سورة المائدة يتكرر النص على هذه الصورة:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [آية: ٤٥].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آية: ٤٧].

وفى سورة النور يقرر أن المحك الحقيقى لدعوى الإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله، وإلا فهى دعوى كاذبة: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الآيات: ٤٧ـ ٥١].

ويظل القرآن يكرر على مسامع الناس ـ فى استفاضة ملحوظة ـ أن الله وحده هو الخالق لكل ما فى هذا الكون، ومن ثم فهو وحده الذى ينبغى عبادته، وهو وحده الذى ينبغى أن يُطاع وأن يكون له الحكم فى كل أمر من الأمور.

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

وفى معرض هذه القضية يجىء العرض المستفيض لآيات الله فى الكون، الذى يزخر به القرآن الكريم بصورة ملحوظة، حتى يتعمق فى النفس البشرية الإيمان بأن الله هو الخالق وحده، ومن ثم فهو المعبود وحده بغير شريك.

ثم يتخذ القرآن لترسيخ هذه العقيدة وسائل متعددة منها:

١ ـ التذكير الدائم بنعم الله وأنها من عند الله وحده لا من عند سواه، حتى يظل الناس موصولى القلب بالله عن طريق نعمه وفضله.

٢ ـ التذكير الدائم بأن كل ما يصيب الإنسان فهو بقدر من الله، وأن أحدًا لا يملك تغيير قدر الله بأى صورة من الصور.

٣ ـ التعريف بالله بصفاته وأسمائه الحسنى. وقد وردت الأسماء الحسنى والصفات كلها فى معرض التعريف بالله بصورة تعمّق الإحساس بوحدانية الله وترسخ

الإيمان بها فى النفوس فهى وسيلة تربوية بعيدة الأثر فى تعميق عقيدة التوحيد فى النفس.

وبهذه الوسائل وغيرها تعمقت عقيدة التوحيد فى نفوس المؤمنين بصورة غير مسبوقة فى تاريخ البشرية، وتقرر التوحيد فى الأرض عقيدة مسلّمة لا يتطرق إليها الشك، وإن شابها بين الحين والحين انحرافات تقع من المسلمين، إلا أن جلاء عقيدة التوحيد فى الإسلام هو من القوة والرسوخ بحيث لا يلبث المنحرفون أن يرجعوا عن انحرافهم ويعودوا إلى الأصل الصحيح.

ولم يتقرر هذا الأمر فى الأرض بهذه الصورة إلا بعد الإسلام.

فكل ديانات التوحيد من قبل حرفت وشوهت على يد أتباعها حتى ضاع منها عنصر التوحيد وضاعت أصوله المنزّلة من عند الله. وبقى الإسلام وحده قائمًا بهذه القضية عبر القرون، ثابت الأركان، ينحرف عنه من ينحرف، ويزيغ عنه من يزيغ، ولكن أصوله ثابتة لا ينالها التحريف، ترجع إليها الأجيال جيلاً بعد جيل، فتفىء إلى التوحيد الصحيح: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

٢ ـ إبراز الكرامة الإنسانية:

لا يوجد نظام فى الأرض أبرز كرامة الإنسان ـ بالحق ـ بمثل ما أبرزها الإسلام. و«الديمقراطية» الغربية ذات دعوى عريضة فى أنها هى التى قررت ـ لأول مرة ـ حقوق الإنسان. وهى دعوى زائفة من ناحيتين:

الناحية التاريخية أولاً: فالإسلام قد سبق الديمقراطية الغربية فى تقرير حقوق الإنسان بعشرة قرون على أقل تقدير. . وكانت أوربا يومها غارقة فى ظلام العصور الوسطى ترزح تحت وطأة الإقطاع، حيث يعيش الناس هملاً لا حقوق لهم ولا كرامة، يتحكم السيد الإقطاعى ـ وهو فرد واحد ـ فى مئات وألوف من العبيد، يقتلهم إذا شاء ويجوّعهم إذا شاء، ويشغّلهم سخرة فى أرضه بلا أجر. . فجاء الإسلام فقرر حرمة الدم والمال والعرض. . وإنسانية الإنسان!

والناحية الواقعية ثانيًا: فالإسلام حين قرر حقوق الإنسان، قررها فى عالم الواقع، وللتنفيذ العملى. أما أوربا فقد قررت حقوق الإنسان فى كتب كثيرة، ودساتير ومواثيق دولية. ولكن أين هى فى عالم الواقع؟ أين هى فى الاستعمار

الذى يسلب كرامة الأمم والشعوب؟ أين هى فى التفرقة العنصرية حيث يحرم السود - فقط - لأنهم سود - من كل حقوق الإنسان؟ وأين هى فى فلسطين، حيث يطرد شعب من أرضه ويشرد منها ليحتلها شذاذ الآفاق؟ وأين هى فى المذابح التى تقام للمسلمين فى كل أرض إسلامية تملكها غير المسلمين؟ حبر على ورق، وكلام لا رصيد له من الواقع. .

حقيقة إن هناك مظاهر «ديمقراطية» فى البلاد الغربية لأهلها وللقاطنين فيها. فالفرد حر فيما يعمل، حر فيما يتكلم، حرّ فيما يعتقد، لا يجوز للسلطة أن تتدخل فى شئونه إلا حين يعتدى على القانون. وثَمّ ضمانات للفرد، فلا يعتقل بغير جريمة، ولا يحقق معه إلا بالطريق القانونى، ولا يحاكم إلا بمقتضى القانون، ولا يحكم عليه إلا بما يقرره القانون. . . ولكن هذه الحرية تمتد من ناحية إلى الحد المفسد، فتبيح الإلحاد والكفر وتبيح الفساد الخلقى بجميع صوره وألوانه، وتقصُر من ناحية أخرى تقصيرًا شديدًا حين تتعرض مصالح الرأسمالية للخطر من قريب أو من بعيد. . فلا هى هنا ولا هناك تضع الإنسان فى موضع الإنسانية الكريم!

أما فى الشيوعية التى زعمت أنها هى «الديمقراطية» الحقيقية، فلا كرامة للإنسان على الإطلاق! لا يستطيع أن يفتح فمه بكلمة نقد واحدة للدولة أو للحزب الشيوعى الحاكم، ولا ضمانات له على الإطلاق، وهذا كله - فى زعمهم - مقابل تحرره من سيطرة الإقطاع ورأس المال. وحقيقة إن سيطرة الإقطاع ورأس المال مذلة لكرامة الإنسان، ولكن سيطرة الدولة من جانب آخر لا تقل إذلالاً واستبدادًا بل هى أشد!

أما الإسلام فهو يقرر كرامة الإنسان - بادئ ذى بدء - بتحريره من كل عبودية زائفة لغير الله، الحقيق وحده بالعبادة والتقديس، فلا عبودية للحاكم ولا للسلطة ولا للمال ولا للجاه، ولا للون ولا للجنس، ولا لأى اعتبار من الاعتبارات التى تستعبد الناس فى الأرض.

وفى سبيل ذلك ينزع الإسلام حق التشريع من البشر ويرده إلى صاحبه وهو الله سبحانه وتعالى، لأن البشر إن شرعوا لأنفسهم فلابد أن ينقسم الناس إلى سادة (هم الذين يشرعون) وعبيد (هم الذين يقع عليهم التشريع). أما حين يكون الله هو المشرع، فالكل فى موقف العبودية والطاعة له سواء، الحاكم والمحكوم، والغنىّ والفقير.

ثم يضع الإسلام الضمانات التى لا تكفل حرمة الدم والمال فقط، بل حرمة العرض كذلك. لا على مستوى الجريمة الخلقية، بل على مستوى الكرامة الإنسانية فلا يُتعدَى على الإنسان بالغمز ولا باللمز ولا بالسخرية ولا بالغيبة ولا بالاتهام الباطل!

ثم ينفذ ذلك فى عالم الواقع. فحين يضرب ابن عمرو بن العاص الشاب القبطى لأنه تفوق عليه فى السباق. ويقول له: أنا ابن الأكرمين، ويشتكى والد الشاب إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يعطيه عمر العصا، ويقول له: اضرب ابن الأكرمين! ثم يلتفت إلى عمرو بن العاص ويقول له: يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا!

ثم إن الكرامة الإنسانية تبرز فى هذا الدين فى نواحٍ شتى إلى جانب ما ذكرناه من الحقوق والضمانات.

١ ـ فليس هناك خطيئة أبدية تستذل أعناق البشر حتى يأتى ابن الله (نستغفر الله) ليفتدى بنفسه خطايا البشر بالموت فوق الصليب! إنما يتلقَّى آدم التوبة والمغفرة من ربه مباشرة: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

٢ ـ وليس هناك كهنوت يتوسطون بين الإنسان وبين الله. إنما يتصل العبد بربه مباشرة فى شعائر التعبد وفى الدعاء والاستغفار.

٣ ـ ومن خلال عمل الإنسان تكون النتائج التى يجرى بها قدر الله فى الأرض: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

فالإنسان هو الذى يحدد مصيره بما يقدم لنفسه من أعمال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

«يا عبَادي إنَّما هي أعْمَالُكُم أحْصيها لكُمْ ثُمَّ أوفيكُم إيَّاها فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدَ اللهَ ومَنْ وَجَدَ شراً فلا يَلُومَنَّ إلاّ نَفْسَهُ»(١).

٤ ـ الإنسان هو المقدم فى التصور الإسلامى لا المادة ولا «الطبيعة» كما يقول التفسير المادى للتاريخ. فالكون كله مسخَّر للإنسان من عند الله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

٥ ـ يسعى الإسلام لإبراز الكرامة الإنسانية بتنمية الجوانب الإنسانية فى الإنسان لا الجوانب الحيوانية فيه. فيربيه على القيم العليا والترفع عن الدنايا والاستعلاء على الشهوات الدنسة والمتاع الحسى الغليظ، وبذلك يكون كريمًا حقًا لأنه يكون طليقًا من قيود الحيوان، ويكون «فى أحسن تقويم» جديراً بأن تتنزل عليه الملائكة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴾ [فصلت: ٣٠].

٣ـ تقرير مبدأ الشورى والعدل:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

يعد مبدأ الشورى من أهم ما جاءت به الدعوة الإسلامية من المبادئ من الناحية السياسية، ومن ناحية إبراز كرامة الإنسان كذلك. وقد اعتبرت أوربا حق التمثيل البرلمانى وحق البرلمان فى مناقشة سياسة الدولة من أهم الانتصارات التى حققتها «الديمقراطية» فى عالم السياسة، وقررت بها كرامة «المواطن» العادى. وقد بذلت أوربا للوصول إلى هذا الحق جهودًا مضنية ودماء كثيرة، بينما الإسلام ـ دين الله ـ يعطى هذه الحقوق للبشر ابتداءً قبل أن يطلبوها بأنفسهم، ودون أن يبذلوا من أجلها الجهد ولا الدماء!

---

(١) حديث قدسى رواه مسلم.

كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحى، ويأخذ بالأصوب من الآراء كما استشار يوم بدر فى شأن المكان الذى ينزل فيه المسلمون، أو يأخذ برأى من الآراء ويتنزل الوحى بالتصحيح كما أخذ برأى أبى بكر فى مسألة الأسرى يوم بدر فنزل الوحى مؤيدًا رأى عمر الذى لم يأخذ به الرسول ﷺ، أويأخذ برأى يتضح فيما بعد أن غيره كان الأصوب (وإن لم يتعرض الوحى لذلك) كما أخذ بمشورة الشبان يوم أُحد فخرج من المدينة بجيشه ولم يمكث فيها فى انتظار العدو كما أشار الشيوخ، وترتب على ذلك تعرض جيش المسلمين لما تعرض له فى وقعة أُحد.

ولهذه الشواهد الثلاثة دلالة على أصالة مبدأ الشورى فى النظام الإسلامى وعمق موضعه من البناء السياسى للأمة الإسلامية.

فقد كان الله سبحانه وتعالى قادرًا على أن يوحى إلى رسوله ﷺ بالمكان الذى ينزل فيه يوم بدر، والمعركة كلها من أولها إلى آخرها تمت بتدبير الله دون أن يكون للمسلمين إقدام عليها ولا استعداد لها: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨].

ولكن الله سبحانه وتعالى ترك المسلمين يتشاورون فى هذا الأمر تقريرًا لمبدأ الشورى فى مثل هذه الشئون.

أما فى قضية الأسرى فقد أخذ الرسول ﷺ برأى خطّأه الوحى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

والله يعلم سبحانه وتعالى فى سابق علمه أن هذا سيحدث، ولكنه لم يمنع رسوله ﷺ من الأخذ بالرأى الخاطئ بوحى يوحيه إليه قبل تنفيذ المشورة، ولم يأمر كذلك بمنع مبدأ المشورة بعد ذلك الحادث، لكى يتقرر فى حياة المسلمين أن المشورة عنصر أساس فى البناء السياسى للأمة، ولو جاءت أحيانًا برأى خاطئ.

فالبشر عرضة دائمًا للخطأ، ولا تقتصر الشورى على الصواب وحده بحيث تسحب من الأمة إذا أخطأت فى المشورة!

والدلالة فى وقعة أحد أوضح، فإن الأمر لم يقتصر على أن الشبان الذين ألحوا على الرسول ﷺ فى الخروج من المدينة قد خالفوا الرأى الأرجح، الذى ارتآه الشيوخ من ذوى الخبرة، بل وصل الأمر إلى مخالفة فريق من الجيش للأوامر الصريحة التى أصدرها القائد ﷺ لهم بعدم مغادرة الجبل بحال من الأحوال ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير! وترتب على ذلك ما ترتب من هزيمة المسلمين وإصابة الرسول ﷺ بما أحزنه وشماتة الكفار فيهم.. إلخ.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد نزل الأمر الربانى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفى ذلك دلالة واضحة على أن الشورى لازمة وواجبة، ولو أدت إلى نتائج غير مرغوبة فى بعض الأحيان... والإسلام يقرر هذا الحق واضحًا وعميقًا ويبرزه ويؤكد عليه قبل أن تعرفه أوربا بألف عام!

أما العدل، فالإسلام قمة القمم فيه.. القمة التى لم يصل إليها أحد قط خارج الإسلام.

يقول الله للمسلمين وهو يربيهم على العدل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

ويتحول هذا التوجيه فى حياة المسلمين إلى واقع.. وقد رأينا كيف تصرف عمر رضى الله عنه فى حق القبطى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص. ويطأ عبدٌ عَلَى رداء جبلة بن الأيهم فى أثناء الطواف فيلطم العبدَ على وجهه فيشتكى إلى عمر فيأمر عمر بالقصاص من جبلة بن الأيهم، فيفر ويرتد ولا يتزحزح عمر عن إقامة العدل. وتضيع درع من أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه فيجدها عند يهودى فيشكوه إلى قاضيه، فيطلب القاضى البيّنة من علىّ فلا يملك علىّ البيّنة فيقضى بالدرع لليهودى.

وهكذا يقرر الإسلام العدل فى الواقع لا شعارات ترفع فى الهواء. فأين رأى الناس فى التاريخ كله مثل هذا العدل يطبق فى واقع الأرض، على كثرة ما كتب وما قيل عن العدل فى التاريخ؟!

فإذا أردت أن تعرف العدل فى حياة الأمم «الراقية» فاسأل عنه فى التمييز العنصرى فى أمريكا وجنوب إفريقيا. واسأل عنه فى الاستعمار حيثما كان على الأرض.. واسأل عنه فى أي قضية يكون المسلمون طرفًا مستضعفًا فيها، ثم انظر كيف تكون الأحكام! ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

* * *

المعجــــزة

المعجـزة شيء خارق لمألـوف البشر يـأتي به النبي المرسل من عند الله ويتـحدى الناس أن يأتوا بمثله فيـعجزون عن ذلك، فيكون هذا دليـلاً على أنه مرسل من عند الله حقًا وليس قائمًا بدعوى كاذبة من عند نفسه.

وهى على أنواع: فقد تكون معجزة كونية حسـية كانشقاق القمر، وانفلاق البحر أمام موسى وقومه، واليد والعصـا.. إلخ. وقد تكون علمًا مثل إخبار النبى ﷺ عن الأنبياء المتقدمين بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم له منهم. وقد يكون إخبارًا بالغيب كما خبّر الرسول ﷺ عن زوال فارس والروم.

وقد كان كل نبـى يأتى بمعجزة من جنس ما اشـتهر به قومه ليكـون التحدّى فى الصمـيم، ويكون تأثيرها حاسـمًا فى نفوس من تتنزل عليـهم. فقد كـان المصريون بارعين فى السحر، وكان كهنة المعابد الفرعونية متخصصين فيه، يستخدمونه ليبهروا به أعين الناس، ومن ثم يستعـبدونهم للفرعون، وللآلهة المزعـومة التى يقوم أولئك الكهنة - أو السـحرة - بطـقوس العـبادة لهـا، وأخـذ الأموال والقـرابين من الناس باسمها.

لذلك أرسل الله موسى بمعـجزة من جنس ما اشـتهر به أولئك السحـرة، ليبطل سحرهم ويتبدى الفرق بين ما يقدر عليه البشر وما يقدر عليه خالق البشر.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن
كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ
وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ
قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا
مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ
النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا

هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤ـ ١٢٢].

لقد كان السحرة أدرى الناس بحقيقة السحر وحدوده، لذلك كانوا هم أول من تبين الحقيقة، وأن ما يصنعه موسى ليس سحرًا، إنما هو شيء فوق طاقة البشر، وإن كان من جنس ما يقومون به هم من السحر. لذلك خروا ساجدين، اعترافًا بالآية التى تثبت أن موسى رسول من عند الله.

كذلك أرسل عيسى عليه السلام فى قوم برعوا فى الطب، وكانوا يأتون فيه بما يبهر أعين الناس. فناسب أن تكون المعجزة التى أرسل بها عيسى عليه السلام خارقة فى نفس الميدان الذى برع فيه هؤلاء ليتبينوا هم أولاً، ويتبين الناس من ورائهم، أن المعجزة شيء آخر غير ما يصنعون هم. شيء يعجزون هم عنه رغم براعتهم، فلابدَّ أن يكون آتيًا من مصدر غير بشرى، أى من عند الله. لذلك كان من معجزاته معهم إبراء الأكمه والأبرص بغير دواء ولا علاج، وفى التو واللحظة أمام ناظرهم، وهو أمر يخالف صنع البشر، ثم زاد على ذلك فى نفس الاتجاه معجزة إحياء الموتى. فهم قد يعالجون المرضى بأى وسيلة فيتحقق الشفاء على أيديهم. أما إحياء الموتى فلا يقدر عليه إلا الله، أو إنسان مرسل من عند الله بالمعجزة.

ولقد أرسل الرسول ﷺ إلى العرب وهم أهل فصاحة وبيان، يتباهون بفصاحتهم، ويتيهون بها على الأمم حتى ليسمّون غيرهم عجمًا! أى أن لسانهم غير مبين فهم أشبه بالعجماوات التى لا تنطق!

لذلك ناسب أن تكون معجزة الرسول ﷺ معجزة بيانية، من نوع ما برعوا فيه، ولكن على مستوى يدركون هم أنفسهم - وهم أهل الصنعة - أنها فوق مستوى البشر، ويقرون بأنها لابد أن تكون من عند الله.

* * *

إعجاز القرآن الكريم

حين أرسل الرسول ﷺ إلى مشركى العرب كذبوه بادئ ذى بدء، وكان هو المتوقع بحسب سنة الله التى بيناها من قبل، فإن الملأ فى كل جاهلية لا بحال من الأحوال أن يسلّموا بلا إله إلا الله، التى معناها ردّ ما فى أيديهم السلطة المغتصبة التى يستكبرون بها على الناس إلى صاحبها الحقيقى وهو سبحانه وتعالى، والرضى بمقام العبودية لله - لأنه لا إله غيره - والتخلى عن الر الكاذبة التى يدعونها، ويحلون ويحرمون بها من دون الله، فى ظل الآلهة ا التى يعبدونها من دون الله.

أما العبيد فهم كذلك لا يستجيبون بسهولة للا إله إلا الله لأنها تخالف مألو ولأنهم يخافون من السادة، ولأنهم غارقون فى الشهوات!

وحين كذبوا الرسول ﷺ كان لابد لهم أن يفسروا سر الفصاحة العالية ينطق بها ﷺ ويقول: إنها وحى من عند الله، وإلا فتن به الناس وخرجوا طاعة الملأ - وهم قريش - وضاع بذلك سلطانهم الذى يستكبرون به على ال لذلك قالوا: إنه كاهن! وقالوا: إنه ساحر! وقالوا: إنه مجنون يأتيه رئى من فيوحى إليه بما يقول!

ولقد كانوا يعرفون جيدًا أنهم كاذبون! والقصة التالية دليل على ذلك. فإن ا ابن المغيرة لما سمع القرآن من الرسول ﷺ قال لقومه بنى مخزوم: «والل سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن. و لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق. وإنه يعلو ولا عليه». فلما سمعه رجال قريش قالوا: صبأ والله الوليد. ولتصبأنّ قريش ؟ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. وقام إليه فكلمه بما أحماه. فقام ال فأتاهم، فقال: تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه يهوس؟ وتقولون كاهن فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا وتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ يسألهم فى كل فيقولون: اللهم لا!

قالوا: فما نقول فيه؟ ففكر الوليد قليلاً ثم قال: نقول إنه ساحر! أما را يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟!

وقد قال الله فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١ـ ٢٦].

ومع ذلك فقد نشروا هذه الأكذوبة فى أرجاء الجزيرة العربية كلها لتكون سياجًا يمنع الناس من التأثر بالقرآن.. لذلك تحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وظل هذا التحدى قائمـا بينهم سنوات، وهم يعجزون عنه، ومع ذلك لا يسلمون! لذلك زاد التحدى! ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

نعم! إن إنقاص القدر المطلوب هو زيادة فى التحدى، لأنهم إن عجزوا عن الأقل فهم حتمًا سيعجزون عن الأكثر! وقد عجزوا بالفعل ولكنهم ظلوا على عنادهم واستكبارهم، فزادهم تحديًا.. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وحين أصروا بعد ذلك قال لهم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وظل التحدى قائمًا منذ ذلك الحين .. عجز عنه فصحاء العرب وبلغاؤهم وعجزت عنه البشرية كلها على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان، وإنهم لعاجزون حتى قيام الساعة! فقد كان أولى الناس بالرد على التحدى أولئك الذين كانت صناعتهم الفصاحة والبلاغة يتيهون بها على الناس!

ولقد كانت معجزات الرسل كلهم من قبل معجزات حسية وكونية، تتعلق بالسنن

الجارية فى الكون وتخرقها. فمعجزة نوح طوفان مدمر يغرق المكذبين وينجو منه المؤمنون. ومعجزة هود ريح صرصر عاتية تهلك المكذبين، وينجو منها المؤمنون. ومعجزة صالح - حين عقر قومه الناقة المرسلة آيةً لهم - زلزلة عظيمة قتلتهم فى ديارهم ونجا هو ومن معه من المؤمنين. ومعجزة لوط نار نزلت من السماء فأهلكت القوم الفاسقين ونجا منها لوط والذين آمنوا معه. وكذلك كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام التى أشرنا إليها آنفًا، أشياء خارقة للسنن الكونية.

أمامعجزة الرسول ﷺ فهى معجزة عقلية معنوية جامعة، وليست معجزة حسية ولا كونية، وإن كان للرسول ﷺ معجزات أخرى حسية وكونية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر.. إلخ. ولكن المعجزة الكبرى التى وقع بها التحدى، والتى بقيت على الزمن وخوطبت بها البشرية كلها هى القرآن.

ولقد اختص القرآن بالحفظ وعدم التحريف دون الكتب السابقة كلها لأن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك وتكفل به ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولذلك وكّل به أمةً قوية الحافظة بصورة غير معهودة بين الأمم. وأتاح للرسول ﷺ وللمؤمنين فترة من الاستقرار والتمكين فى الأرض تكفى لتدوين القرآن(١) فضلاً عن حفظه فى الصدور، بعد مراجعته على الرسول ﷺ ومراجعة الرسول له على جبريل عليه السلام. فتهيأت كل وسائل الحفظ الذى أراده الله، وحال هذا الحفظ - بإرادة الله وتقديره - دون أى تحريف يقع فى القرآن على مر العصور.

* * *

(١) كان القرآن مدونًا على عهد الرسول ﷺ فى الصحف وعلى جذوع النخل ولكنه جمع على عهد أبى بكر رضى الله عنه.

نواحى الإعجاز فى القرآن

القرآن معجز من كل نواحيه:

لئن كان الإعجــار اللغوى قد اشتهر خــلال التاريخ بسبب تحدى فصــحاء العرب وبلغــائهم أن يأتوا ولو بسورة من مــثل القرآن وعــجزهم عــن ذلك، فإن الإعــجاز الموضوعى فى القرآن هو على ذات المستوى من الإعجاز اللغوى سواء!

ولا نستطيع هنا التفصيل فى الحديث عن إعجــاز القرآن لأن ذلك مبحث متخصص. ولكنا نقول كلمة موجزة عن الإعجــاز اللغوى وعن بعض ألوان الإعجاز الموضوعى على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فنتكلم عن الإعجاز التشريعى، والإعجاز العلمى.

أولاً: الإعجاز اللغوى:

كان يكفينا فى صدد الإعجاز اللغوى أن نقول: إن فصحاء العرب قد عجزوا عن الإتيان بسورة من مــثل القرآن. ولكننا نزيد الأمر توضيحًا فنــقول: إن هذا الإعجاز يبدو فى جملة سمات يتميز بها الأسلوب القرآنى يلحظها القارئ المتدبر لهذا القرآن. وقد أمرنا بالتدبر فى كتاب الله ونحن نتلوه. وإليك بعض هذه السمات:

١ ـ للقرآن نظم متفرد، فلا هو شعر، ولا هو نثركنثــر البشر. ولكن فيه من حلاوة الجرس والتنغيم ما يفوق الشعر، دون أن يتقيد بقيود الشعر الكثيرة التى تتحكم فى المعنى فى كثر من الأحيــان، وفيه ما يشبه القوافى ولكنهــا ليست رتيبة ولا محددة كقوافى الشعــر ولا قوافى السجع المألوف، لذلك لا تمله الأذن، بل يقبل الإنسان دائمًا على قراءة القرآن وسماعه بشغف متجدد.

وفضــلاً عن ذلك فإنّ هذا التنغيم يتنــوّع بتنوّع الموضوع المعروض والجــو النفسى المصــاحب له، فيــشتــد مثــلاً مع جو الوعــيــد والعذاب ويلطف ويلين مع جــو الود والرحمة، أو جو الدعاء والخشوع.

خذ مثلاً من جــوّ الشدة والوعيد: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٧].

ومثلاً من جو الدعاء: ﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ١ ـ ٦].

٢ ـ للقرآن خاصية إحياء المشهد المعروض حتى لكأن الإنسان يشاهده لأول مرة إن كان من مألوفات الحس. أو يراه مجسداً إن كان من المشاهد المتخيلة.

فمن نماذج النوع الأول كل ما جاء فى القرآن من المشاهد الكونية كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والشجر والأنهار... إلخ، فهى مشاهد قد ألفها الحس حتى كاد ينساها.. ولكن القرآن يحييها فكأنما يشاهدها الإنسان لأول مرة فينفعل بها وجدانه، وتهتز لها مشاعره، فيلتفت إلى القدرة المعجزة فى خلقها على هذه الصورة، فيتصل قلبه بالخالق سبحانه ويسلم له ويؤمن بوحدانيته.

خذ مثلاً هذا النموذج: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٩].

ومن نماذج النوع الثانى قصص القدماء ومشاهد القيامة، وهذه وتلك ليست حاضرة أمام الإنسان فهو يتتبعها بخياله لا بسمعه وبصره. ولكن القرآن يعرض القصة حية كأنما يشاهدها الإنسان أمامه فى هذه اللحظة، فينفعل بأحداثها وعبرها، ويعرض مشاهد القيامة شاخصة متحركة كأنها حاضرة أمام الإنسان. بل يصل الإحياء فيها إلى درجة أن يعيشها الإنسان كأنها هى الحاضر الموجود، والدنيا ـ التى هى حاضر فى الحقيقة ـ كأنها ماض سحيق قد انتهى وزال..

خذ مثلاً للقصة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا

عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤١ ـ ٤٤].

ومثلاً لمشاهد القيامة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ١٧ ـ ٢٨].

٣ ـ يتميز القرآن بالتنويع فى طريقة العرض بحيث لا يتكرر مشهدان فى كل تفاصيلهما أبدًا على كثرة ما يعرض فى القرآن من المشاهد المتشابهة، فهى تتشابه ولكنها لا تتماثل أبدًا، لذلك تبدو فى كل مرة كأنها جديدة! وإن مشاهد القيامة والمشاهد الكونية لهى من أكثر الموضوعات تكرارًا فى القرآن، ومع ذلك لا يوجد مشهد واحد مكرر بجميع تفصيلاته مرتين.. لابد من التنويع فى العرض ولو بتغيير لفظة واحدة! وأحيانًا يكون التنويع بتغيير حرف واحد يغير المعنى!

خذ مثالاً لذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: [آية ٤٩] ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، وقوله تعالى فى سورة إبراهيم [آية ٦]: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

إن الفرق بين النصين حرف واحد، هو زيادة الواو فى الآية الثانية (ويذبحون) ولكن هذا الحرف الواحد يغير المعنى. فالآية الأولى تحدد العذاب بأنه هو تذبيح الأبناء واستحياء النساء. أما الآية الثانية فتدل على أن العذاب كان أنواعًا كثيرة

يُضاف إليها تذبيح الأبناء واستحياء النساء! وهكذا يؤثر هذا الحرف الواحد فى المعنى ويجعل الآيتين غير مكررتين كما يتبادر للذهن أول مرة![1].

٤ ـ **من الإعجاز كذلك أن كل سورة من سور القرآن لها جوها الخاص وشخصيتها** المتميزة حتى وإن اشتركت فى بعض الموضوعات مع غيرها من السور. وقد تكون السور المدنية مختلفة الموضوعات بطبيعتها، لاحتواء كل منها على مجموعة من التشريعات والتوجيهات غير الأخرى، ولاختلاف المناسبة التى نزلت فيها، وإن كان فيها مع ذلك قدر من الموضوعات المشتركة. ولكن ظاهرة التميز والاختلاف قائمة بوضوح فى السور المكية كذلك، التى تشتمل كلها على موضوعات متقاربة، إذ كلها دعوة إلى توحيد الخالق ونبذ الشرك ومناقشة لأوهام المشركين وتنديد بهم وإنذار لهم بالعذاب فى جهنم، مع تقديم البشرى للمؤمنين بالجنّة. ومع ذلك فكل سورة تعرض هذه الموضوعات المتشابهة بطريقة تخالف الأخرى، بحيث يظل قارئ القرآن فى جو متجدد على الدوام ولو كان الموضوع هو ذات الموضوع!

تلك هى بعض سمات الإعجاز اللغوى فى القرآن، ويستطيع الدارس أن يلحظها بنفسه فى أثناء تلاوته للقرآن أو استماعه إليه، كما يستطيع أن يجد غيرها كلما درّب نفسه على النظر المتعمق فى آيات الكتاب.

ثانيًا: الإعجاز الموضوعى:

لا نستطيع فى الحقيقة أن نفصل بين اللفظ والمعنى، أو بين اللغة والموضوع الذى تعبر عنه، وقولنا: إن القرآن معجز لغويًا، معناه أنه معجز فى التعبير عن الموضوعات التى يشتمل عليها.

ولكنا نضيف إلى ذلك أن الموضوعات التى يشتمل عليها القرآن هى فى ذاتها معجزة، بمعنى أن البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها ولو احتشدوا كلهم لهذا الأمر، فالإعجاز هنا مزدوج: إعجاز الموضوع فى ذاته، وإعجاز التعبير عن الموضوع.

---

(١) بين الآيتين اختلاف آخر فى الصياغة، فآية سورة «البقرة» تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وآية سورة «إبراهيم» تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، ولكنا اكتفينا بإبراز التغيير الذى أحدثه حرف الواو فى المعنى.

وقد اخترنا موضوعين من الموضوعات القرآنية لنبرز من خلالهما حقيقة الإعجاز الموضوعى فى القرآن. وإليك نبذة سريعة عن كل منهما:

١ ـ الإعجاز فى التشريع:

فى كلمة موجزة نستطيع أن نقول: إن الإعجاز فى التشريع يتضح ـ بغير جهد ـ من مراجعة التشريعات التى صنعها البشر لأنفسهم خلال ما يقرب من ثلاثين قرنًا من الزمان، أى منذ وجدت كتابات تاريخية محفوظة يمكن الرجوع إليها إلى لحظتنا الراهنة.

ولكنا نركز على التشريعات القائمة اليوم باعتبارها أنضج ما أخرجت البشرية من التشريعات فى تاريخها كله، بالنسبة إلى الزيادة الهائلة الحاصلة فى معلومات البشر، والتقدم العلمى والمادى الهائل، والاستفادة من خبرات القرون السابقة جميعًا. فماذا نرى؟

انقسم العالم فى يوم من الأيام إلى معسكرين متميزين: المعسكر الرأسمالى فى الغرب، والمعسكر الشيوعى فى الشرق، ولكل منهما تشريع يخالف الآخر. فماذا نجد فى كل من المعسكرين؟

١ ـ نجد بادئ ذى بدء أن كلا المعسكرين قد ذكر العقيدة فى دستوره، ولكن يا له من ذكر!.. فأما الدستور السوفييتى فيقول: «لا إله! والكون مادة!». وأما الدساتير الغربية فتنص على حرية التدين، أى أن الدين مزاج شخصى لا دخل للدولة به، فمن شاء أن يكفر فله الحرية الكاملة فى أن يفعل ذلك.

وبعبارة أخرى: فإن كلا المعسكرين ـ على اختلاف فى الدرجة والأسلوب ـ قد رفض أن يقرر عبودية الإنسان الخالصة لله.

وقد يبدو لأول وهلة أن هذه مسألة لا علاقة لها بالتشريع، لأنها مسألة عقدية بحتة.. ولكن الواقع أن لها صلة أساسية بالتشريع. لأنه حين لا يكون الله هو المشرع، لأنه ليس هو المعبود، فلابد من جهة ما تكون هى مصدر التشريع. وهذا هو الواقع الذى تنص عليه تلك الدساتير.

فالدساتير الغربية تقول ـ نظريًا ـ إن الأمة هى مصدر التشريع، الحقيقة أن الطبقة

الرأسمالية هى التى تشرع، والدستور السوفييتي يقول ـ نظريًا كذلك ـ إن دكتاتورية الطبقة العاملة هى مصدر التشريع، والحقيقة أن الحزب الشيوعى الحاكم هو الذى يشرع.

٢ ـ انطلاقًا من هذه النقطة فإن تشريعات الغرب الرأسمالى موضوعة لحساب الرأسمالية على حساب الطبقة العاملة، وتشريعات الشيوعيين موضوعة لحساب السلطة الحاكمة على حساب الشعب، بمعنى أن العدالة منتفية فى كلا التشريعين.

٣ ـ نجد اختلافًا واضحًا ـ عند المعسكرين كليهما ـ فى توزيع الأهميات فى التشريع، مع تميز كل منهما عن الآخر، ففى المعسكر الغربى نجد الاهتمام الأكبر فى الدساتير هو بالجانب السياسى من حياة الشعب، وفى المعسكر الشيوعى نجد الاهتمام الأكبر هو بالجانب الاقتصادى. ويهمل كلاهما التشريعات الروحية إهمالاً كاملاً، كما أن الاهتمام ضعيف جداً بالتشريعات الخلقية والتشريعات المتعلقة بترابط الأسرة وحفظ كيانها وتماسكها.

٤ ـ نجد اختلالاً آخر فى تلك التشريعات يتعلق بقضية الفرد والمجتمع وعلاقة كل منهما بالآخر، فالدساتير الغربية تجعل الفرد كائنًا مقدسًا بصورة تؤدى إلى تفتيت المجتمع وتفكيكه، خلقيًا واجتماعيًا وإنسانيًا كذلك، والدستور الشيوعى يجعل المجتمع هو الكيان المقدس (أى الدولة فى واقع الأمر) بالصورة التى تؤدى إلى سحق الفرد وإفناء شخصيته تمامًا من الناحية السياسية والاجتماعية والإنسانية.

٥ ـ لا تنص تلك الدساتير (فى المعسكرين) على تشريعات دولية ثابتة، لأن هذه أمور متروكة «للسياسة» أى لانتهار الفرص، ولا تعتمد على مواثيق واجبة الاتباع.

٦ ـ العنصر الأخلاقى مفقود فى معظم هذه الدساتير، وضعيف الأثر جداً فى سائرها لأنها تشريعات قائمة على المصلحة وليست قائمة على اعتبار أخلاقى أو إنسانى، والمصلحة هى دائمًا مصلحة الطبقة التى تملك السلطة وإن غطَّت ذلك بالمعسول من الألفاظ، كالحرية، والإخاء، والمساواة. . . إلخ.

إذا جمعنا هذه الحقائق ـ وهى ليست كل شىء ـ بالنسبة للتشريعات البشرية فى

أنضج صُورة لها فى العصر الحاضر، يتضح لنا ـ بغير جهد ـ إعجاز التشريع القرآنى الذى هو فى الواقع الوجه المقابل تمامًا لتلك التشريعات الجاهلية!

١ ـ ينص القرآن بادئ ذى بدء، على المصدر الذى يحق له وحده أن يضع التشريعات، وهو الله سبحانه وتعالى[1]، وينص على أن هذا جزء أصيل من عقيدة لا إله إلا الله، التى تجعل المسلمين مسلمين!

٢ ـ من هذه النقطة تأتى عدالة التشريع لأن الله سبحانه وتعالى لا مصلحة له فى ظلم الناس، ولا مصلحة له فى محاباة طبقة على طبقة أو فرد معين على بقية الأفراد، ولأن الله هو العليم بالخلق الذين خلقهم، وبما يصلح لحياتهم، ولأن الناس جميعًا ـ حكامًا ومحكومين ـ يخضعون لهذا التشريع بدرجة واحدة من العبودية لله والطاعة له.

٣ ـ من إعجاز التشريع القرآنى شموله لجميع نواحى الحياة الإنسانية فى وقت واحد، والموازنة بينها جميعًا فى ذات الوقت، فلا يوجد جانب من الحياة سياسيًا كان أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا أو خلقيًا أو فكريًا أو روحيًا أهمله التشريع القرآنى ولم يضع له ما ينظمه، ولا يوجد كذلك اهتمام بأحد الجوانب يطغى على بقية الجوانب ويضعفها أو يقتلها، وظاهرة الشمول والتوازن هذه من أبرز سمات التشريع الإسلامى كما أنها من أبرز سمات الإسلام فى جميع الميادين.

٤ ـ نجد فى التشريع الإسلامى موازنة كاملة بين الفرد والمجتمع، فلكل منهما حقوق وعلى كل منهما واجبات، وليس لأحدهما وجود مقدس على حساب الآخر، فالقداسة فى الإسلام هى لله، رب الجميع، والكل عبيد له على التساوى: الفرد والمجتمع على السواء.

٥ ـ يشتمل التشريع الإسلامى على تشريعات دولية ثابتة (هى علاقة المسلمين بغير المسلمين فى السلم والحرب) لأن هذا الأمر فى الإسلام ليس متروكًا لانتهاز الفرص: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ

(١) لا ينفى هذا مبدأ الاجتهاد فيما ليس فيه نص، فإنما يتم الاجتهاد بإذن من الله، ومن هنا تجىء مشروعيته.

غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩١، ٩٢].

٦ ـ العنصر الأخلاقى عنصر أصيل فى التشريع الإسلامى كله، سواء كان تشريعًا سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا أو تنظيم أسرة أو تعامل أفراد بعضهم مع بعض، لأن هذا التشريع إنما نزل لينشئ أمة على المستوى الإنسانى اللائق بالإنسان. ولا يكون الإنسان إنسانًا بغير الجانب الأخلاقى.

وتلك كلمة عامة مجملة بالنسبة للإعجار فى التشريع القرآنى، وإلا ففى كل تشريع على حدة مجال لبيان هذا الإعجاز لمن أراد التوسع والتخصص، ولكنا نشير إشارة سريعة إلى تشريعين اثنين:

١ ـ التشريع الخاص بالحدود والقصاص ويكفينا فيه أن نقول: إنه لا يوجد مكان فى الأرض كلها يحس فيه الإنسان بالأمن على دمه وماله وعرضه إلا حيث تطبق الشريعة الربانية وتطبق الحدود. مع ملاحظة أخرى هى أن البلاد التى تطبق الحدود هى أقل البلاد جرائم وأقلها قضايا!

٢ ـ التشريع الخاص بالخمر، فقد عجزت كل بلاد العالم «المتحضر» عن وقف الإدمان على الخمر، وما يترتب عليه من حوادث القتل والاغتصاب وحوادث الطريق. والمجتمع الإسلامى وحده فى التاريخ كله هو المجتمع الذى قلّ تعاطى الخمر فيه إلى أدنى حد ممكن. وذلك لأن التشريع الإسلامى عامة (بما فيه تشريع الخمر) قائم على أساس العقيدة، والتشريعات الجاهلية كلها قائمة على أساس السلطة أو النظام. وشتان بين طاعة أمر متصل بالعقيدة، وأمر متصل بالسلطة أو النظام! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

ويمكن أن نضيف هنا ـ بصدد الإعجاز التشريعى ـ الدقة العجيبة فى الصياغة بحيث أن الآية الواحدة المشتملة على ألفاظ معدودة تشتمل أحيانًا على مجموعة كاملة من الأحكام كآية الدّين مثلاً فى آخر سورة البقرة (آية ٢٨٢)، ولو أن هذا داخل فى الإعجاز اللغوى ولكنه لصيق الصلة بالإعجاز التشريعى كذلك، فإن مثل

هذه الأحكام فى الصياغة البشرية تستغرق صفحات وصفحات! ثم يظهر بعد المراجعة أن المشرع قدْ سها عن بعض الأحكام فيضيف إليها إضافات!

٢-الإعجاز العلمي:

من إعجار القرآن أنه تحدث عن أمور كونية وعلمية لم تكن معروفة عند العرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ولا عند غيرهم من الأمم فى ذلك الحين، ولم يكشف عنها العلم إلا من وقت قريب. فوجودها فى القرآن دليل قاطع على أنه من عند الله، وأنه لا يمكن أن يكون من قول البشر.

ونشير هنا إلى بعض الحقائق العلمية التى أشار إليها، على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر:

١ - أشار القرآن إلى الجبال بأنها رواس تمنع الأرض أن تميد بالناس: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: ١٠].

وفى هذا القرن فقط عرف الناس عن طريق العلم أن الجبال تحفظ توازن الأرض وأنه حين يختل هذا التوازن لسبب من الأسباب تحدث الزلازل والبراكين التى تعيد إلى الأرض توازنها.

٢ - أشار القرآن إلى تكوّن اللبن في بطون الأنعام من الفرث (وهو الغذاء المهضوم) والدم: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

وتلك حقيقة علمية لم يكشفها العلم إلا فى هذا القرن.

٣ - أشار القرآن إلى ظاهرة «الأزواج» في بنية هذا الكون: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

وفى السنوات الأخيرة فقط كشف العلم عن بعض ما لم يكن معلومًا وقت نزول القرآن وهو أن التفاعل الكيماوى هو فى الحقيقة عملية تزاوج بين المواد المتفاعلة، ذلك أن ذرة كل مادة مكونة من نواة موجبة وعدد من الكهارب السالبة، وأن هذه الكهارب تدور فى حلقات حول النواة ولكن الحلقة الأخيرة منها لا تكون كاملة،

ويتم التفاعل الكيماوى إذا وجد عنصر يكمل للعنصر الآخر حلقته الأخيرة. فلنفرض مثلاً أن عنصراً ما تدور كهاربه فى حلقات كل منها يتكون من تسع كهارب، وأن الحلقة الأخيرة فيها كهربان اثنان، فإذا تلاقى هذا العنصر مع عنصر آخر تتكون حلقته الأخيرة من سبع كهارب، فإنه يتم التفاعل بينهما، بإكمال الحلقة ذات الكهربين إلى تسع كهارب كبقية الحلقات!

٤ ـ أشار القرآن إلى مراحل نمو الجنين: ﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان من سُلالة مِّن طِين (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَة علقةً فخلقنا الْعلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ـ ١٤].

ولم يكشف التشريح وعلم الأجنة عن هذه المراحل إلا فى العصر الحديث.

٥ ـ أشار القرآن إلى تكوّن السحاب الركامى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

ولم يتمكن العلماء من معرفة هذه الحقيقة إلا بعد أن صعدوا بالطائرات فوق السحاب.

٦ ـ يقول القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وهنا تتابع ملحوظ فى الآية. ولكن هذا التتابع لم تكن دلالته واضحة عند المخاطبين بهذا القرآن أول مرة. ورويداً رويداً كشف العلم عن جانب منه. فإن وجود الرواسى عامل مهم فى تكوين السحب التى ينزل منها المطر فيكوّن الأنهار، ذلك أن الرياح المحملة بالأبخرة تصطدم بها فتصعد إلى أعلى فتبرد فى طبقات الجو العليا ويتكاثف ما فيها من بخار الماء فينزل فى صورة مطر. ومن المطر تتكون الأنهار. ثم إن هذه الأنهار هى التى تسقى الزرع فتتكون الثمار ذات الأزواج ـ إشارة إلى عملية التلقيح التى تحدث فى الزهرة فتتكون منها الثمرة ـ ولكن غشيان الليل

النهار فى هذا التتابع «العلمى» الملحوظ فى الآية لم يكن معلومًا دلالته (وربما لم تلحظه الأجيال السابقة) حتى كشف العلم حديثًا جدًا عن صلة الظلام (الذى يجىء مع الليل) بتكوّن الثمرة! وكان هذا نتيجة حادث عرضى لم يكن فى حسبان أحد! ذلك أن إحدى الشركات فى اليابان أقامت إعلانًا مضيئًا (بالنيون) فى مزرعة أرزّ يملكها أحد المزارعين، فلاحظ المزارع أن المحصول قد ضعف فرفع قضية على الشركة المعلنة يطالبها بالتعويض، ويدّعى عليها أن الإعلان الباهر الضوء هو السبب فى قلة المحصول! وإذ كانت هذه مسألة تحتاج إلى تحقيق علمى، فقد أحالت المحكمة القضية إلى العلماء ليدلوا فيها بمعلوماتهم. ومن ثم أجريت سلسلة من الأبحاث ثبت فى نهايتها أن الإعلان المضىء كان بالفعل سببًا فى قلة المحصول لأنه أقلق راحة النبات فى فترة الليل، وهى التى تنمو فيها الزهرة ثم تثمر! وكشف العلماء عن حقيقة أغرب من ذلك وهى أن كل نبات يحتاج إلى فترة معينة من الظلام تختلف عن غيره! وأن توزيع النبات على سطح الأرض مرتبط بجملة عوامل من بينها طول فترة الليل فى كل منطقة من المناطق. فإذا كان النبات يحتاج إلى اثنتى عشرة ساعة من الظلام فى فترة التزهير فإنه لا ينمو فى منطقة ظلامها عشر ساعات فحسب، أو إن نما فإنه يكون ضعيفًا ولا يعطى ثمرة!

وهكذا تبين أن إغشاء الليل النهار المذكور فى الآية هو جزء من التتابع «العلمى» الملحوظ فى الآية من أولها إلى آخرها مما لم يكن معروفًا خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنًا منذ نزول القرآن!

هذا وفى القرآن إشارات كونية وعلمية كثيرة، منها ما كشف عنه العلم ومنها ما لم يكشف عنه حتى اليوم، وهى تثبت بدليل قاطع أن هذا القرآن من عند الله العليم الحكيم، وأنه ما كان يتأتى لبشر أن ينطق به من عند نفسه.

ولكننا لانحتاج أن نجرى وراء الكشوف العلمية لاهثين كما يصنع بعض الكتاب المحدثين لإثبات الإعجاز العلمى للقرآن، فكلما كشف العلم كشفًا جديدًا قالوا: لقد تحدث القرآن عنه من قبل!

لا نحتاج أن نصنع ذلك لأن هذه الكشوف ذاتها مازالت فى مرحلة الإثبات، وكثير منها لم يصبح بعد حقيقة علمية نهائية. فلا يجوز أن نربط تفسيرنا للإشارات الكونية فى القرآن بهذه النظريات المتقلبة التى قد يثبت خطؤها فى الغد. ولأن دلائل الإعجاز فى القرآن من الكثرة والثبوت والقطع بحيث لا نحتاج إلى الركض وراء هذه النظريات كأننا ما زلنا فى حاجة إلى مزيد من الإثبات! ويكفينا جدًا ما أثبته العلم على أنه حقائق نهائية. بل إشارة واحدة تكفى لإثبات الإعجاز!

وضع العالم الإسلامى المعاصر

لاشك أن الوضع الحالى للعالم الإسلامى هو أسوأ وضع مرّ به فى التاريخ.

والمسلمون اليوم يبلغون أكثر من ألف مليون من البشر فى مختلف قارات الأرض، وهو أكبر تعداد لهم في التاريخ، ولكنهم غُثاء كغُثاء السيل كما تحدَّث عنهم الرسول ﷺ: «يُوشكُ أن تَدَاعَى عليكُم الأمَمُ كما تَدَاعَى الأكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا» قالوا: أمِنْ قِلَّة نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «بَلْ أنْتُمْ يومئذ كثيرٌ، ولكنَّكُمْ غُثَاء كغُثَاء السَّيْلِ».

لم يحدث فى تاريخ الأمة الإسلامية أن تكالب عليها أعداؤها بمثل الضراوة التى يتكالبون بها عليها فى الوقت الحاضر: يذبحون ويقتلون فى كل مكان غلب عليه أعداؤهم، ويشردون من أرضهم وأموالهم، ويسلط عليهم أعداء من داخلهم أو من خارجهم يحكمونهم بغير ما أنزل الله، لحساب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله إلا الله، وينتقص الوطن الإسلامى مرة بعد مرة بإقامة دول غير إسلامية فى أرضه. وتفتت وحدته، ثم تقسم الدولة منه إلى دويلات.

والفقر والجهل والمرض يتفشى فى العالم الإسلامى على الرغم من أن تربته تحوى أكبر ثروات العالم على الإطلاق!

فالثروة المعدنية ـ والبترولية خاصة ـ والثروة الزراعية، والثروة البشرية الموجودة فى الأرض الإسلامية تعد أكبر من مثيلاتها عند أى دولة أخرى من دول العالم كله. ومع ذلك فالمسلمون هم أفقر أهل الأرض وأكثرهم تأخراً فى جميع الميادين.

كيف حدث ذلك وما أسبابه؟

لقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين فى الأرض: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

فهل تخلى الله عن وعده لهذه الأمة؟ حاشا لله أن يُخْلِفَ وعده ولا يتحقق.

إنما الذى تغيَّر هو وضع هذه الأمة من ربها ومن كتابها.

لقد اشترط الله عليهم شرطًا معينًا مقابل الاستخلاف والتمكين والتأمين: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ فأين هم اليوم من هذا الشرط؟ أين هم من الالتزام بأمر ربهم وتحكيم شريعته؟

لقد أعرضوا عن القرآن الكريم إعراضًا. فلا هو الذى يستمدون منه الشريعة التى تحكمهم، ولا هو الذى يستمدون منه منهج تربيتهم، ولا هو الذى يستمدون منه أخلاقهم وأفكارهم ومشاعرهم وأنماط سلوكهم.

وإنما وجهتهم فى ذلك كله هى أوربا، شرقها أو غربها سواء.. فكيف يطمعون أن ينصرهم ربهم وهم معرضون عن كتابه، وأن يمكّن لهم فى الأرض وهم مخالفون لشرطه؟

لقد ابتلى الله إبراهيم عليه السلام ذلك الابتلاء الضخم الذى أبلى فيه بلاء حسنًا فكافأه الله على طاعته فقال له: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾. وعندئذ أدركته رغبته الفطرية فى أن يكون هذا العهد لذريته من بعده فيكونون أئمة للناس: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ فماذا قال له الله سبحانه وتعالى فى لحظة التقريب والتكريم والإعزاز؟ ﴿ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فهذه سنة من سنن الله الجارية التى لا تتبدل ولا تحابى أحدًا. إن الله لا يعطى الناس التمكين فى الأرض لأنهم من ذرية قوم مؤمنين بل لأنهم هم أنفسهم مؤمنون. فإذا تخلوا عن شرط الإيمان الصحيح فلا ينفعهم يومئذ أن يكونوا ذرية لقوم مؤمنين!

ولقد عرض القرآن علينا سيرة بنى إسرائيل بتفصيل كامل لكى لا نقع فيما وقعوا فيه، وحذرنا من ذلك تحذيرًا: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

فماذا كان من بنى إسرائيل؟ ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والأمة الإسلامية اليوم تقف فى الموقف الذى حذرها الله منه. يتركون كتابهم من أجل عرض من أعـراض الحيـاة الدنيا ويمنون أنفـسهم بالأمـانى الفارغـة ويقولون: سيغفر لنا! لا جرم إذن أن يكونوا على حالهم الذى هم فيه؟!

ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

لا يكفى أن ندعى الإيمان لنكون مؤمنين! إنما لابد لذلك من واقع سلوكى يصدّق هذه الدعوى ويحوّلها إلى حقيقة.

ولقد مر على المسلمين ـ فـى انحرافهم التدريجى ـ وقت أصبح الدين فـيه معنى قلبيًا وجـدانيًا لا صلة له بالواقع! ويقول الواحد منهم لا تحكم عـلىّ بظاهر أعمالى فأنا مؤمن فى داخل قلبى وهذا يكفى، والله هو المطلع على خفايا القلوب!

من أين جاءوا بهذا التصور المنحرف لحقيقة الدين؟ إنه أشبه شىء بالمفهوم الكنسّى الغربى: «الدينُ علاقة بين العبـد والرب ومحله القلب» أى لا صلة له بواقع الحياة، وإنما هو مشاعر وجدانية داخل القلب فحسب!

إنما جاء الإسـلام ليحـول الدين واقعًا يعـاش! لا كما كـان العرب فى الجـاهلية يخالفون أمر الله فى الصغـيرة والكبيرة، ثم يقولون: نحن على دين إبراهيم! ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ولا يكون المسلمون مسلمين حـقًا وهم يحكّمون فى حياتهم شريعة غـير شريعة الله، ويتخذون تصوراتهم وأفكارهم وأنظمتهم وتقاليدهم وأنماط سلوكهم من مصدر غيـر المصدر الربانى، ويتخذون القـدوة لهم رجالاً ونساء من الشـرق أو الغرب، لا يؤمنون بالله ولا برسوله.

إنما الإيمان الحقيقى لابد له من مظهر سلوكى واقعى..

إن الإيمان يتلخص فى شـهادة أن لا إله إلا الله، وأن مـحمدًا رسـول الله، أى المبلّغ من عند الله بالحق.

وإن التصديق بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، له مقتضى لابد أن يرى فى واقع الحياة، ومقتضاه هو السلوك الفردى والجماعى وفق شريعة الله.

فأما الـفرد فينبغى أن يلتـزم بما أمره به ربه وما نهاه عنه. وأمـا الجماعة فـينبغى أن تحكّم

شريعة الله وتقوم على هذا الأمر بجهدها كله وترفض أن تحكم بغير ما أنزل الله.

وحين يلتزم الفرد والجماعة بهذا الأمر يصبح الفرد مسلمًا والجماعة مسلمة فى عالم الواقع لا بالاسم ولا بالشعارات. ويصبح السلوك الواقعى فى المجتمع سلوكًا إسلاميًا حقيقيًا، لا كالذى نشاهده اليوم فى أرجاء العالم الإسلامى: شيئًا أبعد ما يكون عن الإسلام.

وإن قومًا ليدّعون حب الرسول ﷺ ويبكون من شدة الوجد حين يذكرون اسمه الكريم.. ثم لا يهمهم بعد ذلك أن يتحاكموا إلى شريعة غير شريعة الله، ولا أن تجرى حياتهم كلها بعيدًا عن منهج الله!

وما هكذا الإسلام..

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

* * *

مستقبل الأمة الإسلامية

لا خلاص للأمة الإسلامية مما هى فيه إلا بالرجوع إلى الله واتباع المنهج القرآنى.

لقد جرَّب العالم الإسلامى أن يقتفى أثر الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح.. فكانت النتيجة نكسات تلو نكسات! والاستضعاف مستمر فى الأرض، والتقتيل والتشريد قائم، وتفتيت وحدة المسلمين يشتد يومًا بعد يوم.

ذلك أنهم ماضون فى مخالفة أمر الله والبعد عن كتابه الكريم.

وقد أخبرهم الله ورسوله أنهم لن ينتصروا ولن ينصلح حالهم إلا بالتزام أوامر الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد آن للأمة الإسلامية أن تعرف هذه الحقيقة وتعمل بمقتضاها.

آن لها أن تدرك أولاً أن ما بين يديها من كتاب الله وسنة رسوله خير مما يسعون إلى اكتسابه من مناهج الجاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وأن التشريع السماوى الذى يعرضون عنه هو أكمل تشريع وأفضل تشريع، بينما شرائع الجاهلية كلها نقص وانحراف واختلال.

وأن منهج التربية الإسلامية هو وحده الكفيل بإنشاء الإنسان الصالح، وما سواه كله انحراف.

وتدرك أن الله أخرج هذه الأمة لتكون متميزة بذاتها وتكون فى مركز القيادة لكل البشرية، لا ذيلاً لها غير متميز السمات: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وتدرك أخيراً أنه إن كان قد كتب عليها بسبب إهمالها وتفريطها أن تفقد قوتها العلمية والمادية، وأن تتتلمذ على أوربا فى هذا المجال، فليس معنى ذلك أن تنسلخ

من دينها، وتأخذ عن أوربا نظمها وأخلاقها وأفكارها وأنماط سلوكها، فكل تلك انحرافات جاهلية حذرها الله من الوقوع فيها، وحذرها من أن أعداءها سيحاولون جذبها إليها: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

ولقد تتلمذت أوربا على المسلمين مرة من قبل فأخذت علومهم ومعارفهم لتقيم عليها نهضتها، وأبت أن تأخذ منهم الإسلام وهو الحق! أفلا يصنع المسلمون مثلهم فيتتلمذوا على علومهم ومعارفهم ويرفضوا أفكارهم ونظمهم وتقاليدهم وهى باطل؟!

وحين يستقيم أمر المسلمين على هذه الصورة فيومئذ فقط يتغير واقعهم. إذا أخذوا العلم من أى مكان فى الأرض يجدونه فيه، وبقوا فى الوقت ذاته على دينهم وعلى التزامهم بأمر ربهم، فسيكونون هم الستار لقدر الله ليحدث تغييراً هائلاً فى الأرض.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فإذا غيّر المسلمون ما بأنفسهم، وكفّوا عن إعراضهم عن كتاب الله، وعادوا إلى الأخذ بمنهجهم القرآنى، فسيعيد الله خيراتهم إليهم - بقدر منه وبجهد يبذلونه تنفيذاً لأمر ربهم - فيصبحون أغنى أمة فى الأرض: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ويصبحون من ثم أقوى أمة فى الأرض، فإن الغنى هو الذى ينشئ القوة المادية التى ينتصر بها المؤمنون.

ويصبحون أداة سلام فى العالم المهدد بالدمار.. لأن العالم - بمعسكريه - إنما يتنازع على امتلاكنا نحن! امتلاك خيراتنا واستعبادنا وكسر شوكتنا. فيوم نكون نحن أصحاب ثرواتنا وملاك أنفسنا، فسنكون القوة التى تمنع النزاع فى الأرض، أو فى القليل يكون نزاعهم خارجًا عنا وليس واقعًا علينا كما هو اليوم.

الباب الخامس

الإيمـــان باليوم الآخر

- بعض الأدلة العـقليـة والنقليـة على وجـوب الإيمان باليوم الآخر.
- أثر الإيمان باليـوم الآخـر فى سلوك الفـرد والجماعة.
- الحقائق التى يشملها الإيمان باليوم الآخر.

الباب الخامس
الإيمـان باليوم الآخِر

الإيمان باليوم الآخر هو إيمان بالغيب، لأن أحدًا لم يشهده بنفسه، وإنما أخبرنا به الله سبحـانه وتعالى عن طريق رسله الكرام. فسبيله هو النقل الصـحيح مما جاء فى الكتاب والسنة.

ولكن الله الذى أخبـرنا عن اليوم الآخر، وأوجب علينـا الإيمان به، وجعله ركنًا من أركان الإيمان، قد أودع الفطرة البشرية القدرة على الإيمان بالغيب، وميز الإنسان بهذا الأمر من بين ما ميزه به وكرمه وفضله.

إن الحيوان يعيش فى حدود ما تدركه الحـواس فحسب، وعالمه محصور فى ذلك النطاق. ولكن الله سبـحانه وتعالى كرَّم الإنســان فلم يحصره فى حدود مـا تدركه حواسه فحسب، وإنما فسح آفاقه ووسـعها، ومنحه تلك الخاصية، وهى القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس، فـأصبحت نفسه أرحب وأعمق من الحـيوان وأصبحت آفاقه أوسع وأعلى.

ولكن الجاهليات دائمًا تشوه صورة الإنسان وترده أسفل سافلين بعد أن يكون الله قد خلقه فى أحسن تقويم.

والجاهلية المعاصرة تريد أن ترد الإنسان حيوانًا وتحصره فى نطاق ما تدركه حواسه فحسب! تريد أن تنزع عـنه تلك الكرامة التى كرمه بها الله، وتـلغى من عالمه عالم الغيب كله، بحجة الواقعية والروح العلمية!! ومن ثم تنتكس بالإنسان روحيًا ونفسيًا وخلقيًا، وتفقده إنسانيته فى النهاية.

ولكن الله الذى كرّم الإنـسان وأراد له الرفعـة جعل الإيمان بالغيب أبرز صـفات

المتقين! ﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

نعم، إن الإيمان بالغيب أمر لازم من أجل الإيمان بالله واليوم الآخر، ولذلك أبرزه القرآن فى مقدمة صفات المؤمنين. ولكنه فى ذات الوقت أبرز صفات الإنسان التى تميزه عن الحيوان، وتجعل عالمه غير عالم الحيوان.

والله الذى خلق الإنسان وجعله خليفة فى الأرض وأقامه لعمارتها: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

يعلم سبحانه وتعالى ما هى الأدوات اللازمة له لكى يقوم بدور الخلافة الراشدة فى الأرض ويعمرها بمقتضى المنهج الصحيح. لذلك وهب له كل المتطلبات اللازمة للمهمة التى كلفه بها لكى يكون التكليف فى حدود الطاقة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

لقد وهب الله له طاقة جسدية على نسق غير النسق الحيوانى. فالحيوان ذو قوة بدنية قد تفوق الإنسان عشرات المرات. ولكنه لا يستطيع أن يعمل بيديه، ولا أن يقف قائمًا، مما يحد من استخدام هذه الطاقة. أما الإنسان ـ وإن كان أضعف بدنيًا من كثير من أنواع الحيوان ـ فإنه أقدر على استخدام طاقته الجسدية فى مجالات شتى لا يقدر عليها الحيوان، وذلك من متطلبات الخلافة وعمارة الأرض.

ووهب له طاقة عقلية، تفكر وتدبر، وتخطط وترسم، وتستطيع أن تصل إلى كثير من الحقائق عن الكون الذى يعيش فيه الإنسان والسنن التى تجرى فيه. وهذه الطاقة من أكبر الأدوات المعينة على عمارة الأرض واستخلاص الطاقات المسخرة للإنسان فى السماوات والأرض من عند الله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

ووهب له كذلك القدرة على الإيمان بالغيب، وجعلها فى مقدمة الأدوات التى تعين الإنسان على القيام بدوره فى الأرض،. عن طريقها يؤمن بالله واليوم الآخر، فتتصل روحه بخالقه، ويستقيم على أمره، فتصلح حياته فى الدنيا كما تصلح حياته فى الآخرة.

بعض الأدلة العقلية والنقلية
على وجوب الإيمان باليوم الآخر

يقول اللـه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ويقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

ويقول: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

ويقـول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

والمعنى الذى تشير إليه هذه الآيات وأمثالـها: أن الخلق يصبح عبثًا وباطلاً إذا لم يكن هناك يوم آخر يبعث فيه الناس ويحاسبون على أعمالهم التى عملوها فى الحياة الدنيا. أى أن الحيـاة تصبح عبثًا، وخلق السمـاوات والأرض يصبح باطلاً لو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف.

ونستطيع أن ندرك بعقولنا هذا المعنى الذى تشير إليه الآيات.

فنحن نشاهد فى حـياتنا الدنيا ظالمين ظلوا ظالمـين حتى لحظة الموت، ومظلومين ظلوا مظلومين إلى آخر حياتهم. أفإن كـانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف يكون هذا عدلاً وحكمـة؟ وأين هوالعدل والظالم لم يُقتصَّ منه والمـظلوم لم يقتص له؟! وأين هى الحكمة فى خلق حـياة تجرى أحداثها على غـير مقتضى العـدل، ثم تنتهى على هذه الصورة؟

ونشاهد فـى الأرض كفاراً ومـؤمنين، تختلف مـعتقـداتهم وسلوكهم ويـختلف موقفهم من الخالق سبحانه. فريق استكبر وأبى أن يعبد الخالق ويطيعه، وفريق أسلم وجهه لله وهـو محسن. وتسير الحـياة بأحداثها، حـتى تنتهى بموت أولئك وهؤلاء فهل يسـتوى المحـسن والمسىء؟ فأمـا فى الحيـاة الدنيا فقـد نجد الكفـار ممكَّنين فى

الأرض، منتفشين بالباطل، والمؤمنين مستضعفين مشردين مطاردين، ولو لفترة من الوقت هي فترة الابتلاء التى قدرها الله لكل دعوة وجعلها من سننه فى الأرض: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

ويموت ناس وتنتهى حياتهم فى فترة الابتلاء تلك، والكفر مستعلٍ فى الأرض والإيمان مغلوب على أمره لم يمكّن بعد. فهل تستقيم الأمور على هذه الصورة مع الحق والعدل؟

أيكون من الحق أن يكون أصحاب الحق مشردين فى الأرض مستضعفين، وأصحاب الباطل ممكّنين منعّمين؟

أيكون من الحق أن الذين أجابوا داعى الله فآمنوا به واستقاموا على طريقه، يعيشون ويموتون فى الهوان والذل كأنهم هم المغضوب عليهم، وأن الذين لم يستجيبوا لله ولم يؤمنوا به يعيشون ويموتون هانئين منعّمين كأنهم هم الذين نالوا رضوان الله؟!

إنه هكذا تكون الصورة لو انتهت الأمور بالحياة الدنيا ولم يكن هناك بعث ولا حساب فى الآخرة ولا ثواب ولا عقاب.

ونشاهد عصاة لا يقفون عند حدود الله التى أمر بها، وينتهبون اللذات فى الحياة الدنيا، وآخرين التزموا بأمر الله فلم يأخذوا من المتاع إلا ما أحلّ الله، وهو - فى الدنيا - قدر أقل دون شك مما يستمتع به العصاة الغارقون فى الملذات. أفإن كانت الحياة الدنيا هى نهاية هؤلاء وهؤلاء يكون الأمر حقًا وعدلاً؟! هل تستقيم الأمور بأن ينهب من أراد نهبته ويمضى بها بغير حساب، بينما الملتزم يحرم نفسه من المتاع الزائد ثم يمضى بحرمانه بغير ثواب؟!

كلا بغير شك!

ولا يجوز ذلك فى حق الله.

لا يجوز فى حق عدالته وحكمته سبحانه أن تكون الأمور على هذه الصورة. بل تكون الحياة عبثًا لا معنى له ولا حكمة فيه.

من أجل ذلك نجد القرآن يربط فى كثير من الآيات بين خلق السماوات والأرض بالحق، وبين بعث الناس لسؤالهم عما عملوا فى الحياة الدنيا ومجازاتهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٩].

والمؤمنون يعلمون أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ولم يخلقهما باطلاً، فيدركون أنه لابد من بعث وحساب فيدعون الله أن يجنبهم النار:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وهكذا يؤكد القرآن أنه لو لم يكن هناك بعث وحساب فإن هذا يكون عبثًا لا يقتصر على حياة الإنسان وحده، بل يمتد كذلك إلى خلق السموات والأرض فيصبح كله عبثًا وباطلاً وقائمًا على غير الحق!

ولقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

وأخبرنا كذلك أنه جعل ما على الأرض زينة لها لنفس الغاية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧].

فإذا كان الموت هو النهاية التى تنتهى عندها الأمور جميعًا فأين حكمة خلق الموت

والحياة؟ وكيف يتميز الذين أحسنوا العمل من الذين أساءوا؟ وأين الحكمة فى جعل ما على الأرض زينة لها؟!

إن نقطة الابتلاء فى حياة الإنسان هى هذه الزينة الموجودة فى الأرض: هل يتناول منها الإنسان القدر الذى أباحه الله وأحله؟ أم ينتهب ما حرمه الله ولا يلتزم بطاعته؟

فإذا كانت نهاية هذا وذاك متساويتين بالموت فقد انتفت الحكمة ولم يعد هناك معنى للابتلاء بالزينة ما دام الأخذ منها بالحلال كالأخذ بالحرام سواء! والمفتون بها عن طاعة الله كالذى لجا من الفتنة واستقام!

لذلك يجيء هذا السؤال الإنكارى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

حاشا لله أن يكون ذلك!

إنما ذلك ظن الذين كفروا! هم الذين يظنون أن الأمر سواء، وأنه لا حساب ولا عقاب! فكأنهم بذلك يقولون إن الله خلق السماوات والأرض باطلاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

ولقد نزلت هذه الآية فى كفار قريش الذين كانوا ينكرون البعث. ولكن العجيب أن الجاهلية المعاصرة تنتج نماذج تنطبق عليها الآية كأنما هى مفصلة على قدّها تمامًا! فهذا «سارتر» الكاتب الوجودى الملحد، يقول إن الوجود كله عبث وكله باطل! وإن حياة الإنسان لا معنى لها ولا حكمة فيها! ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

إنه حين لا يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر فهكذا تصبح صورة الحياة فى حسه، وهكذا تصبح صورة الكون كلها: السماء والأرض وما بينهما، بما فيها حياة الإنسان.

ولا تستقيم الصورة ولا يتبين الحق، حتى توضع التكملة الطبيعية للحياة الدنيا،

وهى اليوم الآخر الذى يحاسب الناس فيه فيكرمون أو يهانون. عندئذ يتضح الحق فى خلق السماوات والأرض، والحق فى خلق الإنسان وحياته على الأرض. وتتبين الحكمة فى خلق الحياة والموت، والحكمة فى جعل ما على الأرض زينة لها.

ولكن الجاهلية تقطع الصورة فتشوهها، ثم تقول: إن الحياة لا معنى لها ولا حكمة فيها! ولقد كان الدهريون من قبل على نفس المستوى من الحماقة التى عليها كفار اليوم وفلاسفتهم «الملحدون»! ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وسواء قالوا ذلك استكثارًا على الله أن يقدر على بعث الموتى، أو نفيًا لوجود الله ألبتة، فقد عجزت بصيرتهم المطموسة عن إدراك الحق الذى خُلقت به السماوات والأرض، والحياة والموت، فعاشوا كالسائمة، لا يدركون لحياتهم معنى ولا لوجودهم هدفًا: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

* * *

آثار الإيمان باليوم الآخر في سلوك الفرد والجماعة

للإيمان باليوم الآخر أهمية بالغة فى حياة الإنسان وآثار عميقة، ونستطيع أن نفهم على ضوء هذه الحقيقة كيف أن القرآن ربط فى كثير من المواضع بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، فيجيئان متتاليين ومترابطين سواء فى الإثبات أو النفى.

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٤].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهكذا يرتبط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله مباشرةً كأنه مكمِّل له.

ونستطيع أن ندرك أهمية الإيمان باليوم الآخر فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة إذا عرفنا نفسية الشخص الذى لا يؤمن بالآخرة وطبيعة تصوره للحياة الدنيا وطريقة شعوره بها.

إن الحياة الدنيا فى حسه هى الأولى والأخيرة. والعمر فرصة واحدة إن لم تنتهب فسوف تضيع! وإذا كان العمر ـ مهما طال ـ محدوداً بسنوات، ولذائذ الحس كثيرة ومتنوعة، فالبدار البدار!

هكذا تكون القضية فى حس الذى لا يؤمن باليوم الآخر. فرصة وحيدة محدودة ينبغى أن تُنتهز ويُؤخذ فيها أكبر قدر من الملذات.. ولذلك تتكالب

الجاهليات دائمًا على متاع الأرض وتتصارع عليه، وتنحصر اهتماماتها فى حدود الحياة الدنيا.

والجاهلية المعاصرة نموذج لما نقول..

فما الذى يشغل الأفراد فيها ويشغل الجماعات؟

أما الفرد فهو يعمل وينتج. ولكن لأى هدف؟ ليحصل على أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من المال، ثم ينفق هذا المال فى الحصول على أكبر قدر من المتاع، يستوى فى حسه أن يكون من المتاع الحلال أو الحرام! بل إن فكرة الحرام لا تخطر على باله على سبيل الجد! فالأصل عنده هو الاستمتاع، قبل أن تفوت الفرصة التى إن مضت لا تعود! فما معنى الحرام فى حسه؟! إنه ليس إلا قيدًا على المتاع! وهو قيد ـ فى نظره ـ غير معقول ولا موجب له، لأنه يضيّع الفرص المحدودة التى لن تعود!

لذلك أيضًا فإن قيد الأخلاق وقيد الضمير وقيد المشاعر الإنسانية كلها قيود غير معقولة، كقيد الحرام سواء بسواء! ومن ثم تفسد الأخلاق فى الجاهلية، ويضعف وازع الضمير وتحل المصلحة محله. أما المشاعر الإنسانية والقيم العليا فتُعدّ سخفًا وسذاجة لا تليق بإنسان عاقل، إذا هى فوتت عليه فرصة للمتاع!

أما الأمم والجماعات فقصتها لا تختلف كثيرًا عن قصة الفرد.

فلأى شىء تعمل ولأى شىء تعيش حين لا تؤمن باليوم الآخر؟

كل جماعة همها الحصول على أكبر قدر من المتاع (أو المزايا بتعبيرهم!) على حساب جماعة أخرى! وكل أمة همها أن تتغلب على أمة أخرى لتسلبها حظها من المتاع وتأخذه لنفسها فتنشأ من ذلك الصراعات والحروب.

وأين القيم العليا؟ وأين حقوق الإنسان؟ وأين الضمير العالمى؟ وأين العهود والمواثيق؟ وأين التعاون فى سبيل الخير؟ وأين العدل؟ وأين الإخاء والمساواة؟

إنها كلها ـ فى الجاهلية ـ ألفاظ! يلوكها الناس نفاقًا ورياء، فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون! لأنها كلها معوقات عن المتاع فى الفرصة الوحيدة المتاحة للمتاع!

ويتقاتل الناس، ويموت منهم من يموت، ولكنهم يموتون وهـم يقاتلون فى سبيل هذا المتاع الأرضى، فـإذا قيل لهم تعالوا قـاتلوا فى سبيل المسـتضعـفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يسـتطيعون حيلة ولا يهـتدون سبيلاً، أو فـى سبيل الحق المجرد الذى لا مصلحة لهم فيه مباشرة، هزوا أكتافهم وأعرضوا عنك، إن لم يهبّوا لمقاتلتك أنت، لأنك تدعوهم إلى شىء يفسد عليهم مصالح الدنيا ومتاع الأرض!

ومن ثم تهبط القيم فى الجاهليات وتنحصر الآفاق، كـما يضعف الضمير وتفسد الأخلاق. إنه لا شىء يرفع الإنسـان من ثقلة الأرض - بعد الإيمان بالله - إلا الإيمان باليوم الآخر. الإيمان بأن كل مـتاع زائد يتنازل عنه الإنسان فى الحيـاة الدنيا - طاعةً لله والتزامًا بأمره - يعوض عنه فى الآخرة متاعًا أشفّ وأعلى وأخلد وأبقى. والإيمان فى ذات الوقت بأن كل خروج على أمر الله فى الحياة الدنيا - من أجل متاع الأرض الزائل - سيجـازى عليه فى الآخرة عذابًا ليس فى طوق البشر احـتماله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

وحين يؤمن الإنسان باليوم الآخر إيمان اليقين تحسم القضية فى حسه حسمًا كاملاً وتستقر الأمور. فكل نعيم فى الدنيا لا يقاس إلى نعيم الآخرة. ولا يساوى من جهة أخرى غمسة واحدة فى العـذاب من أجله، وكل عذاب فى الدنيا - فى سبيل الله - لا يقاس إلى عـذاب الآخرة ولا يوازى من جهة أخـرى غمسـة واحدة من أجله فى النعيم.

وعندئذ يقدر الإنسـان على موازنة ثقلة الأرض، ويقدر على الارتفـاع إلى القيم العليا والأخـلاق الفاضلة والمثل الرفيـعة، لأنه يوقن بالجـزاء الذى سوف يناله على ذلك كله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥- ١٧].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ

إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢].

وعندئذ يوجد الفرد الصالح والجماعة الصالحة التى تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان. وتوجد أمة تستحق هذا الوصف: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أمة تفى بهذا الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وتوفى هذا الطلب: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وتتوافر فيهم هذه الصفات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

* * *

الحقائق التى يشملها الإيمان باليوم الآخر

يشتمل الإيمان باليوم الآخر على مجموعة من الحقائق وردت فى الكتاب والسنة فلزم الإيمان بها جميعًا. وهى: فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والساعة وأماراتها والبعث، والحشر، والحساب وما يتبعه من ثواب وعقاب، والصراط، والجنة والنار.

١ ـ فتنة القبر وعذابه ونعيمه:

كان الرسول ﷺ يتعوذ فى دعائه من عذاب القبر (وهو الذى غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) فيقول: «وأعُوذُ بِكَ مِنْ عذابِ القَبْر».

ويقول الرسول ﷺ: «القُبُورُ رَوْضَةٌ من رِياضِ الجَنّةِ أوْ حُفْرةٌ من حُفَرِ النار»[1].

ويقول الله عن آل فرعون: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

ويقول عن قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

ولا نستطيع أن نعلم على وجه اليقين كيف تكون صفة النعيم والعذاب فى القبر، فذلك غيب لم يحدّثنا الله ورسوله عن تفصيلاته، ولا مصدر لنا لمعرفته إلا ما يخبرنا به الله ورسوله، وكل ما أخبرنا به عن الرسول ﷺ أن الميت حين يدفن فى قبره يدخل عليه ملكان فيقيمانه فيقعدانه ويسألانه عن أعماله كلها فى الحياة الدنيا فلا يجيب إلا بالحق. ثم إنه يجد قبره روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار بحسب أعماله التى سلفت منه. وذلك كله قبل يوم الحساب الأكبر وما يتبعه من ثواب وعقاب.

ومن ثم فإن ما درج على ألسنة الناس من الحديث عن «راحة الموت» ليس حقًا إلا بالنسبة للمؤمن الذى عمل صالحًا! أما المسىء فلن يجد فى موته ولا فى قبره راحة. إنما يجد العذاب يتسلمه من أول لحظة.. ثم عذاب الآخرة أشد.

---

(١) أخرجه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى.

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ هذه الأمَّةَ تُبْتَلَى فى قُبورِها، فلولا ألاَّ تَدافنوا لدعوتُ اللهَ أن يُسمعكُمْ من عذابِ القبرِ الذى أسمع». ثم قال: «تَعَوَّذوا من عذاب القبر» قالوا: «نعوذُ باللهِ من عذابِ القَبْر»[1].

٢ـ الساعة وأماراتها:

من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالساعة. وهى الساعة التى تنتهى فيها الحياة الدنيا بجميع أوضاعها، وتبدأ القيامة بكل أهوالها. ويصف القرآن الساعة وأحداثها وصفًا يهز النفس من أقطارها، ويبعث الرهبة فى أعماقها.

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١، ٢].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ [النازعات: ٦ـ١٠].

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١ـ ١٤].

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ١ـ ٥].

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝٢٦ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ

(١) رواه مسلم.

الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢١ـ ٣٠].

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

إنه الهول الذى يشمل السماوات والأرض، ويغير صورة الكون كله، فتنشق السماء وتنتثر الكواكب وتزلزل الأرض، وتسجر البحار فتشتعل نارًا، والمألوف فيها أنها هى التى تطفئ النار! وتنسف الجبال نسفًا:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٥ـ ١٠٨].

ولا يعود شىء واحد فى مكانه ولا على صورته التى كان عليها.. وفى هذا الهول الهائل يبعث الناس فيسألون!

ولاقتراب الساعة أمارات يذكرها القرآن والأحاديث.

ولقد اقتربت الساعة منذ بعثة الرسول ﷺ، فجاء عنها فى كتاب الله الكريم: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقال الرسول ﷺ: «بُعِثْتُ والساعةَ كهاتَيْن..» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى[1].

ولكن مقياس الزمن عند الله غير مقاييسنا! فحين أنذر الرسول ﷺ مشركى العرب باقتراب الساعة حسبوا أنها أيام معدودة ـ بحسابهم ـ ثم تأتى الساعة، فلما رأوها لم تأت قالوا له: أين العذاب الذى أنذرتنا به؟ وأين يوم القيامة الذى زعمت أنه قريب؟ فرد عليهم الله فى أكثر من آية: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٥، ٦].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

---

(١) متفق عليه.

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٧، ١٨].

وثَمَّ أمارات أخرى لاقتراب الساعة يشملها حديث الرسول ﷺ عن حذيفة بن أسيد الغفارى، رضى الله عنه قال: اطلعَ النبىُّ ﷺ علينا ونحنُ نتذاكرُ فقال: «ما تذاكَرونَ؟» قالوا: نَذْكُرُ الساعةَ. قال: «إنها لَن تقومَ حتى تَروْا قَبْلها عَشْرَ آيات فذكر: الدُّخان والدّجال والدَّابة وطلوعَ الشمس من مَغربها ونزولَ عيسى ابنِ مريمَ ويأجوجَ ومأموج وثلاثةَ خسوف: خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرةِ العربِ، وآخر ذلك نارٌ تَخْرُجُ منَ اليمنِ تَطْرُدُ الناسَ إلى مَحْشَرِهم»(١).

وفى حديث: «هذا جِبريلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أمْرَ دينكم»: قَالَ: «فأخبِرْنى عن الساعة. قال: ما المسئولُ عنها بأعلَمَ من السائل. قال فأخبِرْنى عن أماراتها. قال: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ ربَّتَها وأن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعاء الشاء يَتَطَاوَلُونَ فى البُنْيان»(٢).

فإذا بدأت أحداثُ الساعة نُفِخَ فى الصور نفخةٌ أولى ثم نفخةٌ ثانية:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

فالنفخة الأولى يصعق فيها كل من بقى حيًا فى السماوات والأرض إلا من شاء الله فيخرون موتى. والنفخة الثانية يقوم فيها الناس من أجداثهم ليوم الحشر.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما بَيْنَ النَّفختين أربعونَ سنة ثم يُنزلَ الله من السماء ماءً فينبتونَ كما يَنْبُتُ البَقْلُ، وليس من الإنسان شىء إلاَّ يَبْلَى إلا عظمًا واحدًا هُوَ عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يُرَكَّبُ يومَ القِيَامَة»(٣).

٣- البعث:

كان من أشد ما عجب له المشركون فى مكة وشككهم فى الساعة وكل ما يدور حولها قضية البعث!

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٧].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨].

وقد كان شكُّهم مبنيًا على جهالات شتى!

فهم أولاً لم يقدروا الله حق قدره، إذ استكثروا على قدرته سبحانه وتعالى أن يبعث الموتى! ولو كانوا يقدرونه سبحانه حق قدره، ويستيقنون من عظمته جل جلاله وقدرته التى لا يعجزها شيء ما استكثروا على هذه القدرة شيئًا على الإطلاق.

وهم ثانيًا لم يقدروا معجزة الخلق الماثلة أمامهم حق قدرها! ولو قدروها حق قدرها لعرفوا أنها من الضخامة والإعجاز بحيث أن القادر عليها لا يمكن أن يعجزه شيء، لأنه لا يوجد شيء أكثر إعجازًا من هذا الخلق الماثل أمامهم!

إن الحسَّ يتبلد على الأشياء فيعمى عن دلالتها! ولأن السماوات والأرض والشمس والقمر، والليل والنهار، والموت والحياة، كلها ماثلة أمام الحس فإنه يتبلد عليها بالإلف والعادة ولا يعود يقدّر ما فيها من إعجاز.

وإلا فلو أن الإنسان تذكر أو أزال الغشاوة عن بصيرته فرأى حقائق الكون المذهلة، لأحسَّ بالإعجاز فى الصغيرة والكبيرة، وأحسَّ أنّ من أنشأ هذا من العدم ـ جلت قدرته وجل ثناؤه ـ لن يعجز عن إعادة خلقه مرة أخرى متى شاء!

حقيقة إن علمهم بالكون لم يكن قد تقدم كما هو اليوم. ولكن القدر المشاهد المعلوم من الكون لأى إنسان مهما كان مقدار علمه، يكفى لرؤية الإعجاز فى صنعة الله. لذلك كان الله سبحانه وتعالى يخاطبهم بما يرونه أمامهم من معجزات الخلق، ثم يقول لهم: إن من صنع هذا كله لا يعجز عن إعادته وخلقه من جديد.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥- ٧].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وفى سورة «ق» مناقشة مستفيضة لهذه الجهالة على منهج القرآن من لفت نظر البشر إلى معجزات الخلق الماثلة أمام أعينهم ليقيسوا عليها، ويعلموا أن القادر على هذه يقدر على البعث، لأن البعث ما هو إلا خلق جديد:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١- ١٥].

وكذلك كان رد القرآن الكريم على ذلك المنكر المتبجح الذى تناول قطعة عظم رميمة من الأرض ففركها بين إصبعيه ونفخها فى وجه الرسول ﷺ وقال فى جهالة منطمسة البصيرة: أيستطيع ربك أن يبعث هذه؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣].

إن قضية الخلق واحدة فى الأولى والآخرة. والذى يسلم عقله بأن الله هو الذى خلق كل ما فى الكون من موجودات حاضرة ينبغى له ـ بنفس المنطق ـ أن يسلم بقدرة الله على البعث والخلق من جديد، فإن الكون حين خُلق لم يكن موجودًا ألبتة فأوجده الله من العدم. أفكانت قدرة الله موجودة مرة واحدة من قبل ثم كفت عن الوجود ولم يعد الله قادرًا على خلق من نوع الخلق الأول بل أهون منه؟ وحتى هذه الشبهة الساذجة لا موجب لها فإن الخلق ـ بكل معجزاته ـ قائم ومستمر! فمن أين يأتى كل جنين يولد، ولم يكن كائنًا من قبل، ومن أين تُنْبِتُ الأرض ما تنبت من زرع؟ أليس هذا خلقًا متجددًا يرونه أمام أعينهم؟! فإن قال أحد كما يقول المتبجحون اليوم إن هذا كله يتولد من بذور حية، فمن الذى أودع الحياة فى البذور أول مرة، ومن أودع فيها القدرة على النماء؟

كلا... إنه انطماس البصيرة ليس غير!

إن الناس يأخذون قضية الخلق الراهنة كأنها حادثة من تلقاء ذاتها. وتلك مصيبة الناس حين تنطمس بصيرتهم فيعمون عن آيات الله المعجزة فى الخلق، فيستكثرون على قدرته سبحانه أن يخلق من جديد!

والجاهلية المعاصرة مصيبتها أكبر! فقد عرفت من طريق العلم إلى أى حد هذا الكون معجز فى خلقه ومعجز فى كل تفصيلاته، وفغروا أفواههم عجبًا كلما كشف لهم العلم جديدًا من أسرار الكون الدقيقة، وخاصة فى عالم الذرة ومحتوياتها. ومع ذلك يستكبرون! ويفرون من مجابهة الحقيقة فيقولون: إنها الطبيعة[1] ويصنعون كما صنعت الجاهلية القديمة فينكرون على الله أن يقدر على البعث!

---

(١) لا يناقش أولئك الجاهليون قضية «الطبيعة» مناقشة منطقية ولا مناقشة علمية، فما هى على وجه التحديد؟!

ومازال تحدى القرآن مـاثلاً أمامهم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

ومازال وعيده لهم قائمًا: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٥، ٤٦].

ذلك أنهم علماء مزيفون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

أما العلمـاء الحقـيقيـون فهم أولى الناس بالإيمان بالله والإيمـان بالبعث: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

٤ ـ الحشر

يبعـث الله الموتى ثم يحشـرهم جمـيعًا ليـقفـوا بين يدى مولاهم يسـائلهم عن أعمالهم.

ويصف القرآن الكريم هول الحشر كما وصف أهوال الساعة:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ٣٧].

إنه الهـول الذى يفرق بين الأقـرباء والأصدقـاء، ويشغل كل إنسـان بنفسـه عن الآخرين ولو كانوا ألصق الناس به فى الحـياة الدنيا ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٧، ٨].

﴿يَـوْمَ يَخْـرُجُـونَ مِـنَ الأَجْـدَاثِ سِـرَاعًـا كَـأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِـضُـونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

ويصف الرسـول ﷺ يوم الحشر فـيقـول ـ فيمـا روت عنه عائشـة رضى الله عنها: «يُحشَـرُ النَّاسُ يَوْمَ القيامـة حُفاةً غُـرْلاً. قلتُ يا رسولَ الله، النسـاءُ والرِّجالُ جميـعًا يَنْظُرُ بعضُهُم إلى بعضٍ. قَـالَ: يا عائشة، الأمرُ أشَدُّ مِنْ أن يَنْـظُرَ بعضُهُم إلى بعضٍ»(١).

---

(١) متفق عليه.

ولكن الناس ليسوا سواء فى ذلك اليوم العصيب. إنما تختلف أحوالهم باختلاف أعمالهم:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ـ ٢٥].

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٣٨ـ ٤٢].

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢ـ ١٠٤].

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وعن المقداد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القيامة من الخَلْقِ حَتى تكونَ منهمْ كمقْدَارِ ميل، فيكون الناسُ على قَدْرِ أعمالِهمْ فى العَرَقَ. فمنهُمْ من يكونُ إلى كَعْبَيْهِ، ومنهُمْ مَنْ يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم مَنْ يكون إلى حقْوَيهِ، ومنهم من يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجامًا»[١].

---

(١) رواه مسلم.

وهكذا تختلف أحوال الناس فمنهم من يلقى فى روعه الفزع والخوف نتيجة سوء عمله فهو ذاهل مضطرب، مظلم الوجه مكفهر، وفوق ذلك يلقى الإهانة فيساق سوقًا كالبهائم، وإلى شر مكان يُساق، ومنهم من يُلقى فى روعه الطمأنينة والاستبشار فهو ينتظر تحقيق وعد ربه بدخوله جنات النعيم، وفوق ذلك يلقى الحفاوة والتكريم. إنه من المتقين الذين يحشرون إلى الرحمن «وفدًا»، والوفد دائمًا يلقى الحفاوة وحسن الاستقبال.

٥ـ الحساب:

بعد أن يُحْشَرَ الناسُ فى هذا الهولِ الذى يَشْغَلُ الإنسانَ عن أقرب المقربين إليه فى الدنيا. . يبدأ العرض والحساب: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨].

والناس فى الدنيا يرهبون أن يقفوا صفًا ليعرضوا أمام أحد من الحكام مهما صغر مقامه ليتبين البرىء من المذنب بعد السؤال والتحقيق. وهو بشر مثلهم لا يزيد عليهم فى شىء إلا السلطة التى يملكها فى يديه! وتزداد رهبتهم كلما عظم مقام الحاكم أو عظمت السلطة التى يملكها. ويستبطئون الزمن الذى يمر عليهم وهم فى حالة الترقب والانتظار هذه حتى يقضى فى أمرهم، وهو زمن محدود لا يزيد على ساعات أو أيام إذا طال. تمر الدقيقة منها كأنها دهر!

فكيف يكون حالهم وهم وقوف بين يدى الملك العزيز الجبار؟ وفى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟! ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ٤ ـ ١٠].

إن الخيال ليعجز عن التصور. وكل ما يملكه أن يقيس حال الناس وهم معروضون أمام الحاكم ليحقق معهم، ثم يظل يضاعفه أضعافًا ليقترب من تصور ذلك الموقف الرهيب بين يدى رب العالمين: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ⑩⑧ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ⑩⑨ يَعْلَمُ

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١٠٨ـ ١١١].

ثم يأتى دور السؤال. .

واحد بعد واحد من هذا الصف الطويل الذى يحتوى البشر كلهم من أول آدم، إلى آخر الخلق، يجىء دوره فيُسأل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

ولئن كان العرض مهولاً، فالسؤال أشدّ هولاً.

ألا ترى إلى البشر وهم واقفون أمام الحاكم ليسألهم، كيف يكون حالهم حين يجىء دورهم فى السؤال؟! إن وجوههم لتكفهرّ وهم فى العرض لم يصلوا بعد إلى السؤال، فإذا جاء دورهم اضطربت أنفاسهم، ووجبت قلوبهم، وزاغت أبصارهم، حتى يبدأ السؤال فتبدأ معه محنتهم إن كانوا مذنبين.

هذا وهُمْ يملكون اللفّ والدوران، ويملكون الكذب على الحاكم، والتهرب من مواجهة السؤال! . . . فكيف وهم فى الموقف الرهيب لا يملكون حتى ألسنتهم! فإنها تشهد عليهم، وحتى جلودهم وجوارحهم. . .

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ١٩ـ ٢٤].

ألا إنهم لا يملكون إلا أن يعترفوا بذنوبهم، وأن يشهدوا على أنفسهم.

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وشهدوا أو لم يشهدوا.. لا مفرّ!

هذه هى الموازين توضع، وتوزن فيها الأعمال.

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ويختلف وضع الناس من كتابهم، بعضهم يـؤتاه باليمين وبعضهم يؤتاه بالشمال (أو من وراء ظهره):

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ

حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ١٩ـ ٣٧].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ ـ١٢].

وأولئك هم الذين يسميهم القرآن أصحاب اليـمين وأصحاب الشمال أو أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة.. ولكل منهما مصيرا

٦ـ الصراط:

فإذا انتـهى العرض والسؤال، وُزنت الأعمـال، وتقرر المصيـر، فكل يؤخذ إلى مصيره: فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير.

وهم فى طريقهم يمرون على الصراط. فأما من كان مـصيره إلى النار فهو يهوى من الصراط إلى جـهنم حيث يتسلمه العـذاب على التو. وأما من كان مـصيره إلى الجنة فهو يرى النار رؤية من بعيـد، ليعرف فقط مصير الكفـار، وليعرف أى عذاب أنجاه الله منه، ثم يستمر فى طريقه إلى حيث يرحب به الملائكة الأبرار.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «يَجمَعُ الله الناسَ يومَ القيامةِ فيقولُ: مَنْ كـان يَعبُدُ شيئًا فَلْيَتبعْهُ. فَيَتْبعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الشمسَ الشمسَ،

ويَتبَعُ من كانَ يَعبُدُ القَمرَ القَمرَ، ويَتبَعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الطَّواغيتَ الطواغيتَ إلى أن قال: ويُضْربُ الصِّراطُ بين ظَهْرىْ جَهنَّمَ فأكون أنا وأمتى أولَ مَنْ يجيز»[1].

وعن أبى سعيد الخدرى: قيل: يا رسول الله وما الجسْرُ؟ قال: «دَحْضٌ مَزلَّةٌ فيه خَطَاطِيفُ وكلاليبُ وحَسك ثم قال أبو سعيد: بلغنى أن الجسرَ أدقُّ من الشعْرةِ وأحَدُّ من السيف»[2].

وعن حذيفة قال: قالَ رسول الله ﷺ: «فى حافَّتى الصِّراط كلاليبُ مُعَلَّقَةٌ مأمورةٌ بأخْذِ مَنْ أُمِرَتْ به، فمخدوشٌ ناجٍ ومكدوشٌ فى النار»[3].

٧ـ الجنة والنار:

هنا نصل إلى نهاية المطاف..

نهاية الرحلة الطويلة التى بدأ طرف منها على الأرض فى الحياة الدنيا، واليوم تصل إلى نهايتها بعد البعث والحشر والعرض والسؤال:

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠].

هنا تكتمل الصورة، ويحقّ الحق، ويصل كل شىء إلى قرار.

أما الذين استقاموا فى حياتهم الدنيا على الطريق، فآمنوا بالله، والتزموا بأوامره وأيقنوا بيوم لقائه، فتجنبوا سخطه وسعوا إلى رضاه، وكدوا فى سبيل ذلك وكدحوا، واحتملوا ما احتملوا من مشقة، وصبروا على ما لاقوا من الأذى والنصب فى الطريق، فأولئك قد استحقوا رضوان الله وجنته. استحقوا أن يصلوا إلى دار الأمان حيث لا شىء يقلق ولا شىء يخيف، ولا شىء ينغص النعيم: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦].

وأما الذين كفروا وكذبوا، وأصروا على غيِّهم، وخالفوا عن أمر ربهم ورسله واستمتعوا فى الحياة الدنيا بغير الحق، وكدحوا ولكن للشيطان.. وفرحوا بأعمالهم

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

الخاطئة فطغـوا بها وتجبروا. . فقد اسـتحقوا أن يصلوا إلى الجحـيم، حيث لا موت ولا حياة، ولا يخفف عنهم ولو يومٌ من العذاب!

هنا - فى الصورة المكتملة فى نهاية المطاف - تتبدى عدالة الله، ويتبدى الحق الذى خلقت به السـمـاوات والأرض وخلق به الموت والحـيـاة. . ويتلقى كل إنسـان دينه الحق، وتكتمل دلالة كل شىء فى هذه الحياة.

ولقد جاء وصف الجنة والنار ووصف النعيم والعذاب فى مـواضع كثيرة جدًا من القرآن. ولاتكاد تخلو سورة من السور من إشارة ولو عابرة إلا القليل النادر.

ولا نحتاج إلى ذكر الشواهد الكثيرة، فالقرآن بين يدى الدارس، وحيثما تصفحه فسـيجد فيـه بغيتـه من وصف مشاهد القـيامة، إنما نقـول كلمة مجـملة عن النعيم والعذاب ثم نأتى بنماذج قليلة من الآيات.

يوصف النعيم فى القرآن بأنه نعيم حـسى ومعنوى فى ذات الوقت. كما يوصف العذاب كذلك بأنه عذاب حسى ومعنوى وهذا هو الذى يتلاءم مع طبيعة «الإنسان».

فـالإنسـان الذى يعـيش فى الدنيـا مـزيج من الجـسد والروح. مـن الحسـيـات والمعنويات. وهو الذى يكرم فى الآخرة أو يهان. فإذا كـرم فإنما يكرم كله، بجسده وروحه، وإذا عذب فإنما يعذب كله، بجسده وروحه سواء.

وقد وصف الله لنا جنته وناره وصفًا دقيقًا شاملاً ولكن خيالنا قاصر عن الإحاطة بهما، فإن الرسول ﷺ يقول عن الجنة: «فِيها مَا لا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر»(1).

فنحن نتصور النعيم - سواء الحسى منه أو المعنوى - فى حدود خبرتنا وتجاربنا فى الحياة الدنيا. ولكنه فى حـقيقته أجمل من كل ما نستطيع أن نتـخيل، فليس الشجر كالشجر وليست الثمار كالثمـار. وليست الحور العين كأى جمال نستطيع أن نتصوره فى الأرض. وكذلك الرضوان ﴿ورِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

إن أىّ تصور لهـذا الرضوان، ومدى الراحـة النفسيـة له والفرحة الروحـية به لا يمكن أن يصل إلى شىء من الحـقيـقة. . ولـكن هذه طبيـعة البـشر مع اللغـة، لا يستطيعون أن يدركوا من معانيها إلا ما يدخل فى دائرة تجربتهم وتصورهم!

---

(1) رواه البخارى.

والأمـر مع العذاب كـذلك. . إننا لا نسـتطيع أن نتـصـور من أمر النار إلا مـا شاهدناه فى حيـاتنا الدنيا. وقد نضاعف القدر فى خيـالنا مرات ومرات. ولكنا مع ذلك لا نصل إلى حقيـقة عذاب الحريق الذى ينتظر الكفار فى جـهنم والعياذ بالله. وكذلك الأمر بالنسبة للعذاب النفسى من خزى وندم وحسرة وهوان.

فلنقـرأ إذن وصف الجنة والنار فى القرآن. ولنحـاول ـ ما اسـتطعنا ـ أن نقـترب بخيالنا من حقائق الأشياء!

أولاً ـ أوصاف الجنة وأهلها:

١ ـ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٦٠].

٢ ـ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ١٧ ـ ٢٨].

٣ ـ ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا

شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ١٢ـ ٢٢].

٤ ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٧، ٤٨].

ثانيًا ـ من أوصاف النار وأهلها:

١ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

٢ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

٣ ـ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩١ـ ١٠٢].

٤ ـ ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا

فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٦٤].

٥ ـ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ[1] ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٦].

وهكذا نجد المقابلة تامة بين الجنة وأهلها والنار وأهلها. فبينما الأولى تحوى كل ما يتخيله الإنسان من ألوان النعيم، بل فوق ما يستطيع تخيله، وأهلها فى سمر ومودة، راضية قلوبهم، ضاحكة وجوههم، ناعمة مشاعرهم، يتجلى عليهم ربهم برضوانه، إذ بالنار فى الآخرة تحوى كل ما يتخيله الإنسان من ألوان العذاب الحسى، وفوق ما يتخيله كذلك، والخزى والندم والحسرة هى عذابهم النفسى الدائم، ويجيئهم مع العذاب التبكيت والتوبيخ والتقريع.

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار!

* * *

(١) أى الجمال.

الباب السادس

الإيمان بالقدر

• أثر الإيمان بالقدر على الوجه الصحيح.

الباب السادس

الإيمانُ بالقـدَر

لا يتم إيمان الإنسـان حتى يؤمن بالـقدر خـيره وشـره أنه من عند الله، وأنه لا يكون شىء فى الكون كله إلا ما قدره الله.

ووجوب الإيمان به واضح السبب لا يحتاج إلى جهد لتفهمه. فإن الأحداث التى تجرى فى الكون كله وفى حياة الناس إما أن تكون ـ فى تصور الإنسان ـ آتية من عند الله، هو الذى برأها وقدرها، وإما أن تكون فى تصوره آتية من عند غير الله أيًا كان المصدر الذى يتخـيله. فإن كانت الأولى فقد آمـن بالله حقًا، وإن كانت الثانيـة فقد أشرك إذ ليس الـشرك محـصورًا فى تقـديم شعائر التـعبـد لغير الله، ولا التـحليل والتحريم من دون الله. إنما يكون الشرك فى هذه الحالة فى أصل الاعتقاد فى «لا إله إلا الله».

إن المعنى الأول للا إله إلا الله هو أنه ليس فى هذا الكون إله متصرف فى شئونه إلاّ الله، ومن ثم تترتب المعانى الأخرى: أنه لا معـبود يستحق العبادة إلا الله. ولا أحد تنبغى له الطاعة إلا الله. ولا حاكمية إلا الله.

فتصوُّر أى إنسان أن أحداث الكون وتصاريف الحـياة تأتى من أى مصدر غير الله سبحانه وتعالى هو شرك فى أصل الاعتقاد، ومعناه أن الله ليس هو المتصرف وحده فى شئون الكون إنما هناك من يشترك معه فى هذا الشأن.

وحتى لو اعتقد معتقد أن الأحداث تقع بالمصادفة ـ كما يعتقد بعض الجاهليين فى القديم والحديث ـ لا بتدبير الله وعلمه وتقديره، فهو على ذات الدرجة من الشرك، لأنه فى الواقع قد توهّم وجود قوة غير قوة الله سبحانه وتعالى قد أنشأت الأحداث وأجرتها بحيث تـقع فيها المصادفة المزعومـة على النحو الذى وقعت به.. وهو وإن

قال بلسانه إن الأحداث تقع بغير تدبير ولا قصد، إلا أنه يفترض فى خياله أنها كانت سائرة أصلاً بدافع ما، ثم تصادم بعضها مع بعض، أو تصادف بعضها مع بعض بغير قصد. . فهو فى النهاية يفترض أن هناك من يسيّر الكون وأحداثه غير الله. وهذا هو الشرك الأصيل!

ومن ثم فقد لزم لزومًا أن يؤمن الإنسان بالقضاء والقدر أنه من عند الله. وأنه لا يحدث شىء فى الكون كله إلا بتقدير الله. وإلا فهو ليس بمؤمن أصلاً بلا إله إلا الله!

ولقد نص القرآن كما نصت الأحاديث على وجوب الإيمان بالقدر.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

ويقول: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ويقول: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ويقول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

ويقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

أما الأحاديث فكثيرة، فى مقدمتها حديث «هذا جبريلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكم أمْرَ دينكُمْ» إذا جاء فيه: «قالَ: وما الإيمانُ؟ قال: أن تُؤمنَ باللَّهِ وَمَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَر خَيْرِه وشرِه»(١).

ويقول الرسول ﷺ: «اعملُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلقَ له»(٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن على رضى الله عنه.

ويقولُ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله عزَّ وجَلَّ منَ المؤمنِ الضَّعيف وفى كلٍّ خيـر. احرصْ على ما ينْفَعُكَ واستَعِنْ باللَه ولا تعجزَ. وإن أصابك شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنى فَعَلْتُ لكان كذا وكذا. ولكنْ قُلْ: قَدَّر اللهُ وما شاءَ فَعَلَ، فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1].

وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبى ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ على النُّطْفَة بَعْدَ مَا تَسْتَقرُّ فى الرَّحم بأربعينَ أو خمسة وأربعينَ ليلةً فيقولُ: يا ربِّ أشَقىٌّ أو سَعيد؟ فَيكْتُبَان. فيقولُ: أيْ ربِّ: ذَكَرٌ أو أنثى؟ فيكتبان. ويُكتب عَمَلُهُ وأَثَرُهُ وأَجَلُهُ ورِزْقُهُ. ثم تُطْوَى الصُّحُفُ فلا يُزادُ فيها ولا يُنْقَصُ»[2].

أما مراتب الإيمان بالقدر فهى كمراتبه فى كل شعب الإيمان الأخرى. فالإقرار شرط الإيمان، ولا يكون الإنسان مؤمنًا حتى يقرّ بأن القدر خيره وشره من عند الله. ولكن هناك درجة التسليم والرضى بقَدَر الله وهى مرتبة الإحسان التى يصل إليها الإنسان حين يتعمق إيمانه ويرسخ، فيعرف أنّ لكل قدر حكمة، وأنّ قدر الله كله خير للمؤمن المستقيم على الطريق.

* * *

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

أثر الإيمان بالقدر على الوجه الصحيح

١ ـ الإيمان بالقدر ـ فى حياة المؤمن ـ أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظائم الأمور بثبات وعزم وثقة.

ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر فى حياة الأجيال الأولى من المسلمين هى التى صنعت تلك العجائب التى سجلها تاريخهم، والتى ثبّتت الدعوة فى الأرض ونشرتها على نطاق واسع فى فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها ـ فى قصرها ـ فى التاريخ. وهى التى أقامت هذا البناء الشاهق فى كل ميدان من ميادين الحياة.

نعم، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال فى الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل نشر الدعوة.

لقد وعى المسلمون قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له، سواء كان قاعدًا فى بيته أو فى ميدان القتال، ففيم الجبن، وفيم الفرار من القتال خوفًا من الموت؟ فهل القتال هو الذى يقتل؟ أم قدر الله لإنسان ما أن يموت فى لحظة معينة فى حالة معينة هو الذى يميته؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال؟ وإن كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان؟

هكذا كان الأمر فى حسّهم فأقبلوا على الجهاد فى ثقة وثبات وعزم، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقفَ رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الاطمئنان إلى قدر الله سبحانه.

ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذى نزل عليهم فى سورة آل عمران بشأن غزوة أحد، حين قال المنافقون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ فرد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وحين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ فرد عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ وحين قال الله للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ

اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦ـ ١٥٨].

وعوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كُتِبَ عليه الموت ولو كان فى مضجعه فى بيته. وأنه إن لم يكن كُتِبَ عليه الموت فىَ تلك اللحظة فكل هول الحرب وكل سهام الأعداء وسيوفهم لنَ تصيبه بالموت!

وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان فى القتال ويموت ـ بقدر من الله ـ فأمامه المثوبة والأجر وهو الكاسب بهذا القدر الذى قدره له الله. لذلك كان القتال فى سبيل الله أمراً محبباً إلي نفوسهم، فنصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم كما وعد سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافزهم للانسياح فى الأرض، سواء لنشر الدعوة، أو طلب الرزق، أو اكتشاف المجهول من الأرض. فكان لهم فى كل ميدان من هذه الميادين نشاط ملحوظ وآثارمشهودة.

ففى نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من المحيط غربا إلى الهند شرقا فى فترة من الزمن لا تتجاوز نصف قرن!! وهى سرعة لا مثيل لها فى التاريخ! وانتشر مع الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أرهب أعداء الله، وانتشر معه كذلك اللسان العربى بسرعة تفوق الوصف فى انتشار اللغات فى الأرض.

وفى ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامى حتى صار المسلمون أغنى أمة فى الأرض، لأنهم يجوبون البحار والقفار تجاراً وصناعًا فيأتى إليهم المال من كل سبيل، وتتاح معه فرصة العمران والحضارة.

وفى ميدان الكشف الجغرافى كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة ـ أول من ارتادها ـ ورسموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التى مكنت فاسكوداجاما وماجلان فيما بعد من القيام برحلاتهما حول إفريقيا وآسيا، كما كشفوا منابع النيل ورسموا خرائطه التى جاء المكتشفون الأوربيون على هداها من بعد ليزعموا أنهم هم المكتشفون!

وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقًا وغربًا بهذا الدافع الإيمانى العميق.

٢ ـ والإيمان بالقدر عصمة من الوهن والجزع عند حلول المصائب:

فالإنسان عرضة دائمًا لأن تصيبه النوائب والأحداث لأن هذه سنة الله فى

الأرض. وما من بشـر فى الأرض كلها لا يصـاب. على الأقل يصاب بمـوت عزيز عنده، إن لم يصب هو شخصيًا بما يصيب الناس عادة من أمراض أو آلام.

ومن شأن المصـائب أن تهز النفوس. وما من إنسـان لا يتأثر بما يصيبـه ولو كان صلد المشـاعر عديم الاكـتراث. ولكن التـأثر بالأحداث شىء والوهن والجـزع عند حلولها شىء آخر.

لقد تأثر رسول الله ﷺ لفقد ولده إبراهيم، ولكنه قال: **«إنَّ العَيْنَ لتَدْمَعُ وإنَّ القَلْبَ ليَحْزَنُ ولا نَقُولُ إلا ما يُرْضِى ربنا، وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون»**.

فأما الوهن الذى يفتِّت العزيمة ويقعـد بالإنسان عن معاودة النشاط والانطلاق فى الحياة فهـو الأمر غير المرغوب. وهو الذى يتعـرض له الإنسان حين لا يؤمن بالقدر ولا يسلم له. لذلك يقول الله سبحانه وهو يربى المسلمين:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وبذلك يسترد الإنسـان عزيمته، ويمضى فى طريقه مطمئنًا لقدر الله، يـستمد منه مزيدًا من العزم، ويرجو من الله التخفيف.

ولكن عـقيـدة القدر أصـابها فى نفـوس المسلمين ـ على مر الزمـن ـ كثيـر من الانحراف فقد وجـدت طوائف ضالة قالت: إن الإنسان مجبـر على ما يفعل، ومن ثم فليس بمسئول!

فقد قـالت طائفة (الجبرية): إنه مـا دام كل شىء يتم بقدر الله، ولا يتم إلا به، فكل ما يـقع من الإنسان من عـمل هو مقدر عليـه بحيث لا يملك إلا أنْ يـعمله. فإرادته إذن منتفية فلا مجال لمحاسبته على ما يفعل.

والسلف الصـالح لم يفهم قط من عـقيدة القـدر هذا الفهم الخـاطئ الذى يلغى مسئولية الإنسان عن عمله.

لقد فهم المسلمون من درس أحد أن ما وقع لهم كان مقدراً لهم من عند الله، ولكنه كان فى ذات الوقت من عند أنفسهم بسبب معصيتهم للرسول ﷺ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥، ١٦٦].

فلا تعارض فى حسّ المؤمن الصحيح الإيمان بين الإيمان بقدر الله وتحمل الإنسان مسئولية عمله وتعرضه للحساب عليه.

وإن الاحتجاج بالقدر على الكفر أو المعصية أو العجز والقعود عن العمل ليس هو السبيل الصحيح للمؤمنين. إنما ينـدد القرآن بالمشركين لأنهم قالوا مثل هذا تبريراً لكفرهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

فهل يملك أولئك المشركون الذين يلقون تبعة شركهم على الله سبحانه وتعالى دليلاً على أن الله منعهم من الإيمان وهم راغبون فيه؟!

حقيقة إن الله قد قدر ألا يكون الناس أمة واحدة (على الإيمان وعلى الكفر سواء)، ولو شاء سبحانه لهدى الناس أجمعين. ولكنه قدر أن يترك للإنسان اختيار طريقه، بعد أن عرّفه طريق الهدى وطريق الضلال، وأعطاه القدرة على الاختيار بينهما ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ـ ١٠].

فمن آمن فقد زكى نفسه، ومن كفر فقد دساها.

وإذا كانت بعض الفرق قد انحرفت فى عقيدة القدر بشأن الحساب يوم القيامة، فإن جموع المسلمين قد انحرفت فى العصور الأخيرة فى عقيدة القدر بشأن ما يجرى فى الحياة الدنيا.

لقد أصابهم التواكل فيما أصابهم من انحرافات. وأدى بهم التواكل إلى العجز والكسل والقعود.

لقد فهموا من معنى أنه لا يحدث فى الكون إلا ما يريده الله، أنه لا حاجة للإنسان أن يعمل! فإن قدر الله ماضٍ سواء عمل الإنسان أو لم يعمل! فلا ضرورة للكد فى طلب الرزق لأن «مالك سوف يأتيك»! ولا ضرورة للنشاط والحركة لأنها فى زعمهم ضد التوكل الصحيح!!

كما فهموا كذلك من معنى التسليم لقدر الله القعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر أو مرض أو جهل أو حتى معصية! لأن كل ذلك مقدر من عند الله فلا ينبغى مقاومته إنما ينبغى الاستسلام له!

وهذا التواكل وهذه السلبية ليست من الإسلام فى شىء على الإطلاق! وإلا فلو كانت من الإسلام فكيف غابت عن الرسول ﷺ وعن صحبه الكرام الذين تلقوا عنه المفاهيم الصحيحة لهذا الدين؟!

مرة أخرى نعود إلى درس وقعة أحد..

فقد وعى المسلمون من الدرس كما أسلفنا أن كون الهزيمة تمت بقدر من الله لا ينفى أنها فى ذات الوقت (من عند أنفسكم). أى أن وقوع شىء بقدر الله لا ينفى مسئولية الإنسان عن خطئه. فليس لمخطئ أن يهز كتفيه ويقول: إنما وقع الخطأ منى بقدر من الله! ولو قدّر الله ألا أخطئ لما أخطأت! فلست مسئولاً عن الخطأ!

كلا! إن العقيدة الصحيحة للمؤمن لا يتنافى فيها أن يكون الحدث مقدرًا من عند الله وأن يكون الإنسان مسئولاً عن عمله فى ذات الوقت..

كذلك وعى المسلمون من وقعة أحد وأحداثها درسًا آخر..

إن عليهم أن يسلموا لقدر الله.. ولكن ما معنى التسليم؟ هل معناه القعود عن تغيير ما أصابهم، ولو أنه قد أصابهم بقدر من الله؟

إنما قال لهم: ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

فالحزن يفتّت العزيمة ويوهنها. وهو الأمر الذى لا يريده الله لهم. فوجّههم إلى التسليم بقدر الله لكيلا يحزنوا وتتفتت عزيمتهم. ولكن هل طلب منهم الاستسلام لما أصابهم بمعنى عدم العمل على تغييره؟!

إن أحداث المعركة سارت فى خط مختلف تمامًا. فقد جمع الرسول ﷺ مشاعر المسلمين وعزائمهم كما جمع صفوفهم ليدخل بهم المعركة مرة أخرى على أثر الهزيمة. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٢ـ ١٧٤].

لقد صرف الله أعداءهم فلم تقع المعركة. ولكنهم كانوا قد استعدوا للقتال تمامًا. استعدوا له بأرواحهم ومشاعرهم، فجمعوا عزائمهم رغم تخويف الناس لهم وعزموا على لقاء العدو متكلين على الله. وهذا هو التوكل الحق الذى يطلبه الله من المسلمين.

إن القعود عن تغيير الأمر الواقع بحجة أنه واقع بقدر من الله جهالة عظيمة لا تنبغى للمسلم. نعم إن ما وقع بالفعل قد وقع بقدر من الله ـ وإن كان لا ينفى مسئولية الإنسان ـ ولكن من يعلم ما يكون عليه قدر الله غدًا، بل فى اللحظة القادمة؟ هل علم ذلك القاعد المتواكل أن قدر الله القادم لن يكون مغايرًا لقدر الله الواقع؟! أليس فى الاحتمال أن الله قد قدر للحظة القادمة قدرًا غير القدر الذى كان فى اللحظة الماضية؟ فكيف يقعد عن العمل بزعم أنه متوكل على الله مستسلم لقدره؟

ثم إن توجيهات القرآن للمسلمين منافية للتواكل تمامًا.

انظر هذه الآية من سورة الأنفال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٩].

فما معناها؟ معناها أن الكفار الذين يرغبون فى إزالة هذا الدين من الأرض وعدم التمكين له لن يسبقوا قدر الله الذى قدر لهذا الدِّين التمكين والظهور: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

ولن يُعْجِزُوا الله عن تنفيذ قدره الذى قدره بالتمكين لهذا الدين.

فهل معنى ذلك التواكل على قدر الله وعدم الأخذ بالأسباب، ما دام الله قد قدّر هزيمة الكفار فى محاولتهم، وقدّر النصر والتمكين لهذا الدِّين؟

انظر إلى الآية التالية مباشرة تجد فيها الجواب: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

إذن ـ وقَدَرُ الله مؤكد الوقوع، وهزيمة الكفار مقدرة ومقررة ـ لابد من الأخذ بالأسباب. لابد من إعداد القوة والجهاد بالأنفس والأموال.

ذلك هو الفهم الصحيح لعقيدة القدر كما فهمها الجيل الأول من المسلمين رضوان الله عليهم. لا تنفى مسئولية الإنسان عن عمله، ولا تدعو إلى القعود عن تغيير الواقع، ولا تدعو إلى التواكل وعدم الأخذ بالأسباب انتظاراً لقدر الله!

وذلك هو الفهم الذى ينبغى أن يعود المسلمون إليه، ليزول عنهم ما أصابهم من فقر وجهل ومرض وتواكل وعجز، وما ترتب على ذلك كله من غلبة عدوهم عليهم، وهوانهم على أنفسهم وعلى الناس!

وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما المرجع الذى ينبغى أن نرجع إليه من أجل تصحيح مسيرتنا كلما انحرفت خطواتنا على الطريق.

* * *

خاتمة

العقيدة الإسلامية

تحدَّثنا فى هذا الكتاب عن أركان العقيدة الإسلامية: الإيمان بالله، والملائكة، والكتاب، والنبيين، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

ونريد هنا أن نختم حديثنا بكلمة عامة عن العقيدة الإسلامية نتحدث فيها عن خصائصها وأثرها فى الحياة الإنسانية.

(١)

خصائصها

إن هذه العقيدة - بادئ ذى بدء - هي العقيدة التي ارتضاها الله لنا وأنعم بها علينا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهى من ثَمَّ منهج الحياة الصحيح الذى رسمه الله لنا لنفوز بخير الدنيا والآخرة، ولنكون محققين لشروط الخلافة التى خلقنا الله من أجلها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولنقوم بعمارة الأرض على الوجه الذى أراده الله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فى حدود العبادة لله التى هى غاية الوجود الإنسانى كله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهذه الصورة المجملة تعطينا لمحة عن خصائص هذه العقيدة، وهى الشمول والتكامل، والتوازن. ولنتحدث عن كلٍّ من هذه الخصائص بإيجاز:

أولاً: الشمول:

إن هذه العقيدة تشمل الإنسان كله، جسمه وعقله وروحه، كما تشمل سلوكه وفكره ومشاعره، كما تشمل دنياه وآخرته.

ليس فى كيان الإنسان ولا فى حياته شىء لا يتصل بهذه العقيدة ولا تتصل العقيدة به.

إنها تصاحبه فى كل لحظة من لحظات حياته، وفى كل عمل يعمله، أو فكر يفكره، أو شعور يختلج فى ضميره.

ويتضح لنا الشمول فى مجالات متعددة، وعلى محاور مختلفة، تلتقى كلها فى النهاية:

١ ـ ففى مجال الاعتقاد تشمل ـ كما رأينا ـ الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين والكتب السماوية والقدر خيره وشره.

٢ ـ وفى مجال العمل تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة فى ذات الوقت.

٣ ـ وفى مجال الكائن البشرى تشمل حركة جسمه وتفكّر عقله وانطلاقة روحه.

٤ ـ وفى مجال المجموع البشرى تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة فى ذات الوقت.

٥ ـ وفى مجال العلاقات تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره (فى داخل الأسرة وفى داخل المجتمع وفيما بين المسلمين وغير المسلمين، وفيما بين الإنسان والكون كذلك!).

ولن توجد دائرة أوسع من هذه ولا أشمل. لأنّ هذه تشمل كل شىء فى الوجود!

ثانيًا: التكامل (أو الترابط):

إن هذه العقيدة لا تتّسم بالشمول الذى ذكرنا مجالاته ومحاوره المختلفة فحسب،

بل بالتكامل والترابط كـذلك. وهذه مستـقلة عن الشمول، وإن كانت وثيـقة الصلة به.

ولنأخذ هذه المجالات واحدًا واحدًا لنرى أثر الترابط فيه بالإضافة إلى الشمول.

١ ـ فى مجال الاعتقاد:

قلنا إنها تشمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكـتاب والنبيين والقدر خيره وشره. ولكن الشـمول فى ذاته لا يعنى ترابط هذه المعتقـدات بعضها ببـعض. فقد تكون موجودة بعـضها إلى جوار بعض، دون ترابط بين أركانها المخـتلفة، كل منها يعمل فى حقل مسـتقل غير مرتبط بالآخر. وليس هذا هو الحـال فى هذه العقيدة. فإن كل ركن من هذه الأركان ذو صـلة وثيقة بسائرها، بحيث تكـون فى النهاية كلاً متكاملاً، يؤثر بمجموعه المترابط فى حياة الإنسان.

وإن شئت الدقة فقل إن سـائر أركان العقيدة الإسلاميـة مرتبط بركنها الأول وهو الأكبر وهو الإيمان بالله.

فالإيمان بـالله هو الأساس، وهو لب العـقيـدة وصلبهـا، ثم تأتى بقيـة الأركان فتتصل به فتتكامل.

فالإيمان بـاليوم الآخر ـ كـما رأينا فى حـديثنا عنه ـ مرتبـط بعدل الله وحكمـته وبالحق الذى خلق الـله به السـمـاوات والأرض، وخلق به الحـيـاة والموت، أى أنه مرتبط ارتبـاطًا مباشرًا بتـصورنا لصفات اللـه جل وعلا، بحيث يصبح تصـورنا لها ناقصًا ومختلاً إذا لم نؤمن بذلك اليـوم الذى يحق فيه الحق وتكتمل الصورة ويصل كل شىء فيه إلى دلالته الحقيقية الكاملة.

والإيمان بالملائكة مـتصل بقدرة اللـه من جانب: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [فاطر: ١].

ومتصل بمعرفة المنهج الذى يريد الله أن تسيـر حياتنا عليه من جانب آخر، لأنهم هم الرسل الذين يرسلهم الله ليبلغوا وحيه لمن يختارهم من البشر لهداية البشرية.

وبذلك لا يكون الإيمان بالملائكة ركنًا منفصلاً فى هذه العقيدة قائمًا بذاته وإنما هو متصل بالإيمان بالله، ومترابط مع بقية الأركان.

ونستطيع على هذا الـضوء أن ندرك ترابط بقية الأركـان بعضهـا ببعض، وترابط سائرها بالإيمان بالله. فالإيمان بـالكتب متصل مباشرة بالمـنهج الربانى أى بما يشرعه الله للبشر لتستقيم حيـاتهم فى الحياة الدنيا والآخرة. وكذلك الإيمان بالنبيين، لأنهم هم الذين يحملون إلينا المنهج الربانى بما يوحى الله إليهم عن طريق ملائكته.

أمـا الإيمان بالقدر فـقـد رأينا فى حـديثنا القريـب عنه كيف أنه مـتـصل بإيماننا بوحدانيـة الله مبـاشرة، لأنه هو الإجابـة المباشرة على هذا الـسؤال: هل هناك فى الكون من يشترك مع الله فى تدبير شئونه وإجراء أحداثه، أم أنه هو الله وحده؟

وبذلك يتضح لنا الترابط جليًا بين هذه الأركان كلها فى مجال الاعتقاد.

٢ ـ وفى مجال العمل:

قلنا: إن العـقيـدة تشمل العـمل للدنيـا والعمل للآخـرة فى ذات الوقت، وهنا نقول: إن من خصائص هذه العقيدة أنها لا تفصل بين العمل للدنيا والعمل للآخرة.

فليس هناك فى الإسلام عمل هو للدنيا وحـدها، وعمل هو للآخرة وحدها! إنما الأعمال كلها للدنيا والآخرة فى وقت واحد.

العبادات التى يُظَنّ أنها للآخرة وحدها، كلها ذات مـقتضى متصل بالحياة الدنيا: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أى هنا فى الحياة الدنيا:

وهكذا فى سائر العبادات هى للآخرة وفى ذات الوقت لها غاية تتحقق هنا فى الأرض.

والأعمال التى يظن أنها للدنيا وحدهـا من جانب آخر كالطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس وعمـارة الأرض. . إلخ كلها تعمل فى الدنيـا ولكن يشترط فيـها شروط تربطها بالآخرة. يشترط فيها التزام الحلال والحرام والالتزام بأمر الله من أجل الثـواب أو العـقاب الذى يتـرتب على ذلك فى الآخـرة. وكلهـا فى نظر الإسـلام «عبادة» متى ما روعى فيهـا الالتزام بأمر الله، وتوجه بها الإنسان إلى الله. بل هى «العبـادة» التى تشـير إليـهـا الآية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والآيتان الأخريان: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وبذلك تتصل الدنيا والآخرة وتترابط فى عقيدة الإسلام.

٣ ـ وفى مجال الكائن البشرى:

قلنا: إنها تشمل حركة جسمه وتفكر عقله وانطلاقة روحه. ولكن هذه ليست مستقلة بعضها عن بعض. صحيح أن هناك ساعة تغلب فيها حركة الجسم كالطعام والشراب والجنس وساعة يغلب فيها تفكر العقل كساعات التأمل أو ساعات التفكير فى شأن من شئون العلم أو العمل، وساعة تغلب فيها انطلاقة الروح كساعة التعبد.

ولكنّ الإسلام لا يدع واحدة من هذه تنفصل انفصالاً كاملاً بحيث تنقطع صلتها عن الباقيات.

فى الطعام والشراب والجنس.. إلخ، يتحرى الإنسان الحرام والحلال ويذكر اسم الله. فلا تعود حركة جسد مستقلة!

وفى التفكر كذلك يتوقى الإنسان التفكير الشرير ويتحرى التفكير الخير، ويتقى الله. فلا يعود تفكراً عقليًا خالصًا!

وفى العبادة الإسلامية يتحرك الجسد ويعمل العقل مع انطلاقة الروح. وخذ الصلاة مثلاً، إنها ليست انطلاقة روح مستقلة، إنما يشارك فيها الجسم بالقيام والقعود والركوع والسجود، ويشارك فيها الفكر بالتدبر فى آيات الله، ويقول الرسول ﷺ: «لَيسَ لَكَ مِنْ صَلاتكَ إلاّ ما وَعَيْتَ».

وبذلك يترابط الكائن البشرى كله فى أداء متطلبات هذه العقيدة فلا ينفصل جسمه عن عقله أو عن روحه!

٤ ـ وفى مجال المجموع البشرى:

قلنا: إنها تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة.. ونقول هنا: إن هذه العقيدة لا تأخذ أيًا من هذه بمعزل عن الأخرى. فهى لا تنشئ الفرد الصالح بمعايير، والجماعة الصالحة بمعايير أخرى. إنما هى ذات المعايير وإن اختلفت التكاليف بين الفرد والجماعة.

المعايـير هى الإيمان بالله وتقـوى الله والالتزام بما أنزل الله. ثم تكون بـعد ذلك تكاليف يقوم بهـا الفرد بمفرده وتكاليف أخرى تـقوم بها الجمـاعة مجتمـعة. ولكن يلتقى الفـرد والمجموع معًـا على أسس واحدة وتربية ذات اتجاه مـوحد. ومن ثمَّ لا تفترق الأمة ـ حين تلتقى ـ إلى طوائف وشيـع متنافرة كل منها يعمل فى اتجاه، ولا إلى فرد متخاصم مع المجموع. ولا تتحول كما يحدث فى الجاهليتين المعاصرتين فى الغرب والشرق إلى فرد طاغ ومجموع مفكك، أو مجموع طاغ وفرد مسحوق!

وكذلك تلتقى الأمة والدولة على أمر واحد، هو عبادة الله والحكم بما أنزل الله، وهو أمر من صلب الاعتقـاد، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو مقـتضى الإيمان بالله لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فيحدث الترابط بينهما والاتفاق.

٥ ـ وفى مجال العلاقات:

قلنا: إنها تشـمل علاقة الإنسان بربـه وعلاقته بنفـسه وعلاقتـه بالآخرين. وهنا نقول: إن هذه كلها تترابط وتلتقى عن طريق المحور المشترك فيها جميعًا وهو الإيمان بالله وعبادته. فعلاقة الإنسان بربه هى الإيمان والعبادة، وعلاقته بنفسه هى تزكيتها، والتزكية تتم عن طريق الإيمان والعبادة، وعـن طريق الالتزام بأوامر الله وهو مقتضى الإيمان والعبـادة. وعلاقته (أو عـلاقاته) بغيـره تتم كلها عن طريق تنفيـذ أوامر الله والتحاكم إلى ما أنزل الله.

وبذلك تنتظم العلاقات كلها فى سلك واحد قوامه الإيمان بالله..

وهكذا يبدو التـرابط والتكامل بين أركان هذه العقـيدة على جمـيع المحاور وفى جميع المجالات.

ثالثًا: التوازن:

مع شمول هذه العقيدة وترابطها فهى تتسم أيضًا بالتوازن.

ويبدو هذا التوازن كذلك على مجموعة من المحاور المختلفة ومجموعة من المجالات:

١ - توازن بين الروح والجسد أو عالم المعنويات وعالم الحس.

٢ - توازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

٣ - توازن بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب.

٤ - توازن بين جوانب الحياة المختلفة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. إلخ.

ولنقل كلمة سريعة عن كل مجال من هذه المجالات:

١ - الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. وهناك توازن دقيق بين عنصريه المكونين له، يختل إذا أعطينا أحدهما من العناية والالتفات أكثر من حقه. والجاهليات دائمًا تختل فى هذا الأمر فتؤكد على جانب الروح وحدها كالهندوكية والبوذية أو جانب الجسد وحده كالجاهلية المعاصرة فى شرق أوربا وغربها سواء.

ومن خصائص العقيدة الإسلامية أنها توازن بينهما التوازن الصحيح. فمن ناحية هى تمزج بين عالم الجسد وعالم الروح وتشركهما معًا فى مجال العمل ومجال التعبد سواء، ومن ناحية أخرى تعطى كلاً منهما حقه. فلا تشغل الإنسان بعالم الحس وتكبت روحه كالجاهلية المعاصرة، ولا تشغله بأمور روحه على حساب كيانه المادي ومطالب جسده كالجاهلية الهندوكية والبوذية: **«ألا إنى لأخشاكُمْ لله ولكنِّى أصُومُ وأُفْطر، وأقومُ وأنام وأتزوَّج النساء، فمن رَغبَ عن سُنّتى فليس منِّى»**(١). وتقوم الحَضارة الإسلامية المنبثقة من العقيدة على أَساس الجانب المادى والروحى سواء.

٢ - يتطلب الإسلام الإيمان بالغيب، لأنه عن طريقه يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكنه لا يطلب منه أن يهمل عالم الشهود. بل إنه فى عرضه لحقائق العقيدة يكثر من الإشارة إلى آيات الله فى الكون لكى يتدبرها الإنسان ويصل عن طريق تدبرها إلى الإيمان بالله. ومن هنا لا يلجأ الإسلام إلى الغيبوية الروحية التى يقع فيها بعض المتطرفين فى العبادة زعمًا منهم أنهم يستغنون بشهود الذات الإلهية عن

---

(١) متفق عليه.

شـهود الكـون الذى خلقه اللـه، وكذلك لا يقـبل أن ينشـغل الإنسـان بالكون المشهـود عن عالم الغيـب فيقطع صلتـه بالله واليوم الآخر كـما تصنع جـاهلية اليوم.

٣ ـ قلنا من قبل إن الإسلام لا يفصل بين الدنيا والآخرة، ونقول هنا: إن هذا الربط ذاته هو الذى يوازن بين الدنيا والآخرة فى هذه العقـيدة، إذ يحدث عدم التوازن حين تنفصل الدنيا عن الآخرة فى حس الإنسان، فيـقوم بأعمال على أنها للدنيا وحدها منفصلة عن الآخـرة، وأعمال أخرى على أنها للآخـرة وحدها منفصلة عن الدنيا، عـندئذ لابد أن يحدث الاختـلال فى حسـه فتغلب مـجمـوعة من الأعمـال على الأخرى. فإمـا أن تجذبه الدنيا رويدًا رويدًا حـتى ينسى الآخرة، وإما أن تجذبه الآخرة رويدًا رويدًا حتى ينسـى الدنيا. وكلاهما فى نظر الإسلام اختلال. فـالأول ينشغل بالسعى وراء الرزق والحـصول على أكبر قـدر من متاع الدنيا، والآخر يزهد فى مـتاع الدنيا وينشغل عن طلب الرزق وتعـمير الأرض. ويصبح كل منهما مقصرًا وآثمًا فى حق الله.

إنما يحدث التوازن الذى تشير إليه الآية: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧].

حين ترتبط الدنيا والآخرة فى حس الإنسان فيعمل للآخرة وهو يعمل للدنيا فى ذات الوقت. فلا يهمل العبادة ولا يهمل عمارة الأرض.

٤ ـ تحدثنا فى باب الإيمان بالقدر عن التوازن فى حس المسلم بين الإيمان بالقدر وبين الأخذ بالأسبـاب. وهو من أجمل خصائص العـقيدة الإسلامـية. إن المتواكلين يزعمون أنهم يتوكلون على الله ثم يهملون الأخذ بالأسبـاب جملة فيصيبهم ما يصيبهم من فقر ومرض وجهل وعجز وهوان فى الأرض. وإن الجاهلية الأوربية من جانب آخـر تأخذ بالأسـباب منقطعـة عن الله وقدره، فـتنتج إنتاجًـا ماديًا ضخمًا وتكفر فى ذات الوقت وتنحط أخلاقهـا وتهبط إنسانيتها إلى الحضيض، ثم يصيبها ما يصيبها من قلق واضطراب وأمراض عصبية ونفسية وجنون وانتحار وضياع لأنها تفقد الطمأنينة التى يجدها المؤمن لذكر الله ولقدر الله.

والإسلام يوازن موازنـة جميلة بين هذين الحدين المتطرفين، فـهو يعلم الناس أن هناك سننا ربانية يدير الله بهـا الكون المادى والحياة البشـرية. وأنه لابد من اتباع

هذه السنن ومجاراتها إذا رغبنا فى الوصول إلى نتـائج معينة، ومقتضى ذلك هو الأخـذ بـالأسـبـاب. ولـكنه فى الوقت ذاته يـربى المؤمن على ألا يتـكل على الأسباب الظاهرة فـيحبط عمله، إنما يظل قـلبه موصولا بالله، متطـلعا إليه أن ينجح مسعاه ويوصله إلى النتائج المرغـوبة. وبذلك يتوازن الإنسان فى سعيه فى الأرضى لا يهمل الأسباب ويتواكل، ولا يكف عن التطلع إلى قدر الله.

٥ ـ أخيرًا نقول: إن هذه العقيدة توازن بين جوانب الحياة الإنسانية المختلفة فلا يطغى منهـا جـانب على جـانب. فكمـا أن الجـانب الروحى لا يطغى على الجـانب المادى، فكذلك لا يطغى الجانب السياسى على الاقتصادى، ولا الاقتصادى على الخلقى وهكذا. بل تتوازن جوانب الحياة كلهـا على محور العقيدة الرئيس الذى مقتـضاه الإيمان بالله والالتزام بما أنزل الله، فتـسير كلها متـوازية متوازنة فى آنٍ واحد.

* * *

(٢)
أثرها فى الحياة الإنسانية

فى إمكاننا أن نحكم على أثر هذه العقيدة فى الحياة الإنسانية من الواقع التاريخى للأمة الإسلاميـة التى اعتنقتها وعاشت بها فى دنيـا الواقع. فإن من فضل الله على هذه الرسالة التى ارتضاها الله للمسلمين دينًا أن منحها واقـعًا تاريخيًا ضخمًا طبقت فيه فى واقع الحيـاة، فلم تعد مجرد شعارات، ولا مُـثُلاً خيالية، بل واقعًـا مشهودًا يحفظه التاريخ.

ويكفى من آثارها أن تكون قد أخـرجت «خَيْرَ أُمة أُخْـرِجَتْ للنّاس» فى التاريخ البشـرى كله، لأنها طبقت القـرآن فى واقع حياتها، وأصـبحت ترجمـانًا له بالقدر الذى يتيسّر للبشر أن يبلغوه فى حدود بشريتهم.

لذلك يكفينا أن ندرس الـواقع التاريخى لهذه الأمة خـاصة فى أجيـالها الأولى، وجيلـها الأول على وجه أخص، لـنتعرف على أثـر العقيـدة الإسلامـية فى الحـياة الإنسانية فى صورة واقعية.

إن أبرز ما فى هذه العقيدة هو التوحيد: ويتضح لنا من دراسة الواقع التاريخى أن التوحيد ذو أثر ضخم فى حياة الإنسان حينما يعيشه واقعًا فكريًا وشعوريًا وسلوكيًا.

وأن الإنسان يستطيع حينما يتشبع بالتوحيد على هذه الصورة أن يبذل من الجهد وأن يأتى من الأعمال ما لا يستطيعه الإنسان العادى الخاوى من العقيدة.

لو تصورنا جهازًا ما أخذ شحنته الكهربية المضبوطة من مصدر صاف لا خلل فيه ولا اضطراب، فقام بمهمته على الوجه الأكمل.. إن هذه أقرب صورة للإنسان المؤمن بعقيدة التوحيد الصافية إيمانًا صحيحًا. إنه يأخذ «شحنته» الكاملة من العقيدة، فيعمل بطاقته الكاملة ويؤدى مهمته على الوجه الأكمل، لأنه «فى أحسن تقويم».

إن النماذج الفريدة التى صنعها الإسلام فى جيله الأول على وجه الخصوص، هى نماذج فذة بالنسبة للتاريخ البشرى كله. وإنها ليست محصورة فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم، ولا فى تلك الأسماء اللامعة التى يحفظها التاريخ - وإن كانت هذه الأسماء فى قمة البشرية جميعًا - ولكنها تشمل ألوفًا وألوفًا غيرهم، لم يتسع التاريخ لذكر أسمائهم واحدًا واحدًا، أو قل: إن تاريخ هذه الأمة كان من الثراء بحيث اكتفى المؤرخون بذكر القمم الشاهقة واكتفوا بإشارات عابرة إلى القمم الأخرى لأنها كانت شيئًا عاديًا فى نظرهم بالقياس إلى أثر هذه العقيدة فى النفوس!

كيف نقول فى ذلك الجندى الذى خرج يقاتل فى سبيل الله وفى يده تمرات فيقول: لئن بقيت حتى آكلها كلها إن هذا لأمر يطول! فيلقى بها ليستشهد فى سبيل الله، وينال الشهادة بالفعل؟

وكيف نقول فى ذلك المقاتل - فى حرب فارس - الذى لبس درعه فإذا فيه ثلمة صغيرة فينبهه إخوانه إليها ويدعونه إلى تغيير الدرع. فيقول باسمًا: إنى لكريم على الله إن أصبت من هذا الموضع! فيدخل المعركة فيصيبه سهم فيدخل فى الثلمة.. فيستشهد وهو قرير العين شاعر بأنه كريم على الله لأنه لبى رغبته فى الشهادة!

وكيف نقول فى الذين تجمعوا حول تمرات يأكلونها هى كل ما يملكون من الزاد فيدخل عليهم ضيف فيطفئ صاحب البيت المصباح ويقدم له التمرات، حتى لا يكتشف الضيف أنها كل الزاد الموجود فيمتنع عن الطعام، فينزل الله فيهم قوله:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

ألوف وألوف من النماذج فى كل اتجاه، كلها قمم على أعلى مستوى بلغته البشرية.

ولنحاول هنا أن نلخص أبرز آثار العقيدة فى حياة الأمة المسلمة فى نقاط محدودة، ثم نعرّج على بعض آثارها فى بقية البشرية ممن لم يعتنقوا هذا الدين.

١ ـ عمق الشعور بتقوى الله وخشيته، والخوف من حسابه يوم القيامة، وما ترتب على ذلك من انضباط السلوك وحساسية الضمير تجاه مسئولية الإنسان عن أعماله. ولنأخذ نموذجًا لذلك موقف عمر رضى الله عنه من الدريهمات التى كان يتقاضاها من بيت المال، وقولته الشهيرة: «لو عثرت بغلة بصنعاء لكنت مسئولاً عنها لِمَ لَمْ أسوِّ لها الطريق»!

٢ ـ صدق الجهاد فى سبيل الله بالأنفس والأموال، وما ترتب على ذلك من التمكين لهذا الدين فى الأرض، والعجائب التى تكررت فى الفتوح الإسلامية من انتصار الفئة القليلة على أضعاف أضعافها فى العدد والعدة.

٣ ـ تقرير مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يترتب عليه من منع انتشار الفساد فى الأرض.

٤ ـ تقرير مبدأ التكافل الاجتماعى فى الأمة، وما يترتب عليه من تماسك هذه الأمة وتعاونها على الخير وخلوها من الضغائن والأحقاد التى تفتت الأمم وتذهب ريحها، وانتشار روح البر فى المجتمع الإسلامى مما تبدّى فى الأوقاف (الأحباس) الكثيرة التى وقفها المسلمون لأعمال البر.

٥ ـ الوفاء بالمواثيق وهى خصيصة نادرة فى التاريخ البشرى لم تتوفر لأحدٍ كما توفرت للأمة الإسلامية.

٦ ـ تطبيق العدل الربانى فى واقع الأرض مما لا مثيل له فى تاريخ الشعوب، وخاصة بين المسلمين وغير المسلمين، وبين الفاتحين والبلاد المفتوحة.

٧ - التسامح الدينى مع الطوائف غير المسلمة فى ظل الحكم الإسلامى.

٨ - المحافظة على الأخلاق فى المجتمع الإسلامى حتى حين انحرف المسلمون درجات من الانحراف، فقد ظلت نسبة الفاحشة فيهم أقل ما عرفته البشرية فى أى شعب من شعوبها، وكذلك الخمر. وظلت التقاليد الإسلامية والمحافظة على الأعراض سارية فى المجتمع إلى عهد جد قريب[1].

٩ - النشاط الحركى الفذ الذى نشر الدعوة فى أرجاء واسعة من الأرض فى زمن شديد القصر، ونشر معها اللسان العربى.

١٠ - الحركة العلمية الضخمة التى قام بها المسلمون بتوجيهات القرآن وتوجيهات الرسول ﷺ ، وأبرز ما فيها تحويل العلم من نظريات إلى منهج تجريبى قائم على المشاهدة والملاحظة والتجربة. وتحويله من النظرة الذاتية التى كانت تمثلها الفلسفة إلى النظرية الموضوعية.

١١ - الحركة الحضارية الإسلامية التى امتدت فى جميع نواحى الحياة، وأبرز ما فيها أنها حضارة روحية مادية فى ذات الوقت لا تفصل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، ولا تفصل بين الدنيا والآخرة.

١٢ - تحقيق معنى «الأمة» فى واقع الأرض، الأمة التى تلتقى على العقيدة فى الله قبل أن تلتقى على الأرض واللغة والجنس والمصالح والتى جعلت المسلم ينتقل فى بلاد العالم الإسلامى من المحيط إلى المحيط فلا يحس بالغربة فى أى بلد من بلاد المسلمين رغم اختلاف الحكومات وتطاحنها فى كثير من الأحيان!

تلك هى أبرز الآثار الواقعية التى نشأت عن هذه العقيدة داخل المجتمع الإسلامى، وكلها نابع من تلك الانطلاقة الضخمة التى انطلقها المسلمون بعد أن تشبعوا بالعقيدة وتوجيهاتها وتطبيقاتها السلوكية العملية. ونستطيع أن نستخلص منها أن هذه العقيدة تنتشئ «الإنسان الصالح» وهو الإنسان العابد لله بالمعنى الواسع للعبادة، الذى يشمل - إلى جانب شعائر التبعد - كل عملٍ وكل فكرٍ وكلِ شعور يراعى فيه وجه الله ويلتزم فيه بأمر الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

---

(١) حتى تخلت بعض الشعوب الإسلامية عن إسلامها، ودخلت فى الجاهلية المعاصرة باسم التقدم والرقى.

الإنسان المستعلى على شهوات الأرض. المتحرر بعبوديته الحقة لله من كل عبودية لأحد أو لشىء سواه، المتوازن فى سلوكه وفى فكره وفى شعوره الذى يعمر الأرض بجهده وهو يتطلع إلى رضوان الله.

أما آثار تلك العقيدة فى حياة البشر عامة، ممن لم يعتنقوا الإسلام، بل ممن حاربوه حربًا شعواء فى الحروب الصليبية وغيرها، فيمكن تتبع بعضها فيما تعلمته أوربا من الإسلام والمسلمين.

فإن أوربا ـ فى عصورها الوسطى المظلمة ـ كانت واقعة فى الجهالة العلمية التى حرص عليها حكام شعوبها كما حرصت عليها الكنيسة ليظل سلطانها الرهيب قائمًا فى قلوب الناس وأرواحهم، وكانت واقعة تحت وطأة الإقطاع، ممزقة لا رباط بينها ـ وإن كانت كلها مسيحية ـ لأن السيد الإقطاعى يمثل فى إقطاعيته السلطان المطلق، فهو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية فى وقت واحد. وواقعة من جهة أخرى تحت سطوة البابوية التى تستعبد أرواح الناس وأفكارهم وتأكل جهدهم كما تأكل أموالهم بالباطل: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وبينما أوربا فى حالتها هذه التقت بالإسلام يحيط بها من كل جانب. التقت به سلميًا فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها، والتقت به حربيًا فى الحروب الصليبية التى استغرقت حوالى قرنين من الزمان.

ثم كان من نتيجة هذا اللقاء السلمى والحربى تلك الآثار فى أوربا:

١ ـ أخذت أوربا العلوم الإسلامية كلها، وبصفة خاصة المنهج التجريبى فى البحث العلمى وأقامت عليه نهضتها العلمية الحاضرة.

٢ ـ أخذت معنى «الأمة» التى يربطها رباط واحد وتحكمها شريعة واحدة ولكنها لم تستطع إقامتها على أساس العقيدة لفساد العقيدة عندهم وفساد القائمين عليها من الكهنوت، فأقاموها على شكل قوميات، هى الأساس الذى قامت عليه دول الغرب الحالية.

٣ ـ حاولت إصلاح الفساد العقدى والكنسى فى حركات كالفن ومارتن لوثر

وغيرهمـا وإن كانت لم تحقق إلا إصلاحـات جزئية فى داخل الفسـاد الشامل، وذلك لأنها رفضت الإسلام ابتداء وهو الطريق الوحيد للإصلاح الحقيقى.

٤ ـ أخذت نظام الجامعات الإسلامية وأنشأت جامعاتها على غراره.

٥ ـ قامت فيها حركات فروسيـة تحاول أن تقلد ما وجدوه عند المسلمين من الشهامة والنجدة والأخلاق العالية.

٦ ـ بدأت فكرة «الدسـاتير» التى تشـمل أسسًـا واضحـة للحكم غيـر هوى الحكام وشهواتهم الشخـصية. واقتبست أوربا كثيرًا من الفـقه الإسلامى. ومما يذكر فى هذا الصدد أن القـانون المدنى الفرنسى مـأخوذ معظمـه من فقه مـالك لأنه كان أقرب المذاهب إليهم فى الشمال الإفريقى.

٧ ـ تأثرت أوربا بالنظم المعمارية الإسلامية، وقلدتها فى بعـض مبانيها الدينية وغير الدينية، كما تأثرت بالقيم الحضارية الإسلامية بصفة عامة (خذ مثالاً بسيطًا على ذلك إدخال الحمامات فى البيـوت وتنظيف الأبدان بالاستحمام. ولم تكن أوربا تمارسه حتى التقت بالمسلمين).

٨ ـ استـفادت أوربا من الكشوف الجغـرافية والخرائط الإسـلامية فبـدأت تنساح فى الأرض على هدى هذه الخرائط.

وباختـصار، فإن أوربا قد أخـذت بذور نهضتـها الحالية كلهـا من الإسلام، وإن كانت جمـدت أثر الإسلام والمسلمين فى حياتهـا، ورفضت فى عصبيـة جاهلية أن تعتنق الإسلام!

* * *

واليوم ننـظر حولنا فى العـالم الإسلامى فلا نكاد نرى أثـرًا للعقيـدة الإسلامـية الصحيحة! فهل كفّت العقيدة الإسلامية عن التأثير؟!

كلا... إنهـا لا تفقد فـعاليتهـا بحال من الأحوال. فـهى المنهج الربانى المؤثر، الذى تستقيم به الحياة تلقائيًا وتنطلق تبذل نشاطها المثمر السليم.

إنما المسألة أن هذه العقـيدة لا تعمل إلا بجهد يبذله البشـر فى ذات أنفسهم وفى واقع حياتهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وتلك سنة ربانية لا سبيل إلى تغـييرها. إنه بغير جهد يبذله البـشر، وبغيراتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتيـجة لا تتغير أحوال الناس. والعقيـدة الإسلامية هى الدافع

الذى لا يشبهه دافع آخر فى تسيير دفة الحياة البشرية. ولكنها لا تدفع إلا من يعتنقها ويقبل عليها ويعزم على تطبيقها فى واقع حياته.

تصوّر مولداً للطاقة الكهربية، مستعداً أبداً للعمل ولكن لا أحد يقوم بتشغيله. أو تصوّره يعمل ولكن لا أحد يذهب إليه ليستمد الطاقة منه! هل نقول يومئذ إنه كفّ عن التأثير؟! أم نقول إن الناس كفوا عن استخدامه؟

هذا هو مثل العقيدة الإسلامية بين الذين يحملون اليوم أسماء المسلمين دون أن يكون فى حياتهم رصيد واقعىّ من الإسلام، يملكون خير الدنيا والآخرة ولكنهم لا يستخدمونه ولا يتوجهون إليه. فتنحدر حياتهم إلى الحضيض. ثم إذا فكروا أن يقوموا من حضيضهم لم يتجهوا إلى من ينتشلهم حقًا، إنما اتجهوا إلى من يزيدهم ارتكاسًا وهُوِيًا إلى الحضيض!

إن المسلمين فى حاجة لأن يراجعوا موقفهم من ربهم ومن عقيدتهم التى ارتضاها الله لهم.. فى حاجة لأن يعودوا إلى حقيقة الإسلام، ليأخذوا منه الدفعة التى تسير حياتهم فى الطريق الصحيح، بدلاً من أن يتخبطوا ذات اليمين وذات الشمال كالذى يتخبطه الشيطان من المسّ!

وإن حركات البعث الإسلامى القائمة اليوم فى الشباب المسلم فى شتى بقاع الأرض لهى بشير الخير بالنسبة للمستقبل، وإن كان هذا المستقبل يحتاج إلى جهد ضخم لتأمينه.

وسيُنفذ الله وعده ووعد رسوله بالتمكين لهذا الدين فى الأرض من جديد. ولن يقف المتخاذلون والمنسلخون من دينهم فى طريق وعد الله إنما ينطبق عليهم النذير الربانى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد:٣٨].

أما الآخرون الذين يتمسكون بهذا الدين ويجاهدون لتمكينه فى الأرض فسوف ينالهم وعد الله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور:٥٥].

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وما التوفيق إلا من عند الله.

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٢٠٠١/٩٠٤٨
الترقيم الدولى 3 - 0724 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)